سلسلة الرسائل الجامعية

الحِوَارُ

آدابُه وَضوابطه
في ضَوءِ الكِتابِ وَالسُّنّة

إعداد
يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي

دار التربية والتراث
مكة المكرمة

رمادي للنشر
الدمام

هذه الرسالة

بحث تقدم به المؤلف إلى قسم الدراسات العليا بكلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى في مكة المكرمة لنيل درجة الماجستير عام ١٤١٣ هـ تحت إشراف الدكتور/ محمد ولد سيدي ولد حبيب .

وقد تحصّل على درجة الشرف بتقدير ممتاز

الحِوَارُ

آدابُه وَضَوابطه

في ضَوءِ الكِتابِ وَالسُّنّة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشر

دار التربية والتراث
مكة المكرمة - ص.ب: ٨٨٨٤

رمادي للنشر
ص.ب: ٧٤٨٦ - الدمام ٣١٤٦٢

توزيع

مؤسسة المؤتمن

ص.ب: ٦٩٧٨٦ - الرياض: ١١٥٥٧
الرياض - هاتف: ٤٦٤٦٦٨٨
الدمام - هاتف: ٨٢٦٤٢٨٢
القصيم - هاتف: ٣٦٤٤٨١٥
جدة - هاتف: ٦٨٧٣٥٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد:

فلا يزال الوحي المنزل ـ الكتاب والسنة ـ دائم لا ينضب معينه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تقف عن حد فوائده، ولا ينتهي البحث فيه والاستنباط منه، ذلكم أنه من عند الله الباقي الذي لا يحول ولا يزول، ولأنه ـ أي الوحي ـ صالح لكل زمان ومكان، ولا تزال الأيام والدهور تثبت ذلك وتؤكده، وتدل عليه وتؤيده.

فسبحان الله! ما من قضية ولا حادثة، ولا مسألة ولا مشكلة، إلا وبيانها في الكتاب والسنة ـ بالقول أو بالفعل ـ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

ومن جرب العيش في ظل القرآن، تلاوة وتدبراً، وأمعن النظر في سنة رسول الله ﷺ تفهماً وتفكراً، وجد مصداقية هذه الآية ولا بد، ولقد أحسن أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ في التعبير عن ذلك حين قال: (لقد تركنَا

(١) النحل: ٨٩.

رسولُ اللهِ ﷺ وما يتقَلبُ في السّمَاءِ طائرٌ إلاَّ ذَكَرَناَ مِنْه عِلْماً)[1]

وبحمد الله فإن منهج هذا الدين واضح كل الوضوح، فقد تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، فلا طلاسم ولا غموض فيه، سواء في جانب العقيدة والإيمان، أو الدعوة والعبادة، أو السلوك والأخلاق، أو النظر والاستدلال، أو غيرها.

ـ وحيث إن الحوار [وهو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر بصورة متكافئة ويغلب عليه الهدوء والرغبة في الوصول إلى الحق والبعد عن التعصب والخصومة[2]

حيث إنه مما يدخل دخولاً أصلياً تحت منهج الدعوة، وحيث إن له أصولاً وضوابط وآداباً تدخل ضمن منهج السلوك والأخلاق، ونظراً لدور الحوار وأهميته، من حيث كونه:

١ ـ وسيلة ناجحة في دعوة الناس إلى هذا الدين القويم.

٢ ـ طريق مختصر لتوحيد الأمة الإسلامية، وتقريب وجهات نظر علمائها ودعاتها.

٣ ـ سبيل للقضاء على كثير من الخلافات والحزازات القائمة بين فئات مختلفة من المسلمين.

٤ـ فرصة سانحة للدفاع عن الدين ورد شبهات الطاعنين.

إلى غير ذلك من المهام والوظائف، والثمرات والفوائد، التي يمكن أن نجنيها عن طريق الحوار.

وحيث إن كل تلك المهام لا يمكن تحقيقها إلا بقواعد وأصول عامة، وآداب وأخلاق رفيعة، مستنبطة من الكتاب والسنة تساعد في نجاح

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٥/ ١٦٢).

(٢) سيأتي مبحث مستقل للتعريفات وشرحها ـ بإذن الله تعالى.

الحوار، وتحافظ على جوهره، وتضمن استمراره ـ بإذن الله تعالى ـ وتقضي على كثير من سلبياته، وتنقيه من الأخطاء والشوائب، التي يمكن أن تعصف به فتعطله عن سيره، أو تهوي به في مكان سحيق.

وحيث إن جانب «منهجية الحوار: أي الأصول والقواعد الرئيسية العامة» التي تضبط مسار الحوار، سواء كان ذلك بالنصوص الشرعية، أو القواعد الأصولية، أو المقدمات المنطقية، أو الأدلة العقلية، قد بحث قديماً وحديثاً ضمن موضوعات وكتب أصول الفقه والمنطق ونحوها، أو في بحوث مستقلة تتعلق بمناهج الجدل وأصول الاستدلال أو غيرها[1].

لذا فقد آثرت أن يكون موضوع رسالتي هو : «آداب الحوار في ضوء الكتاب والسنة» ليحقق الجانب الآخر في قضية الحوار، إذ هو موضوع يعنى بطريقة إدارة الحوار، والقواعد السلوكية والصفات الخلقية التي ينبغي مراعاتها ـ قبل وأثناء وبعد ـ الحوار، والتي تساهم مساهمة فعالة في تحقيق أهدافه، وتساعد في تقدمه وفلاحه، ـ مع أن هناك تداخلاً وتقارباً بين الجانبين ـ، فقد يكون من الأصول العامة والقواعد المنهجية، ما يصلح أن يكون أدباً للحوار، لتعلقه بالجانب السلوكي، أو بطريقة الحوار أو نحوها، فأذكره هنا في بحثي بهذا الاعتبار؛ (أي باعتبار كونه منهجاً أو أسلوباً أو أصلاً للحوار، يحتاج إلى أن ينضبط بآداب معينة، ويفتقر إلى سلوكيات خاصة، ليقدم من خلالها للطرف الآخر، في قالب من الأدب الرفيع، والخلق الفاضل، فيكون أدعى لقبوله واقتناعه)، وعند ذلك نجمع بين التأثير على العقل بالأصول والمناهج، والتأثير على العاطفة بالآداب والأخلاق والسلوكيات.

---

(١) لا يكاد يخلو كتاب في أصول الفقه إلا وفيه بيان لهذا الجانب، وأما الكتب التي أفردته بالتأليف فمنها: (استخراج الجدال من القرآن لابن الحنبلي، وكتاب الجدل لأبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، تاريخ الجدال لأبي زهرة، آداب البحث والمناظرة للشنقيطي، مناهج الجدل للألمعي، ضوابط المعرفة للميداني، وغيرها).

وحيث إنه قد كثرت ـ في الآونة الأخيرة ـ وسائل طرح موضوع أدب الحوار، واختلفت في ذلك المناهج والطرق، وتعددت الوسائل والأساليب، وتباينت الجهات التي تبنته ـ وفي بعضها نظر وريبة سيأتي التفصيل فيها ـ. فقد أيقنت أن الطريق الأقوم، والسبيل الأفضل ـ ولا شك ـ هو منهج الكتاب والسنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1].

ولذلك فقد حاولت ـ على قدر فهمي وطاقتي ـ أو أؤصل «آداب الحوار» تأصيلاً علمياً شرعياً، وأن أربطه بنصوص الوحي مباشرة، وتحقيقاً لهذا الغرض فقد حرصت على استقراء وتتبع حوارات القرآن، والتدبر والنظر في آياته، ويسر الله لي قراءة «الكتب الستة» ـ كاملة تقريباً ـ، وأن أجمع ما وجدته من الآثار والسير مما له علاقة بأدب الحوار، وبحمد الله فإنه ـ إن شاء الله ـ لم يفتني مما التزمت به ـ القرآن والسنة «الكتب الستة» ـ إلا القليل النادر، أو ما تركته عمداً لضعفه أو تكراره أو وجود ما يغني عنه مما هو أصرح وأوضح.

ولكثرة النصوص والأدلة في الكتاب والسنة في هذا الموضوع، ولكثرة نماذج الحوارات فيهما، فقد آثرت القرب الشديد من نصوص الكتاب والسنة ومعانيها، والبعد عن التفصيلات والتفريعات، والفلسفات ـ من كلام البشر ـ والتي ربما تذهب بروح النص ورونقه، إلا ما لزم من التعليقات اليسيرة والبيان المختصر، وشرح العلماء واستنباطاتهم.

وتبعاً لذلك فقد استخدمت في هذا البحث ما يزيد على (سبعمائة) آية، ـ عدا المكرر ـ وقد تكرر عدد لا بأس به منها، حسب مناسباتها ودلالاتها. كما أني استعملت من السنة ما يزيد على (مائتين وأربعين) حديثاً ـ بدون المكرر ـ وأكثر من (تسعين) أثراً، ومن مجموع تلك الآيات

---

(١) الإسراء: ٩.

والأحاديث والآثار أكثر من (مائتين وأربعين) نموذجاً تتضمن صوراً للحوار وأمثلة له، وهي تتسم بالآداب التي هي موضوع البحث، ولله الحمد والمنة.

وإتماماً للفائدة فقد ذكرت عدداً من القصص والأحداث والأقوال في سير السلف، مما له علاقة بأدب الحوار.

ولكون «أدب الحوار» موضوعاً ـ معاصراً ـ يمد إلى الواقع بصلة كبيرة، بل ربما كان من موضوعات الساعة، فقد استفدت كثيراً من بعض المراجع المعاصرة، ففي التفسير مثلا: «تفسير السعدي»، «في ظلال القرآن»، ونحوهما، كما استفدت من عدد من الأشرطة والمقالات وبعض كتابات وتجارب مفكرين غربيين، حسب ما يقتضيه المقام.

أما عن منهجي في الرسالة فألخصه في النقاط الآتية:

١ ـ أجمع واستقرىء النصوص المتشابهة، المتفرقة في كتاب هذه الأمة وسنة نبيها ﷺ (وأعني بالسنة هنا: «الكتب الستة» وقد أذكر شيئاً من غيرها كالموطأ والمسند وغيرهما، إن لم يكن في هذه الكتب)، وأضيف إليها بعض السير والأحداث والمواقف، مما له علاقة بموضوع الرسالة.

٢ ـ ثم أرتب هذه النصوص ترتيباً موضوعياً حسب الآداب التي تضمنتها ودلالاتها.

٣ ـ ومن ثم أدرس هذه النصوص وأحللها وأستخرج منها ما ظهر لي فيها من «آداب الحوار» مستنيراً بشروح العلماء وأقوالهم في تلك النصوص.

٤ـ ولما كانت النصوص بتلك الكثرة، فقد كثرت عليَّ الآداب المستنبطة منها، حتى زادت على «أربع وخمسين» أدباً، فرأيت اختصارها وجمع بعضها إلى بعض ـ ما أمكن ـ فخلص لدي «أربعون» أدباً في أربعين

مبحثاً ـ إضافة إلى أربعة مباحث عامة ـ فاحترت في تقسيمها وتصنيفها على الأبواب، حتى أشار علي بعض الفضلاء بتقسيم الآداب إلى أربعة أصناف: (نفسية، علمية، لفظية، عامة) بحيث أنظر إلى كل أدب وتعلقه بأقرب صنف من هذه فألحقه به ـ مع وجود تداخل واشتراك كبير بينها ـ فقد يكون الأدب له تعلق بأكثر من جانب، وعندها أذكره في أقرب تلك الأبواب، وقد أشير إليه في الأبواب الأخرى.

٥ـ قسمت الأبواب إلى مباحث، بحيث جعلت كل أدب من الآداب «مبحثاً مستقلاً»، وفي كل مبحث: أذكر المقصود بالأدب وأهميته، ومن ثم أدلته مرتبة بذكر نصوص القرآن أولاً، ثم السنة، ثم الآثار والأقوال والقصص ـ هذا في الغالب ـ وأحياناً قد أخالف هذا الترتيب، مراعاة لدلالة النص وصراحتها، وقربها من القضية التي أكون بصددها.

٦ـ لما وجد بعض التداخل في الأبواب، وشيء من المنازعة في الأدلة، إذ يصلح الدليل أن يكون شاهداً في أكثر من موضع، فقد آثرت أن أبسط الكلام في الأبواب المتقدمة: بذكر النصوص كاملة بتخريجها وأقوال العلماء فيها، وذلك لأكتفي بعد ذلك بالإشارة إلى ما أحتاجه منها في الأبواب المتأخرة.

٧ـ ما أستدل به من أحاديث ـ غالباً ـ هو صحيح مقبول غير مطعون فيه، وأكتفي بتخريجه هنا من الكتب المذكورة، بدون تفصيل أو إطالة الهوامش بذكر الأقوال في كل حديث أو الحكم على الرجال ـ إلا ما لزم منها واحتاج إلى زيادة بيان ـ، وقد اعتمدت في اختياري لهذه الأحاديث المقبولة على تصحيح الأئمة المعتبرين من أصحاب الكتب أنفسهم، وغيرهم كابن حجر والذهبي والهيثمي والحاكم والنووي وغيرهم، ورجعت أيضاً إلى حكم بعض المعاصرين كالألباني وأحمد شاكر والأرناؤوط وغيرهم، جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء.

أما عن أبواب الرسالة ـ بعد هذه المقدمة ـ فهي خمسة أبواب: الأول

منها تمهيدي، وأربعة للآداب وما يتعلق بها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

القسم الأول: تمهيد.

الباب الأول: مدخل إلى الحوار:

المبحث الأول: تعريفات: الحوار، الجدال، المناظرة، المحاجة، ودلالاتها اللغوية والشرعية، والفروق بينها.

المبحث الثاني: أهمية الحوار وأهدافه.

المبحث الثالث: بين يدي الموضوع، وفيه قضايا:

أ ـ أصول وقواعد في موضوع الحوار.

ب ـ حكم الجدل والحوار.

ج ـ أركان الحوار. ويدخل تحته الكلام عن:

١ ـ شروط المحاور المسلم.

٢ ـ شروط المحاور غير المسلم.

٣ ـ موضوعات الحوار.

المبحث الرابع: الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار.

المبحث الخامس: في الكلام عن الخلاف وأنواعه وعلاقته بالحوار، وفيه قضايا:

١ـ علاقة الخلاف بالحوار، وبيان أنه لا حوار إلا مع وجود خلاف حقيقي أو صوري.

٢ـ أنواع الخلاف.

٣ـ أسباب الاختلاف.

٤ـ ضرورة وجود الخلاف مع التحذير منه شرعاً، والتوفيق بين ذلك.

القسم الثاني: «آداب الحوار»

الباب الثاني: آداب الحوار النفسية :

وفيه مباحث:

المباحث الأول: تهيئة الجو المناسب للحوار.

المبحث الثاني: الإخلاص وصدق النية.

المبحث الثالث: الإنصاف والعدل، والتفريق بين الفكرة وصاحبها.

المبحث الرابع: التواضع وحسن الخلق.

البمحث الخامس: الحلم والصبر.

المبحث السادس: الرحمة والشفقة بالخصم، والحرص على إقناعه.

المبحث السابع: العزة والثبات على الحق.

المبحث الثامن: حسن الاستماع.

المبحث التاسع: المحبة رغم الخلاف.

المبحث العاشر: الهدوء والثقة بالنفس.

المبحث الحادي عشر: احترام الطرف الآخر.

المبحث الثاني عشر: الجرأة والغضب لنصرة الحق.

الباب الثالث: آداب الحوار العلمية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: العلم.

المبحث الثاني: البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق.

المبحث الثالث: التدرج والبدء بالأهم.

المبحث الرابع: الدليل.

المبحث الخامس: الوضوح والبيان.

المبحث السادس: الصدق الأمانة.

المبحث السابع: التثبت.

المبحث الثامن: الرد على الشبه بما يناسبها.

المبحث التاسع: ضرب الأمثلة.

المبحث العاشر: العدول عن الإجابة باستخدام المعاريض وأسلوب الحكيم.

المبحث الحادي عشر: تأكيد القضية وتقريرها.

المبحث الثاني عشر: الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ.

المبحث الثالث عشر: الاحتمالات.

المبحث الرابع عشر: التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم.

الباب الرابع: آداب الحوار اللفظية.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: العبارة المناسبة وحسن العتاب.

المبحث الثاني: التذكير والوعظ.

المبحث الثالث: التعريض والتلميح بدل التصريح.

المبحث الرابع: أدب السؤال.

المبحث الخامس: ذكر المبررات عند الاعتراض.

المبحث السادس: طلب الإنظار وعدم الاستعجال.

المبحث السابع: ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق.

المبحث الثامن: مباغتة الخصم وقطع الطريق عليه.

المبحث التاسع: محاذير لفظية.

الباب الخامس: آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الوقت المناسب.

المبحث الثاني: التزام المحاور بما يدعو إليه.

المبحث الثالث: الفراسة وحسن التصرف.

المبحث الرابع: مراعاة الأفهام والعقول.

المبحث الخامس: الحذر والمداراة.

المبحث السادس: توقع المخالفة برغم الاقتناع.

المبحث السابع: أساليب وطرق في الاستدلال.

المبحث الثامن: محاذير عامة.

المبحث التاسع: مناظرات وحوارات: (نماذج تطبيقية).

وبذلك تنتهي مباحث الرسالة، ويتلوها الخاتمة وأهم النتائج ومقترحات، ومن ثم ذكر المراجع والمصادر، ثم فهارس: الآيات والأحاديث والأعلام والموضوعات. وبعد، فإني ـ من خلال بحثي هذا ـ مدين لأناس كُثر، أجد نفسي عاجزاً عن شكرهم، فمنهم من أعانني برأيه ومشورته واقتراحاته، ومنهم من ساعدني بجهده ووقته، ومنهم من ساهم معي بدعائه وتشجيعه، فلجميع أولئك أقول: «جزاكم الله عني خيراً، واسأل الله أن يجعل ما قدمتموه لي في موازين حسناتكم، وبارك الله في أعماركم وأهليكم وأولادكم» وأخص بالشكر والثناء، مشرفي الفاضل: الشيخ الدكتور: محمد الحبيب، الذي أعانني بكل ما ذكرت وزاد عليه بصبره وحلمه، وحسن تعامله ولطفه، فأسأل الله أن يبارك فيه، ويضاعف له الأجر والمثوبة، إنه سميع مجيب.

وأخيراً: فإني لا أدعي ـ في بحثي ـ العصمة والبشر محل النقصان، ـ إلا من عصم الله ـ والخطأ والنسيان من لوازم الإنسان[1]، فما كان من صواب فبتوفيق الكريم المنان، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، و الله هو المستعان، وعليه وحده التكلان.

أسأل الله أن يوفقنا جميعاً للسداد، وأن يثبتنا على الصواب والرشاد، والحمد لله رب العباد.

---

(١) هاتان العبارتان مقتبستان من مقدمة الكرماني في شرحه للبخاري: (١/٦) بتصرف يسير.

القسم الأول: تمهيد

الباب الأول

مدخل إلى الحوار

الباب الأول:
مدخل إلى الحوار

وفيه أذكر مقدمات لا بد منها مما له تعلق بموضوع الحوار وآدابه ومباحثه على النحو الآتي:

المبحث الأول: تعريفات: الحوار، الجدال، المناظرة، المحاجة، ودلالاتها اللغوية والشرعية والفروق بينها.

المبحث الثاني: أهمية الحوار وأهدافه.

المبحث الثالث: بين يدي الموضوع وفيه قضايا:

أ ـ أصول وقواعد في موضوع الحوار.

ب ـ حكم الجدل والحوار.

ج ـ أركان الحوار ويدخل تحته الكلام عن:

١ ـ شروط المحاور المسلم.

٢ ـ شروط المحاور غير المسلم.

٣ ـ موضوعات الحوار.

المبحث الرابع: الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار.

المبحث الخامس: الكلام عن الخلاف وأنواعه وعلاقته بالحوار وفيه قضايا:

١ ـ علاقة الخلاف بالحوار وبيان أنه لا حوار إلا مع وجود خلاف حقيقي أو صوري.

٢ ـ أنواع الخلاف.

٣ ـ أسباب الاختلاف.

٤ ـ ضرورة وجود الخلاف مع التحذير منه شرعاً، والتوفيق بين ذلك.

المبحث الأول:
تعريفات

قبل البدء في الكلام عن آداب الحوار وما يتعلق به، لا بد من التعريف بمعنى الحوار ودلالاته اللغوية والشرعية والتفريق بينه وبين المصطلحات الأخرى المقاربة له، كالجدال، والمناظرة والمحاجة.

أما الحوار: فأصله من الحور (بفتح الحاء وسكون الواو) وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة، وهم يتحاورون أي:

يتراجعون الكلام، واستحار الدار: استنطقها، من الحوار الذي هو الرجوع[1] [قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾[2] أي: يرجع إلى ربه]. وقال في الصحاح: حار يحور حوراً وحؤوراً: رجع، يقال حار بعد ما كار، والمحار: المرجع. وقال الشاعر:

نحن بنو عامر بن ذبيان والناس كهام محارهم للقبور

والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب. ويقال كلمته فما أحار

---

(١) لسان العرب: (٤/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

(٢) الانشقاق: ١٤.

إلي جواباً، وما رجع إلي حويراً ولا حويرة ولا محورة ولا حواراً، أي ما ردَّ جواباً.

واستحاره، أي: استنطقه[1].

وأحار عليه جوابه: رده. وأحرت له جواباً وما أحار بكلمة، والاسم من المحاورة؛ الحوير، تقول: سمع حويرهما وحوارهما[2].

وقال في القاموس المحيط: والمحاورة والمحورة والمحورة الجواب كالحوير والحوار ويكسر، والحيرة والحويرة ومراجعة النطق، وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم. والتحاور التجاوب[3].

إذاً فالحوار هو تراجع الكلام والتجاوب فيه بالمخاطبة والرد. وقد ورد الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط وهي: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾[5] وقوله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[6].

ويظهر من هذه الثلاثة المواضع أن الحوار فيها هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، والأخذ والرد فيه، حيث فسر الطبري قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ في الآيتين بقوله: وهو يخاطبه ويكلمه[7]. وفسر

---

(١) الصحاح للجوهري: (٢/ ٦٣٨ ـ ٦٤٠).
(٢) لسان العرب: (٤/ ٢١٨).
(٣) القاموس: (٢/ ١٦).
(٤) الكهف: ٣٤.
(٥) الكهف: ٣٧.
(٦) المجادلة: ١.
(٧) الطبري: (١٥/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

الزمخشري قوله: ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: أي يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع. وسألته فما أحار كلمة[1].

وكذلك فسر الطبري قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾.

فقال: إن الله سميع لما يتجاوبانه ويتحاورانه[2]. وقال الزمخشري في قوله ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: وقرىء تحاورك: أي تراجعك الكلام، وتجادلك: أي تسائلك[3].

فتبين من ذلك أن الحوار في القرآن أطلق على تراجع الكلام والمخاطبة والمجاوبة فيه.

أما إطلاقه في السنة فقد جاء في عدة أحاديث منها قوله ﷺ: «ومَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أَو قَالَ: عَدُوَّ الله، وليْسَ كَذَلِكَ إلاَّ حَارَ عَلَيْه»[4] قال النووي: حار عليه وهو معنى رجعت عليه أي رجع الكفر عليه، فباء وحار ورجع بمعنى واحد[5]. وفي صحيح مسلم أيضاً: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ، يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ ٱلسفرِ، وكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْنِ، ودَعْوَةِ المَظْلُومِ وَسُوءِ المَنْظَرِ فِيْ ٱلأَهْلِ وَالمَالِ». ومعنى الحور بعد الكون: أي الرجوع من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية»[6].

---

(١) الكشاف: (٢/ ٤٨٤).

(٢) الطبري: (٢٨/ ٦).

(٣) الكشاف: (٤/ ٦٩).

(٤) جزء من حديث رواه مسلم كتاب الإيمان (١/ ٧٩) رقم ١١٢ ورواه أحمد(٥/ ١٦٦).

(٥) شرح النووي: (٢/ ٥٠).

(٦) رواه مسلم: كتاب الحج (٢/ ٩٧٩) رقم ٤٢٦ (وانظر التعليق عليه ص ٩٧٩)، ورواه ابن ماجه كتاب الدعاء (٢/ ١٢٧٩) رقم ٣٨٨٨، والترمذي كتاب الدعوات (٥/ ٤٩٩) رقم ٣٤٣٩، والنسائي كتاب الاستعاذة (٨٥/ ٢٧٢) رقم (٥٤٩٨)، وأحمد (٥/ ٨٢).

وفي البخاري: كانَت بَيْنَ أَبِيْ بَكْر وعمر مُحَاوَرَةٌ... الحديث[1]، وغير ذلك مما ورد فيه مادة حور، ويظهر في جميع تلك المواضع أن أصل إطلاق مادة (حور) على الرجوع ومنه الحوار والمحاورة بمعنى مراجعة الكلام وتداوله، كما تقدم في المعنى اللغوي.

إذاً يتلخص لدينا مما سبق: أن الحوار في اللغة: هو الرجوع والمجاوبة.

وفي الاصطلاح: مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين. وعرفه بعضهم بأنه (نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب) [2] وهو ضرب من الأدب الرفيع، وأسلوب من أساليبه[3].

أما المجادلة : فهي من [الجدل وهو شدة الفتل، وجدلت الحبل أجدله جدلاً إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً، ومنه قيل: لزمام الناقة الجديل][4]. [فالجديل هوالزمام المجدول من آدم ومنه قول امرىء القيس:

وكَشْحٍ لطِيفٍ كالجَدِيْل مُخَصَّرٍ وَساقٍ كأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَّلَلِ

وغلام جادل: مشتد، وجدل الحب في سنبله: قوي. قال الأصمعي: الجادل من ولد الناقة الراشح وهو الذي قوي ومشى مع أمه][5].

---

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير رقم (٤٦٤٠).
(٢) أصول الحوار ـ إصدار الندوة العالمية للشباب ص ٦.
(٣) مناهج الجدل ـ د. زاهر الألمعي ص ٣٠.
(٤) لسان العرب: (١١/١٠٣).
(٥) الصحاح: (٤/١٦٥٣).

[والأجدل: الصقر، صفة غالبة، وأصله من الجدل الذي هو الشدة. والجدالة: الأرض لشدتها، وقيل: هي أرض ذات رمل دقيق. قال الراجز:

قَدْ أَرْكَبُ الْآلَةَ بَعْدَ الْآلَةِ وَأَتْرُكُ العَاجِزَ بِالْجِدَالَةِ][1].

[والجدل ويكسر الذكر الشديد وقصب اليدين والرجلين وكل عضو وكل عظم مؤخر لا يكسر ولا يخلط به غيره][2].

والجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها[3]. [وجادله: أي خاصمه، مجادلة وجدالاً: والاسم الجدل، وهو شدة الخصومة][4] [ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام، والجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة. ويقال: إنه لجدل إذا كان شديد الخصام. وإنه لمجدول وقد جادل][5].

إذاً فأصل مادة الجدل في اللغة تدل على الشدة والقوة، ويقصد بالجدل شدة الخصومة واللدد فيها مع القدرة عليها.

وأما الجدل في الاصطلاح فهو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة[6]. وقال صاحب المصباح المنير ـ بعد أن عرفه لغة ـ: (ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها)[7].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في المجادلة: [وهي في

---

(١) لسان العرب: (١١/ ١٠٤).
(٢) القاموس المحيط: (٣/ ٣٥٧).
(٣) لسان العرب: (١١/ ١٠٥).
(٤) الصحاح: (٤/ ١٦٥٣).
(٥) لسان العرب: (١١/ ١٠٥).
(٦) التعريفات للجرجاني: ص ٧٨.
(٧) المصباح المنير: ص ٣٦.

اصطلاحهم ـ أي المناطقة ـ: المنازعة لا لإظهار الحق بل لإلزام الخصم][1].

لذا فقد ورد لفظ الجدل في القرآن: تسعة وعشرين مرة، كلها في سياق الذم، إلا في ثلاثة مواضع: أحدها في سورة النحل ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[2] والموضع الثاني في سورة العنكبوت: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]، والموضع الثالث في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[4][5].

أما بقية المواضع في القرآن فإما أن تكون في سياق عدم الرضا عن الجدل وإما عدم جدواه أو يفتقد شرطاً أساسياً كطلب الحق، أو يكون بغير علم أو نحوه[6]. ومن الآيات في ذلك: قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[7]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[8].

وقوله أيضاً: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ﴾[9] وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾[10] وغير ذلك من المواضع.

---

(١) آداب البحث والمناظرة: (٢/ ٧٥).
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) العنكبوت: ٤٦.
(٤) المجادلة: ١.
(٥) انظر كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي ص ٥١ ـ ٥٢.
(٦) انظر أصول الحوار ص ٩.
(٧) الكهف: ٥٦.
(٨) الحج: ٨.
(٩) الزخرف: ٥٨.
(١٠) الأنعام: ١٢١.

أما في السنة فقد بوب الأئمة يرحمهم الله في كتبهم بما يدل على كراهية الجدل، إذ إن الأصل فيه الخصومة والشدة، فمن ذلك ما بوب به الإمام أبو داود في سننه في كتاب السنة قال: باب النهي عن الجدال في القرآن وذكر فيه قول النبي ﷺ: «المراء في القرآن كفر»[1] وكذا تبويب ابن ماجه في مقدمة السنن: (باب اجتناب البدع والجدل)، وذكر فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ فقال: «يا عائشة: إِذَا رَأَيْتُم الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِيْه فَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللهُ فَاحذَرُوهُم»[2] وذكر حديث: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعدَ هُدًى إِلَّا أُوتُوا الْجَدَل» ثم تلا هذه الآية ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

فهذه الأحاديث تدل على معنى الجدل بالباطل واللدد في الخصومة، على أنه قد وردت نصوص أخرى أطلقت فيها المجادلة على المحاورة ونحوها.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾[4]، فأطلق الجدال والحوار على شيء واحد وهو مراجعة الكلام بين النبي ﷺ وخولة بنت ثعلبة رضي الله عنها.

ومثله قول النبي ﷺ: «مَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ فِي الحَقِّ يكُونُ لَه فِي الدُّنْيَا، بِأَشَدَّ مُجَادَلَةً مِنْ المُؤمِنين لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلوا

---

(١) أبو داود كتاب السّنة: (٤/١٩٩) رقم ٤٦٠٣.
(٢) ابن ماجه في المقدمة: (١/١٨ـ١٩) رقم ٤٧، وبمعناه: البخاري: التفسير ٤٥٤٧، مسلم: العلم: (٤/٢٠٥٣) رقم ١.
(٣) ابن ماجه في المقدمة: (١/١٩) رقم ٤٨، والترمذي كتاب تفسير القرآن (٥/٣٧٩) رقم ٣٢٥٣.
(٤) المجادلة: ١.

النَّارَ. . . الحديث»[1] فبين الحديث أن المجادلة قد تكون في الحق، وهي عندئذ غير مذمومة.

والخلاصة: إن الجدل لم يؤمر به ولم يمدح في الكتاب أو السنة على إطلاقه، وإنما الممدوح منه ما قيد بالحسنى أو بالحق كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] وقوله: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3].

وإن الأصل في الجدل أنه مذموم ما لم يقيد، كما تدل الآيات والأحاديث التي أطلق فيها.

ومن ذلك تبين الفرق بين الحوار والجدل، إذ إنهما يلتقيان في كونهما حديثاً أو مراجعة للكلام بين طرفين، ويفترقان في أن الجدال فيه لدد في الخصومة، وشدة في الكلام، مع التمسك بالرأي والتعصب له. وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة، بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب ونحوه. فالحوار أعم من الجدل من هذا الوجه، ولذلك لم أختر كلمة الجدل عنواناً للبحث.

أما المناظرة: فهي من النظر وهو: تأمل الشيء بالعين وقد نظرت إلى الشيء. والنظر: الانتظار[4] والتناظر: التقابل، يقال: تناظرت الداران: تقابلتا، ونظر إليك الجبل: قابلك. والنظر: الفكر في الشيء تقدره وتقيسه منك. فالنظر يقع على الأجسام والمعاني: فما كان بالأبصار

---

(١) النسائي في كتاب الإيمان (٨/ ١١٢) رقم ٥٠١٠، ابن ماجه في المقدمة (١/ ٢٣) رقم ٦٠. وانظر صحيح النسائي للألباني رقم (٤٦٣٧).

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) العنكبوت: ٤٦.

(٤) الصحاح (٢/ ٨٣٠).

فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني. والإنظار: التأخير والإمهال.

والمناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه[1].

والتناظر: التراوض في الأمر. ونظيرك: الذي يراوضك وتناظره، وناظره من المناظرة. والنظير: المثل. ويقال: ناظرت فلاناً أي صرت نظيراً له في المخاطبة. وناظرت فلاناً أي جعلته نظيراً له[2].

أما مادة نظر في القرآن فقد جاءت بمعنى التأمل بالعين كما في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾[3] وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾[4] وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[5] وغيرها كثير.

كما جاءت بمعنى التأخير والإمهال كما في قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾[6] وقوله ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[7]، وجاءت بمعنى الفكر والتقدير كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾[8] وكذلك الآيات التي تأمر بالنظر والتأمل في مخلوقات الله كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾﴾[9] وقوله: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾[10] ونحوها. ولم ترد المناظرة في القرآن بمعنى الحوار والجدال، وقد استعملت مادتها في السنة بالمعاني التي ذكرت في القرآن.

---

(١) لسان العرب: (٥/٢١٧).
(٢) نفس المصدر (٥/٢١٩) وانظر القاموس المحيط (٢/ ١٥٠).
(٣) الأنعام: ٩٩.
(٤) البقرة: ٦٩.
(٥) الأعراف: ١٠٨.
(٦) البقرة: ٢٨٠.
(٧) الأحزاب: ٥٣.
(٨) النمل: ٣٣.
(٩) الغاشية: ١٧.
(١) العنكبوت: ٢٠.

والحاصل: أن المعنى الاصطلاحي للمناظرة يرجع إلى النظير والمقابل في المخاطبة والكلام، أو إلى النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب[1]. وعلى المعنى الثاني فهي ممدوحة، وقريبة من معنى الحوار، إلا أن المناظرة أدل في النظر والتفكر، كما أن الحوار أدل في مراجعة الكلام وتداوله[2].

وهناك لفظ **المحاجة** وهو يطلق في اللغة على التخاصم والجدال، ويقال: رجل محجاج أي جدل، والتحاج: التخاصم[3] والحجج: القصد والكف والقدوم والغلبة بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد[4] بخلاف الحجة التي هي: البرهان، تقول حاجه محجة أي غلبه بالحجة. وفي المثل «لج فحج»[5]. والصحيح أن الحجة هي: ما دوفع به الخصم وبمعنى آخر هي: (الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وإنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد)[6].

وقد جاء في القرآن لفظ الحجة أو التحاج عشرين مرة، أطلق بمعنى التخاصم والجدال في بعضها كما في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ...﴾[8] وقوله أيضاً ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾[9].

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني: ص ٢٥، كشف الظنون (١/ ٣٩).
(٢) انظر رسالة الحوار مع أهل الكتاب للباحث خالد القاسم ص ١١٥.
(٣) لسان العرب (٢/ ٢٢٦ـ ٢٢٨).
(٤) القاموس المحيط (١/ ١٨٨) بتصرف.
(٥) الصحاح (١/ ٣٠٤).
(٦) لسان العرب: (٢/ ٢٢٨).
(٧) آل عمران: ٦٦.
(٨) غافر: ٤٧.
(٩) الأنعام: ٨٠.

وجاءت بمعنى البرهان أو ما دفع به الخصم:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2]

وكذا جاءت في السنة بالمعنى الأول في بعض المواضع كما في حديث: «احتج آدم وموسى»[3] وحديث: «تَحَاجَتِ الجَنَّةُ والنَّارُ»[4] وجاءت بالمعنى الثاني في مواضع كما في حديث: «والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيْكَ»[5] وقوله في الحديث: «فَحَجَّ آدَمُ مُوْسَىٰ»[6]. أي غلبه بالحجة والبرهان. فتبين بذلك أن المحاجة تطلق لغة وشرعاً على التخاصم والجدال وهي عندئذ مذمومة، وتطلق الحجة على البرهان والدليل وما يرد به على الخصم، فإن كانت حقاً وصحيحة فهي ممدوحة مطلوبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[7] وإن كانت بالباطل فهي مذمومة كما في قوله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾[8]. مع أن الغالب في إطلاق المحاجة الذم وذلك بالنظر إلى المقصد وهو دفع الخصم بغض النظر عن الحق، وكذا فإن كثيراً من المفسرين يفسر المحاجة بالجدال وكذلك العكس، كما يفسرونها بالخصام.

---

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) الشورى: ١٦.

(٣) البخاري كتاب الأنبياء رقم ٣٤٠٩، مسلم كتاب القدر (٤/ ٢٠٤٢) رقم ١٥، الترمذي كتاب القدر (٤/ ٤٤٤) رقم ٢١٣٤.

(٤) البخاري كتاب التفسير رقم ٤٨٥٠، ومسلم كتاب الجنة (٤/ ٢١٨٦) رقم ٣٦.

(٥) مسلم كتاب الطهارة (١/ ٢٠٣) رقم ١، الترمذي كتاب الدعوات (٥/ ٢٣٧) رقم ٣٥١٧، النسائي كتاب الزكاة (٥/ ٤) رقم ٢٤٣٧.

(٦) تقدم تخريجه آنفاً.

(٧) الأنعام: ٨٣.

(٨) الشورى: ١٦.

فالطبري رحمه الله يقول في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[1] (يعني الذي خاصم إبراهيم... حاجه فخاصمه في ربه)[2] وكذا يقول ابن الجوزي: (حاج بمعنى خاصم)[3]

وفي قوله تعالى ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾[4] يقول الطبري في معنى حاجوك: أي (خاصموك فيه بالباطل)[5] ويقول ابن كثير في الآية نفسها: أي (جادلوك في التوحيد)[6]، ويقول ابن الجوزي أيضاً في نفس الآية: (حاجوك: أي جادلوك وخاصموك)[7] وفي قوله تعالى: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾[8] قال الطبري: (يقول أتجادلونني في توحيدي الله)[9] وقال ابن كثير: (أي: أتجادلوني في أمر الله)[10]. فنجد أن هؤلاء المفسرين فسروا المحاجة بالجدال والمخاصمة، وكان ذلك على وجه الذم والمقت. كما أن بعضهم قد عكس الأمر حين فسر الجدال بالمحاجة كما فعل ذلك ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾[11] حيث قال: (أي: أتحاجوني في هذه الأصنام)[12]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ

---

(١) البقرة: ٢٥٨.
(٢) الطبري (٣/ ٢٣).
(٣) زاد المسير (١/ ٣٠٧).
(٤) آل عمران: ٢٠.
(٥) الطبري: (٣/ ٢١٤).
(٦) ابن كثير: (١/ ٣٥٤).
(٧) زاد المسير(١/ ٣٦٣).
(٨) الأنعام: ٨٠.
(٩) الطبري (٧/ ٢٥٢).
(١٠) ابن كثير (٢/ ١٥٢).
(١١) الأعراف: ٧١.
(١٢) ابن كثير: (٢/ ٢٢٥).

جِدَالَنَا﴾[1] (أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك)[2].

والخلاصة: أن الحجة قد تمدح وقد تذم، وذلك بحسب إطلاقها، لأنها تطلق على البرهان الصحيح، كما تطلق على الشبهة الفاسدة كما سبق بيانه، وأما المحاجة فإنها في الغالب مذمومة إذ القصد منها دفع الخصم ورده، لا لبيان الحق، وهي قريبة من معنى الجدال والمخاصمة.

ومما سبق يتبين علاقة ـ المناظرة والجدال والمحاجة ـ بالحوار، إذ كلها تشترك معه في أنها مراجعة في الكلام ومداولة له بين طرفين، فهي تدخل في معنى الحوار من هذه الجهة، ثم تفترق المناظرة في دلالتها على النظر والتفكر، والجدال والمحاجة في دلالتهما على المخاصمة والمنازعة.

---

(١) هود: ٣٢.

(٢) ابن كثير (٢/ ٤٤٣).

المبحث الثاني:

أهمية الحوار وأهدافه

أولاً ـ أهمية الحوار:

بعد أن تبين لنا معنى الحوار والمقصود به، فقد ظهرت الحاجة إليه وضرورة استعماله، فإذا كان المسلم يسعى لنشر دعوته من خلال وسائل وطرق، فإن وسيلته الأولى المتقدمة على غيرها، هي وسيلة الكلمة والحوار، ذلك أن الكلمة رسالة وأمانة، رسالة يجب أن تقال وتؤدى، وأمانة يجب أن يراعى فيها كل ما من شأنه أن يفي بوصولها، فالكلمة الطيبة سلاح المؤمن في أداء رسالته النبيلة[1]، سواء في ابتداء عرض ودعوة الناس إليها، أو في الدفاع عنها وتفنيد الشبه المثارة حولها، كما أنها سبيل الداعية في التعامل مع أمثاله من الدعاة، خاصة إذا تباينت الآراء، واختلفت وجهات النظر.

لذلك يمكن أن يقال: (إنه بمقدار ما يكون الداعية متمكناً من فنّ الحوار، محيطاً بآدابه وأساليبه، يكون أقدر على النجاح في دعوته، ولذلك كان لا بد من دراسة هذا الموضوع والعناية به وتأصيله، ومن ثم الرجوع إليه بين الحين والآخر، ليحاكم الداعية طريقته في النقاش وأسلوبه في عرض الدعوة، فيحسن أداءه ويصلح أخطاءه، ليتحقق له بذلك الهدف

---

(١) سيأتي إن شاء الله مبحث مستقل حول الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار.

والغاية من كلامه وحواره)[1]. ويمكن معرفة أهمية الموضوع من خلال النقاط التالية:

أولاً: كثرة استعمال الحوار في الكتاب والسنة، وكثرة وقوعه من الأنبياء، بل تكراره واستخدامه في التاريخ كله فلا يخلو منه زمان، ولم يستغن عنه نبي ولا عالم ولا داعية، وكما هو واقع في الدنيا فهو موجود في الآخرة كذلك، بل في الجنة والنار، ففيهما حوار وجدال ومحاجة ومخاصمة، كما سيأتي أمثلته إن شاء الله.

ويكفي دليلاً على هذه الكثرة أني قد أوردت في هذا البحث أكثر من مائتي نص من القرآن والسنة، تعرض نماذج مختلفة من الحوار، هذا عدا ما تركته لتكراره أو للاختصار. ومما يبين كثرة وقوعه من الأنبياء ـ عدا النماذج المذكورة في ثنايا البحث ـ إنكار قوم نوح (عليه السلام) عليه حين قالوا ما ذكره الله عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[2]. كما ينبغي أن يعلم أن الحوار يرد كثيراً وإن لم تستعمل مادته، وإنما قد تستعمل كلمة «قال» التي وردت في القرآن سبعاً وعشرين وخمسمائة مرة[3] ونحوها من الكلمات الدالة على وجود الحوار. ولا بأس من الإشارة إلى بعض نماذجه في القرآن، باختصار وبدون ذكر الآيات لأن كثيراً منها سيأتي إن شاء الله تعالى.

فمن نماذجه ما دار بين الله تعالىٰ وملائكته في موضوع خلق آدم عليه السلام[4]. ومنها ما دار بين موسى «عليه السلام» وقومه في ذبح البقرة[5]

---

(١) أصول الحوار بتصرف: ص ٥.
(٢) هود: ٣٢.
(٣) أصول الحوار: ص ٩.
(٤) البقرة: ٣٠ ـ ٣٢.
(٥) البقرة: ٦٧ ـ ٧١.

ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وإبراهيم «عليه السلام» حين طلب أن يريه كيف يحيي الموتى[١]، ومنها قصة موسى عليه السلام وطلبه رؤية ربه عز وجل[٢]، وقصة عيسى «عليه السلام» مع الحواريين في طلبهم للمائدة[٣]، ومنها حوار صاحب الجنتين في سورة الكهف[٤]، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر في السورة نفسها[٥]، وقصة قارون مع قومه[٦]، وقصة داود مع الخصمين[٧]، وحكاية بلقيس مع قومها ومع سليمان عليه السلام[٨] إضافة إلى حوار نوح وإبراهيم وهود وشعيب وغيرهم عليهم السلام مع أقوامهم، كما في سورة الأعراف وهود والأنبياء والشعراء ونوح وغيرها. والأمثلة كثيرة جداً في الكتاب والسنة، وكلها تدل على أهمية الحوار وخطورته[٩].

وإضافة إلى كثرة استعماله كما تقدم، فإن أثره الإيجابي في الواقع، أكبر دليل على أهميته ودوره، فكم من كافر قد دخل الإسلام عن طريق الحوار، وكم من مبتدع ضال رجع عن بدعته بسبب الحوار والمناظرة، وكم من عاص تاب إلى ربه، ورجع إلى عقله بعد محاورته، ومن ذلك الحوار الذي كان سبباً في إسلام عمر بن الخطاب والحوار الذي كان سبباً في إسلام عمير بن وهب، وحوار ابن عباس مع الخوارج الذي كان سبباً

---

(١) البقرة: ٢٦٠.
(٢) الأعراف: ١٤٣.
(٣) المائدة: ١١٢ ـ ١١٣.
(٤) الكهف: ٣٢ ـ ٤٣.
(٥) الكهف: ٦٦ ـ ٨٢.
(٦) القصص: ٧٦.
(٧) ص: ٢١.
(٨) النمل: ٢٨.
(٩) أصول الحوار: ص ١٠.

في رجوع ألفين منهم عن بدعتهم.. ومن ذلك الحوارات المصيرية الحاسمة الكثيرة التي كانت سبباً في كبت الفتن، وتوحيد الكلمة، وإنهاء النزاع والخلاف كالحوار الذي كان بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، والذي انتهى بمبايعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة، والحوارات التي كانت بين عبد الرحمن بن عوف وأصحاب الشورى بعد وفاة عمر رضي الله عنه، وحوار أبي بكر وعمر في قتال المرتدين، وكذا حوارهما في جمع القرآن وغيرها، هذا عدا المناظرات العلمية الكثيرة التي كانت تجري بين الصحابة أو بين العلماء في مسائل مختلفة، والتي بينت أرجح الأقوال في كثير من تلك المسائل كمناظرة ابن عباس وابن الزبير في حكم المتعة، ومحاورة عائشة وعروة في رؤية النبي ﷺ لربه، وكمناظرة الشافعي وإسحاق في كراء منازل مكة، وكذا مناظرتهما في طهورية جلود الميتة بعد دبغها. ومناظرة الإمام أحمد في خلق القرآن، وكمناظرة الشيخ الكبير لأحمد ابن أبي دؤاد، ومناظرة صاحب الحيدة، وغير ذلك كثير[1]. وعلى كل حال فإن أثر هذه الحوارات والمناظرات أكثر من أن يحصر، وهذا يدل على أهمية الحوار وضرورته والحاجة إلى طرح هذا الموضوع وتهذيبه ببيان أصوله وآدابه، وضوابطه وطرقه.

ثانياً: إن أقوال علماء الأمة في أهمية المناظرة، وضرورة استخدامها، له صلة كبيرة بموضوع الحوار، إذ إن المناظرة قريبة من الحوار، كما تقدم في التعريفات[2]، وتشترك معه في الغاية منها وهو الوصول الى الحق، وإظهار الصواب. لذلك فأرى أنه لا بأس من إيراد بعض تلك الأقوال، لنستشف منها أهمية الحوار وضرورته. قال شيخ

---

(١) سيأتي تفصيل للمناظرات والحوارات في ثنايا البحث وفي بحث آخر مستقل إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر: (المبحث السابق ـ تعريف المناظرة).

الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[1].

وقال صاحب شرح الكوكب المنير ما نصه: «قال أبو محمد الجوزي في الإيضاح: اعلم وفقنا الله وإياك أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنه ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر، لأن به تتبين صحة الدليل من فساده تحريراً وتقريراً، وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالاً وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة ولو خلي كل مدع مدعى ما يرومه على الوجه الذي يختار، ولو مكن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء، لأدى إلى الخبط وعدم الضبط، وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وبين المستقيم من السقيم فمن لم يحط بها علماً كان في مناظرته كحاطب ليل»[2].

وقال في كشف الظنون بعد أن ذكر تعريف علم المناظرة وموضوعه والغرض منه: [وقال ابن صدر الدين في الفوائد الخاقانية: (وهذا العلم كالمنطق يخدم العلوم كلها لأن البحث والمناظرة عبارة عن النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، وإلزاماً للخصم، والمسائل العلمية تتزايد يوماً فيوماً، بتلاحق الأفكار والأنظار، فلتفاوت مراتب الطبائع والأذهان لا يخلو علم من العلوم عن تصادم الآراء وتباين الأفكار، وإدارة الكلام من الجانبين للجرح والتعديل والرد والقبول، وإلا لكان مكابرة غير مسموعة، فلا بد من قانون يعرف مراتب البحث على وجه

---

(١) الفتاوى (٢٠/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) شرح الكوكب المنير: (٤/ ٣٦١).

يتميز به المقبول عما هو المردود، وتلك القوانين هي علم آداب البحث)] انتهى[1].

وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في كلامه عن المناظرة: (حكمها: فأقل مراتب حكمها الجواز، إن كانت على الوجه المطلوب وقال بعضهم باستحبابها. وقيل إن القدر الذي يلزم لإبطال شبه خصوم الحق فرض كفاية، وليس ببعيد والله اعلم)[2].

قلت: إذا كان هذا كلام بعض الأئمة في علم الجدل والمناظرة، مع ما ورد عن غيرهم من كراهية أو تحريم لهما لتعلقهما بالمنطق، فإن الحوار المفيد الهادىء، البعيد عن الخصومة والتعصب يدخل من باب أولى في ثناء العلماء وتقرير أهميته ـ خاصة وأن الحوار يحقق الهدف والغاية التي من أجلها مدح أولئك العلماء الجدل والمناظرة، ألا وهو التوصل إلى الحق، وإظهار الصواب ورد الشبه وإبطالها، كما سيتبين ذلك جلياً عند الكلام عن أهداف الحوار إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: لقد ظهرت في الآونة الأخيرة دندنة جديدة، حيث يكثر المنافقون من العلمانيين وأعوانهم من طرح موضوع الحوار والدعوة إليه، بكتابة المقالات، وإجراء الندوات والتحقيقات في الصحف والمجلات، ويهدفون من وراء ذلك إلى أهداف خبيثة ماكرة، منها مثلاً: إسكات صوت الحق الذي يجاهدهم باللسان، ويغلظ عليهم بفضح مؤامراتهم وكشف ألاعيبهم استجابة لقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[3] فيقصدون بالدعوة الى الحوار الهادىء والأدب فيه؛ إظهار الدعاة والمصلحين بمظهر سوء الأدب

---

(١) كشف الظنون: (١/ ٣٩).

(٢) آداب البحث والمناظرة: (٢/ ٤).

(٣) التحريم: ٩.

والتعصب والتشنج وعدم التفاهم، في الوقت الذي يظهرون فيه أنفسهم بدعاة الحوار والمراعين لأدب الخلاف.

ويهدفون أيضاً: إلى الوصول إلى المرحلة التي يطرحون فيها كل قضايا الشريعة للنقاش والحوار، دون التسليم أو الاعتراف بالأصول والأسس التي لا تقبل الخلاف أصلاً، ودون الرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة أو إلى أقوال علماء هذا الدين في القديم والحديث، كما ستوضح الأمثلة.

ومع علمنا بأن هؤلاء العلمانيين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فهم حين يرد عليهم أو يفضحون أو تكشف مؤامراتهم ويبين نفاقهم، ويكتب عن سوء نواياهم وتربصهم بالإسلام وأهله، عندها يدعون إلى الحوار الهادىء ويطرحون أدب الخلاف في الإسلام، وآداب الاجتهاد في الشريعة، وينقلون النصوص والأقوال من كتب السلف في ذلك، فهم عندئذ يؤمنون بالكتاب ويرجعون إلى هدي الإسلام، أما حين يكتبون هم ويتكلمون فلا يتورعون عن الكذب والاتهام والتلفيق والطعن في الدين ونبذ العلماء والدعاة، تصريحاً أو تلميحاً، دون مراعاة لأدب الحوار، أو احترام الرأي الآخر عند الاجتهاد، وأما في دعواتهم الهدامة ـ كالدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، وموالاة أعداء الله، والدعوة إلى تحرير المرأة فهم عند ذلك يعرضون عن الكتاب، ويعتبرون الرجوع إليه تخلفاً ورجعية، وأن أحكامه قد عفا عليها الزمن ولا تناسب العصر، وأن الأحكام والفتاوى في هذا الجانب ستتغير بتغير الزمن.

أقول: مع علمنا بذلك كله فإننا لا نستنكر عليهم الكلام في أدب الحوار، أو الدعوة الى التأدب عند الاختلاف، لأن الحق أحق أن يتبع، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها[1]، ولكني أتمثل في هذا

(١) هذا معنى حديث أخرجه الترمذي: كتاب العلم: (٥/ ١٥) برقم ٢٦٨٧، ابن ماجه، كتاب الزهد: (٢/ ١٣٩٥) برقم ٤١٦٩.

الموقف قول النبي ﷺ «نَحْنُ أَحَقُّ وأَوْلَىٰ بمُوسَىٰ مِنْكُم»[1].

فأهل الإسلام وعلماؤه ودعاته وطلبة العلم فيه، أحق بالكلام في أدب الحوار وحكم الاجتهاد وفقه الخلاف، وأولى بدراسة واستنباط هذه الآداب من نصوص الكتاب والسنة، والاستفادة من تجارب الأنبياء والعلماء والدعاة الذين سبقوهم بإحسان.

وتصديقاً لهذا أذكر أمثلة معاصرة ـ باختصار ـ تثبت أن أمثال هؤلاء إذا ما فضحوا وكشف أمرهم ورد عليهم أهل الهدى، كانت أجوبتهم في الصحف والمجلات مقالات في أدب الحوار، أو أدب الاجتهاد والخلاف في الشريعة الإسلامية:

ـ فعندما كشف بعض مخططات العلمانية ومكرها: من دعوة إلى تحرير المرأة وتقديم مطالبات تدفع عجلة الانحلال عندما ثار جمع من الغيورين لإنكار هذه الدعوات، وفضح تلك المؤامرات، فكان الرد على المنكرين بمقال حول الحوار والاجتهاد يقول فيه كاتبه: (والحوار الذي يدور حول القضايا المفتوحة يجب أن يتم في جو هادىء، بعيد عن التشنج والانفعال، بعيداً عن استعداء السلطة على الرأي الآخر، وبعيداً عن الاتهامات التي تلقى جزافاً وبلا مبالاة..... إلى أن يقول: ولا يزال تغير الفتوى بتغير الزمان من الأمور الاجتهادية حيث لا نصوص قاطعة، من الملامح التي تمتاز بها شريعتنا الغراء)[2].

وفي رسالة كتبها نفس صاحب المقال يؤكد فيها: (أن أمور التقاليد لا يجب أن تكون جزءاً من الشريعة، وأن أمور الشريعة قابلة للنقاش، وأن

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري: كتاب الصوم رقم ٢٠٠٤، ومسلم كتاب الصوم: (٢/ ٧٩٦ رقم ١٢٨).

(٢) انظر صحيفة الشرق الأوسط العدد: ٤٣٧١ الجمعة ٢٩/ ٤/ ١٤١١ هـ.

الفتاوى تتغير، وليست وحياً منزلاً... ثم يقول: وإننا نتطلع إلى مرحلة يكون كل شيء فيها قابل للنقاش)[1].

ومرة ثالثة فهو يكتب مقالاً بعنوان: «من آداب الاجتهاد والاختلاف في الإسلام» يخلص فيه إلى أن المجتهد ليس له أن يلزم غيره بفتواه ثم قال: (ترى متى يتعلم المسلمون المعاصرون من أسلافهم العظام شيئاً من أدب الاجتهاد وأدب الخلاف؟!)[2] فهذا الكاتب يدافع عن دعاة التغريب ويرد الفتاوى التي صدرت فيهم ـ بطريق غير مباشر ـ بالدعوة إلى الحوار مرة، وإلى تعلم أدب الاجتهاد والخلاف مرة أخرى وهكذا.

ـ ومثال آخر وهو ما طرحته بعض الصحف في زاوية «مناظرة» وتحت عنوان قضية الحوار كمبدأ في الإسلام وخلطت فيه الحابل بالنابل، حتى أن بعض من كتب في هذا الموضوع يرى أن الحوار جزء من الديمقراطية[3] وأن الخلاف في حوار المسلمين يحسم من خلال فكرة الأغلبية، إلى غير ذلك من مثل هذه الآراء والأفكار[4].

وخلاصة الكلام: فإن مما يبين أهمية ودراسة موضوع الحوار وآدابه، أن الموضوع أصبح كلأً مباحاً لكل متكلم، فالواجب على أهل الإسلام من العلماء والدعاة وطلبة العلم من أهل السنة والجماعة، أن يُعْنَوا بمثل هذا الموضوع فيبحثوا فيه ويتكلموا، فهم أحق بذلك وأولى، وألا يتركوه لمخلط أو مغرض.

---

(١) نص هذه الرسالة موجود في ملحقات مذكرة د. محمد سعيد القحطاني في الرد على الكاتب وعنوانها: «ويكون الدين كله لله».

(٢) انظر مجلة اليمامة العدد: ١١٣٣ الأربعاء ١٨/٥/١٤١١، وقد تعقبه د. صالح الفوزان بالرد عليه في العدد ١١٣٥ من نفس المجلة.

(٣) الديمقراطية: مصطلح معناه حكم الشعب للشعب (انظر «مذاهب فكرية معاصرة» لمحمد قطب ص ١٧٨).

(٤) انظر صحيفة الشرق الأوسط الأعداد: ٤٥٤٧ـ ٤٥٥٣.

رابعاً: مما يبين أهمية الموضوع أيضاً: ما يظهر في هذه العصور المتأخرة مع كثرة الخلاف ـ من خروج الحوار بين المسلمين عن أهدافه وغاياته، وما يطرأ عليه غالباً من سوء الأدب وحدة الكلام، وربما تطور إلى تبادل التهم والسب والشتم، بل أصبح من مميزات الحوار في ـ كثير من الأحيان ـ في عالمنا الإسلامي، بما في ذلك الحوار بين الجماعات الإسلامية، ومن ظواهره المؤلمة: رفع الصوت والتعالي فيه والصراخ والتهويل وتحميل الألفاظ ما لا تحتمله، وإطلاق الأحكام على قائلها بالكفر والفسق والضلال والعداوة للإسلام أو التربص بالسنة وأهلها، وكذلك وصف الطرف الآخر بأوصاف لا تليق كجاهل ـ سخيف ـ حقير.. أو أنه ليس أهلاً للحوار، وربما قيل عنه عميل لأعداء الإسلام، أو أخطر من اليهود والنصارى، وربما تعدى هذا الأمر إلى الحكم على النيات، وما تكنه الصدور، هذا عدا الخطأ في الأمور الشكلية أو الفنية، كعدم اختيار الوقت والمكان المناسبين، وعدم مراعاة ظروف الطرف الآخر ونفسيته ومنزلته، أو الاستئثار بالكلام، وأخذ زمام الحديث بالقوة، وكأننا طبقنا نصيحة ديل كارينجي حين قال: [إذا كنت تريد أن ينفض الناس من حولك، ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك، فهاك «الوصفة»: لا تعط أحداً فرصة الحديث.. تكلم بغير انقطاع عن نفسك، وإذا خطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدث فلا تنتظر حتى يتم حديثه: إنه ليس ذكياً مثلك ولا أريباً، فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف!! اقتحم عليه الحديث واعترضه في منتصف كلامه][1] إلى غير ذلك من السلبيات والمساوىء التي تطرأ على الحوارات بين المسلمين والمسلمين، وربما بين أهل السنة وأهل السنة، والتي تستدعي دراسة هذا الموضوع وتأصيله

---

(١) «كيف تكسب الأصدقاء» ـ ديل كارينجي ص ٩٧.

واستنباط آدابه من كتاب هذه الأمة وسنة نبيها ﷺ وتجارب علمائها ومفكريها.

خامساً: إن هذا الموضوع له تعلق كبير بفنون أخرى مستقلة كـ «فن الجدل» وفن «البحث والمناظرة»، وقد ذكر العلماء آداباً لتلك الفنون مما يستفاد منه في الحوار، ويحتاج إلى جمع وترتيب من جديد، كما أنه قد شاع في العصر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع، وهو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات أجهزة خاصة بالعلاقات العامة، المسؤولية الأساسية لهذه الأجهزة هي حسن الاتصال بالآخرين لإقناعهم بآراء معينة، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية أو غير ذلك، وعلى أهمية هذا الفن والتركيز عليه في العصر الحديث، وتأليف كتب خاصة به، يمكن أن يقال إنه فن قديم، لكنه أخذ شكلاً أكثر تحديداً أو تخصيصاً ودقة[1].

ولذلك فدراسة هذا الموضوع واستنباط الآداب المتعلقة به، يساعد في إثراء هذه العلوم، وفي إحياء ما اندثر من تلك الآداب التي تمثلها الأنبياء والعلماء، ومحاولة السير على نهجهم فيها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2].

ثانياً: أهداف الحوار:

إن معرفة أهداف الحوار، لها أهمية كبيرة في دراسة هذا الموضوع، إذ إن هدف الحوار هو ثمرته المطلوبة وإن الهدف من الحوار يحدد موضوعاته وأساليبه وآدابه، وعليه فإن الحكم على الحوار إنما يكون بمعرفة أهدافه، لأن الأمور بمقاصدها، كما أن معرفة الأهداف هي التي تحدد مدى نجاح الحوار، لأن نجاح كل شيء متعلق بتحقيقه لأهدافه

---

(١) أصول الحوار: ص ٥.
(٢) الأنعام: ٩٠.

المحددة، إضافة إلى أن تحديد الأهداف هي الخطوة الأولى في كل عملية يريد أن يقوم بها الإنسان.

لذلك فلا بد من تحديد أهداف الحوار، ومعرفة الغاية منه، والأهداف التي يمكن تحديدها للحوار ـ في رأيي ـ هي:

١ ـ **الدعوة**: وأعني بذلك دعوة الآخرين وإقناعهم، سواء دعوة الكفار إلى الإسلام، وهو هدف وغاية مطلوبة، أو دعوة المبتدعين إلى السنة، أو دعوة غيرهم إلى الحق، وأقل ما يتحقق من هذا الهدف هو إقامة الحجة على الخصم، وإبراء الذمة أمام الله عز وجل لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر الجدال بالتي هي أحسن في ضمن وسائل الدعوة حيث قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] قال ابن كثير: [أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب][2] وعليه فالحوار الهادىء المراعىٰ فيه الأدب الرفيع، يمكن أن يكون مفتاحاً للقلوب، وطريقاً إلى الأفئدة، ومحققاً لنتائج كثيرة، قد يخسرها الشخص إذا لم يسلك سبيل الحوار، أو إذا لم يراع فيه الضوابط والآداب.

وبالنظر إلى تاريخ الدعوة والدعاة من الأنبياء والصحابة والعلماء ومن سار على نهجهم، فإن الحوار قد حقق أهداف الدعوة وكانت له آثاره الجيدة، من دخول الناس في دين الله عز وجل، أو رجوع الضالين عن ضلالهم[3] وغير ذلك فحقق الغايتين: أعني استجابة الناس وتقواهم، والإعذار إلى الله عز وجل، وهما الغايتان المذكورتان فى قوله تعالى:

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) ابن كثير: (٢/ ٥٩١).

(٣) انظر ما سبق بيانه من أمثلة عند ذكر أهمية الحوار.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

ومن المعلوم أن مهمة الداعية هي بذل الأسباب في هداية الناس ودلالتهم إلى الخير، ولا بد أن يواجه في ذلك التواءات النفوس وخلافهم معه في الرأي، فإذا لم يكن لديه من الإلمام بآداب الحوار والاختلاف الشيء الكافي لكي يصبر ويستمر في دعوته، فقد ينفر الناس منه وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

والخلاصة: أنه إذا كانت للداعية مجموعة من الطرق والوسائل يسعى من خلالها إلى نشر دعوته بين الناس، فإن عليه أن يتذكر دائماً أن أداته الأولى المقدمة على ما سواها هي الحوار.

٢ ـ من أهم أهداف الحوار: الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروحة، وتضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر. فإننا نعيش في عصر كثرت فيه الخلافات مصداقاً لقوله ﷺ «فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُم فَسَيَرىٰ اخْتِلافاً كثِيراً»[2]، وليست المشكلة في وجود الخلاف، فإن وجوده أمر طبعي كما قال عز وجل ﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[3]، [4] ولكن المشكلة في ما يؤدي إليه الخلاف من فرقة وتباغض وتناحر وتضارب، عندما يعجز المختلفون عن التفاهم بالمحاورة أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر أويقللون من قيمة الحوار، ويرون ألا فائدة منه أصلاً، وهو خطأ يقع فيه كثير من المختصمين

---

(١) الأعراف: ١٦٤.

(٢) أبو داود كتاب السنة (٤/ ٢٠٠) رقم ٤٦٧٠، الترمذي كتاب العلم (٥/ ٤٤) رقم ٢٦٧٦.

(٣) هود: ١١٨ـ ١١٩.

(٤) سيأتي مزيد كلام عن الخلاف إن شاء الله تعالى.

والمختلفين، ذلك هو أن يتصور كل واحد منهم أنه لا بد من إقناع الخصم بالرأي الذي يتبناه، أو لا بد من ترجيح رأيه وتخطئة رأي محاوره، وإلا فلا جدوى من الحوار ولا داعي له، ولا يتصور أن الحوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأي معين فإنه يقرب وجهات النظر، ويضيق هوة الخلاف، بل يحدد الخلاف ويحصره في حيز ضيق، ويساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار، مما يكون له أثر في التماس العذر للطرف الآخر في حمله لرأيه، وخاصة إذا كان الخلاف بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، فإن تفهم هذه الأمور مؤكد في حقهم إذ إنه يؤدي إلى تحقيق وحدة الأمة المنشودة وكما أن الحوار يعتبر ناجحاً إذا انتهى أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر واتفقا على موقف واحد، فكذلك يعتبر الحوار ناجحاً أيضاً إذا توصل الطرفان إلى أن كلا القولين صحيح وسائغ، أو هو في الإطار الذي يسعه الخلاف، وعندها يمكن أن يقال [واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية].

٣ ـ ومن أهم غايات الحوار: بيان الباطل الذي عليه الخصم، والرد على الشبهات والطعون الموجهة ضد الحق والصواب وذلك لإقامة الحجة على المخالف، ولإظهار الباطل على حقيقته حتى يحذره الآخرون، ولتستبين طرق الضلالة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1]، وحتى يختار كل واحد أحد الطريقين عن بينة ووضوح: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[2].

وكذلك فإن كشف الشبهات، وتفنيد الأباطيل، يزيل الغشاوة التي ربما تكون على الأعين، وكما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله: (أن كثيراً من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون

---

(١) الأنعام: ٥٥.

(٢) الأنفال: ٤٢.

إلى أجوبة عليها)[1]، وكذلك فإن كثيراً من المختلفين يمنعهم من التسليم بالحق والرجوع إلى الصواب، شبهات وشكوك وأباطيل، تحتاج إلى جواب وتفنيد وإبطال، والحوار يحقق هذا الهدف، فبه يمكن إزالة كل شبهة، وتفنيد كل باطل. وكذلك فقد اهتم القرآن بهذا الهدف فذكر كثيراً من شبهات الكفار من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ورد عليها بأوضح برهان، وأقوى حجة[2]، بل تكفل الله بالإتيان بالحق الواضح البين أمام كل حجة وشبهة يأتي بها الكفار، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[3] قال ابن كثير رحمه الله: [﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي حجة وشبهة، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾: أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم][4] والشاهد أن من الأهداف التي يحققها الحوار: بيان الباطل، وكشف الزيف، واستبانة سبيل المجرمين، وكذلك الرد على الشبه والأباطيل، إسكاتاً للطاعنين، وبياناً للحائرين.

٤ ـ تحقيق أهداف أخرى مشروعة: فهناك مصالح أخرى وأهداف كثيرة يمكن تحقيقها عن طريق الحوار، وهي ليست رئيسية ثابتة، ولكن تتنوع وتختلف باختلاف القضايا والمحاورين: فمثلاً ـ قد يكون الحوار مع كافر ويقصد منه إظهار عزة الإسلام وقوة حجته، وذلك ليزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً وتمسكاً، ويكون الهدف هو تثبيت بعض المؤمنين على الإيمان، أو زيادة اطمئنانهم إلى الحق، ومن الأمثلة كذلك: أن يكون الحوار لهدف تعليم السامعين، كما كان في حديث جبريل الطويل، حيث كان الحوار بين جبريل والنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط

---

(١) الجواب الصحيح: (١/ ٧٦).

(٢) انظر رسالة الحوار مع أهل الكتاب ص ١٢٣.

(٣) الفرقان: ٣٣.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

الساعة، بهدف تعليم الصحابة، ولذلك قال ﷺ في آخر الحديث «فإنَّهُ جِبْرِيْلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِيْنَكُم»[1]. إلى غير ذلك من الأمثلة، والأهداف المشروعة التي يمكن تحقيقها بالحوار.

(١) مسلم كتاب الإيمان (١/ ٣٦) رقم ٢١، أبو داود كتاب السنة (٤/ ٢٢٢) رقم ٤٦٩٥.

المبحث الثالث:

بين يدي الموضوع

وسأعرض في هذا المبحث إلى النقاط الرئيسية التالية:

أولاً: أصول وقواعد في موضوع الحوار

ثانياً: حكم الجدل والحوار

ثالثاً: أركان الحوار ويدخل تحته الكلام عن:

١ ـ شروط المحاور المسلم.

٢ ـ شروط المحاور غير المسلم.

٣ ـ موضوعات الحوار.

أولاً: أصول وقواعد في موضوع الحوار

أ ـ أصل الموضوع في القرآن:

إن موضوع الحوار قد تعرضت له آيات القرآن في مواضع شتى، وبأساليب مختلفة، ففي بعض الآيات تظهر الدعوة إلى الحوار أو إلى شيء من مستلزماته وأصوله، وفي نصوص أخر حث على التزام آداب عامة للحوار، وفي قسم منها بيان آداب خاصة من آداب الحوار، وفي قسم منها نماذج وأمثلة للحوار.

فمن النصوص العامة التي وضعت مقومات الحوار وأصوله وشروط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ

﴿تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[1].

تأتي هذه الآية رداً على المشركين الذين طعنوا في النبي ﷺ دون تدبر أو تفكير فاتهموه بالكذب تارة وبالسحر تارة أخرى كما في الآيات قبلها ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾[2].

فأقام الله عز وجل هذه الموعظة العظيمة التي من أخذها بجميع مقوماتها فلا بد أن يصل إلى الحق، وهذه المقومات هي:

١ ـ القيام لله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾[3] وهو الإخلاص والتجرد في طلب الحق[4] وهذا شرط أساسي لكل عمل، وبدونه يفسد العمل ولا يوفق فيه صاحبه ولا يبارك له فيه، فالإخلاص في البحث عن الحق والصدق في طلبه شرط للوصول إلى ذلك الحق، وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق ولو كان مثل فلق الصبح، لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عز وجل ثقل عليه الانقياد للحق وقصرت همته عن بلوغه والعمل به، وعندما يوجد الإخلاص في القصد والصفاء في النية والتجرد لاتباع الحق، يسهل على صاحبه الانقياد له عند ظهوره، ولو على لسان مخالفه، لأنه يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل[5].

وهذا الأصل يدخل تحته عدد من الآداب كتصحيح النية، وحسن الاستماع، والتسليم بالخطأ، والرجوع إلى الحق والتواضع وتجنب الكذب والمراوغة، والأمانة، والإنصاف والعدل والهدوء وضبط النفس، وعدم

---

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) سبأ: ٤٣.
(٣) سبأ: ٤٦.
(٥) سيأتي مزيد من الكلام عن الإخلاص عند ذكر الآداب إن شاء الله تعالى.
(٦) انظر رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» لعبد العزيز الجليل ص ٨ـ ١٣.

الغضب وتجنب الهزء والسخرية بالطرف الآخر وغير ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

٢ ــ مراجعة النفس على انفراد أو مع الآخرين: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[١] والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطي الحق أو تشوه وجهه، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة، والتي غالباً ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال، مما قد يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس، متهماً نفسه، ظاناً أن الحق مع الأكثرية[٢].

وهذا الأصل أيضاً يدخل تحته عدة أمور تجب مراعاتها، كمراعاة الجو المحيط بالحوار، والظروف النفسية والاجتماعية للطرفين والتعارف قبل الحوار، والتحدي والإفحام، والمحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجته وسيأتي تفصيله بمشيئة الله تعالى.

٣ ـ التفكر فيما يقوله المخالف: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[٣] وهذا الأصل هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين، فالتفكير والعلم وإمعان الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول إلى الحق، وتبين الهدى من الضلال، لأن أداة التفكر الأساسية هي العلم[٤] بحال القضية المختلف فيها ومعرفة ملابساتها، والمقصود بالتفكر هو البحث عن الأدلة الشرعية العلمية والتحقق من ثبوتها ودلالتها على المراد، والجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق فيوجهه التقليد الأعمى دون فكر أو نظر.

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ١٤.

(٣) سبأ: ٤٦.

(٤) سيأتي تفصيل لآداب الحوار العلمية إن شاء الله.

ويدخل تحت هذا الأصل عدد من الآداب العلمية كالبيان وحسن العرض والتثبت والتوثيق، والبدء بمواطن الاتفاق وطلب الدليل والمبادرة به، والتسليم بالحق والبدء بالأهم، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتظهر أهمية تلك المقومات والأصول في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى ـ عن هذه الآية فمن ذلك:

قال الطبري رحمه الله: (وقيل: إنما قيل ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى، ﴿مَثْنَىٰ﴾ يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً قط، ثم ينفرد كل واحد منكم، فيتفكر ويعتبر فرداً هل كان ذلك به، فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم)[1].

ويقول الزمخشري: [والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويخلط القول، مع ذلك يقل

---

(١) الطبري: (٢٢/ ١٠٤ـ ١٠٥).

الإنصاف ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب][1].

فظاهر من كلام الطبري رحمه الله وكذلك الزمخشري أن الآية فيها دعوة وإشارة إلى المناظرة والمحاورة مع مراعاة الأصول والمقومات التي تحقق الهدف وتثمر النتيجة، كما أشار غيرهما إلى نفس المعنى، ومن ذلك قال ابن الجوزي: [والمعنى: أن التي أعظكم بها: قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام علىٰ الأقدام. والمراد بقوله: «مثنى» أي يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ والمراد بـ «فرادى» بأن يتفكر الرجل وحده، ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده وليخل بغيره، ولينظر وليستشر، فيستدل بالمصنوعات على صانعها، ويصدق الرسول على اتباعه][2].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله في الآية [أي بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريقة نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله، مجتمعين ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك][3] ومن أحسن من وضح هذه الأصول وفصل في بيان تلك المقومات، سيد قطب رحمه الله، وسأنقل كلامه على طوله لأهميته وجمال عباراته، قال رحمه الله: [وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دخل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ...﴾ الآية،

---

(١) الكشاف: (٢/ ٢٩٤).

(٢) زاد المسير: (٦/ ٤٦٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٩٨).

إنها دعوة إلى القيام لله، بعيداً عن الهوى، بعيداً عن المصلحة، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة، دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة، ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها. دعوة إلى منطق الفطرة الهادىء الصافي، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه.

وهي: «واحدة» إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق، القيام لله.. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة.. التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارىء، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء.. وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادىء عميق. [﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم به إلا العقل والتدبر والرزانة. وما يقول شيئا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده إن هو إلا القول المحكم القوي المبين][1].

وبعد هذه الأقوال من أولئك المفسرين رحمهم الله حول هذه الآية الكريمة، تبين أن القرآن اعتنى بموضوع الحوار وأشار إليه، ووضع أصوله ومقوماته العامة، التي ينطلق من خلالها الباحث عن الحق.

---

(١) الظلال (٥/ ٢٩١٤).

وقريب من هذا ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] . حيث قال الطبري رحمه الله: [﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك][2] .

وقال الزمخشري: [﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف][3] .

وقد تقدم قول ابن كثير رحمه الله في الآية إلى أنه: (من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب)[4] .

وقد بين الشوكاني رحمه الله أساليب وطرق الدعوة المذكورة في الآية حيث قال: [ثم أمر سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: هي الحجج القطعية المفيدة لليقين، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسه حسنة باعتبار انتفاع السامع بها، قيل: الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة، قيل: وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) الطبري (١٤/ ١٩٤).
(٣) الكشاف: (٢/ ٤٣٥).
(٤) ابن كثير (٢/ ٥٩١).

الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً][1].

فلا تخلو الآية من إشارة عامة إلى قضية الحوار، وتنبيه على ضرورة مراعاة الأدب الحسن فيه، وقد أجاد سيد قطب رحمه الله حين قال في بيان الآية ما نصه [والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه، وفي الموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق والموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدال، ولكن الاقتناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصر رأيه وهزيمة الرأي الآخر][2].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٠٣).

(٢) الظلال: (٤/ ٢٢٠٢).

والخلاصة: أن هاتين الآيتين قد وضعتا أسس موضوع «آداب الحوار» وأصَّلتا قواعده ومقوماته، لينطلق منها الداعية لنشر دعوته، وليتوصل الحائر إلى الصواب من خلالها، هذا عدا ما جاء في كتاب الله تعالى من الآيات الكثيرة في نصوص عامة لها علاقة بأدب الحوار، كالأمر بطيب القول وحسن الخلق، والقول الحسن، ونحوها مما سيأتي الإشارة إلى شيء منها في مبحث «الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار».

ب ـ أصول وقواعد مهمة في موضوع الحوار:

إذا كان لا بد من التفريق بين «أصول الحوار» و«آداب الحوار» ـ ففي رأيي ـ أن الأصول هي عبارة عن القواعد الرئيسية الثابتة التي تضبط مسار الحوار، وأما الآداب فهي طريقة الحوار، والقواعد السلوكية التي ينبغي مراعاتها قبل الحوار أو أثناءه أو بعده، والتي تساعد في نجاح الحوار، مع أن هناك تداخلاً وتقارباً بين الأصول والآداب فقد يكون من الأصول ما هو أدب يساعد في إنجاح الحوار، ولذلك فإني أشير إلى بعض الأصول المهمة وأترك بقيتها إلى مواضعها عند ذكر آداب الحوار.

ـ الأصل الأول: تحديد الهدف، وأن يكون هو الوصول إلى الحق، لا لإظهار الغلبة والمجادلة في الباطل، ويدخل ضمن تحديد الهدف أيضاً تحديد القضية التي حولها الحوار، فإن كثيراً من الحوارات تتحول إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها.

فلا بد من التجرد في طلب الحق، والحذر من التعصب والهوى، ويكفي مثلاً في ذلك ما يروى عن الإمام الشافعي أنه قال: (ما ناظرت أحداً إلا تمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه)[1].

وقول الإمام الغزالي في الإحياء عند ذكره لعلامات طلب الحق: (أن

---

(١) انظر معنى هذا القول في سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٢٩).

يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق)[1] كما يكفي مثلاً في تحديد القضية التي حولها الحوار ما فعله ابن عباس رضي الله عنه في مناقشته للخوارج، وذلك أنه سألهم أول مرة: ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله معه؟ فذكروا مسائلهم الثلاث، ثم أخذها مسألة مسألة، وبعد انتهائه من كل مسألة يقول لهم: أخرجت من هذه؟ فيقولون: نعم ثم ينتقل إلى غيرها وهكذا[2].

ـ الأصل الثاني: الاتفاق على أصل يرجع إليه، والأصول المرجعية عند المسلمين هي الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف، وقد أمر الله بالرد إليه وإلى رسوله في عدة آيات كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3]، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[4]. قال العلماء: معناه إلى الكتاب والسنة[5]، فالرد إلى الكتاب والسنة هو الذي يدرأ النزاع بين المتحاورين، ويقضي على الخلاف بين المتنازعين، وبهما يعرف مراد الله سبحانه وتعالى ومراد رسوله ﷺ. ولهذا كثيرا ما ينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية كلاماً ملخصه: (أنه متى تنازع المسلمون في مسألة، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ﷺ، فأي القولين دل عليه

---

(١) الإحياء: (١/ ٥٧).

(٢) القصة أخرجها: أحمد في المسند (١/ ٣٥٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧٩)، ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٢١٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٥٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالهما رجال الصحيح (٦/ ٢٤٤) وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند برقم (٣١٨٧).

(٣) الشورى: ١٠.

(٤) النساء: ٥٩.

(٥) انظر رياض الصالحين: (باب الأمر بالمحافظة على السنة) ص ٨٦.

الكتاب والسنة وجب اتباعه، ثم يبين سبب ذلك: وهو أن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فكل واحد منهم عقل)[1].

فالاتفاق على منهج التلقي والنظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش ـ خاصة إذا كان علمياً ـ يضبط مسار الحوار ويوجهه نحو النجاح، إذ إن الاختلاف في المنهج ابتداء سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة، لأن استدلالات المخالفين من المبتدعة وغيرهم لا حصر لها، وطرقهم لا تنضبط، وهي سيالة لا تقف عند حد[2]. وقد ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله بعضاً من هذه المناهج غير المنضبطة والتي تناقض هذا الأصل، أذكر منها باختصار[3]:

١ ـ منهج الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وهذا المنهج مرفوض وباطل، واذا لم يتفق الطرفان على رفضه فلن يفلح الحوار في أداء نتيجة.

٢ ـ منهج رد الأحاديث التي لا توافق الهوى أو المذهب، أو رفض الاستدلال بخبر الآحاد مثلاً، وهو منهج مرفوض أيضاً عند أهل السنة، وسبب في فشل الحوار.

٣ ـ منهج التغالي في تعظيم المشايخ والاحتجاج بأقوالهم والتعصب لآرائهم وإن خالف الكتاب والسنة وهو باطل أيضاً، ويفضي إلى مزيد من النزاع والخلاف. إلى غير ذلك من مناهج باطلة، إذا تلبس بها أحد المتحاورين فلا يستقيم لهما حوار.

---

(١) انظر الفتاوى: (٣/ ٣٤٧، ٢٠/ ١٦٣).
(٢) بدر التمام في اختصار الاعتصام ص ٨٩.
(٣) الاعتصام (١/ ٢٢٤، ٢٣١، ٢٥٨).

ومما يذكر أن الشيعة كتبوا إلى مفتي الديار السعودية سابقاً الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ يطلبون منه أن يعقد معهم مجلساً للحوار فهمّ الشيخ ألاّ يرد عليهم أصلاً، فأشار عليه الشيخ عبد الرزاق عفيفي ألاّ يهمل طلبهم، لأنهم عندئذ سيعتبرون ذلك نوعاً من النكول عن المناظرة، وضعف الحجة، فالأولى أن يكتب لهم بالموافقة على المناظرة، شريطة أن يكون هناك أصل يرجع إليه، وأن يكون هذا الأصل هو القرآن الكريم وصحيح البخاري وصحيح مسلم، فكتب لهم بذلك فلم يردوا عليه بعد ذلك[1].

فالخلاصة: لا بد من تحديد أصول يرجع إليها عند الاختلاف، وبذلك ينضبط الحوار، ويتحدد مساره.

الأصل الثالث: عدم مناقشة الفرع قبل الاتفاق على الأصل، لأن الحوار حينئذ يتحول إلى جدل عقيم لا طائل تحته، إلا في حالات استثنائية كأن يكون الطرف المقابل كافراً ويناقش في قضية فرعية، فعندها ينبغي نقله إلى الأصل وإرجاعه إليه ومناقشته فيه، أو أن يناقش في الفرع بالحجج القاطعة وإفحامه بها، وربما إذا اقتنع بالفرع أن يرجع إلى الأصل. فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها، ومن ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها، وقد شنع الإمام ابن الجوزي رحمه الله على من يحفظ الفروع ويضيع الأصول إلى أن قال: (فالله الله في تضييع الأصول ومن إهمال سرح الهوى، فإنه إن أهملت ماشية نفشت في زروع التقى.. إلخ ما قال)[2].

---

(١) ذكر القصة موثقة الشيخ سلمان العودة في شريط «أدب الحوار»[نقلاً عن الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن قعود، ونقلت له موثقة عن الشيخ عبد الله ابن حميد].

(٢) صيد الخاطر: ص ١٥٦.

ثانياً: حكم الجدل والحوار!

إن الداعي إلى بحث هذه القضية والكلام عنها، هو ما جاء عن بعض السلف من كراهية الجدل والتحذير منه، وحيث إن الجدل هو نوع من الحوار، ويتفق معه في بعض معانيه، فربما اشتبه الأمر على أناس فأنكروا الحوار والجدال والمناظرة احتجاجاً ببعض تلك النصوص التي تحذر من الجدال وتنهى عنه، كما أنه ربما بالغ أناس في استعمال الجدال والمحاورة وغلوا فيها وخرجوا عن الحد المشروع منها بحجة النصوص والأدلة التي تبيح الجدال والمناظرة[1].

ولذلك فخلاصة هذا المبحث هو التوفيق بين الأدلة الظاهرة التعارض، أي بين النصوص التي تأمر بالجدال وتحث عليه والأدلة التي تنهىٰ عنه وتحذر منه، وذلك بعد سرد هذه الأدلة وبيان مواضع الاستشهاد فيها:

أما النصوص التي تأمر بالجدال وتحث على المناظرة والحوار فمنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[2] وقد تقدم الكلام عنها وذكر أقوال المفسرين فيها[3] وبيان أن الآية تدعو دعوة صريحة إلى الحوار والجدال الحسن والمناظرة إذا احتاج الأمر إليها، وأن ذلك وسيلة مستقلة من وسائل الدعوة إلى الله عز وجل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ﴾[4]، ووجه الدلالة فيها أن الله تعالى أمر بمجادلة أهل

---

(١) انظر مناهج الجدل للألمعي ـ «بحث الجدال الممدوح والمذموم»: ص ٤٩.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) انظر الكلام عن أصل الموضوع في القرآن المتقدم.
(٤) العنكبوت: ٤٦.

الكتاب بالتي هي أحسن من الرفق واللين والإنصاف ونحوه[1]، وقد رجح الطبري وغيره أن الآية تدعو إلى ذلك وأنها محكمة وليست منسوخة ومما قاله رحمه الله: (لا معنى لقول من قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة، لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل)[2].

٣ ـ هناك آيات، أقرت فيها المجادلة والحوار والمناظرة مما يدل على جوازها وإباحتها ومنها: قوله تعالى في ذكر رد قوم نوح عليه ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[3] فنسب الجدال إلى نوح عليه السلام، ولم ينكره القرآن.

ـ وقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾[4] وذكر هذا الكلام، والتعبير بلفظ المحاورة يدل على إقرارها وإثباتها.

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[5] وهذه الآية تقر المجادلة والحوار كما هو ظاهر منها.

٤ ـ وهناك أحاديث تقر المجادلة والمحاورة والمحاجة منها:

قوله ﷺ: «ما مُجَادلةُ أحَدِكُم فِي الحَقِّ يكُونُ لَه فِي الدُّنْيا، بأشدَّ مجادلةً من المُؤمِنِينَ لَربِّهِمْ فِي إخْوَانِهِمُ الذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ»[6].

---

(١) مناهج الجدل: ص ٥٣.
(٢) الطبري (٢١/٣)، وانظر ابن كثير (٣/٤١٥).
(٣) هود: ٣٢.
(٤) الكهف: ٣٧.
(٥) المجادلة: ١.
(٦) تقدم ذكره في التعريفات: ص ٢٥.

ومنها حديث: «احتج آدم وموسى... إلى قوله فحج آدم موسى»[1].

ومنها ما جاء في أنه كانت بين أبي بكر وعمر محاورة... الخ الحديث[2].

وهذه الأحاديث الثلاثة يظهر منها إقرار ما جاء فيها من الألفاظ التي لم تنكر فدل على مشروعيتها وإباحتها. ومثلها ما كان من حوارات بين النبي ﷺ وأصحابه، مثل الذي حصل بينه وبين السعدين في غزوة الأحزاب حول إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، حيث استشارهما في ذلك فقالا: يا رسول الله! أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، و الله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ وَذَاكَ»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا)[3].

ومثل ذلك ما حصل بينه وبين عمر من مجادلة في الحديبية، وذلك حين جرى الصلح ولم يبق إلا الكتاب، فوثب عمر فأتى أبا بكر فقال: يا

---

(١) تقدم ذكره في التعريفات: ص ٢٩.

(٢) تقدم ذكره في التعريفات: ص ٢٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٠٦/٤) وحسن إسناده د. أكرم العمري في كتابه«السيرة النبوية الصحيحة» ٢/ ٤٢٧.

أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر ألزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَ لسنا بالمسلمين، قال: بلى، قال: أوَ ليسوا بالمشركين؟ قال بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: (أنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُه لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضيِّعنِي)[1].

ومن ذلك مناظرة عمر رضي الله عنه مع اليهود، حيث كان لعمر أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها، وكان ممره على طريق مدراس اليهود، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم، فقالوا: يا عمر ما في أصحاب محمد ﷺ أحد أحب إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا، وتمر بنا فلا تؤذينا، وإننا لنطمع فيك، فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمٰن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتجدون محمداً ﷺ عندكم، فأسكتوا، فقال: تكلموا ما شأنكم فوالله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني، فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجل منهم فقال: أخبروا الرجل، لتخبرنه أو لأخبرنه، قالوا: نعم، إنا نجده مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدونا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال أو خسف، ولو أنه كان وليه ميكائيل إذاً لآمنا به، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين مكان جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ١٧٠) وأحمد (٤/ ٣٢٥)، وأصله في البخاري: الشروط ٢٧٣١.

عن يساره، قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدو للذي عن يمينه عدو للذي عن يساره، والذي هو عدو للذي عن يساره عدو للذي هو عن يمينه، وأنه من كان عدوهما فإنه عدو لله، ثم رجع عمر ليخبر النبي ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فدعاه النبي ﷺ فقرأه عليه، فقال عمر: والذي بعثك بالحق، لقد جئتك وما أريد إلا أن أخبرك[1]، إلى غير ذلك من الحوارات التي سيأتي ذكر شيء منها في ثنايا البحث، والتي تقر الجدل والمحاورة.

٥ ـ يمكن الاستدلال على مشروعية الجدال بالحسنى والمحاورة بما وقع من كثير من السلف من المناظرات والحوارات ومنها: المحاورة التي كانت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة والتي انتهت بمبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين بعد الخلاف والجدال الطويل الذي كان بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة من جانب وبين سعد بن عبادة والحباب بن المنذر من جانب آخر[2].

ومنها مناقشة ابن عباس رضي الله عنه للخوارج، وكان ذلك بعلم الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم ينكره أحد أو يعترض عليه[3]. إلى غير ذلك من المناظرات العلمية الكثيرة التي وقعت بين الصحابة أو بين العلماء والفقهاء على مر التاريخ، والتي تشير إلى مشروعية الجدال والمناظرة، وتبين إباحة الحوار وجوازه، بل ربما استحبابه ووجوبه أحياناً.

٦ ـ كما يمكن الاستدلال بأقوال الأئمة والعلماء وحثهم على المناظرة والجدال بالحسنى، وخاصة إذا كان ذلك لدفع الشبهات وردها،

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٣٤)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١٢٤).
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٤).
(٣) تقدم ذكرها أنفاً(انظر ص ٥٧).

وقد تقدم ذكر تلك الأقول في البحث الثاني عند بيان أهمية الحوار[1].

ونعيد منها كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ لأهميته حيث قال: (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفى بموجب العلم والإيمان ولاحصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين)[2]، ومثله كلام الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عند ذكره للفوائد من قصة وفد نجران فقال: (ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليول ذلك إلى أهله وليخل بين المطي وحاديها والقوس وباريها)[3].

فهذه خلاصة ما يمكن الاستدلال به على مشروعية الجدال بالحسنى وإباحة الحوار والمناظرة.

وأما النصوص التي يظهر منها التعارض مع ما سبق، والتي تحذر وتنهى عن الجدال فيمكن تلخيصها في الآتي:

١ ـ هناك آيات عديدة يظهر فيها كراهية الجدل في قضية معينة، أو بأسلوب معين وقد يستدل بها في كراهية الجدل مطلقاً لذلك فسأذكرها ثم يأتي الجمع بينها وبين ما سبق من الإباحة والجواز، فمنها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[5].

---

(١) انظر الفقرة الثانية من أهمية الموضوع.

(٢) الفتاوى (٢٠/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٣) زاد المعاد بتحقيق الأرناؤوط (٣/ ٦٣٩).

(٤) النساء: (١٠٧).

(٥) الأنعام: (١٢١).

وقوله عز وجل: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾[2].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4]

وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[5].

وقوله سبحانه: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[6].

وأمثالها كثير من الآيات التي تشعر بخطر الجدل المذكور فيها والوعيد الشديد لمن تعاطاه.

٢ ـ وهناك بعض الأحاديث التي تحذر من الجدال وتبين كراهيته ومنها: قوله ﷺ: «المِرَاءُ فِي القُرآنِ كُفْرٌ»[7].

وقوله أيضاً «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى إلَّا أُوتُوا الجَدَل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[8] [9].

---

(١) غافر: ٤.
(٢) غافر: ٥.
(٣) غافر: ٥٦.
(٤) غافر: ٦٩.
(٥) الشورى: ١٦.
(٦) الشورى: ٣٥.
(٧) تقديم تخريجه في التعريفات ص ٢٥.
(٨) الزخرف: ٥٨
(٩) تقدم ذكره في التعريفات: ص ٢٥.

ومثله حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[1] فقال يا عائشة: «إذَا رأيتُمْ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فيْه فَهُم الذِّيْنَ عَنَاهُمُ اللهُ فاحْذَرُوهُم»[2].

وقوله عليه السلام: «أَبغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ»[3].

ومما يدل على أفضلية ترك الجدال وكراهته، قوله ﷺ «أنَا زَعِيْمٌ بِبَيْتٍ فِيْ رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً..... الحديث»[4].

٣ ـ مما يستدل به على كراهية الجدل: ما أثر عن بعض السلف من أقوال تنهى عنه أو تحذر منه ومن ذلك[5]:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كفى بك إثماً أن لا تزال مماريا».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل».

وقال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلته».

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) تقدم ذكره في التعريفات: ص ٢٥.

(٣) البخاري: كتاب المظالم ٢٤٥٧، ومسلم كتاب العلم (٤/ ٢٠٥٤) رقم ٥، الترمذي: كتاب التفسير (٥/ ٢١٤) رقم ٢٩٧٦، النسائي كتاب القضايا (٨/ ٢٤٧ـ ٢٤٨ رقم ٥٤٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود: كتب الأدب (٤/ ٢٥٤) رقم ٤٨٠٠، الترمذي: كتاب البر (٤/ ٣٥٩) رقم ١٩٩٦، (وصححه النووي في رياض الصالحين ص ٢٨٩).

(٥) انظر إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٢٦).

وقال الإمام مالك رحمه الله: «ليس هذا الجدال من الدين في شيء».

وقال بلال بن سعد: «إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته»[1].

وقال الأحنف بن قيس: «كثرة الخصومة تنبت النفاق في القلب»[2].

وقال الشافعي: «المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن»[3].

وللجمع بين ما تقدم من تعارض ظاهر حول الجدل والمناظرة، فإن قصارى القول: إن إنكار الجدل وذمه مطلقاً فيه تعسف ومكابرة للحق والواقع، كما أن قبوله والدعوة إليه مطلقاً فيه أيضاً تعسف ومكابرة، فقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالجدل وأخرى تنهى عنه، فعلمنا يقيناً أن الجدل الذي تأمر به هذه النصوص غير الجدل الذي تنهى عنه، لأن نصوص القرآن ونصوص السنة الصحيحة لا تتعارض في حقيقة الأمر[4].

إذاً فالجدل نوعان: جدال ممدوح وإليه تصرف نصوص الإباحة والجواز، وهو ما كان لنصرة الحق وتبليغ الدعوة، وجدال مذموم، وعليه تحمل أدلة النهي والكراهة، وهو ما كان بباطل وبغير علم ولنصرة الباطل والهوى.

ويؤيد هذا الجمع، ويدل على هذا التقسيم: كلام العلماء في تلك النصوص ومن ذلك:

---

(١) المصدر السابق ٣/١٢٦.
(٢) انظر أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/١٢٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/٢٨).
(٤) انظر مناهج الجدل في القرآن للألمعي ص ٥٠ بتصرف يسير.

قول الرازي عند تفسيره للآية: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1] قال: (الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى لمحمد ﷺ:

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] وقال حكاية عن الكفار إنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[3].

وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية، حيث قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[4]، وقال ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[5]، وقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[6] ... إلخ كلامه)[7].

وقال عند تفسيره للآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾[8] (إن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل)[9].

فظاهر من كلام الرازي تقسيمه للجدال إلى ممدوح ومذموم، وتوفيقه بين النصوص المتعارضة، ويدل على ذلك أيضاً قول القرطبي رحمه الله

---

(١) غافر: ٤.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) هود: ٣٢.
(٤) غافر: ٤.
(٥) الزخرف: ٥٨.
(٦) غافر: ٥.
(٧) الفخر الرازي (٧/ ١٩٧).
(٨) الزخرف: ٥٨.
(٩) الرازي (٧/ ٣٠٧).

عند الآية ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1] قال: (وفي الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده... وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] .. إلخ كلامه)[3].

فدل كلامه على تقسيم الجدال إلى ممنوع مذموم ومأمور به ممدوح، وقد شدد ابن حزم ـ رحمه الله ـ في الرد على من أبطل الجدال فقال: (وبالجملة فلا أضعف ممن يروم إبطال الجدال، ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة، لأنه مقر على نفسه أنه يأتي بالباطل، لأن حجته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها، وهذه طريق لا يركبها إلا جاهل ضعيف، أو معاند سخيف، والجدال الذي ندعو إليه هو طلب الحق ونصره وإزهاق الباطل وتبينه[4]).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[5]: (أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما في قوله تعالى ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[6].

فأما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرب

---

(١) آل عمران: ٦٦.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) تفسير القرطبي: (٤/ ٧٠) بتصرف.
(٤) الأحكام لابن حزم: (١/ ٢٦).
(٥) غافر: ٤.
(٦) غافر: ٥.

المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب. . . إلخ كلامه)[1].

ومثله قد أشار إليه الزمخشري عند الآية نفسها حيث قال: (سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله، وقد دل على ذلك في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها فأعظم جهاد في سبيل الله. . .)[2].

والخلاصة: إنه قد تبين مما سبق أن حكم الجدال والحوار والمناظرة، يرجع إلى القصد منه والغرض من استعماله: فإن كان بالحق وللوصول إلى الهدى والصواب، ولكشف الباطل ودحض الشبهات فهو مباح جائز وربما كان واجباً إن كانت الحاجة ملحة إليه، وأما إن كان جدالاً بالباطل لرد الحق ودفع الحجة أو للوصول إلى الباطل فهو مذموم محرم، كما دلت النصوص والأقوال على تقرير ذلك و الله أعلم.

ثالثاً: أركان الحوار:

للحوار ثلاثة أركانٍ رئيسية لا يتصور وجود حوار بدونها وهي:

١ ـ المحاور.

٢ ـ المحاور (الطرف الآخر).

٣ ـ موضوع الحوار.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٨١).

(٢) الكشاف (٣/ ٤١٤).

وكل ركن منها يحتاج إلى نوع من البيان على النحو الآتي:

أولاً: المحاور: وحيث إن الموضوع هو: آداب الحوار في الكتاب والسنة، فالأصل أن يكون المحاور مسلماً منضبطاً بمنهج هذا الدين، وعليه فهناك شروط يجب توفرها في المحاور المسلم، ويمكن أن يستكملها قبل أن يتصدى للحوار، وسيأتي إن شاء الله ذكر وتفصيل أكثر لهذه الشروط الأساسية والضرورية للمحاور المسلم وهي:

١ ـ الإخلاص: أي أن يكون حواره في سبيل الله، ونصرة لدينه، وإعزازاً لكلمته، مجرداً من الأهواء والشهوات النفسية، أو النظر إلى الأغراض الشخصية، بعيداً عن حب الرياء والسمعة وحب الظهور، ونحوها من العجب والكبر والغرور، وبذلك ينجح الحوار ويؤدي ثمرته.

وقد تقدم ذكر هذا الشرط عند الكلام عن قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ . . . ﴾ الآية[1] وسيأتي مزيد بيان له إن شاء الله تعالى.

٢ ـ العلم: فلا بد أن يكون حواره عن علم وبصيرة، إذ إن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح، وقد ذم الله المجادل بغير علم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[3] قال القرطبي رحمه الله: (في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له)[4] وكذا قال ابن كثير: (هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به)[5].

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) الحج: ٨.

(٣) آل عمران: ٦٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٧٠).

(٥) ابن كثير (١/ ٣٧٢).

والعلم اللازم للمحاور في أي قضية يشمل العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في المسألة المختلف فيها والعلم بما ينقض الرأي المخالف لهما، ومعرفة الشبهات والرد عليها، وكذا العلم بحال الخصم ومنزلته وظروفه، والعلم بأدب المناظرة والحوار، فكل ذلك ضروري فيمن يتصدى لمسؤولية الحوار.

٣ ـ الالتزام بأدب الحوار: فالمحاور المسلم منضبط في أقواله وأفعاله، وفي كلامه وحركاته، بمنهج الكتاب والسنة، ومنها منهج الآداب والسلوك والأخلاق، فضلاً عن أن الأدب في الحوار يضمن استمراره، وتحقيق ثمرته ويفتح قلب الطرف الآخر لقبول الحق والرجوع عن الباطل[1].

وبالجملة فهذه الشروط وغيرها يشدد فيها، ويتأكد توافرها في الحوارات المعدة والمرتبة ترتيباً مسبقاً، أما إذا عرض الحوار من غير ترتيب مسبق، فعلى المسلم ألا يمتنع عنه إن رأى فيه المصلحة، ورأى في نفسه القدرة على ذلك حتى ولو لم تكتمل فيه الشروط، لأن الأصل تبليغ العلم ودعوة الناس إلى الهدى وإقامة الحجة على المخالف.

ثانياً: المحاوَر (الطرف الآخر): وهو إما أن يكون مسلماً، فشروطه هي شروط المحاور السابقة إلا أنه قد يكون معرضاً أو مقصراً فيشترط ألا يلجأ إلى الحوار معه إلا بعد تجريب أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وبعد التأكد من أن الحوار لا يزيده إعراضاً أو إصراراً وعناداً.

أما إذا كان المحاور غير مسلم أصلاً كأن يكون كتابياً فهذا شرطه عدم الظلم لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[2] والمعنى: أن الذين ظلموا منهم لا يجادلون بل ينتقل

---

(١) تقدم الكلام عن أهمية وأهداف الحوار في المبحث الثاني من هذا الباب.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

معهم إلى القتال[1] أو أن الذين ظلموا منهم يجادلون مع الإغلاظ عليهم، ولا يكون الجدال معهم بالحسنى[2]. وهذا مرده إلى المصلحة فمتى كان الجدال أجدى لزم ولو كان مع الإغلاظ والشدة، فإن لم يجد أو لم تكن المصلحة فيه أصلاً فإنهم يقاتلون، وليس المقصود الامتناع عن الحوار مع الظالمين منهم مطلقاً واتخاذه منهجاً مطرداً فهذا يخالف منهج النبي ﷺ، فقد حاور اليهود في المدينة مع ظلمهم وكتمهم للحق، وتلبيسهم للحق بالباطل وحاور نصارى نجران، كما يخالف منهج علماء الأمة وسلفها الصالح الذين حاوروا وجادلوا الظلمة من أهل الكتاب[3].

وبالنظر إلى المتحاورين، فإنه يمكن تقسيم الحوار في القرآن إلى خمسة أصناف على النحو الآتي:

١ ـ حوار بين الله عز وجل وأحد من خلقه: كما في حواره مع الملائكة في خلق آدم[4] وحواره مع عيسى في آخر سورة المائدة[5] ونحو ذلك.

٢ ـ حوار بين مؤمن وكافر: كما في حوار الرسل مع أقوامهم، وكما في قصة مؤمن آل فرعون[6] وكما في حوار مؤمني الجن مع قومهم[7].

٣ ـ حوار بين مؤمن ومؤمن: كما في قصة موسى مع الخضر[8]، وقصة الملائكة مع داود[9] ونحوها.

---

(١) انظر الطبري: (٢١/ ١)، وابن كثير (٣/ ٤١٥).
(٢) فتح القدير: (٤/ ٢٠٥).
(٣) رسالة الحوار مع أهل الكتاب. بتصرف ص ١٧٧.
(٤) البقرة: ٣٠ ـ ٣٢.
(٥) المائدة: ١١٦ ـ ١١٧.
(٦) غافر: ٢٨ ـ ٤٤.
(٧) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢.
(٨) الكهف: ٦٦ ـ ٨٢.
(٩) ص: ٢١ ـ ٢٤.

٤ ـ حوار بين الكفار: كما في تحاور فرعون مع الملأ حوله[١]، وكما في تخاصم أهل النار[٢][٣]. ونحو ذلك.

٥ ـ حوار بين إنسان من البشر وحيوان: كما في قصة سليمان مع الهدهد[٤].

ثالثا: موضوعات الحوار:

إن الضابط في الموضوع الذي ينبغي أن يتناوله الحوار هو ما يحقق هدفاً مشروعاً، ومصلحة معتبرة، وعليه فكل موضوع يؤدي إلى نتيجة منهي عنها، فلا يجوز طرحه للحوار.

ولا شك أن موضوعات الحوار في الكتاب والسنة، جاءت محققة للأهداف المشروعة، لذلك فإني أذكر أبرز تلك الموضوعات على سبيل المثال، وعلى وجه الاختصار:

١ ـ **الدعوة إلى التوحيد**: فقد أخذ هذا الموضوع حيزاً كبيراً من نصوص الكتاب والسنة، وكذا من نماذج الحوارات الواردة فيهما، وقد تعددت طرق طرحه فتارة يكون بالدعوة إلى توحيد الله وبيان أهمية ذلك التوحيد، وتارة يكون بالنهي والزجر عن الشرك والإلحاد، وأحياناً يكون حول إثبات وجود الخالق ووحدانيته، أو في ربوبيته وألوهيته... إلى غير ذلك، ويكون القصد هو الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك، والأمثلة على هذا الموضوع كثيرة جداً أذكر منها:

ـ محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود بن كنعان في إثبات ربوبية الله

---

(١) الشعراء: ٣٤ ـ ٣٧.
(٢) غافر: ٤٧ ـ ٤٨.
(٣) سبأ: ٣١ ـ ٣٣.
(٤) النمل: ٢٠ ـ ٢٨.

عز وجل، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[1].

ـ الحوار مع أهل الكتاب ودعوتهم إلى التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2].

ومثل ذلك حوار عيسى عليه السلام مع النصارى كما في الآية ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

ـ الحوار مع عيسى عليه السلام حول هذه القضية كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ . . . ﴾ الآية[4].

ـ حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ودعوته إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ . . ﴾ ومن ثم محاجته لقومه كما في الآيات الآتية بعدها: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى

---

(١) البقرة: ٢٥٨.
(٢) آل عمران: ٦٤.
(٣) المائدة: ٧٢.
(٤) المائدة: ١١٦ ـ ١١٧.

شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ . . ﴾[1] .

ـ إضافة إلى دعوة الرسل لأقوامهم، وبدئهم بأمر التوحيد، وإصرارهم على كلمة واحدة هي ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[2] كما هو واضح من قصصهم في سورة الأعراف وهود والشعراء وغيرها. ومن أبرز تلك الحوارات ما كان بين إبراهيم عليه السلام وقومه كما في سورة الأنبياء. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ . . ﴾ الآيات[3] .

أما الأمثلة من السنة فمنها: حديث معاذ المشهور وفيه: «هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. . الحديث»[4] .

ـ ومثله حديث ضمام بن ثعلبة وفيه: «قال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال الله، قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم. . . الحديث)[5] .

---

(١) الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣.

(٢) الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وفي غيرها من السور.

(٣) الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦.

(٤) البخاري كتاب العلم ١٢٨، مسلم كتاب الإيمان (١/٥٨) رقم ٤٨.

(٥) البخاري كتاب العلم: ٦٣، النسائي كتاب الصوم (٤/١٢٢) رقم ٢٠٩٢.

وغيرها من النصوص التي تدل على عناية الكتاب والسنة بهذا الموضوع، وطرحه في الحوار والمناقشة.

٢ ـ **الرسل والرسالات**: ومع الدعوة إلى التوحيد هناك حوارات وجدال طويل حول إثبات الرسالات والدعوة إلى تصديق الرسل، فما من نبي إلا ويجادله قومه حول هذه القضية، وينفون نبوته ـ إلا من رحم الله ـ ولذلك فقد أخذ هذا الموضوع حيزاً من حوارات الرسل ومن نماذجه:

ـ مجادلة قوم نوح عليه السلام: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ . . .﴾[1]. فواضح من الآيات أن أكثر الحوار كان حول إثبات أنه رسول من رب العالمين، وكذلك فيه الدعوة إلى التوحيد.

ـ مجادلة قوم هود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ . . .﴾ الآيات[2].

وواضح أيضاً من خلال الآيات تأكيد هود عليه السلام على أنه

---

(١) الأعراف: ٥٩ ـ ٦٣.

(٢) الأعرف: ٦٥ ـ ٧٢.

رسول من رب العالمين، وأن مهمته هي إبلاغ الرسالة والنصح لأمته مع ما في الآيات من الدعوة إلى التوحيد كذلك.

ـ وكذلك الحال في مجادلة قوم صالح عليه السلام: إذ إنه دعاهم إلى التوحيد وإلى الإيمان به فكان جوابهم عليه ما ذكره الله في قوله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

ـ ومن أقوى الحوارات وأطول الجدالات ما جاء في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ . . . ﴾ الآيات[2].

إلى غير ذلك من قصص الأنبياء وحواراتهم مع أقوامهم حول الموضوع نفسه، مع ملاحظة أن هذه الآيات هي ما جاء في سورة الأعراف فقط، وهناك مثلها ـ وفي الموضوع نفسه ـ في سور أخرى كسورة هود والشعراء والأنبياء وغيرها. أما من السنة فالنصوص متعددة في إثبات الرسالة لأن كل حوار مع المشركين مرده إلى إنكار النبوة والرسالة ومن الأمثلة:

ـ ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية

---

(١) الأعراف: ٧٥ ـ ٧٩.

(٢) الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٦.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ فقالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[2][3].

ففي هذا الحدث وما دار فيه من حوار دعوة واضحة إلى الإيمان بالنبي ﷺ وتصديقه في رسالته.

ـ ويصلح مثالاً لهذا أيضاً ما تقدم من حديث ضمام بن ثعلبة وفيه قول ضمام للنبي ﷺ: «أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم... الحديث»[4].

ومثله حديث أبي جري جابر بن سليم حيث قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ ـ قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك. قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك وإذا كنت بأرض قفراء

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) المسد: ١.

(٣) الطبري: (١٩/ ١٢١)، وأخرجه البخاري، التفسير: ٤٧٧٠، ومسلم كتاب الإيمان (١/ ١٩٤) رقم ٣٥٥ والترمذي كتاب التفسير (٥/ ٤٥١) رقم ٣٣٦٣.

(٤) تقدم تخريجه آنفاً (انظر ص ٧٧).

وفلاة فَضَلَّتْ راحلتك فدعوته ردها عليك. . . الحديث»[1].

إلى غير ذلك من النماذج والأمثلة التي تشير إلى أن موضوع الرسل والرسالات كان من أهم موضوعات الحوار في الكتاب والسنة.

٣ ـ **البعث**: لقد أخذ موضوع البعث واليوم الآخر اهتماماً كبيراً وحجماً واسعاً في نصوص الكتاب والسنة، وذلك لعلاقته المباشرة بالتوحيد والإيمان بالله ولكثرة اعتراض المشركين عليه وإنكارهم له والآيات في هذا الموضوع أكثر من أن تحصر، فلا تكاد تخلو سورة مكية من التعرض لهذا الموضوع بأسلوب أو بآخر، كما في سورة الأنعام ويونس والنحل والإسراء ومريم والمؤمنون والنمل والروم والسجدة ويس والصافات وقّ، هذا عدا السور التي سميت باسم يوم القيامة كالواقعة والتغابن والحاقة والقيامة والغاشية والزلزلة والقارعة، وعدا السور التي كان موضوعها الرئيسي هو هذا الموضوع، كالمعارج والنبأ والتكوير والانفطار والانشقاق والطارق والتكاثر ونحو ذلك.

ومن نماذج الحوار في هذا الموضوع:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾[2].

ـ وكذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس (٤/ ٥٥) رقم ٤٠٨٤، الترمذي كتاب الاستئذان (٥/ ٧٢) رقم ٢٧٢٢ (انظر صحيح أبي داود للألباني رقم ٣٤٤٢).

(٢) الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢.

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ . . .﴾ الى آخر السورة[1].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات ما يوضح القضية وملابساتها، حيث (قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس. . .)[2].

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير قال: (جاء العاص بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيديه، فقال: يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم! قال: نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم قال: ونزلت الآيات)[3].

ـ ومثله ما تكرر من تعجب المشركين من أمر البعث، وجدالهم فيه كما في سورة الصافات حيث قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ . .﴾[4].

وفى السورة نفسها تذكر قصة القرين المنكر للبعث قال سبحانه:

---

(١) يس: ٧٧ ـ ٨١.

(٢) ابن كثير (٣/ ٥٨١) وانظر الرواية التي بعدها.

(٣) الطبري: (٢٣/ ٣٠ـ ٣١)، ورواه الحاكم كتاب التفسير (٢/ ٤٢٩) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) الصافات: ١١ ـ ١٩.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

إلى غير ذلك من النماذج والأمثلة، ويكفي لبيان حجم هذا الموضوع أن نعلم أن القرآن قد ركز على أربعة أدلة[2] رئيسية لإثبات البعث كثيراً ما تكرر في ثنايا السور، وخاصة المكية. وهذه الاستدلالات الأربعة هي:

١ ـ الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما، إذ إن الذي خلق هذه الأجرام العظيمة قادر على أن يخلق الإنسان الضعيف الصغير كما قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[3].

٢ ـ الاستدلال بإحياء الأرض الميتة: وأن الذي أحياها هو الذي يحيي الموتى، والذي يخرج منها النبات هو الذي يخرج الناس من قبورهم كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[4] ومثلها قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

وكذلك قال عز وجل عن نزول الماء من السماء ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[6].

---

(١) الصافات: ٥١ ـ ٦١.
(٢) انظر أضواء البيان للشنقيطي والتتمة لعطية سالم (٩/ ٧).
(٣) غافر: ٥٧.
(٤) فصلت: ٣٩.
(٥) الأحقاف: ٣٣.
(٦) قَ: ١١.

٣ ـ الاستدلال بالخلق الأول، وأن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على أن يخلق مرة أخرى، بل إعادة الخلق أهون كما قال سبحانه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[١] وقال عز وجل: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾[٢].

٤ ـ الاستدلال بإحياء الموتى بالفعل في الدنيا، وأن الذي فعل ذلك أمامكم وأحيا بعض الموتى قادر على أن يحيي الناس كلهم في الآخرة، كما في قصة قتيل بني إسرائيل[٣]، وقصة عزير[٤] وطيور إبراهيم عليه السلام[٥] وكلها في سورة واحدة، ومنه نوم الإنسان ثم بعثه كما في قوله عز وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[٦]

ومن الأمثلة كذلك ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾[٧] حيث صح من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك فنزلت الآية)[٨]. والأمثلة كثيرة متعددة وأكتفي بما ذكرت خشية الإطالة.

---

(١) الروم: ٢٧.
(٢) قَ: ١٥.
(٣) البقرة: ٧٢ـ ٧٣.
(٤) البقرة: ٢٥٩.
(٥) البقرة: ٢٦٠.
(٦) الأنعام: ٦٠.
(٧) مريم: ٧٧.
(٨) أخرجه البخاري كتاب التفسير رقم ٤٧٣٢، الترمذي: كتاب التفسير (٣١٨/٥) رقم ٣١٦٢.

٤ ـ **موضوعات مختلفة**: إضافة إلى تركيز الكتاب والسنة على الموضوعات السابقة، فإن هناك حوارات متعددة حول موضوعات مختلفة متفرقة، وسأضرب بعض الأمثلة من القرآن، وأما بالنسبة للسنة فإن أمثلتها لا تحصر وسيأتي ذكر كثير منها في ثنايا البحث، ومن أمثلة القرآن:

حوار الله مع الملائكة في خلق آدم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ـ قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، وحوارهم الطويل مع نبيهم حول القتال في سبيل الله[2].

حوار صاحب الجنتين كما في سورة الكهف قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ . . . ﴾ الآيات[3].

حوار موسى مع الخضر كما في السورة نفسها[4].

حوار مؤمن آل فرعون مع قومه، ودعوتهم إلى الإيمان، مع الدفاع عن موسى عليه السلام، كما في سورة غافر[5] إلى غير ذلك من الموضوعات والأمثلة والنماذج المتعددة.

---

(١) البقرة: ٣٠ـ ٣٣.
(٢) البقرة: ٢٤٦ـ ٢٤٩.
(٣) الكهف: ٣٢ـ ٤١.
(٤) الكهف: ٦٦ـ ٨٢.
(٥) غافر: ٢٨ـ ٤٤.

المبحث الرابع

الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار

حيث إن الحوار يغلب عليه الهدوء، والرغبة في التوصل إلى الحق، والبعد عن الخصومة والعناد، فالواجب أن يختار له أطيب الكلام وألينه، مما يكون مفتاحاً للقلوب، وأقرب إلى القبول والتسليم، وكما قيل: «القول اللين يغلب الحق البين»[1]، فربما كانت الكلمة الطيبة، وحسن العبارة وطيب القول عاملاً أساسياً في نجاح الحوار والوصول إلى نتيجته، وقطف ثمرته، كما أن سوء العبارة وفحش القول وبذاءة اللسان ـ في الغالب ـ سبب في فشل الحوار، وعدم التوصل إلى الهدف منه، لذلك كان لا بد من بيان مبدأ الكلم الطيب، وتقديم التي هي أحسن لعلاقته الوطيدة بأدب الحوار وذلك من خلال النصوص المستفيضة في تقرير هذا المبدأ في الكتاب والسنة.

فمن ذلك قول الله ـ سبحانه ـ مخاطباً بني إسرائيل ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2] أي قولوا لهم قولاً حسناً وكلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً ويشمل ذلك كل خلق حسن رضيه الله (كما ذكره ابن كثير) ويشمل كل خير وحسن ومنفعة، كلين القول والصدق والنصيحة[3].

---

(١) ليس هذا على إطلاقه وإن كان المعنى له نصيب من الصحة في الواقع المشاهد.

(٢) البقرة: ٨٣.

(٣) انظر: ابن كثير (١/ ١٢٠)، مختصر المنار (١/ ٧١)، فتح القدير (١/ ١٠٨).

قال الحسن: لين القول من الأدب الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه[1].

وقال محمد بن علي بن الحسين في معنى الآية: كلموهم بما تحبون أن يقولوا لكم[2]. وقد ضرب الله للكلمة الطيبة مثلاً بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، والتي تؤتي ثمارها باستمرار، فكلمة الخير تثمر الخير دائماً (سواء كان المقصود بها كلمة التوحيد، أو كل كلمة خير طيبة).

فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ . . .﴾[3].

(عن عطية العوفي قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إليه)[4]. قال في الكشاف: والكلمة الطيبة التوحيد، وقيل كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة[5] كما وصف الله عباده المؤمنين الذين يدخلهم الجنة بقوله عز وجل ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[6]. فالهداية إلى الطيب من القول والهداية إلى صراط الحميد تذكر في مشهد النعيم الدائم في الآخرة، فهي نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق[7].

ولما للكلمة الطيبة، والقول الحسن من أثر في النفوس، ووقع في القلوب، وإبعاد عن نزغ الشيطان وإيقاعه بين المؤمنين أمر الله عباده أن

---

(١) الطبري: (١/ ٣٩٢).
(٢) زاد المسير (١/ ١١٠).
(٣) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) الطبري: (١٣/ ٢٠٤)، زبدة التفسير من فتح القدير: ص ٣٣٣.
(٥) الكشاف: (٢/ ٣٧٩).
(٦) الحج: ٢٤.
(٧) الظلال (٤/ ٢٤١٥).

يدفعوا بالتي هي أحسن ويقدموها قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾[2]. ومثلها قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[3].

ومجمل معنى الآيات الثلاث أن الله يأمر عباده أن يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة، (روىٰ مبارك عن الحسن قال: «التي هي أحسن» أن يقول له مثل قوله، ولكن يقول له: يرحمك الله، ويغفر الله لك)[4]. وأن يدفعوا إساءة المسيىء بالصفح، والفحش بالسلام، والمنكر بالموعظة، والغضب بالصبر، فإذا فعلوا ذلك صار الذي بينهم وبينه عداوة ـ من ملاطفته وبره ـ كالصديق القريب. قال ابن كثير: (قال عليّ بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم)[5].

وقال سيد قطب تفسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه، بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فالشيطان ينزغ بين الإخوة

---

(١) الإسراء: ٥٣.
(٢) المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) فصلت: ٣٤ ـ ٣٦.
(٤) زاد المسير (٥/٤٧).
(٥) انظر: ابن كثير (٤/١٠١).

بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسوا جراح القلوب، تندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ يلتمس سقطات فمه وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه. والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات وتقطع عليه الطريق وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته[1]. بل إن الله سبحانه وتعالى أمر بتقديم التي هي أحسن حتى في الجدال الذي غالبا ما تكون فيه الخصومة والعناد، ذلك أن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ[2].

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]. قال ابن كثير: (أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب. . . .) إلخ[4]. ونهى عن جدال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ أعداء هذا الدين ـ إلا بالجميل من القول لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة[5]. فقال سبحانه: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[6].

عن مجاهد قال في معنى الآية: إن قالوا شراً فقولوا خيراً، إلا الذين ظلموا منهم فانتصروا منهم[7]. ويكفينا دليلاً على أهمية الكلمة الطيبة،

---

(١) الظلال: (٤/ ٢٢٣٤).
(٢) الظلال: (٤/ ٢٢٠٢).
(٣) النحل: ١٢٥.
(٤) ابن كثير (٢/ ٥٩١).
(٥) الطبري: (٢١/ ١)، زبدة التفسير ص ٥٢٧.
(٦) العنكبوت: ٤٦.
(٧) الطبري (٢١/ ١).

وضرورة القول اللين، وخاصة في أمر الدعوة والخطاب، أن الله أمر بها موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ في مواجهة الطاغية فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1].

والآيات في هذا المعنى متعددة، وأما تقرير ذلك في السنة فقد جاء عن طريقين أحدهما: الأمر بها والحث عليها وبيان فضلها، من خلال أقواله ﷺ.

وثانيهما: تطبيق ذلك عملياً من خلال معاملته ومعاشرته ﷺ.

فمن الأول قوله ﷺ: «والكَلِمَةُ الطَيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[2].

وقوله «اتقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[3].

(قال ابن بطال: طيب الكلام من جليل عمل البر).

وقال أيضاً: (وجه كون الكلمة الطيبة صدقة أن إعطاء المال يفرح به قلب الذي يعطاه ويذهب ما في قلبه، وكذلك الكلام الطيب فاشتبها من هذه الحيثية)[4] فقد جعل النبي ـ عليه السلام ـ الكلمة الطيبة وسيلة للوقاية من النار، كما جعلها في مقام الصدقة المحسوسة بالمال، وهذا يدل على أهميتها وأثرها البالغ في النفوس. كما جعل الأصل بالنسبة للمسلم ألا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً أو طيباً وإلا فالصمت أولى وأسلم، فعن أبي

---

(١) طه: ٤٤.

(٢) جزء من حديث طويل متفق عليه(البخاري كتاب الجهاد رقم ٢٨٩١، مسلم كتاب الزكاة ٢/ ٦٩٩ رقم ٥٦).

(٣) متفق عليه (البخاري كتاب الأدب رقم ٦٠٢٣، مسلم كتاب الزكاة (٢/ ٧٠٤) رقم ٦٨.

(٤) الفتح: (١٠/ ٤٤٨).

هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «منْ كانَ يُؤمنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتَ»[1].

ـ وحيث إن طلاقة الوجه وانبساطه وبشاشته من القول الحسن والخلق الجميل وله أثره الملموس في موضوع الحوار، وقد أشار إليه النبي ﷺ وجعله من الصدقة والمعروف فقال: «لا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيئاً ولَوْ أَنْ تَلقَ أخَاكَ بوجْهٍ طَلِيْق»[2].

وقال أيضاً: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»[3].

وهو الذي يقول عنه عبد الله بن الحارث بن جزء: (ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ)[4]. (وقد ذكر الذهبي في ترجمة ابن قدامة قال: قال الضياء كان الموافق لا يناظر أحداً إلا وهو يبتسم)[5].

ـ وأما ما ورد من فعله وحسن معاملته ولين قوله وطيب كلامه ﷺ فهو كثير جداً ويكفي ذكر بعض الأمثلة هنا، وستأتي في ثنايا البحث نماذج أخرى بمشيئة الله تعالى.

ـ الحديث الأول: حديث عائشة في لعن اليهود قالت: دخلت رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلاً يا

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب رقم ٦٠١٨، مسلم كتاب اللقطة (٣/ ١٣٥٣) رقم ١٤، الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٤٥) رقم ١٩٦٧، ابن ماجه الأدب (٢/ ١٢١١) رقم ٣٦٧٢.

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر (٤/ ٢٠٢٦) رقم ١٤٤، الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٤٧) رقم ١٩٧٠.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٣٩) رقم ١٩٥٦ (وصححه الألباني برقم ١٦٠٥)

(٤) أخرجه الترمذي كتاب المناقب (٥/ ٦٠١) رقم ٣٦٤١، أحمد (٤/ ١٩٠)

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٧٠)

عَائِشَةَ، إِنَّ اللهَ يُحبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمرِ كُلِّه. فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُم»[1].

ـ الحديث الثاني: حديث الأعرابي الذي بال في المسجد: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (دخل أعرابي المسجد ورسول الله ﷺ جالس. فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «لقد احتظرت واسعاً» ثم ولى حتى إذا كان في ناحية المسجد فشج يبول. فقال الأعرابي بعد أن فقه: فقام إلي بأبي وأمي. فلم يؤنب ولم يسب فقال: «إِنَّ هَذَا المسْجِدَ لا يبَالُ فِيْهِ وإِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللهِ وَللصَّلاَةِ» ثم أمر بسجل من ماء فأفرغ على بوله)[2].

قال ابن حجر رحمه الله: (وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً، ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه. وفيه رأفة النبي ﷺ وحسن خلقه)[3].

ـ الحديث الثالث: حديث معاوية بن الحكم وفيه قال: وبينا أنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة، إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فحدقني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما لكم تنظرون إلي؟ قال: فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتوني، لكني سكت. فلما انصرف رسول الله ﷺ دعاني بأبي وأمي هو، ما ضربني ولا كهرني ولا سبني، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، قال: «إِنَّ صَلاَتَنَا

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب رقم ٦٠٢٤، الترمذي كتاب الاستئذان (٥/ ٦٠) رقم (٢٧٠١)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء رقم ٢٢٠، ابن ماجه كتاب الطهارة (١/ ١٧٦) رقم (٥٢٩) (ومعنى فشج: أي فرج بين رجليه، يقال فشج البعير: إذا فرج بين رجليه للبول (انظر التعليق على صحيح مسلم: ٤/ ٢٣٠٥)

(٣) الفتح: (١/ ٣٢٥)

هَذِه، لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَسبِيْحُ والتَكْبِيرُ وَتِلاوَةُ القُرْآنِ»[1].

ولعل هذه الأحاديث كافية في بيان المقصود من لين قوله وطيب كلامه ﷺ فهو يأمر عائشة بالرفق في القول حتى مع اليهود، بل حتى وهم يسبون ويؤذون فلا يرضى بالشتم ولا يقر الفحش في القول، فلم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وهو يرفق بالأعرابيين غاية الرفق، فلا يسب ولا يزجر بل يعلم بالكلم الطيب وينهى أصحابه عن الزجر والشدة، ويأمرهم بالتخفيف والتيسير مطلقاً حيث كان يقول: «يسِّرُواْ وَلاَ تُعَسِّروا، وَبشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا...»[2] وفي المقابل فقد حذر ﷺ ونهى عن الفحش وبذاءة اللسان لما له من الأثر السيء على المجتمع المسلم فقد قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش، ولا البذيء»[3] ومعلوم خطر سيء الكلام، وفحش القول، فربما كانت كلمة سيئة أو قولة غير مسؤولة سبباً في مصائب عظام، أو طريقاً إلى الدمار، كما قال الشاعر:

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب مبدؤها كلام

ولذلك فقد قال ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[4].

فليحذر المحاور كل الحذر من زلات اللسان، وسقطات الكلام، فقد تؤدي بحواره إلى الفشل والضياع.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد (١/ ٣٨١) رقم ٣٣، أبو داود: كتاب الصلاة (١/ ٢٤٢) رقم ٩٣٠، النسائي في كتاب السهو (٣/ ١٤) رقم ١٢١٨.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم ٦٩، مسلم: كتاب الجهاد (٣/ ١٣٥٨) رقم ٦

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البر (٤/ ٣٥٠) رقم ١٩٧٧، أحمد: (١/ ٤٠٥)

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب البر (٤/ ٣٤٩) رقم ١٩٧٤، ابن ماجه كتاب الزهد (٢/ ١٤٠٠) رقم ٤١٨٥، أحمد: (٣/ ١٦٥)

ومن خلال عرض الآيات والأحاديث السابقة تبين ما للكلمة الطيبة من أهمية وخصوصاً في موضوع الحوار الهادىء الذي يرجى منه الوصول إلى الحق.

المبحث الخامس

في الكلام عن الخلاف وأنواعه وبيان علاقته بالحوار

وسأبين في هذا المبحث القضايا الآتية:

١ ـ علاقة الخلاف بالحوار، وبيان أنه لا حوار إلا مع وجود خلاف حقيقي أو صوري.

٢ ـ أنواع الخلاف.

٣ ـ أسباب الخلاف.

٤ ـ في ضرورة وجود الخلاف مع التحذير منه، والتوفيق بين ذلك.

١ ـ أما عن الخلاف فإن من سنن الله عز وجل في خلقه، أن جعلهم مختلفين، فوقوع الخلاف أمر مسلم به بين كل البشر، فهم مختلفون في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وفي مدركاتهم وفي عقولهم وأفهامهم وأشكالهم[١]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٢]. قال الرازي: (والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال)[٣]. ولكن من رحمة الله عز وجل أنه على رغم وجود التباين وقابلية الناس للاختلاف إلاَّ أن طريق

---

(١) أدب الخلاف: (د. صالح بن حميد ص ١٢ بتصرف).

(٢) هود: ١١٨ـ ١١٩

(٣) الرازي: (٥/٩٧)

الحق واضح أبلج (فقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق فبين هذا الدين بياناً شافياً كافياً لا يحتاج بعده إلى بيان، لأن الهدى بمعناه ينافي الضلالة بكل معانيها، ودين الحق بمعناه ينافي كل دين باطل لا يرتضيه الله عز وجل)[1]. وجعل الله عز وجل الرد إليه وإلى رسوله عند التنازع والاختلاف، وعندئذ ينتهي الخلاف وينفض التنازع، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2] وقد تقدم قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فإذا تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ﷺ، فأي القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه... وقال في موضع آخر: وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل)[3]. وحيث إن الخلاف هو (منازعة تجري من المتعارضين لتحقيق حق، أو لإبطال باطل)[4] فمتى وجد نوع من الخلاف حقيقياً كان أو صورياً، فإن في الغالب ينتج عنه الحوار والمناقشة الذي بواسطته يحسم الخلاف، فكل قضية تطرح للحوار والمناظرة، فلا بد وأن يوجد فيها خلاف أصلاً، وهذا يبين أهمية الحوار والجدال والمناظرة، إذ بدونها ينمو الخلاف ويستمر التنازع، فينتج الفشل، ويظهر التنافر، ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الخلاف والحوار، ويظهر أهمية الكلام عن الخلاف عند طرق موضوع الحوار وآدابه، وكذلك فإن (الإطالة بمواطن الخلاف في القضية المطروحة والإلمام بأنواع الاختلاف، وما يجوز فيه وما لا يجوز، مهم للمحاور حتى لا تتسع دائرة الخلاف فتحصل الفرقة والتناحر حول مسألة قد يسع فيها

---

(١) الخلاف بين العلماء لابن عثيمين: ص ٥

(٢) النساء: ٥٩

(٣) انظر الفتاوى (٣/ ٣٤٧، ٢٠/ ١٦٣) وانظر معالم الانطلاقة الكبرى لمحمد المصري ص ٦٥ـ ٧٨

(٤) أدب الخلاف: ص ١٢

الخلاف والاجتهاد، وكذلك الإلمام بأسباب الاختلاف بين علماء الأمة وأعذارهم في ذلك يقرب من العدل والإنصاف واحتمال المخالف)[1].

٢ ـ أما أنواع الخلاف فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع على النحو التالي:

أ ـ **خلاف محمود ممدوح**: وهو ما أملاه الحق، وقصد به إحقاق الحق، وإبطال الباطل، كمخالفة المشركين وأهل الكتاب والرد على أهل البدع والفسوق والمجون، والتصدي لأهل الزيغ والنفاق والضلال، والوقوف أمام هجمات الملحدين والمستشرقين والعلمانيين وغيرهم. فإن مخالفة أولئك مطلب شرعي، والرد عليهم واجب ديني، وموافقتهم والتآلف معهم محرم ممقوت[2].

ب ـ **خلاف مذموم**: وهو ما أملاه الهوى، وكان بالباطل لدحض الحق ولإحقاق الباطل، كما هو حال أهل البدع والأهواء ومجادلتهم لأهل السنة، وتعمدهم مجانبة الصواب، فإن الخلاف الواقع منهم خلاف مذموم باطل لا يقره الشرع، إذ الواجب اتباع الحق، والبعد عن التعصب والهوى، وهو ما عبر عنه الإمام الشافعي «بالاختلاف المحرم» وبينه بقوله: (كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بيناً، لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه)[3].

ج ـ **خلاف سائغ جائز**: وهو ما كان في فرعيات تقبل الاجتهاد، وقابلة للنقاش، كاختلاف الفقهاء والعلماء في المسائل الاجتهادية فهذا

---

(١) رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٣٥

(٢) انظر: الرد على المخالف د. بكر أبو زيد ص ٤٧، أدب الخلاف لابن حميد ص ١٥، أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر ص ٣

(٣) الرسالة للشافعي: ص ٥٦٠

جائز ما لم يخرج عن حده، أو يؤدي إلى الفرقة والتنازع، ويدخل تحت هذا النوع ما سمي باختلاف التنوع وهو على نوعين: [أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى. وثانيهما: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر][1].

٣ ـ وأما الكلام عن أسباب الخلاف فإنه طويل جداً. وقد كتب فيه العلماء قديماً وحديثاً، لذلك فسأضطر إلى الاختصار فيه، والاقتصار على أبرز الأسباب، وقبل ذلك أذكر ببعض القواعد المهمة في هذا الجانب فمنها:

أ ـ [أن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل، كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾[3]][4] فإهمال الشريعة أو الأخذ ببعض الدين وترك البعض هو أم المصائب ومنبع النزاع والشقاق.

ب ـ [أن هذا الدين قد أكمله الله عز وجل وأتمه، وقد بينه رسول الله ﷺ بياناً شافياً كافياً، وقد كان عليه السلام هو مرد الصحابة عند الاختلاف والتنازع، فيحكم بينهم فيما يختلفون فيه من معاني القرآن أو من الأحكام التي لم تكن شرعت، ولكن بعد وفاته ﷺ، اختلفت الأمة في أحكام من الشريعة، التي لا تقضي على أصول الشريعة، ولا تطعن في مصادرها،

---

(١) مقدمة أصول التفسير لابن تيمية بتصرف: (الفتاوى: ١٣ـ ٣٣٣ـ ٣٣٧)

(٢) البقرة: ١٣٧

(٣) البقرة: ١٧٦

(٤) تفسير المنار (١/ ١١٣) بتصرف يسير.

ولكنه اختلاف له أسبابه][1] وسيأتي ذكر شيء منها بعد قليل، والمقصود أن اختلاف الصحابة والتابعين أو العلماء بعدهم لم يغير شيئاً من الدين، ولم يتعرض لشيء من أصول الشريعة، بل الذكر محفوظ بتمامه وكماله قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2]، ولم يكن سبب الخلاف أبداً هو ضياع شيء من الدين أو نقصان أمر من الشريعة.

ج ـ أن نعلم يقيناً أنه لا يوجد أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة، ومن ذوي العلم الموثوق بعلمهم وأمانتهم ودينهم يتعمد مخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الكتاب والسنة، وكل من اتصف بالعلم والديانة فلا بد أن يكون رائده الحق، على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الهدى ﷺ، ويمكن أن يحدث منهم الخطأ كما يحدث من غيرهم ـ لأن الإنسان كما وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾[3] فإذا وجد لأحدهم قول يخالف نصاً من الكتاب أو السنة فلا بد له من عذر في تركه[4]، وهذا ما سيأتي في شرح الأسباب.

د ـ إن كثيراً من الخلافات التي وجدت وكانت لها أسباب انتهت وتلاشت بمجرد زوال أسبابها، فما إن يتبين الحق للطرف المخالف، أو يظهر النص الشرعي والدليل القطعي، إلا ويفرح به المختلفون، ويرجع اليه المتنازعون وهذه ميزة تميز بها أهل السنة، وظهرت جلية في خلافاتهم حتى مع خصومهم، حتى روي عن الإمام الشافعي أنه قال[5]: (ما ناظرت

---

(١) الخلاف بين العلماء لابن عثيمين ص ٥ـ ٧ بتصرف يسير.

(٢) الحجر: ٩

(٣) النساء: ٢٨

(٤) انظر رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ٦

(٥) تقدم هذا القول ص ٥٦.

أحداً إلا وددت أن الله أظهر الحق على لسانه)، وروي عن الإمام أحمد قوله: (خذ الحق ممن جاء به). وقد ذكر صاحب العواصم من القواصم[1] أمثلة لهذا الأمر، وخاصة مما كان بين الصحابة من خلاف وانتهى بمجرد ورود النص ومعرفة الحق، كخلافهم في أمر الخلافة ومكان دفنه ﷺ وتقسيم تركته ونحو ذلك وكلها انتهت بسماعهم للأحاديث القاضية فيها. و لله الحمد والمنة.

وهناك أسباب عامة للخلاف، وأسباب خاصة للخلاف بين العلماء، أما الأسباب العامة فيمكن تلخيصها في ثلاثة عوامل[2]:

١ ـ الجهل.

٢ ـ اتباع الهوى.

٣ ـ التعصب.

أولاً: أما العامل الأول وهو الجهل، فإنه من أسباب التفرقة والخلاف المذموم، وقد حذرنا الله من الجهل عندما ذكر صفة أهل الكتاب وأن من أسباب العداوة بينهم نسيان العلم كما قال تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3].

وقال سبحانه عن الأمم السابقة: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[4]. والخوض: هو (بالاعتقاد الباطل والتكلم به)[5]، وكذلك فإن الله تعالى نهى عن الكلام

---

(١) انظر العواصم من القواصم ص ٤٣ـ ٥١

(٢) انظر الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٧٢ـ ١٨٢)، مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين د. محمد العبده ـ طارق عبد الحليم ص ٤١

(٣) المائدة: ١٤

(٤) التوبة: ٦٩

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٣

والاتباع بغير العلم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1] وقد أخبر رسول الهدى ﷺ أن سبب الضلال هو الجهل حيث قال: «إنَّ الله لا يَقبِضُ العِلْمَ انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بِقَبضِ العُلَمَاء، حَتَى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَوساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيرِ عِلْمٍ فَضَلُّواْ وَأَضَلُّواْ»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[3][4]. وقد ذكر الشاطبي أن من أسباب الخلاف: (أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين ـ ولم يبلغ تلك الدرجة ـ فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأياً وخلافه خلافاً)[5] ثم بين السبب الذي يرجع إليه التفرق فقال: (وهو الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم)[6]. وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على بعض أنواع الجهل الذي ينشىء الاختلاف والضلال، فقال في بيان أسباب الاختلاف: (ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً)[7]. والمقصود أن الجهل سبب رئيسي للخلاف

---

(١) الإسراء: ٣٦
(٢) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام رقم ٧٣٠٧، أحمد (٢/ ٢٠٣)
(٣) الأحزاب: ٧٢
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٢
(٥) الاعتصام: (٢/ ١٧٢)
(٦) الاعتصام (٢/ ١٨٢)
(٧) اقتضاء الصراط المستقيم ص: (٣٢).

والتفرق، ولذلك فإن من أهم شروط المحاور وآدابه العلم بالأمر المختلف فيه، ومعرفة أدلة الشرع في القضية المطروحة للنقاش.

ثانياً: أما العامل الثاني من عوامل الاختلاف العامة فهو اتباع الهوى: (والهوى هو ميل النفس إلى نيل شهوة تلائم طبعها، أو اتباع شبهة توافق عقلها)[1]. وقد ذكره الإمام الشاطبي فقال: (والثاني من أسباب الخلاف اتباع الهوى ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك)[2].

وقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة بذم الهوى فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[4].

قال الشاطبي: (ولم يأت في القرآن ذكر الهوى إلا في معرض الذم، حكى ابن وهب عن طاووس أنه قال: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه)[5]. وفي الحديث ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُم شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُم وفُرُوجِكُم وَمُضِلَّاتِ الهَوَى»[6]. وقال شيخ الإسلام بعد أن ذكر بدعة الخوارج وبدايتها: (فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى، كما طعن

---

(١) مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين ص ٤٦.
(٢) الاعتصام: (٢/ ١٧٦)
(٣) صَ: ٢٦
(٤) الفرقان: ٤٣
(٥) الاعتصام: (٢/ ١٨٠)
(٦) مسند أحمد (٤/ ٤٢٠)

إبليس في أمر ربه برأيه وهواه)[1]، وقد ذم السلف الأهواء وأهلها وأقوالهم في ذلك كثيرة جداً، ذكر منها الشاطبي: (عن عبد الرحمن بن مهدي أن رجلاً سأل إبراهيم النخعي عن الأهواء: أيها خير؟ فقال: ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير ما هي إلا زينة الشيطان، وما الأمر إلا الأمر الأول، يعني ما كان عليه السلف الصالح، وخرج عن الثوري أن رجلاً أتى إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: أنا على هواك، فقال له ابن عباس: الهوى كله ضلالة أي شيء.. «أنا على هواك»)[2]، وذكر في موضع آخر عن بعض السلف أنه كان يقول: (ما كان عبد على هوى تركه إلاَّ إلى ما هو شر منه)[3] إلى غير ذلك مما جاء في التحذير من الأهواء والبدع. والمقصود أن أصل الزيغ والضلال، ومنشأ التفرق والاختلاف يكون بترك الحق الواضح البين، واتباع المتشابه الذي يتفق مع الأهواء كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾[4].

وهناك ضوابط يستطيع المسلم من خلالها أن يتحقق من بعده عن الهوى، أو يتقي الوقوع في مهاويه، أو يستنقذ نفسه منه إن كان قد ابتلي منه بشيء أذكرها باختصار[5]:

١ ـ اتباع الكتاب والسنة وجعلهما الأساس والمصدر، وعدم تحكيم العقل فيهما أو عرض نصوصهما عليه فإن كل ذلك دافعه الهوى.

٢ ـ اتباع منهج السلف في النظر والاستدلال: فإن للسلف منهجاً

---

(١) الفتاوى (٣/ ٣٥٠)

(٢) الاعتصام (٢/ ١٨٠)

(٣) الاعتصام (١/ ١٢٣)

(٤) آل عمران: ٧

(٥) باختصار وتصرف عن مقدمة أسباب اختلاف المسلمين ص ٦٢ـ ٧٨

قويماً في ذلك، وقد خالفه أهل الهوى فتفرقت بهم السبل، ومن طرق الزائغين التي ينبغي تجنبها في النظر والاستدلال ما يلي:

أ ـ اتباع المتشابه وعدم رده للمحكم.

ب ـ عدم جمع أطراف الأدلة.

ج ـ الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة.

د ـ عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية.

فالمقصود الحذر من مسالك أهل الهوى في هذا الأمر، والرجوع إلى منهج أهل القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم والاهتداء بأقوالهم وفتاواهم.

٣ ـ اعتبار المتغيرات الواقعية: فحيث أن الأحكام والفتاوى الشرعية تبنى على أمرين معاً وهما:

١ ـ الحكم الشرعي الأصلي.

٢ ـ الواقع المراد تطبيق الحكم الشرعي عليه، وهو ما يسميه علماء الأصول تحقيق المناط فإن عدم تطبيق الحكم على واقعه الصحيح هو من طرق أهل الهوى، بل من تحريف الكلم عن مواضعه، يقول الشاطبي: (تحريف الأدلة عن موضعها: أن يرد دليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه، والعياذ بالله، ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام، ويذم تحريف الكلم عن مواضعه، لا يلجأ إليه صراحاً إلا مع اشتباه يعرض له، أو جهل يصده عن الحق، مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه، فيكون بذلك السبب مبتدعاً)[1].

٤ ـ التقوى والإخلاص والتجرد: فإن التقوى مع الإخلاص ضد

---

(١) الاعتصام (١/ ٢٤٩)

الهوى ولا يلتقيان في عبد أبداً. فإن من اتقى الله وأخلص نيته وجرد قصده لله عز وجل، هداه الله إلى الحق، وأرشده إلى الهدى والصواب، وليس علم من اتقى وأخلص، كعلم من كان علمه عن جفاف قلب أو سوء طوية، ولذلك فإن الله عز وجل قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].

ثالثاً: أما العامل الثالث من أسباب الخلاف فهو التعصب:

وقد ذكره الشاطبي ـ رحمه الله ـ بقوله: (والثالث من أسباب الخلاف: التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق: وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ، وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم)[3].

وجناحا التعصب: ضعف النفس وجهل العقل[4]، وهو ظاهرة ذميمة تؤدي إلى التفرق والتعادي، وهو من خصال أهل الكتاب التي تكون في هذه الأمة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[5].

(فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له، وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم، فإنهم لا يقبلون من الدين ـ لا فقهاً ولا رواية إلا ما جاءت به طائفتهم)[6].

---

(١) البقرة: ٢٨٢

(٢) الأنفال: ٢٩

(٣) الاعتصام (٢/ ١٨٠)

(٤) مقدمة في اختلاف المسلمين ص ٨٠.

(٥) البقرة: ٩١.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٨ بتصرف.

ولذلك حذر الأئمة والعلماء من هذا المسلك الخطير، إذ (إن الحق يستحيل أن يكون وَقْفاً على فئة معينة دون غيرها، والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق)[1] ومن كلامهم رحمهم الله في ذم التقليد والتعصب ما أورده الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في (أعلام الموقعين) ومما ذكره: (قال ابن مسعود: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر. وقال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ قال: لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير، وقال أبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا)[2] وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة ـ كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك ـ كان من أهل البدع والضلال والتفرق)[3] فهذا فيمن تعصب للأشخاص بلا علم ولا عدل، وأما كلامه فيمن يغلو في التعصب في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد فقد قال: (من والى موافقة وعادى مخالفة، وفرق بين جماعة المسلمين، وكفر وفسق مخالفة دون موافقة في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرق والاختلاف)[4].

فالمقصود أن التعصب والتقليد المذموم، من أكبر أسباب الخلاف وأخطرها، والتي يجب على المسلم أن يحذرها ويتركها.

---

(١) انظر مقدمة اختلاف المسلمين ص ٨٣.

(٢) انظر أعلام الموقعين: (٢/ ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠).

(٣) الفتاوى (٣/ ٣٤٧).

(٤) نفس المصدر (٣/ ٣٤٩).

تلك أهم العوامل العامة التي تسبب الخلاف وتؤدي إلى التفرق، أما الأسباب الخاصة بالخلاف بين العلماء فيمكن إيجازها وتلخيصها فيما يلي[1]:

١ ـ أن يكون الدليل لم يبلغ هذا المخالف الذي أخطأ في حكمه، أو بلغه على وجه لا يطمئن به.

٢ ـ أن يكون الحديث قد بلغه ولكنه نسيه.

٣ ـ أن يكون الدليل بلغه ولكن فهم منه خلاف المراد.

٤ ـ أن يكون قد بلغه الدليل لكنه منسوخ ولم يعلم بالناسخ.

٥ ـ أن يعتقد أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو إجماع.

٦ ـ أن يأخذ بالحديث الضعيف، أو يستدل استدلالاً ضعيفاً.

فهذه بعض الأسباب الظاهرة، وقد قال شيخ الإسلام بعد ذكر أسباب الخلاف: (وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها، فإن مدارك العلم واسعة، ولم نطلع على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا)[2].

٤ ـ أما عن وجود الخلاف مع التحذير منه والتوفيق بين ذلك فبيانه كالآتي:

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن تختلف آراء الناس في صغير الأمور وكبيرها، سواء في أمور الدين أو الدنيا، وسبب ذلك أنهم خلقوا مختلفين

---

(١) انظر رفع الملام ٦ـ ١٨، الخلاف بين العلماء لابن عثيمين ص ٩ ـ ٢٤.

(٢) رفع الملام ص ١٨.

في الفهم والعلم، كما خلقوا مختلفين في الأمزجة والميول والرغبات، وفي الضعف والقوة والصبر على العلم والعمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

قال الإمام الشاطبي: وذلك الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا[2]. كما بين الله عز وجل في كتابه أن الخلاف واقع حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[3] وقال عز وجل ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[4] ومما يدل على ضرورة وجود الخلاف أن الله عز وجل بين لنا المرجع عند وقوعه، وطريقة الخروج منه فقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[5] وقال أيضاً: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[6].

وأخبر سبحانه أنه إنما أنزل الكتب لتقضي على الخلاف الواقع بين الناس فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[7] وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[8] وغيرها من الآيات.

كما أخبر ﷺ بوقوع الخلاف في قوله: «وإنه من يعش منكم فسيرى

---

(١) هود: ١١٨ـ ١١٩.
(٢) الأعتصام (٢/ ١٦٥).
(٣) يونس ١٩.
(٤) البقرة: ٢٥٣.
(٥) الشورى: ١٠.
(٦) النساء: ٥٩.
(٧) البقرة: ٢١٣.
(٨) النحل: ٦٤.

اختلافاً كثيراً»[1]، كما أن واقع الأمة يشهد بذلك فقد اختلف صحابة رسول الله ﷺ في مسائل متعددة، كاختلاف أبي بكر وعمر على عهده ﷺ وكانت بينهما محاورة، حتى بلغ أمرها للنبي عليه السلام وشق ذلك عليه.. إلى أن قال ﷺ في نهاية الحديث «.. فَهَلْ أَنْتُم تَارِكُواْ لِي صَاحِبِي»[2].

كما اختلفا بعد ذلك في قتال المرتدين وجمع القرآن وغير ذلك، واختلف الصحابة في تعيين الخليفة بعد رسول الله ﷺ، وفي ذلك قال عمر رضي الله عنه: «فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف»[3] كما اختلفوا في غسله ومكان دفنه وميراثه ﷺ ونحو ذلك، كما أختلف من بعدهم من التابعين ومن الأئمة والعلماء وغيرهم، ولا يزال الخلاف إلى اليوم، فهو واقع ظاهر مشاهد.

أما النصوص التي تنهي عن الخلاف وتحذر منه فكثيرة جداً ومنها:

ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[4] وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[5] وكذلك ما جاء في بيان عاقبة المختلفين كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾[6].

ـ ومنها قوله ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهم ـ حين بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وَبشِّرَا وَلا تنفِّرا، وتطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[7]

---

(١) تقدم ذكره في أول هذا الباب ٤٤.
(٢) تقدم ذكره في أول هذا الباب أيضاً ص: ٢٢.
(٣) أخرجه البخاري كتاب الحدود رقم ٦٨٣٠.
(٤) آل عمران: ١٠٥.
(٥) الأنفال: ٤٦.
(٦) البقرة: ١٧٦.
(٧) أخرجه البخاري كتاب الجهاد رقم ٣٠٣٨، مسلم كتاب الجهاد (٣/ ١٣٥٩) رقم ٧.

وفي حديث القراءات قال ﷺ: «لاَ تخْتَلِفُواْ فإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم اخْتَلفُواْ فَهَلَكُوا»[1] ومن ذلك أيضاً قول علي رضي الله عنه: «اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف»[2].

وقول ابن مسعود رضي الله عنه في مسألة قصر الصلاة في الحج «الخلاف شر»[3] ونحو ذلك من الآيات والأحاديث في هذا الباب.

والجمع بين كونه واقعاً لا محالة وموجوداً، وبين ما جاء في التحذير منه، يتلخص في النقاط الآتية:

١ ـ إن وجوده يرجع إلى أصل خلق الناس مختلفين في أفهامهم وعقولهم وطبائعهم فلا بد أن ينتج عنه اختلاف الآراء والأقوال والقلوب.

٢ ـ إن وجوده لا يعني استحبابه أو طلبه، بل هو كسائر الصفات والطبائع المذمومة، مع كونها جبلية في الإنسان كالظلم والجهل والهلع والطمع ونحوها.

٣ ـ إن الله عز وجل الذي خلق الناس مختلفين، لم يتركهم هملاً باختلافهم، بل قد دلهم على طريق الخلاص من الخلاف وهو الرجوع إليه سبحانه وتعالى.

٤ ـ إن كثيراً من الخلافات ترجع إلى عوامل معينة معروفة، قد بينها الشرع وحذر منها، حتى لا يقع الخلاف، وهي الجهل والهوى والتعصب ونحوها، وأن من تجنبها وابتعد عنها سلم من الخلاف.

٥ ـ إن الخلاف أنواع، ومنها ما هو سائغ جائز، وربما كان رحمة لبعض الناس، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: (والنزاع في الأحكام قد

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء رقم ٣٤٧٦.
(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٧٠٧.
(٣) أخرجه أبو داود كتاب المناسك (٢/٢٠٦) رقم ١٩٦٠.

يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم)[1] ونقل قول بعض العلماء: (الإجماع حجة قاطعة والخلاف رحمة واسعة)[2] فتبين بذلك أن وجود الخلاف أمر طبعي، وأن من اتبع منهج الله أمكنه تلافيه. والله أعلم.

---

(١) الفتاوى: (١٤/ ١٥٩).

(٢) الفتاوى: (٣٠/ ٨٠).

القسم الثاني
«آداب الحوار»

ـ آداب الحوار النفسية
ـ آداب الحوار العلمية
ـ آداب الحوار اللفظية
ـ آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار

الباب الثاني

آداب الحوار النفسية

الباب الثاني
آداب الحوار النفسية

وأعني بها الآداب التي تتعلق بنفسية المحاور وشخصه، وبنفسية الخصم كذلك، فهناك ظروف نفسية قد تطرأ على الحوار فتؤثر عليه تأثيراً سلبياً، فينبغي مراعاة ذلك حتى ينتج الحوار ويحقق غايته.

وأجمل ذكر هذه الآداب ثم أشرع في تفصيلها على الترتيب:

١ ـ تهيئة الجو المناسب للحوار.
٢ ـ الإخلاص وصدق النية.
٣ ـ الإنصاف والعدل والتفريق بين الفكرة وصاحبها.
٤ ـ التواضع وحسن الخلق.
٥ ـ الحلم والصبر.
٦ ـ الرحمة والشفقة بالخصم والحرص على إقناعه.
٧ ـ العزة والثبات على الحق.
٨ ـ حسن الاستماع.
٩ ـ المحبة رغم الخلاف.
١٠ ـ الهدوء والثقة بالنفس.
١١ ـ احترام الطرف الآخر.
١٢ ـ الجرأة والغضب لنصرة الحق.

وعليه فسأجعل كل أدب منها مبحثاً، أبين فيه المقصود به مع ذكر أدلته من الكتاب والسنة، والله الموفق.

المبحث الأول

تهيئة الجو المناسب للحوار

ينبغي للمحاور أن يهيىء نفسية محاوره قبل الدخول معه في مناقشة القضايا وذلك أدعى لقبول الحوار والوصول إلى نتيجته وحتى لا يفاجأ الخصم أو يواجه بما يكره من أول مرة، فيكون ذلك عائقاً أمام اقتناعه وإذعانه.

ومن الجوانب التي ينبغي مراعاتها مثلاً: الجو النفسي والمؤثرات المحيطة بالحوار، فلا بد من الابتعاد عن الأجواء الجماعية والغوغائية، لأن الحق قد يضيع في مثل هذه الأجواء، حيث التقليد الأعمى والتبعية للأكثرية، وبقدر ما يقل المتحاورون أو السامعون في الحوار بقدر ما ينقادون الى الحق عند ظهوره، كما ينبغي مراعاة الجو الحسي، من حيث البرودة والحرارة والاتساع والضيق ونحوها لأن وجود ما يؤذي في جو الحوار يؤثر على طبيعة النقاش ونتيجته، ومثله اختيار المكان الهادىء، وإتاحة الزمن الكافي للحوار، فلا تصلح أماكن الضجيج كالأسواق والمدارس ونحوها للحوار، وذلك لضيق الوقت ولوجود ما يشغل.

كما ينبغي مراعاة الظرف النفسي والاجتماعي للطرف الآخر، فلا يصلح أبداً أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي بسبب تعب أو جوع أو غيره، أو يعاني من إرهاق نفسي كهم أو غم أو حزن، لأن هذه الظروف حتماً ستؤثر على الحوار إما ببتره قبل تمامه أو حدوث

انفعالات وغضب وتوتر يؤدي بالحوار إلى الفشل الذريع[1].

ومن الوسائل في تهيئة الجو المناسب للحوار:

١ ـ التعارف بين الطرفين: فمن الضروري جداً أن يعرف كل محاور الطرف المقابل له معرفة دقيقة، وأن يعلم شيئاً عن ظروفه وبيئته، وقدره ومنزلته، وعلمه وأحواله، إذ إن هذا يفيد كثيراً في تحديد الأسلوب المناسب والاستعداد اللازم، كما أنه يعين على فتح قلبه، والقرب منه وضبط أعصابه، وهنا إما أن يبدأ المحاور بالتعريف بنفسه، أو بسؤال محاوره.

* فمن الشواهد للأول: ما جاء في قصة الملائكة مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أوجس منهم خيفة فعرفوه بأنفسهم وبسبب مجيئهم: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾[2].

قال الطبري رحمه الله في قوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: (قالت الملائكة لما رأت ما بإبراهيم من الخوف منهم لا تخف منا، وكن آمناً فإنا ملائكة ربك أرسلنا إلى قوم لوط)[3].

ومنه ما جاء في قصة الملائكة مع لوط ـ عليه السلام ـ قال تعالىٰ عنهم: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ...﴾[4] فهاهم الملائكة يعرفون لوطاً بأنفسهم قبل أن يأمروه بإخراج أهله.

قال ابن المنير في تعليقه على الكشاف: (أما لوط فلم يشعر أنهم

---

(١) انتهى ملخصاً من رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) هود: ٧٠.

(٣) الطبري: (١٢/ ٧١).

(٤) هود: ٨١.

ملائكة حتى أعلموه بذلك ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فأول ما أعلموا به أنهم رسل)[1].

ولعل من شواهد ذلك أيضاً ما قاله الملك الذي أرسل إلى مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾[2] فأخبرها عن حقيقته، ثم أعلمها بمهمته.

ولعل منه أيضاً ما بدأ الله به في إرساله لموسى ـ عليه السلام ـ حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ...﴾[3].

قال الزمخشري: (تكرير الضمير في ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة)[4].

ومثله قال ابن الجوزي: (إنما كرر الكناية، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإزالة الشبهة، ومثله: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾[5][6].

ومنه أيضاً ما وجه الله به موسى وهارون عند إتيانهما فرعون، بأن يبدءا بتعريفه بنفسيهما ومهمتهما، حيث قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾[7]. وكذلك قوله تعالى في يس: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[8].

---

(١) الكشاف: (٢/ ٢٨٠).
(٢) مريم: ١٩.
(٣) طه: ١١ ـ ١٢.
(٤) الكشاف: (٢/ ٥٣١).
(٥) الحجر: (٨٩).
(٦) زاد المسير (٥/ ٢٧٣).
(٧) طه: ٤٧.
(٨) يس: ١٤.

ومن أمثلته حديث عمرو بن عبسة السلمي حين قدم مكة يبحث عن النبي ﷺ، فلما لقيه وعرفه مال إلى الإسلام فأمره النبي ﷺ بالرجوع إلى قومه حتى يسمع بظهور الإسلام، فجاء إلى النبي ﷺ في المدينة ـ بعد ذلك ـ فدخل عليه فقال: يا رسول الله: أتعرفني؟ قال: نعم أنت الذي لقيتني بمكة[1].

ومن الشواهد لذلك أيضاً ما سيأتي في حديث جابر بن سليم رضي الله عنه.

* ومن الشواهد للثاني: أي سؤال الطرف الآخر عن نفسه، أو عن اسمه، أو قومه أو مهمته.

ما جاء في سؤال إبراهيم للملائكة ـ على قول بعض العلماء ـ في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2] فأخبرهم بأنه لا يعرفهم[3].

وكما قال الزمخشري في كلامه عن الآية: (. . . ، أو كان هذا سؤالاً لهم كأنه قال: أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم)[4].

ومنه حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «من القوم؟ أو من الوفد؟ قالوا: ربيعة، قال: مرحَباً بالقَومِ أو بالوَفد، غَيرَ خَزَايا ولا نَدَامَى. . .»)[5].

---

(١) أخرجه مسلم: صلاة المسافرين (١/٥٦٩) رقم ٢٩٤، أحمد (٤/١١١)، ابن ماجه: (١/٨٥) رقم ١٦٥.

(٢) الذاريات: ٢٥.

(٣) الطبري: (٢٦/٢٠٦).

(٤) الكشاف: (٤/١٧ـ١٨)، وانظر: زبدة التفسير للأشقر ص ٦٩٣، زاد المسير (٤/١٢٧)

(٥) أخرجه البخاري: الإيمان ٥٣، مسلم: الإيمان (١/٤٦) رقم ٢٣، أحمد (١/٢٢٨).

قال ابن حجر: (قال ابن أبي جمرة: في قوله: «من القوم» دليل على استحباب سؤال القاصد عن نفسه ليعرف فينزل منزلته)[1].

وقال العلامة صديق حسن خان: وفيه دليل على استحباب تأنيس القادم، وقد تكرر ذلك من النبي ﷺ، ففي الحديث: «مرحباً بأم هانىء» وفي قصة عكرمة ابن أبي جهل: «مرحباً بالراكب المهاجر» وفي قصة فاطمة: «مرحباً بابنتي» وكلها صحيحة[2].

وأخرج أبو داود عن أبي جري جابر بن سليم قال: (رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله «مرتين». قال: «لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل السلام عليك، قال: قلت أنت رسول الله ﷺ؟ قال: أَنَا رَسولُ اللهِ الذِي إذَا أَصابَكَ ضُرٌ فدَعوتَه كشَفَه عنْك، وإِنْ أَصَابكَ عَامُ سَنَة فدعَوتَه أَنْبَتَها لَك، وإِذَا كُنتَ بأَرضٍ قفرَاء أو فَلاةٍ فَضلَّت راحِلَتُك فدعَوته رَدَّهَا عَلَيكْ... إلخ»[3].

فهذا الصحابي سأل عن النبي ﷺ أولاً ليعرف من هو. ثم تثبت منه ثانياً، فكان جوابه عليه السلام بما يناسب حال السائل مما كان مفتاحاً لقلبه حيث طلب من النبي ﷺ أن يعهد إليه ويوصيه كما في تمام الحديث. ومما يؤكد هذه القضية ويبين أهميتها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد؟ ـ والنبي ﷺ متكىء بين

---

(١) الفتح: (١/ ١٣١).

(٢) عون الباري لحل أدلة البخاري (١/ ١٨٥).

(٣) أخرجه أبو داود: اللباس (٤/ ٥٥) رقم ٤٠٨٤ واللفظ له، الترمذي: الاستئذان (٥/ ٧٢) رقم ٢٧٢٢، أحمد (٤/ ٦٥).

ظهرانيهم ـ فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكىء. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك، فقال الرجل إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك فقال: سل عما بدا لك، فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله: آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)[1].

فهذا ضمام بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ يسأل عن النبي ﷺ أولاً ليتعرف عليه ثم يناديه ليلفت انتباهه وليتثبت منه، وكذلك يعرف بنفسه وبقبيلته، ومهمته حيث إنه رسول قومه، وقد أحسن في سؤاله وتثبته وفهمه وتبليغه حتى قال عمر رضي الله عنه: (ما رأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام)[2]. وقد جاء في بعض روايات الحديث أنه عرف بنفسه أولاً قبل أن يسأل عن شيء كما في رواية كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال: (جاء رجل من بني سعد بن بكر إلى رسول الله ﷺ ـ وكان مسترضعاً فيهم فقال: أنا وافد قومي ورسولهم)[3]. . فتبين من خلال النصوص السابقة أهمية التعارف بين الطرفين، ودوره في تسهيل البدء في الحوار واستمراره والوصول إلى نتيجته وثمرته.

---

(١) أخرجه البخاري: العلم ٦٣، النسائي الصيام (٤/ ١٢٢) رقم: ٢٠٩٢ وتقدم.
(٢) الفتح: (١/ ١٥١).
(٣) ذكرها ابن حجر في الفتح: (١/ ١٥٣).

٢ ـ طرح أسئلة في غير موضوع الحوار لتهيئة نفسية الطرف الآخر:

إن مما يساعد على سهولة البدء في الحوار ويضمن سيره نحو الأفضل: أن يطرح المحاور عدداً من الأسئلة عن أي أمر عام ليس له علاقة مباشرة بموضوع الحوار، حيث إن هذا يعطي الطرف المقابل فرصة للتأقلم مع جو الحوار كما أنه يكسب المحاور خبرة بطبيعة الطرف الآخر، من خلال حديثه ونبرات صوته وحصيلته العلمية وميولاته، ويحبذ أن تكون الأسئلة مناسبة غير محرجة. وأن تكون إيجابية فالمتحدث اللبق هو الذي يحصل في مبدأ الأمر على أكبر عدد من الإجابات «بنعم»[١].

ومن شواهد ذلك في القرآن: ما بدأ الله به من سؤال موسى عن العصا، وذلك قبل أن يرسله إلى فرعون، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ . . .﴾ إلى قوله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[٢] الآيات. قال الزمخشري في كلامه عن الآية: (وقالوا إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته)[٣].

وقال ابن الجوزي في بيان الفائدة من سؤال الله تعالى لموسى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وهو يعلم ـ (. . القول الثاني: إنه لما اطلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم. أراد أن يؤانسه ويخفف عنه ثقل ما كان فيه من الخوف، فأجرى هذا الكلام للاستئناس)[٤].

---

(١) انظر كتاب «كيف تكسب الأصدقاء» ـ كارينجي ص ١٥٤.
(٢) الآيات: طه: ١٧ـ ٢٤.
(٣) الكشاف: (٢/ ٥٣٣).
(٤) حكاه أبو سليمان الدمشقي (زاد المسير: ٥/ ٢٧٨) بتصرف.

ولعله يشبهه أسلوب القرآن في كثير من المناسبات حيث يبدأ السياق بطرح سؤال ما كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال تنويهاً بهذا الحديث وتهيئة للأذهان[2] ومن شواهد ذلك أيضاً أسئلته ﷺ للصحابة في أكثر من موضع بقصد استحضار أذهانهم ولفت أنظارهم: ـ ومنه حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: (ذكر النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه ـ أو بزمامه ـ قال: أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فأي شهر هذا، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى قال: فَإِنَّ دِمَاءَكم وأَمْوَالَكم وَأَعْرَاضَكُم بَيْنَكُم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هِذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيبَلِّغَ الشَاهِد الغَائِب، فإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ مِنْه)[3]. وفي الفتح عن القرطبي قال: (سؤاله ﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه..)[4] وقال النووي: (هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفخيم والتقرير والتنبيه على عظم مرتبة هذا الشهر والبلد واليوم)[4] ـ فالنبي ﷺ ـ طرح هذه الأسئلة الواضحة الإجابة، إذ ليس المقصود منها تعليمهم إجابتها فهم يعلمون في أي يوم وفي أي شهر وفي أي بلد يحجون. ولكن أراد لفت انتباههم وتهيئة نفوسهم لما سيأتي من الكلام وهو أسلوب لطيف لتفريغ ذهن المستمع وأقرب إلى إنصاته واستعداده للحوار.

---

(١) الذاريات: ٢٤.

(٢) الظلال: (٦/ ٣٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: العلم (٦٧)، مسلم: القسامة (٣/ ١٣٠٥) رقم ٢٩

(٤) الفتح: (١/ ١٥٩)

(٥) مسلم بشرح النووي (١١/ ١٦٩).

ومن نماذجه المشهورة أيضا ما جاء بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] حيث صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى بطون قريش حتى اجتمعوا، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد)[2] فهو ﷺ يسألهم ليقررهم بصدقه، ويهيئهم لقبول ما يخبرهم به من أمر الغيب[3]، كما يشهد لذلك رواية الإمام مسلم لحديث ضمام بن ثعلبة. وقال فيه: (يا محمد! أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم. . . .)[4] الحديث.

قال النووي: (هذه جملة تدل على أنواع من العلم). قال صاحب التحرير: (هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مرسله. وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين. ثم إن هذه الأيمان جرت للتأكيد وتقرير الأمر لا لافتقاره إليها كما أقسم الله تعالى على أشياء كثيرة، هذا كلام صاحب التحرير)[5].

---

(١) الشعراء: ٢١٤

(٢) أخرجه البخاري: التفسير (٤٧٧١)، مسلم: الإيمان (١/ ١٩٣) رقم ٣٥٥، أحمد (١/ ٢٨١).

(٣) الفتح: (٨/ ٥٠٣).

(٤) تقدمت الإشارة إليه آنفاً.

(٥) شرح النووي: (١/ ١٧٠).

فهذه كلها أسئلة غير مقصودة لذاتها. وليست في صلب موضوع الحوار وإنما طرحت للتقرير والتدرج والتهيئة، فبان من هذا أن طرح مثل هذه الأسئلة قبل البدء والدخول في الحوار أدب جميل يحسن بالمحاور مراعاته ليكون الحوار ناجحاً.

٣ ـ استعمال مقدمات أخرى ـ غير ما سبق ـ قبل الدخول في موضوع الحوار: قد يكون الطرفان متعارفين ولا حاجة لإعادة التعارف بينهما، كما قد يكون الوقت ضيقاً لا يتسع لطرح الأسئلة، أو لا يحتاج الوضع إلى مقدمات طويلة عن طريق الأسئلة المعروفة الإجابة (كما تقدم) وإنما يحتاج الوضع إلى كلمات أو عبارات سريعة تهيىء نفسية الطرف الآخر وتلفت انتباهه فلذلك لا بأس بأن يبدأ المحاور بمقدمات لطيفة قبل الدخول في موضوع الحوار.

ومن شواهد ذلك في القرآن ما جاء في دخول الملائكة على إبراهيم وبدئهم بتبشيره بغلام عليم. مما أفرحه وزوجه، وأذهب عنه الروع والفزع، فشرع بعدها في الحوار والجدال كما أخبر الله تعالى عنه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ . . . ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]. قال الزمخشري: (والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملىء سروراً بسبب البشرى بدل الغم فرغ للمجادلة)[2] ـ وقال سيد قطب رحمه الله: ما ملخصه: (وهكذا عجلوا له البشرى. . .

---

(١) هود: ٦٩ـ ٧٤.

(٢) الكشاف: (٢/ ٢٨٢).

وبعد أن اطمأن إلى الملائكة، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته[1].

إذاً فقد كان للبشرى والكلام الذي صحبها، أثر واضح على نفسية إبراهيم عليه السلام، ودور ملموس في تهيئته للحوار.

وقد يكون من هذا الباب أيضاً أمر الله لموسى بأن يخلع نعليه، تهيئة له وإعداداً، قال سيد قطب[2]: (وبعد إعلانه بالتكريم والاختيار، والاستعداد والتهيؤ بخلع نعليه يجيء التنبيه للتلقي ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾[3]. وقريب من ذلك شكوى زكريا إلى ربه، ووصفه لحاله وشيخوخته وخشيته على الدعوة من بعد وفاته، وكان ذلك منه قبل أن يدعو الله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا. . .﴾ إلى قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾[4].

فظهر من خلال الآيات السابقة: أن البشرى لإبراهيم، والأمر بخلع النعلين لموسى، لم يكن من صلب موضوع الحوار، وإنما كان مقدمة له، وكان له أثره الظاهر في فتح باب الحوار.

ومن أدلته أيضاً ما تقدم من قول ضمام للنبي ﷺ (. . . إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك) قال الحافظ ابن حجر: (وظهر عقل ضمام في تقديمه الاعتذار بين يدي مسألته، لظنه أنه لا يصل إلى مقصوده إلا بتلك المخاطبة)[5].

---

(١) الظلال: (٤/٢١٤٨).

(٢) الظلال: (٤/٢٣٣١).

(٣) طه: ١٣.

(٤) مريم: ٤ـ ٥ (وانظر الظلال: ٤/٢٣٠٢).

(٥) الفتح: (١/١٥١).

فكان هذا الكلام من ضمام في غاية الأدب والاعتذار، والتقديم لموضوع الحوار، حتى قال له النبي ﷺ: «سَلْ ما بَدَا لَك» فكانت مقدمة لطيفة شرحت صدر النبي ﷺ له، وكان بعدها ذلك الحوار الطويل الشيق.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، حيث قال موسى: «أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[1]؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال ﷺ: «فحج آدم موسى»[2].

فواضح من هذا الحوار المقدمة الطويلة التي وضعها موسى عليه السلام قبل أن يعاتب آدم أو يحاوره، حيث إنه ذكره بنعم الله عليه من خلقه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه الجنة، ثم عاتبه بخطيئته. وكان رد آدم أبلغ وأقوى، وتمثل فيه هذا الأدب بصورة أوضح، حيث أثنى على موسى وذكره بنعم الله عليه ـ كما قد فعل موسى ـ ثم استدرجه بسؤاله عن زمن كتابة الله للتوراة، وتقريره بأن ذلك كان قبل أن يخلق الله آدم بأربعين سنة، ثم سأله عن الآية التي أخبر الله فيها عن معصيته، وأقر موسى بها، وكان كل ذلك من آدم كالمقدمات لما ذكره بعد ذلك من العتاب والرد على موسى، فكان رداً قوياً مرتباً مؤدباً، أقره عليه رسولنا ﷺ حيث قال: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ».

---

(١) طه: ١٢١.

(٢) تقدم ذكره في أول البحث «التعريفات» ص ٢٩.

ومن المقدمات اللطيفة التي تهيىء جو الحوار: ما كان من مقدمة معاوية بن الحكم السلمي حيث قال: (قلت يا رسول الله: إنا حديثو عهد بجاهلية، فجاء الله بالإسلام، وإن رجالاً منا يتطيرون...) الحديث[1].

فهذا الصحابي يضع مقدمة مختصرة يصف فيها حال قومه، وقرب عهدهم بالجاهلية، ثم مجيء الإسلام ودخولهم فيه، ليسأل بعد ذلك عن بقايا ومخلفات من تلك الجاهلية، وحكمها في الإسلام.

ومن أجمل المقدمات التي استعملت لتهيئة نفسية المحاور، ما كان من فعل المصطفى ﷺ، حيث كان يهيىء جو الحوار والحديث، ويلفت انتباه السامع إليه، ولو بكلمة أو كلمتين، كما جاء في حديث معاذ، حيث كان ردف النبي ﷺ فقال: (يا معاذ بن جبل!، فأجاب: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل فقال: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل! قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ.... الحديث)[2].

فنرى من هذا الحديث أن النبي ﷺ يهيىء نفسية معاذ رضي الله عنه لإخباره بأمر عظيم، ولا يزيد على مناداته باسمه حتى إذا استجاب وانتبه وفرغ سمعه، سكت عليه الصلاة والسلام، ثم يسير ساعة ثم يعود ويناديه ويلفت انتباهه، وفي المرة الثالثة وبعد أن يتأكد من إنصات معاذ وتهيئته، يدخل معه في موضوع الحوار ويبدؤه بسؤال، حتى يشد الانتباه أكثر، ثم يسر إليه بذلك الأمر العظيم. فيعيه معاذ ويفهمه تماماً، ويرسخ في ذهنه ويتذكره إلى وفاته.

ومما استنبطه الحافظ في شرحه لحديث الإفك هذا الأدب حيث

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث الكلمة الطيبة ص ٩١.

(٢) أخرجه البخاري: العلم ١٢٨، مسلم الإيمان (١/٥٨) رقم ٤٨.

قال: (وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام)[1] وأخذه من كلام عائشة في بداية عرضها للقصة وذكرها لما كان يفعله ﷺ من القرعة بين نسائه وأن الحادثة كانت بعد نزول الحجاب.. إلخ[2].

ولعل هذه النماذج كافية في بيان المقصود من أهمية وضع المقدمات، وبيان دورها في بدء الحوار، وأثرها البالغ في تذليل نفسية الطرف الآخر وتقريب وجهات النظر.

---

(١) الفتح (٨/ ٤٧٩).

(٢) سيأتي الحديث وتخريجه إن شاء الله (انظر ص ١٢٥).

المبحث الثاني

الإخلاص وصدق النية

لا بد من توفر حسن النية وسلامة القصد، والإخلاص لله في الحوار والمناظرة، وأن يكون الحوار لحراسة الشريعة والذب عنها، ولدلالة الناس على الهدى وتثبيتهم عليه، وكشف أحوال المندسين بينهم[1]. ولا ينبغي أن يدخل الداعية في حوار ما لم يكن متأكداً من أن نيته لله عز وجل، متخلصاً من قصد الرياء والسمعة، بعيداً عن قصد الظهور على الخصم، أو التفوق على الآخرين، أو الانتصار للنفس، وبز النظير أو انتزاع الإعجاب والثناء[2] فإن من (تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد، كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين، كان من المجاهدين في سبيل الله، من ورثة الأنبياء، خلفاء الرسل)[3].

وهذا الأدب قد يكون في النظر سهل الاعتبار والمأخذ، ولكنه عند التطبيق والتدقيق عزيز المنال، صعب المدرك، فكم من الناس يظهر أنه يدعو إلى الحق وهو يدعو إلى نفسه، ويريد العلو والانتصار لشخصه أو لشيخه أو غير ذلك[4].

---

(١) انظر: «الرد على المخالف» بكر أبو زيد ص ٥٤.

(٢) أصول الحوار ص ١٩.

(٣) الفتاوى: (٢٨/ ٢٣٥).

(٤) أدب الخلاف لابن حميد ص ٥٠.

ويمكن للمحاور أن يصحح نيته قبل الدخول في الحوار، وذلك بمساءلة النفس عن الغرض من الحوار وهل هو إرادة الحق فحسب، أو أن هناك أغراضاً أخرى كحب الظهور وإفحام الخصم، أو أن يرى الناس مكانه، أو تحقيقاً لشهوة الكلام، ثم وبعد التأكد من صحة النية فعليه أن ينظر هل هناك مصلحة وفائدة من الحوار في هذه القضية، أم أنها ستكون سبباً في شقاق ممقوت وخلاف مذموم، وفرقة وتباغض، أو سبباً في إثارة فتنة، أو فتح باب للشر يمكن الاستغناء عنه، فإذا وجد شيء من الأغراض الفاسدة أو احتمالاً لمفسدة، فعلى المحاور أن يحجم عن الحوار، حتى تتجرد نيته تماماً لله عز وجل، ويتأكد أنه يريد الحق، وأن المصلحة في دخول الحوار واجراء المناظرة.

ولذلك فإن المفترض في المحاور المسلم المخلص لله عز وجل أن يفرح إذا ظهر الصواب على لسان مخالفه، وقد تقدم ما روي عن الإمام الشافعي قوله: (ما ناظرت أحداً إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه)[1]. فيكون المهم هو صحة الفكرة وظهور الحق، فليست الأفكار ملكاً لأحد بعينه، وليس الصواب حكراً على شخص دون آخر، والفرح بانتشار الفكرة الصحيحة ولو بجهود الغير، وظهورها على لسان الآخرين، دليل على الصدق مع الله عز وجل، وعلى التخلص من حظوظ النفس، يقول سيد قطب رحمه الله[2]: (إن الفرح الصافي هو الثمرة الطبيعية لأن نرى أفكارنا وعقائدنا ملكاً للآخرين، ونحن بعد أحياء. إن مجرد تصورنا لها أنها ستصبح ـ ولو بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض ـ زاداً للآخرين وريا ليكفي لأن تفيض قلوبنا بالرضى والسعادة والاطمئنان) ثم يمثل لمن يريد احتكار الأفكار، وامتلاك الحقائق، بقوله: (التجار وحدهم هم الذين يحرصون على العلاقات التجارية لبضائعهم كي لا يستغلها الآخرون،

(١) انظر معناه في سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٢٩).
(٢) أفراح الروح ص ١٤ـ ١٥.

ويسلبوهم حقهم من الربح، أما المفكرون وأصحاب العقائد فكل سعادتهم في أن يتقاسم الناس أفكارهم وعقائدهم ويؤمنوا بها إلى حد أن ينسبوها لأنفسهم لا إلى أصحابها الأولين).

والكلام في موضوع الإخلاص طويل جداً، وذلك لأهمية الموضوع ومنزلته، حيث إنه أحد شروط قبول العمل كما هو معروف، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: [﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾: وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ][2].

وعليه فكل عمل لا بد له من نية، وإنما أجره وجزاؤه على حسب تلك النية، كما قال ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[3] ومن هذه الأعمال الفاضلة التي تحتاج إلى صدق النية، ويتأكد فيها الإخلاص: الحوار والمناظرة، إذ إن النفس تهوى العلو والانتصار، وترفض الخضوع والإنكسار ـ ولو كان أمام الحق الأبلج ـ فهو أمر عسير إلا على من يسره الله عليه، وإن مما يقدح في الإخلاص وينافيه الرياء والسمعة وطلب الشهرة والرغبة في العلو والانتصار، والتعصب والعجب والغرور والتكبر، والافتخار والبغي واحتقار الآخرين وإظهار الشماتة بهم:

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٠٨).

(٣) البخاري: في كتاب بدء الوحي برقم ١، مسلم: كتاب الإمارة (٣/١٥١٥) رقم ١٥٥، أبو داود: كتاب الطلاق (٢/٢٦٩) رقم ٢٢٠١، الترمذي: كتاب فضائل الجهاد (٤/١٧٩)، النسائي كتاب الطهارة (١/٥٨) رقم ٧٥.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾[1]. ولذلك كان أمر الإخلاص عسيراً، إذ قد يسلم المحاور من مرض من تلك الأمراض، فيقع في آخر أعظم منه، فنسأل الله الإخلاص في القول والعمل، ونعوذ بالله من أمراض القلوب ومداخل الشيطان.

أما النصوص الواردة في ضرورة الإخلاص في الحوار فمنها:

ما جاء في دعوة الأنبياء لأقوامهم، وصدقهم فيها، وابداء النصح لهم، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2]، ومثله قول هود عليه السلام ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[3] قال ابن كثير رحمه الله: (وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة)[4].

فهؤلاء رسل الله المؤيدون بالوحي، يظهر نصحهم وإخلاصهم وحسن مقاصدهم، بل يجهدون في النصح والبلاغ، قال الشوكاني رحمه الله (يقال نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إمحاض النصح، قال الأصمعي: الناصح: الخالص من الغل، وكل شيء خلص فقد نصح فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد)[5].

وقال الزمخشري: نحواً مما تقدم: (وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة مع إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصوداً بها جانبه

---

(١) الإسراء: ٣٨.
(٢) الأعراف: ٦١ـ ٦٢.
(٣) الأعراف: ٦٧ـ ٦٨.
(٤) ابن كثير: (٢/ ٢٢٤).
(٥) فتح القدير: (٢/ ٢١٦).

لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى، ورسله عليهم السلام)[1].

وإذا كان الرسل عليهم السلام قد نصحوا وأخلصوا، فإن من تمام الإخلاص طلب الأجر من الله عزّ وجلّ، وعدم سؤال أحد من الناس مالاً ولا أجراً على الدعوة والنصح والإيمان، وهذا ما قاله الرسل منذ أن بعثوا وفور أن أرسلوا، فقد قال نوح عليه السلام ما ذكره الله عنه في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[2] وقالها هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

ومثل ذلك ما ذكره الله في مواضع أخر عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، حيث قال كل واحد منهم لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[4] ونحو ذلك في معنى تلك الآيات.

فإعلان هذا الأمر دليل على الإخلاص، وقطع للطريق على المغرضين المشككين، يقول الزمخشري في بيان معنى قوله: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾[5] (أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا)[6] وقال في موضع آخر: (ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم

---

(١) الكشاف: (٢/ ٨٦).

(٢) هود: ٢٩.

(٣) هود: ٥١.

(٤) الشعراء: (١٠٧ ـ ١٠٩ ـ، ١٢٥ ـ ١٢٧، ١٤٣ ـ ١٤٥، ١٦٢ ـ ١٦٤، ١٧٨ ـ ١٨٠).

(٥) يونس: ٧٢.

(٦) الكشاف: (٢/ ٢٤٦).

المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع)[1].

فينبغي على المحاور أن يقصد وجه الله أولاً، ثم يبين قصده وهدفه من حواره، وخاصة إذا كان الخصم معانداً مستكبراً، ثم عليه أن يساعد خصمه في طلب الإخلاص وتصحيح النية والقصد، والبعد عن الاستغلال السيء للحوار، قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تعليقه على آيات الشعراء ما نصه: (ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس. وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة، تمييزاً لها مما عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد. وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائماً مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب، فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائماً متجردين، لا يطلبون أجراً على الهدى، فأجرهم على رب العالمين)[2].

ومن أدلة ذلك أيضاً ما جاء في قول شعيب عليه السلام لقومه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[3] والمعنى: (أي ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب استطاعتي)[4]. فقد بين عليه السلام مقصده، وغاية ما يريده والسعي إليه، ونفى عن نفسه أي مقصد آخر، أو غرض دنيوي، وهذا تحقيق الإخلاص.

---

(١) الكشاف: (٢/ ٢٧٥).
(٢) الظلال: (٥/ ٢٦٠٧).
(٣) هود: ٨٨.
(٤) تفسير السعدي: (٢/ ٣٨٤).

ومن الشواهد على هذا الأدب ما تقدم ذكره[1] من الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ . . . ﴾[2] الآية. فهذه الآية نص في المناظرة والحوار، وأهمية الإخلاص لله فيهما، وضرورة طلب الحق وحده، كما قال الزمخشري في معنى الآية أي (أن تقوموا لوجه الله خالصاً)[3]. وقال الشيخ السعدي رحمه الله: (أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله)[4] وكما قال سيد قطب: (وهي «واحدة» إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق. القيام لله.. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة... التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون)[5].

ومن شواهده أيضاً ما علق به سيد قطب رحمه الله على قصة الملأ من بني إسرائيل وقولهم لنبيهم: ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[6].

حيث قال: (وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر، فلا بدّ للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل، ولا بد أن يتجرد في حسه الهدف... في سبيل الله.. فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلى أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدهم فيما يعرضون عليه من

---

(١) انظر تفصيل الكلام عن الآية في المبحث الثالث من الباب الأول.
(٢) سبأ: ٤٦.
(٣) الكشاف: (٣/ ٢٩٤).
(٤) تفسير السعدي (٤/ ١٩٨).
(٥) الظلال: (٥/ ٢٩١٤).
(٦) البقرة: ٢٤٦.

الأمر. . .) إلخ كلامه[1]. وكذلك تعليقه رحمه الله على قصة موسى مع فرعون وسحرته، ونصحه عليه السلام لهم قبل الدخول معهم في الجدال والتحدي قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾[2] حيث قال رحمه الله: (والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها. ويبدو أن هذا الذي كان، فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة، فتلجلج في الأمر)[3].

وإذا كان أمر الإخلاص بالأهمية التي ظهرت، فإنه لا بأس بالنسبة للمحاور أن يتأكد من نية محاوره وسلامة قصده، ومثال ذلك ما أخرجه الترمذي عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منْ سَلَكَ طَرِيقاً يبتَغِي فيه عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ طَرِيقاً إلىٰ الجنَّةِ. . . الحديث»[4].

وقريب منه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله! ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ به

---

(١) الظلال: (١/ ٢٦٦).

(٢) طه: ٦١.

(٣) الظلال: (٤/ ٢٣٤١).

(٤) الترمذي: كتاب العلم (٥/ ٤٨) رقم ٢٦٨٢ (وانظر صحيح الترمذي للألباني: رقم ٢١٥٩)، ابن ماجه في المقدمة (١/ ٨١) رقم ٢٢٣.

علينا، قال: آلله! ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عزّ وجلّ يباهي بكم الملائكة)[1].

ففي الحديثين ما يدل على أهمية الإخلاص وتأكده، وكذلك فيهما أن للمحاور أن يذكر محاوره ويتأكد من نيته وسلامة قصده، كما فعل أبو الدرداء ومعاوية، اقتداء برسول الهدىٰ ﷺ. ولا مانع من أن يحث المحاور خصمه ويرغبه في الصدق مع الله، والإخلاص له والتجرد، وترك الرياء والسمعة وغيرها من الأمراض القلبية، والشهوات الخفية، ومن الشواهد التي تدل على إمكانية الترغيب في صدق النية والحث عليها ما جاء في قصة الأعرابي الذي آمن واتبع النبي ﷺ، فلما كانت غزوة وغنم النبي ﷺ سبياً فقسم له فأعطوه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ها هنا وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة. فقال: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به النبي ﷺ يحمل قد أصابه بسهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: أهو هو. قالوا: نعم. قال: صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ..»[2] إلى آخر الحديث.

ولعل هذه الأمثلة كافية في بيان الأدب المقصود، وهو الإخلاص والتجرد لله عزّ وجلّ قبل وأثناء وبعد الحوار، وتجنب كل ما من شأنه أن يخدش الإخلاص أو يقدح في سلامة القصد، إذ إنه قد يحبط العمل ويضيع الثمرة والنتيجة.

---

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٥) رقم ٤٠، أحمد: (٤/ ٩٢)، النسائي كتاب القضاة (٨/ ٢٤٩) رقم ٥٤٢٦.

(٢) النسائي: كتاب الجنائز (٤/ ٦٠) رقم ١٩٥٣ (انظر صحيح النسائي للألباني رقم ١٨٤٥).

والمناظرة والحوار بدون نية حسنة مضرة بالمحاور (ذكر الذهبي عن ابن بطة قال: سمعت البربهاري يقول: المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، والمجالسة للمناظرة غلق باب الفائدة)[1] والله أعلم.

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٩١).

المبحث الثالث

الإنصاف والعدل والتفريق بين الفكرة وصاحبها

إن العدل والإنصاف مع الخصم، مبدأ مهم صعب جليل، وإن المفترض في المسلم أن يكون عادلاً منصفاً، حيث إن منهج هذا الدين هو الأمر بالعدل والنهي عن الظلم، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[1]. والعدل مطلوب في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾[2] كما هو مطلوب في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[3]، ولو اتبع المسلمون هدي دينهم في هذا الأمر لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه من الظلم والاختلاف والنزاع والشقاق وكيل التهم والتشهير وتتبع العثرات وكشف الزلات ونسيان الحسنات ونحوه مما لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه. ومن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم والتفريق بين الفكرة وصاحبها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة، والمعلومات الجديدة التي يوردها خصمه وهذا الإنصاف له أثره الإيجابي لقبول الحق، ويضفي على المحاور روح الموضوعية[4].

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

(٣) النساء: ٥٨.

(٤) انظر رسالة: «وإذا قلتم فاعدلوا» للجليل ص ٤٢، وأصول الحوار ص ٤٢.

وإنما كان الإنصاف والعدل صعباً، لما اتصف به الإنسان من الجهل والظلم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1] فأكثر الناس مجبول على عدم الإنصاف إلا من رحم الله ولذلك قال الإمام الشعبي رحمه الله: (والله لو أصبت تسعاً وتسعين مرة، وأخطأت مرة لأعدوا علي تلك الواحدة)[2].

وقد ذكر العلماء ضوابط وقواعد في العدل والإنصاف: فمن ذلك قول عبد الله بن المبارك رحمه الله: (إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوىء، وإذا غلبت المساوىء على المحاسن لم تذكر المحاسن)[3].

وذكر عن حاتم الأصم أنه قال: (معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي، قالوا: وما هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه، فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال: (سبحان الله ما كان أعقله من رجل)[4].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته[5]:

وتعرّ من ثوبين من يلبسهما ... يلقى الردى بمذمة وهوان
ثوب من الجهل المركب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبان
وتحل بالإنصاف أفخر حلة ... زينت بها الأعطاف والكتفان

ولا شك أن الآيات والأحاديث، والأمثلة والنماذج والسير كثيرة جداً في تقرير هذا المبدأ وتأصيله، وهناك نصوص عامة تأمر بالعدل والإنصاف في الحوار وغيره ومنها:

---

(١) الأحزاب: ٧٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: (٤/٣٠٨).
(٣) نفس المصدر: (٨/٣٩٨).
(٤) الرد على المخالف: نقلاً عن ابن الجوزي: ص ٦٠.
(٥) الكافية الشافية لابن القيم: ١٩.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] ، ومثلها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2].

وخلاصة معنى الآيتين: أن الله عز وجل يرشد المؤمنين إلى أن يكون من أخلاقهم وصفاتهم القيام بالقسط أي العدل، وأن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو أحد من أقاربهم، كما أنه يحذرهم من أن تحملهم العداوة والبغضاء لقوم على ظلمهم وجورهم، ويزجرهم عن اتباع الهوى في الشهادة ونحوها[3].

قال الزمخشري عند تفسيره للآية الثانية المذكورة آنفاً: (وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه)[4]. فالآيات تفرض العدل في جميع الأحوال، كما تحذر الظلم وتحرم الجور في جميع الأوقات، إذ قد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن (جزاء ترك العدل، وعدم إقامة القسط في الدنيا، هو ذل الأمة وهوانها، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى، وأشد وأبقى)[5].

وكما يروى عن شيخ الإسلام قوله: إن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة، ويذل الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة.[6] ولذلك كان

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) انظر الطبري: (٥/ ٣٢١، ٦/ ١٤١).

(٤) الكشاف: (١/ ٥٩٨).

(٥) مختصر تفسير المنار: (٢/ ٢٩٣).

(٦) انظر الاستقامة: ٢/ ٢٤٧.

المسلمون بهداية القرآن ونهجه هم (أعدل الأمم وأقومها بالقسط وصدق على سلفهم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾[1]، ثم خلف من بعد أولئك السلف خلف نبذوا هداية القرآن وراء ظهورهم، حتى صارت جميع الأمم تضرب المثل بظلم حكامهم وسوء حالهم، وتفخر عليهم بالعدل، بل صار الذين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه يلتمسون من تلك الأمم القسط وما يهدي اليه من العلم)[2].

ومن الآيات في ذلك ما جاء في الوصايا العشر في آخر سورة الأنعام ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[3] والمعنى: أي إذا قلتم بقول في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل بين الناس، فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، بل تحروا الصواب، وراعوا الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، وراعوا الإنصاف وعدم الميل إلى طرف دون آخر، ولا تتعصبوا لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو، فإن ذلك من الظلم المحرم[4].

ومن نماذج الإنصاف في القرآن ما جاء في وصف أهل الكتاب وذكر بعض مثالبهم كما في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[5]

---

(١) الأعراف: ١٨١.

(٢) مختصر المنار (٢/١٩٩).

(٣) الأنعام: ١٥٢.

(٤) باختصار وتصرف عن الطبري: (٨/٨٦) وفتح القدير: (٢/١٧٨)، وتيسير الكريم الرحمن: (٢/٨٦).

(٥) آل عمران: ١١٢.

ثم أنصف الله عز وجل المتقين منهم بقوله: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ . . . ﴾[1] الآيات ومثلها إنصافهم في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا . . . ﴾ الآية[2].

قال في الظلال عند الآية الأولى: (وهذا غاية الإنصاف والعدل للقلة الخيرة منهم، التي وعدها الله بالوعد الصادق لهم: أنهم لن يبخسوا حقاً، ولم يفكروا أجراً مع الإشارة إلى أن الله سبحانه - علم أنهم من المتقين)[3].

ومن صور الإنصاف في كتاب الله عز وجل ما جاء في محاورة بعض المعاندين، وإنصافهم ومعاملتهم بالعدل، الذين قال الله عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[4] فلقد كانت تلك شبهتهم وهذه حيلتهم، ومع ذلك فقد أنصفوا حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[5] قال سيد قطب رحمه الله: (وهذه نهاية الإنصاف، وغاية المطاولة بالحجة)[6].

ومن نماذج الإنصاف والاعتدال، الإنصاف في محاورة المشركين الطويلة، والتي تبدأ بتقريرهم بربوبية الله عز وجل ثم تضع الفريقين المتحاورين في الميزان العادل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم

---

(١) آل عمران: ١١٣.
(٢) آل عمران: ٧٥.
(٣) بتصرف يسير عن الظلال (١/ ٤٥٠).
(٤) القصص: ٤٨.
(٥) القصص: ٤٩.
(٦) الظلال (٥/ ٢٦٩٩).

مِنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[1] وليس بعد هذا من عدل، قال الزمخشري بعد الآية: (وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من [موافق أو مخالف][2] قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك)[3]. وقال في الظلال: (وهذه غاية النصفة والاعتدال والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله ﷺ ـ للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بدّ أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال. ليثير التدبر والتفكر في هدوء، لا تغشى عليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال والمحال، فإنما هو هاد ومعلم، يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم، لمجرد الإذلال والإفحام. ثم قال: الجدل على النحو المهذب الموحي أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين على الإذعان والإستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادىء والاقتناع العميق. وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة)[4]. ولم يقتصر الأمر عند ذلك الإنصاف في الحوار ولكن زيادة في العدل يقول لهم: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[5]. وذكر في الكشاف: (هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول، حيث أسند الإجرام إلى النفس وأسند العمل إلى المخاطبين التزاماً للعدل والإنصاف)[6].

ومن أمثلة الإنصاف في الحوار، محاورة مؤمن آل فرعون لقومه

---

(١) سبأ: ٢٤.

(٢) في الأصل (من موال أو مناف) وفي الحاشية (من موافق أو مخالف). الكشاف (٢/ ٢٨٩).

(٣) الكشاف (٣/ ٢٨٩).

(٤) الظلال (٥/ ٢٩٠٥).

(٥) سبأ: ٢٥.

(٦) الكشاف بتصرف (٣/ ٢٨٩).

ومنها قوله ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

ووجه الاستدلال في الآية: (إن هذا الرجل المؤمن قد سلك مع قومه طريق الإنصاف في القول، وأتاهم من جهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه فقال: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[2] وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه: ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[3] ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلاً أن يتعصب له أو يرمي بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[3][3].

وقد ذكر سيد قطب رحمه الله وجهاً في الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾[4] ثم قوله: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ونص كلامه: (ثم يفرض لهم أسوأ الفروض، ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية، تمشياً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ وهو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه، ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقاً، فيحسن الاحتياط

---

(١) غافر: ٢٨.

(٢) غافر: ٢٨.

(٣) انظر الكشاف (٣/ ٤٢٥).

(٤) غافر: ٢٨.

لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.. وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه. وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام)[1].

ويظهر تقرير مبدأ الإنصاف واضحاً، وتثبيت مبدأ التفريق بين الفكرة وصاحبها في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2] فعلى أن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (إنه من تصديق الله تعالى لقولها)[3]: فإن هذا فيه إنصاف للقائلة وهي بلقيس، حيث صدقها الله عز وجل وقبل قولها، وقد كانت آنذاك كافرة.

إلى غير ذلك من أمثلة القرآن وأدلته، أما الشواهد من السنة فهي كثيرة جداً وعليه فسأذكر بعضها، مع اختصار الأحاديث، وذكر موضع الشاهد فيها:

حديث حاطب بن أبي بلتعة في فتح مكة وإرساله لأهل مكة بمسير النبي ﷺ إليهم، وإفشاؤه لسره، ومع ذلك فإن موقف النبي ﷺ منه كان موقف المنصف العادل، حيث إنه (تثبت من أمره عن طريق الوحي المنزل عليه، ثم استدعى حاطباً وسأله لمعرفة سبب فعلته وظروفه وملابساته، ثم عمد إلى وزنه بميزان العدل حيث جمع حسناته وسيئاته، فانغمرت سيئته في بحر حسناته)[4]، وهذا في غاية الإنصاف، ونص الشاهد من الحديث: (فقال النبي ﷺ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها

---

(١) الظلال: (٥/ ٣٠٧٩).

(٢) النمل: ٣٤.

(٣) انظر زاد المسير (٦/ ١٦٩).

(٤) رسالة: «وإذا قلتم فاعدلوا» ص ٣٩.

عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ، وَلاَ تَقُوْلُواْ لَه إِلاَّ خَيْراً». فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ»؟ فقال: «لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ ـ أَو فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ـ فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم)[1].

وفي الحديث بيان واضح لمعنى الإنصاف وتطبيقه العملي الصادر من مشكاة النبوة، فإن فعلة حاطب التي فعلها تسمى في عصرنا «الخيانة العظمى»، وحكمها الإعدام في «الميدان» لمن ثبت تورطه فيها، ولكن الهادي البشير يقرر حاطباً ويتثبت منه، ويكشف عذره ويسأل عن مبرر فعلته، ثم يصدقه فيما قال، ثم يزيد على ذلك فينهى عن إيذائه بكلمة أو تجريح «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً»، ثم يذكر الصحابة بحسنات حاطب وخيره الكثير، وهذا مبلغ من العدل لا يبلغه إلا من شرح الله صدره، وليت كثيراً من دعاة الإسلام يعون مثل هذا الدرس من قصة حاطب رضي الله عنه، ويعطفون على أخطاء إخوانهم، ويزنوها بميزان الشرع العادل المنصف، بدلاً من التجريح والتشهير والفضح والشماتة، أو المبالغة في ذكر الخطأ وجمع السيئات كلها، والضرب على ذكر شيء من الحسنات، وفي مثل هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، يخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً فدل على أن مقتضى عقوبته قائم

---

(١) أخرجه البخاري المغازي (٣٩٨٣)، مسلم: فضائل الصحابة (٤/ ١٩٤١) رقم ١٦١.

لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.. إلى أن قال: وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أنه من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع[1]

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللائي سررن كثير. اهـ[2]

ومن أمثلة الإنصاف في السنة ما جاء في حديث أبي هريرة الطويل، الذي فيه أن النبي ﷺ وكله بحفظ زكاة رمضان، فأتاه آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأمسك به ثم خلى سبيله ثم عاد الثانية والثالثة إلى أن قال في الثالثة: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قال: قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[3] حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال له: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوب، تَعْلَمْ مَنْ تُخَاطِبْ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قال: لَا، قال: ذَاكَ شَيْطَان»[4].

فهذا رسول الله ﷺ لا يمتنع من تصديق أعدى الأعداء، ـ وهو

---

(١) هذا البيت لا يعرف قائله كما ذكر ذلك ابن خميس في كتاب الشوارد: ١/٣١٩، ط دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٤ هـ.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ١٩٢.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الوكالة (٢٣١١).

الشيطان ـ وقبول الحق منه مع أنه كثير الكذب، فهذا تفريق بين الفكرة الصحيحة التي أخبر بها الشيطان، وبين صاحبها ـ العدو الكذاب.

وقد أشار ابن حجر رحمه الله إلى قريب من هذه الفائدة فقال: (وفي الحديث من الفوائد أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها)[1].

ومن نماذج الإنصاف أيضاً ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الرحمن ابن شماسة[2] قال: أتيت عائشة أسألها عن شيء فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم[3] في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: إما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي، أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[4].

فعائشة رضي الله عنها لا تمتنع عن قول الحق والثناء على من قتل أخاها، بذكر دعاء النبي ﷺ لمن رفق بأمته، وهذا من أدبها وأمانتها

---

(١) فتح الباري: (٤/ ٤٨٩) بتصرف يسير.

(٢) قال في التهذيب: (عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب بن أحور المهري أبو عمرو المصري. قال العجلي: مصري تابعي ثقة وذكره ابن حبان في الثقات. قال يحيى بن بكير مات بعد المائة..) تهذيب التهذيب لابن حجر: (٦/ ١٩٥) بتصرف.

(٣) قيل هو عمرو بن العاص، وقيل هو معاوية بن خديج التجيبي (انظر: إكمال إكمال المعلم على صحيح مسلم للأبي (٥/ ١٧٣).

(٤) مسلم: كتاب الإمارة (٣/ ١٤٥٨) رقم ١٩، أحمد (٦/ ٦٢).

وإنصافها، قال النووي في تعليقه على الحديث: (فيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل الفضل ولا يمتنع منه لسبب عداوة ونحوها)[1].

ومن الشواهد لهذا الأدب ما كان من إنصاف ابن عباس لعائشة رضي الله عنهم، حيث إنه كان على خلاف معها ولكن لم يمنعه ذلك من أن يشهد لها بالعلم، ويأخذ عنها الحق، وقصة ذلك أنّ سعد بن هشام بن عامر[2] أتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة فأتها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فذهب فسألها، ثم عاد إلى ابن عباس فحدثه بحديثها، فقال له: صدقت. لو كنت أقربها[3] أو أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني به. قال: قلت: لو علمت أنك لا تدخل عليها ما حدثتك حديثها)[4].

ومن الأمثلة في ذلك إنصاف عائشة رضي الله عنها لحسان بن ثابت مع أنه كان ممن وقع في أمر الإفك وتكلم به، فقد أخرج البخاري عن هشام عن أبيه قال: ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ[5]. وأخرج عن مسروق قال: (دخلنا علىٰ

---

(١) شرح النووي: (١٢/ ٢١٢).

(٢) قال في التهذيب: (سعد بن هشام بن عامر الأنصاري المدني ابن عم أنس، قال النسائي: ثقة. وذكر البخاري إنه قتل بأرض مكران على أحسن أحواله. وقال ابن سعد: كان ثقة إن شاء الله تعالى وذكره ابن حبان في الثقات)، التهذيب: (٣/ ٤٨٣).

(٣) وفي رواية أبي داود (لو كنت أكلمها): كتاب الصلاة (٢/ ٤١) رقم ١٣٤٢.

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين (١/ ٥١٢) رقم ١٣٩، أبو داود: كتاب الصلاة (٢/ ٤١) رقم ١٣٤٢، النسائي: كتاب قيام الليل (٣/ ١٩٩) رقم ١٦٠١، وأحمد (٦/ ٥٤).

(٥) البخاري كتاب المغازي (٤١٤٥)، مسلم كتاب التوبة (٤/ ٢١٣٧) رقم ٥٧، أحمد (٦/ ١٩٧).

عائشة رضي الله عنها وعندها حسان بن ثابت.. إلى قوله: فقلت لها: لم تأذني له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1] فقالت: وأي عذاب أشد من العمى؟ قالت له: إنه كان ينافح ـ أو يهاجي ـ عن رسول الله ﷺ[2].

فعائشة رضي الله عنها لم تنس لحسان ما كان له من الفضل والخير، ومنه دفاعه ومنافحته عن النبي ﷺ، فتزن خطأه ووقوعه في عرضها، بدفاعه عن الدين والرسول ـ عليه السلام ـ وهذا من العدل والقسط والإنصاف.

ومن الأدلة لهذا الأدب إنصاف علي رضي الله عنه لأبي بكر، والاعتراف بفضله وسابقيته، مع ما وجد بينهما من خلاف، وكذا بين أبي بكر وفاطمة في مسألة الميراث (فلما توفيت دفنها زوجها ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها. وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأتنا أحد معك، كراهة لمحضر عمر، فقال عمر: لا والله، لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينهم. فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علي فقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً، حتى فاضت عينا أبي بكر. فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي... فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه ثم استغفر، وتشهد علي فعظم حق أبي

---

(١) النور: ١١.
(٢) البخاري كتاب المغازي (٤١٤٦).

بكر، وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكاراً للذي فضله الله به)[1]،

[قال في الفتح: قال القرطبي: من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن الاعتذار، وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحياناً، لكن الديانة ترد ذلك، والله الموفق][2].

ومن أمثلة الإنصاف كذلك، ما كان من اعتدال أبي بكر وإنصافه للأنصار، مع ما وجد من خلاف في مسألة الخلافة حيث قال خطيب الأنصار: (أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم ـ معشر المهاجرين ـ رهط، وقد دفت[3] دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا[4] من أصلنا وأن يحضنونا[5] من الأمر.. إلى قوله: فقال: أبو بكر: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش... إلخ الحديث)[6].

فاعتراف أبي بكر رضي الله عنه للأنصار بفضلهم ومكانتهم دليل على عدله وإنصافه.

ومن تمام الإنصاف أن يطلبه المحاور من خصمه، ويقرره بصدق فكرته وصحة كلامه، ومن أمثلة ذلك ما روي في قدوم المقدام بن معد

---

(١) البخاري كتاب المغازي: (٤٢٤٠).
(٢) الفتح: (٧/ ٤٩٥).
(٣) بدال مهملة والفاء: أي عدد قليل. الفتح (١٢/ ١٥١).
(٤) بخاء معجمة وزاي: أي يقتطعونا عن الأمر ويتفردوا به دوننا (الفتح ١٢/ ١٥١).
(٥) بحاء مهملة وضاد معجمة: أي يخرجونا. الفتح (١٢/ ١٥٢).
(٦) البخاري كتاب الحدود ٦٨٣٠.

يكرب على معاوية، فقال معاوية للمقدام: أعلمت أن الحسن بن علي توفي؟ فرجع المقدام، فقال له رَجل: أتراها مصيبة؟ قال له: ولم لا أراها مصيبة وقد وضعه رسول الله ﷺ في حجره، فقال: «هذا مني وحسين من علي» فقال الأسدي ـ رجل من بني أسد من أهل قنسرين ـ : جمرة أطفأها الله عز وجل، قال: فقال المقدام: أما أنا فلا أبرح اليوم حتى أغيظك وأسمعك ما تكره، ثم قال: يا معاوية، إن أنا صدقت فصدقني، وإن أنا كذبت فكذبني، قال: أفعل، قال: فأنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الذهب؟ قال: نعم، قال: فأنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الحرير؟ قال: نعم، قال: فأنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها؟ قال: نعم، قال: فوالله لقد رأيت هذا كله في بيتك يا معاوية، فقال معاوية: قد علمت أني لن أنجو منك يا مقدام.. إلخ الحديث)[1].

وموضع الشاهد كما هو ظاهر النص في قول المقدام: (إن أنا صدقت فصدقني وإن أنا كذبت فكذبني)، فهذا إنصاف للخصم، مع قوة في الحجة، وجرأة في الحق.

ومن أعجب أمثلة الإنصاف التي بلغها الصحابة رضوان الله عليهم، حتى عند وجود الخلاف بينهم، ما رواه البخاري عن ابن أبي مليكة[2] من قصة ابن عباس مع ابن الزبير ومما قاله فيها: (وكان بينهما شيء فغدوت على ابن عباس فقلت: أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل ما حرم الله؟ فقال: معاذ الله، إن الله كتب ابن الزبير وبني أمية محلين، وإني والله لا أحله أبداً.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود، كتاب اللباس (٤/٦٧) رقم ٤١٣١، النسائي: كتاب الفرع والعتيرة (٧/١٧٦) رقم ٤٢٥٥ (انظر صحيح النسائي للألباني رقم ٣٩٦٨).

(٢) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان، كان قاضياً لابن الزبير ومؤذناً له، يكنى أبا محمد، وثقه أبو زرعة وأبو حاتم والعجلي وابن حبان، مات سنة سبع عشرة ومائة، انظر التهذيب: (٥/٣٠٦ ـ ٣٠٧).

قال: قال الناس بايع لابن الزبير، فقلت: وأين بهذا الأمر عنه[1]، أما أبوه فحواري النبي ﷺ يريد الزبير، وأما جده فصاحب الغار ـ يريد أبا بكر ـ، وأما أمه فذات النطاق، يريد أسماء. وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة، وأما عمته فزوج النبي ﷺ، يريد خديجة، وأما عمة النبي ﷺ فجدته، يريد صفية، ثم عفيف في الإسلام، قارىء للقرآن، والله إن وصلوني وصلوني من قريب، وإن ربوني ربوني أكفاء كرام.. إلخ كلامه)[2].

فهذا من حسن إنصاف ابن عباس رضي الله عنه لابن الزبير، فمع الخلاف القائم بينهما لم يمنعه ذلك من ذكر شرف ابن الزبير وأسلافه والثناء على جميل صفاته، ويزيد العجب ما جاء في الرواية الأخرى التي ذكرها ابن أبي مليكة حيث قال: (دخلنا على ابن عباس فقال: ألا تعجبون لابن الزبير قام في أمره هذا فقلت: لأحاسبن نفسي له، ما حاسبتها لأبي بكر ولا لعمر، ولهما كانا أولى بكل خير منه.. إلخ كلامه)[3].

قال الحافظ في الفتح (وقوله: «لأحاسبن نفسي».. أي لأناقشنها في معونته ونصيحته، قاله الخطابي. وقال الداودي: معناه لأذكرن من مناقبه ما لم أذكر من مناقبهما، وإنما صنع ابن عباس ذلك لاشتراك الناس في معرفة مناقب أبي بكر وعمر بخلاف ابن الزبير فما كانت مناقبه في الشهرة كمناقبهما، فأظهر ذلك ابن عباس وبينه للناس إنصافاً منه له، فلما لم ينصفه هو رجع عنه)[4] ا.هـ.

وبعد هذا فإني أشير إلى أمثلة سريعة فيها العدل والقسط والإنصاف، ولا تخلو من دلالة قريبة أو بعيدة على هذا الأدب الفاضل فمن ذلك:

---

(١) يعني بالأمر الخلافة والمعنى: أي ليست بعيدة عنه لما له من الشرف والصفات. انظر الفتح (٨/ ٣٢٨).

(٢) البخاري كتاب التفسير ٤٦٦٥.

(٣) البخاري كتاب التفسير ٤٦٦٦.

(٤) انظر الفتح: (٨/ ٣٢٧ـ ٣٢٨).

ما روي أنه كان لرجل على رسول الله ﷺ حق، فأغلظ عليه، فهم به الصحابة فقال النبي ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: اشتروا له سناً، قالوا: ما نجد إلا خيراً من سنه، قال: فأعطوه إياه، «فإن خيركم أحسنكم قضاء»[1]. فهذا فيه إنصاف النبي ﷺ وإعذاره للرجل صاحب الحق، ثم زيادة على ذلك إحسانه في قضاء الحق الذي عليه.

ومنه ما جاء في قول الرجل للنبي ـ عليه السلام ـ : يا رسول الله! اتق الله، فقال: «ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله» قال: ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال: «لا، لعله أن يكون يصلي» قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق عن بطونهم.. إلخ»[2].

وهذا فيه معاملة النبي ﷺ للرجل بالعدل، وقبول كلامه، والنظر إلى أعماله الأخرى كالصلاة مثلاً، وأخذه بظاهره، وكل ذلك من الإنصاف.

ومنه ما روي في تأويل أبي بكر رضي الله عنه للرؤيا التي قصها رجل للنبي ﷺ، وبعد انتهاء أبي بكر من تأويلها قال: أي رسول الله لتحدثني أصبت أم أخطأت، فقال: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»[3]. فلم يمنع النبي ﷺ حبه لأبي بكر، وقربه منه أن ينصفه ويخبره بصوابه وخطئه.

ومن ذلك أيضاً: إنصاف عائشة رضي الله عنها لسعد بن عبادة رضي الله عنه، حيث احتملته الحمية فقام يدافع عمن تكلم بالإفك رداً على

---

(١) مسلم كتاب المساقاة (٣/ ١٢٢٥) رقم ١٢٠.

(٢) مسلم كتاب الزكاة (٢/ ٧٤٢) رقم ١٤٤.

(٣) أخرجه مسلم: الرؤيا (٤/ ١٧٧٧) رقم ١٧، أبو داود: السنة (٤/ ٢٠٦) رقم ٤٦٣٢، أحمد (١/ ٢٣٦)، الترمذي: كتاب الرؤيا (٤/ ٥٤٢) رقم ٢٢٩٣، ابن ماجه: كتاب تعبير الرؤيا (٢/ ١٢٨٩ ـ ١٢٩٠) رقم ٣٩١٨.

سعد بن معاذ الذي قال: يا رسول الله، والله أنا أعذرك منه ـ يعني ممن تكلم بالإفك ـ إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. قالت عائشة: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية ـ فقال: كذبت لعمر الله، والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك.. إلخ الحديث)[1].

فثناء عائشة على سعد بن عبادة وذكرها لصلاحه قبل أن يقول قولته، ومعرفة عذره، دليل على الإنصاف، والنظر إلى ماضي الخصم ومعرفة ظروفه وملابساته.

ومن آخر هذه النماذج إنصاف عمرو بن العاص للروم، وذلك حين بلغه قول النبي ﷺ: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» فقال لمن حدثه: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: «لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)[2].

فلم يمنع عمراً ما بين المسلمين والروم من عداوة وقتال، أن يذكر بعض ما فيهم من خصال حسنة جميلة.

هذا بعض ما جاء في الكتاب والسنة، من أدلة وشواهد وأمثلة ونماذج تقرر مبدأ العدل والإنصاف، وتفريق بين الفكرة وصاحبها، ولعل من المفيد أن أختم هذا المبحث بحوار لطيف بين معاوية والمسور بن مخرمة، في تقرير مبدأ الإنصاف وتعلمه وتطبيقه، حيث وفد المسور على

---

(١) البخاري كتاب الشهادات ٢٦٦١، مسلم: التوبة (٤/ ٢١٣٤) رقم ٥٦، أحمد (٦/ ١٩٦).

(٢) مسلم كتاب الفتنة (٤/ ٢٢٢٢) رقم ٣٥.

معاوية فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله، لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب علي. قال مسور: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينت له. فقال: لا أبرأ من الذنب، فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما تذكر إلا الذنوب.

قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين بين الله وبين غيره، إلا اخترت الله على ما سواه، وإني لعلى دين يقبل فيه العمل ويجزىٰ فيه بالحسنات، ويجزىٰ فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها، قال: فخصمني، قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه[1].

فهذا الحوار يضع قواعد مهمة في الإنصاف وضرورته ومنها:

١ ـ سماع كلام الخصم وانتقاداته بصدر رحب وتقبلها بقبول حسن.

٢ ـ الاعتراف بالخطأ والتسليم بالحق الذي يظهره الخصم.

٣ ـ وزن الحسنات والسيئات، وعدم النظر إلى الأخطاء فقط، ونسيان الحسنات.

٤ ـ تذكر معايب النفس وأخطائها، وإعذار الخصم كعذر النفس.

وعلى كل حال فلا بد من (تناول الفكرة المطروحة للحوار والنقاش بالبحث والتحليل والنقد والتزكية بعيداً عن صاحبها حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية تناقش فيها تصرفات الأشخاص ونواياهم، ولكن في

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥٠ـ ١٥١).

بعض الأحوال ينبغي تناول أصحاب الأفكار أنفسهم بالجرح والتعديل حسب مقاييس أهل السنة، وذلك عندما نخشى ضلالاتهم أو تأثر الناس بأفكارهم، ولكن كل ذلك ينبغي أن يتم بإخلاص وتجرد، وعدل وإنصاف[1] والله اعلم.

(١) انظر رسالة: «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٤٣ بتصرف يسير.

المبحث الرابع

التواضع وحسن الخلق

ينبغي للمحاور أن يتحلى بحسن الخلق عموماً، وبالتواضع على وجه الخصوص، إذ إن ذلك من هدي هذا الدين، ومن خلق الرسول الكريم ﷺ، كما أن التزام الأدب له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب، فكل من يرى من محاوره توقيراً وتواضعاً، ويسمع كلاماً طيباً، ويلمس خلقاً فاضلاً فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره ويتبنى فكرته، ويخضع لرأيه، أو على أقل تقدير يفتح قلبه لاستماع الرأي الآخر، ويعرضه على عقله بطيب نفس ورحابة صدر وسعة أفق.

لذلك فقد جاءت النصوص الكثيرة المتعددة في الأمر بالتواضع وخفض الجناح وحسن الخلق، والنهي عن الكبر والعجب والغرور وسوء الخلق. وقبل عرض تلك الأدلة والشواهد، أذكر ما قاله الشافعي رحمه الله تعالى في التواضع، قال: (التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة، وقال: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله)[1].

أما بالنسبة لنصوص الكتاب والسنة حول هذا الأدب، فمن الواضح

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٩٩).

أنها ذات شقين، فقسم منها يرغب في حسن الخلق والتواضع وما يتعلق بهما، وقد تقدم شيء منها عند الكلام عن الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار، وقسم يحذر من سوء الخلق والعجب والغرور والتكبر ونحوها، وعليه فسيكون الكلام على الشقين كما يلي:

أولاً: فيما يتعلق بالأمر بحسن الخلق والتواضع:

إن النصوص العامة في هذا الأدب كثيرة جداً، كما أن الأمثلة والنماذج والأقوال متعددة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[1] ومثلها قوله سبحانه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[2]. والتعبير بخفض الجناح كناية عن التواضع والتذلل للمؤمنين واللين معهم والرفق بهم وذلك أن (الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب)[3]، ولما كان هذا الخطاب موجهاً لرسول الهدى ﷺ (فقد كان كذلك مع المؤمنين طوال حياته، وكان خلقه القرآن، وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم)[4] حتى قال عنه ربه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾[5] وقال في الآية الآخرى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾[6].

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تعليقه على الآية: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ

---

(١) الشعراء: ٢١٥.

(٢) الحجر: ٨٨.

(٣) الكشاف: (٣/ ١٣١).

(٤) الظلال: (٥/ ٢٦٢٠) بتصرف يسير.

(٥) القلم: ٤.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[1] ما نصه: (فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه، الاقتداء به، أن يكون كلاًّ على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم، وأبغضهم. لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق. وقد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفعها، وأعجب بعمله. فهل يعد هذا إلا من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له)[2].

ومن الآيات التي تشير إلى صفة التواضع، ما ذكره الله في وصف قوم من المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ..﴾[3] الآية. فقوله ﴿أَذِلَّةٍ﴾ من قول القائل: ذل فلان لفلان، إذا خضع له واستكان[4] والمعنى: أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والعظمة والترفع على الكافرين[5].

وهذه صفات المؤمنين الكمل إن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[6][7]، والذلة في الآية لا تنافي الحزم والقوة في الحق، وليس فيها المذلة والمهانة.

---

(١) الشعراء: ٢١٥.
(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٤٨٩).
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) انظر الطبري: (٦/ ٢٨٦).
(٥) فتح القدير: (٢/ ٥١)، الكشاف: (١/ ٦٢٣).
(٦) الفتح: ٢٩.
(٧) ابن كثير (٢/ ٧٠).

يقول سيد قطب رحمه الله: في الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

(هي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالمؤمن ذلول للمؤمن.. غير عصي عليه ولا صعب. هين لين: ميسر مستجيب.. سمح ودود.. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة، إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين)[1].

إذاً فلا بد للمحاور أن يكون قوياً متواضعاً، حازماً ليناً، يعطي كل موقف حقه، ويؤثرعلى كل خصم بما يناسبه.

ومن الشواهد القرآنية التي يستأنس بها في أمر التواضع والتأدب، ما جاء في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام حيث إن موسى عليه السلام مع فضله وعلمه ومنزلته، إلّا أنه لم يمتنع من اتباع الخضر والتعلم منه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[2].

ومن أدلة التواضع القولية ما قاله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[3].

وقال ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَة مِن مَالٍ، ومَا زَادَ اللَّهُ عبْداً بعَفْوٍ إلَّا عِزّاً، ومَا تَوَاضَعَ أحَدٌ لِلَّهِ إلَّا رَفَعَهُ الله»[4]. قال النووي في معناه: (فيه وجهان: أحدهما: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة

---

(١) الظلال: (٢/ ٩١٩).

(٢) الكهف: ٦٦.

(٣) مسلم كتاب الجنة (٤/ ٢١٩٩) رقم ٦٤، أبو داود الأدب (٤/ ٢٧٥) رقم ٤٨٩٥، ابن ماجه الزهد (٢/ ١٣٩٩) رقم ٤١٧٩.

(٤) مسلم كتاب البر (٤/ ٢٠٠١) رقم ٦٩.

ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه، والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا)[1].

ومن الأدلة القولية في حسن الخلق قول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حين قدم مع معاوية إلى الكوفة، فذكر رسول الله ﷺ فقال: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً. وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنُكُم خُلُقاً»[2]. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذي»[3].

وقال عليه السلام: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»[4] والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، والمقصود أن الكتاب والسنة قد أصَّلا قضية التواضع وحسن الخلق، وجعلا ذلك مبدأ يسير عليه المحاور وغيره، وقد سار عليه رسول الهدى ﷺ، فطبق ذلك عملياً، ومن صور تطبيقه لهذا الأدب الرفيع، والتزامه بهذا الخلق الكريم ما يلي:

ما صح في البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[5].

فهذا الفعل من نبي الأمة وقائدها غاية في التواضع وخفض الجناح، وقمة في الرحمة والتذلل، التي لا تكون إلا من أخلاق النبوة، قال الحافظ

---

(١) شرح النووي: (١٦/ ١٤٢).
(٢) البخاري: كتاب الأدب رقم ٦٠٢٩، مسلم كتاب الفضائل (٤/ ١٨١٠) رقم ٦٨، الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٤٩) رقم ١٩٧٥، أحمد (٢/ ١٦١).
(٣) الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٦٢) رقم ٢٠٠٢، أبو داود كتاب الأدب (٤/ ٢٥٣) رقم ٤٧٩٩، أحمد (٢/ ١٦٢) وصحح بعض طرقه ابن حبان رقم ١٩٢١، ١٩٧٤.
(٤) أبو داود كتاب الأدب (٤/ ٢٥٣) رقم ٤٧٩٨ وصححه ابن حبان رقم ١٩٢٧.
(٥) البخاري كتاب الأدب ٦٠٧٢.

في الفتح في تعليقه على الحديث: (وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: حيث شاءت أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست من مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ)[1].

ولعل الأعجب من هذا ما أخرجه الإمام أحمد عن أنس: «أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي حاجة، فقال: يا أم فلان انظري إلى أي الطريق شئت فقام معها يناجيها حتى قضت حاجتها»[2].

ومن تلك الصور الرائعة للتواضع ما ذكرته عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عما كان يصنعه النبي ﷺ في أهله؟ فقالت: (كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)[3].

فتظهر صورة التواضع في خدمة معلم البشرية لأهله، وقد ذكر ابن حجر رحمه الله: أنه قد جاء في بعض الروايات أن عائشة رضي الله عنها قالت:(كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم) وفي بعضها قالت: كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ثم ذكر قول ابن بطال: من أخلاق الأنبياء التواضع، والبعد عن التنعم، وامتهان النفس ليستن بهم ولئلا يخلدوا إلى الرفاهية المذمومة)[4].

ومن قبيل هذا الخلق أيضاً: (أن أنس بن مالك رضي الله عنه مر على

---

(١) الفتح (١٠/ ٤٩٠).
(٢) أحمد (٣/ ٢٨٥)، (وانظر شمائل الرسول لابن كثير ص ٧٥).
(٣) البخاري كتاب الأدب ٦٠٣٩، أحمد (٦/ ٤٩، ١٢٦، ٢٠٦).
(٤) انظر الفتح: (١٠/ ٤٦١).

صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله)[1] ولا شك في أن مثل هذا الفعل من نبي الهدى ﷺ ـ (فيه طرح رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب)[2].

ولعل من الشواهد على هذا الجانب ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي رفاعة قال: (انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال فقلت: يا رسول الله! رجل غريب. جاء يسأل عن دينه. لا يدري ما دينه. قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتى بكرسي، حسبت قوائمه حديداً. قال فقعد عليه رسول الله ﷺ. وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى إلى خطبته فأتم آخرها)[3].

قال النووي رحمه الله: (فيه استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم، وفيه تواضع النبي ﷺ ورفقه بالمسلمين، وشفقته عليهم وخفض جناحه لهم.. الخ كلامه)[4].

وإن مما يدل على الخلق القويم الذي كان عليه رسول الهدى ﷺ ما قاله عنه أنس رضي الله عنه قال: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف، ولا: لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟)[5].

فهذا الخلق النبيل، والمعاملة اللطيفة، واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته[6]، من التواضع وحسن الخلق.

---

(١) البخاري كتاب الاستئذان ٦٢٤٧، مسلم كتاب السلام (٤/ ١٧٠٨) رقم ١٥.

(٢) انظر الفتح (١١/ ٣٣).

(٣) مسلم كتاب الجمعة (٢٠/ ٥٩٧) رقم ٦٠.

(٤) شرح النووي (٦/ ١٦٥).

(٥) البخاري كتاب الأدب ٦٠٣٨، مسلم كتاب الفضائل (٤/ ١٨٠٤) رقم ٥١، أحمد ٣/ ١٠١، الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٦٨) رقم ٢٠١٥، أبو داود كتاب الأدب (٤/ ٢٤٧) رقم ٤٧٧٤.

(٦) انظر الفتح (١٠/ ٤٦٠).

ومن الحوارات التي ظهر فيها تواضع النبي ﷺ ما رواه ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: (كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني، فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه. فقال: «سل». . إلخ)[1].

فتنازل النبي ﷺ مع اليهودي وموافقته في قوله، ورضاه بأن يناديه باسمه المجرد ـ مع أنه رسول الله وإن رغم أنف اليهودي ـ، وعدم إصراره على أن يعترف له اليهودي برسالته ومنزلته، شاهد على التواضع وحسن الخلق.

وإذا كان هذا حال القدوة الإمام، وتلك شمائله وأخلاقه، فينبغي من أتباعه أن يجعلوا هذا الأدب معلماً لهم في حياتهم كلها، وسمة بارزة في حواراتهم ومناظراتهم، ليفتحوا قلوب محاوريهم، وليصلوا إلى مقصودهم في هداية الناس وإرشادهم وهكذا كان أتباعه من الصحابة وأتباعهم، فقد اهتدوا بهديه، واستنوا بسّنته قولاً وعملاً، وهذه بعض الأمثلة عنهم:

ما حكته عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك حيث قالت فيه: (ولكن والله ما ظننت أن يُنْزِل في شأني وحياً، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري)[2].

فهذه الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، وهي أم المؤمنين

---

(١) مسلم كتاب الحيض (١/ ٢٥٢) رقم ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير ٤٧٥٠ (انظر تخريجه ص ١٥٨.

الطاهرة المطهرة، لا ترى نفسها شيئاً، وقد كان لها من المنزلة والفضل والمكانة عند رسول الله ﷺ ما كان، ولكن يأبى أتباع سيد المتواضعين إلا أن يتواضعوا فرضي الله عنهم أجمعين.

ومن ذلك أيضاً ما كان من حال أبي هريرة رضي الله عنه، حيث إنه ربما استخلفه مروان على المدينة، فيركب حماراً ببردعة، وفي رأسه خلبة من ليف، فيسير، فيلقى الرجل: فيقول: الطريق! قد جاء الأمير[1].

ومثله ما جاء عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حيث إنه ربما اشترى قتاً بدرهم[2] وحمله على ظهره وهو أمير الكوفة[3]. وقد روى مثل ذلك عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، وآثارهم في ذلك معلومة، ولقد بلغ الأمر بهم وبأتباعهم أن كانوا يربون الناس على التواضع وحسن الخلق، وترك الكبر والغرور والترفع ومن شواهد ذلك:

روي أن يزيد بن عبد الملك أقبل إلى مجلس مكحول، فهموا أن يوسعوا له، فقال محكول: دعوه يتعلم التواضع[4].

وروي أيضاً أن المهلب مر على مالك بن دينار متبختراً، فقال: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين؟ فقال المهلب أما تعرفني؟ قال: بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة، فانكسر وقال: الآن عرفتني حق المعرفة[5].

ولعلي أكتفي بهذه الشواهد والأمثلة والنماذج فهي كافية في بيان

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: (٢/ ٦١٤). والخلبة: الليفة، والمعنىٰ: قطعة من ليف (انظر الصحاح: ١/ ١٢٢).

(٢) القت: الفصفصة، وهي الرطبة من علف الدواب (لسان العرب: ٢/ ٧١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٣).

(٤) نفس المصدر (٥/ ١٥٠).

(٥) انظر سير أعلام النبلاء: (٥/ ٣٦٣).

المقصود وتقرير القضية، وتأصيل مبدأ التواضع وحسن الخلق، وإظهار أهميته ودوره بالنسبة للحوار.

ثانياً: ما يتعلق بالتحذير من سوء الخلق والعجب والغرور والتكبر:

إن من سمات هذا الدين أنه دين الفطرة، وهو يتعامل مع البشر على هذا الأساس، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ . .﴾[1] والله الذي خلق الإنسان وفطرته، هو أعلم سبحانه بما يصلحه ويناسب طبيعته البشرية، فمع أن الإنسان ربما يميل بفطرته إلى الكنود والاستعلاء، والجحود والتكبر، فإن الله عزّ وجلّ قد أمره بالتواضع، ونهاه عن الغرور والتكبر، ووجه عزته وعلياءه لتكون بالحق على الباطل، وبالإيمان على الكفر: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[2] وقال سبحانه في وصفه للمؤمنين: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

كما أن من منهج هذا الدين الجمع بين الترغيب والترهيب، والمقابلة بين المأمور به والمنهي عنه، فحيث أمر بالإيمان فقد نهىٰ عن الكفر وأمر بالتوحيد ونهى عن الشرك، وبالعدل ونهى عن الظلم، وبالبر ونهىٰ عن الإثم... وهكذا، لتتضح الصورة، ويكون البديل حقاً واضحاً، ومن ذلك أمره بالتواضع وحسن الخلق، ونهيه عن سوء الخلق والتكبر.

(والمحاور أجدر الناس بالبعد عن الكبر بشتى صوره، فإن الطرف الآخر إذا رأى منه ازدراء له واحتقاراً، بالقول أو الفعل، فإن ذلك ينفره منه، ويؤدي إلى كراهته وكراهة ما عنده من الحق، لأن الناس جبلوا على محبة المتواضعين وكراهة المتكبرين)[4].

---

(١) الروم: ٣٠.
(٢) آل عمران: ١٣٩.
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) انظر رسالة الحوار مع أهل الكتاب ص ١٧١ بتصرف.

والنصوص في الكتاب والسنة في هذا الأمر متنوعة، فمنها ما هو عام في التحذير من الكبر، وبيان خطره وأثره على الفرد، ومنها ما يبين ضرورة الخوف منه وأثره على الأمم والشعوب عامة، ومنها ما يذكر شيئاً من مظاهره وصوره، وسأذكر لكل نوع من هذه أدلة وأمثلة مختصرة:

فأما ما يتعلق بالتحذير العام منه، وبيان خطره وعاقبته على شخص المتكبر فمن شواهد ذلك:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

فيخبر الله تعالى بأن الدار الآخرة ونعيمها المقيم جعلها الله لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض أي تكبراً عن الحق، وترفعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم[2].

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن علي رضي الله عنه قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا. .﴾[3][4].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ (أي: ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو في الأرض، على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، ولا الفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع

---

(١) القصص: ٨٣.
(٢) انظر الطبري (٢٠/ ١٢٢)، ابن كثير (٣/ ٤٠٢).
(٣) القصص: ٨٣.
(٤) الطبري (٢٠/ ١٢٢).

لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح)[1] وإذا كان هذا هو جزاء المتواضعين، فأما المستكبرون فعاقبتهم وخيمة، إذ لا يحبهم الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، بل لهم منزل في النار والعياذ بالله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[3]، ومأواهم جهنم وبئس المأوى والمصير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[4]، ومع ذلك فلا تفتح لهم أبواب السماء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[5]، ولهم بعد ذلك عذاب أليم: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾[6].

وأما جزاؤهم في الدنيا فمنه الطبع على القلب، والضلال والبعد عن الهدى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾[7] وقال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[8].

ومن هذا الباب أيضاً ما أخبر به المصطفى ﷺ إذ قال: «لا يدخل

---

(١) تفسير السعدي (٤/ ٤٤).
(٢) النحل: ٢٣.
(٣) الزمر: ٦٠.
(٤) غافر: ٦٠.
(٥) الأعراف: ٤٠.
(٦) النساء: ١٧٣.
(٧) غافر: ٣٥.
(٨) الأعراف: ١٤٦.

الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.. الحديث»[1] وفي رواية لمسلم.. «لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»[2].

وفي معناه قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»[3].

فهذه عاقبة الكبر، إذ إن أصحابه هم أهل النار، ومع هول ما في النار وشدة عذابها فإنها لا تريدهم فهي تحتج لذلك عند ربها، فقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «احتجت النار والجنة. فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين. فقال الله عزّ وجلّ، لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وربما قال: أصيب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[4].

ـ وزيادة في عذاب المتكبرون، ومزيداً في إهانتهم ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر، تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى»[5].

ولذلك فإن الكبرياء بإطلاقها لا تليق إلا بالعزيز الجبار المتكبر

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان (١/ ٩٣) رقم ١٤٧، أبو داود كتاب اللباس (٤/ ٥٨) رقم ٤٠٩١، الترمذي كتاب البر (٤/ ٣٦١) رقم ١٩٩٩.

(٢) مسلم برقم ٩١ كتاب الإيمان (١/ ٩٣).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب رقم ٦٠٧١، مسلم كتاب الجنة (٤/ ٢١٩٠) رقم ٤٦.

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير رقم ٤٨٥٠، مسلم كتاب الجنة (٤/ ٢١٨٦) رقم ٣٤، أحمد (٢/ ٢٧٦).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب القيامة (٤/ ٦٥٥) رقم ٢٤٩٢ وحسنه، أحمد (٢/ ١٧٩) وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٣٥٧).

سبحانه وتعالى، وما كان للمخلوق أن ينازع خالقه في شيء من ذلك، وإلا فله العذاب المهين: قال ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[1].

ـ وأخطار العجب والغرور والتكبر متنوعة فمنها عدم الاهتداء إلى الحق، كما تقدم في قوله تعالى عن المتكبرين في الأرض بغير الحق: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[2]. ولذلك يقول ابن الجوزي رحمه الله (إن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من إدراك الصواب. نعوذ بالله من ذلك)[3].

ومن أثاره أيضاً ما روي عن محمد بن علي بن الحسين قال: (ما دخل قلب امرىء من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك)[4].

ولذلك فإنه على الشخص (أن يتذكر دائماً بأنه إنسان، فلا يضع نفسه فوق موضعها، لئلا ينزلق إلى هاوية الغرور البغيض، فتصبح جهوده غير مثمرة، وذهنه متحجراً لا يقبل المعلومات الجديدة، ويفقد بذلك ميزة الاستماع إلى آراء الآخرين)[5]. وإذا كان هذا خطر الغرور والتكبر، وتلك عاقبته وأثره، فلا بد للمحاور خاصة أن يتعرف على صوره ومداخله كي يتجنبها في كلامه أو هيئته أو حركاته وإشاراته، فمن مظاهره وصوره:

١ ـ رد الحق والاستكبار عن قبوله.

٢ ـ احتقار الناس وازدراؤهم: ويدل على هاتين الصورتين قوله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر (٤/٢٠٢٣)، أبو داود: كتاب اللباس (٤/٥٨) رقم ٤٠٩٠، ابن ماجه: (٢/١٣٩٧) رقم ٤١٧٤، أحمد: (٢/٢٤٨).

(٢) الأعراف: ١٤٦.

(٣) صيد الخاطر: ص ١١٧.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء: (٤/٤٠٨).

(٥) لمحات في فن القيادة: ٦٠ بتصرف يسير.

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[1].

قال النووي: بطر الحق: دفعه ورده على قائله، وغمط الناس: احتقارهم[2].

فالحديث نص في بيان هاتين الصورتين، كما أن النبي ﷺ قد بين أن رد الحق من الكبر في (حديث الرجل الذي أكل عنده بشماله فقال له النبي ﷺ: كل بيمينك، قال: لا أستطيع. قال عليه الصلاة السلام: لا استطعت، ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه)[3]. كما بين ذم احتقار الناس حيث قال: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[4].

فالواجب على كل طرف في الحوار تجنب الهزء والسخرية، وكل ما يشعر باحتقار أحدهما للآخر، أو ازدرائه لفكرته، أو وسمه بالجهل، أو قلة الفهم، أو التبسمات والضحك التي تدل على السخرية[5].

٣ ـ المرح والاختيال في المشي وإسبال الإزار: وهذه الصورة إنما أذكرها إتماماً للفائدة إذ يستبعد وجودها في أثناء الحوار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[6].

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) رياض الصالحين للنووي ص ٢٨٥.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأشربة (٣/ ١٥٩٩) رقم ١٠٧.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم كتاب البر (٤/ ١٩٨٦) رقم ٣٢، أبو داود كتاب الأدب (٤/ ٢٧٢) رقم ٤٨٨٢، الترمذي، كتاب البر (٤/ ٣٢٥) رقم ١٩٢٧، ابن ماجه كتاب الزهد ٢/ ١٤٠٩) رقم ١٢١٣، أحمد (٣/ ٤٩١).

(٥) انظر رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٣٠.

(٦) الإسراء: ٣٧.

وقال ﷺ: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»[1] وفي رواية «بينما رجل يتبختر»[2]. وفي رواية أخرى «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[3]. وقال ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً»[4] قال في الفتح: (أي جره تكبراً وطغياناً)[5].

٤ ـ تصعير الخد وثني العطف والإعراض عن الناس:

قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[6].

قال في الكشاف: (والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون)[7].

وقال ابن كثير: (يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم)[8].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب اللباس رقم ٥٧٨٩، مسلم كتاب اللباس (٣/ ١٦٥٣) رقم ٤٩، النسائي كتاب الزينة (٨/ ٢٠٦) رقم ٥٣٢٦، أحمد (٢/ ٦٦).

(٢) الرواية لمسلم ٢٠٨٨ اللباس (٣/ ١٦٥٣).

(٣) الرواية للبخاري: كتاب اللباس (١٠/ ٢٥٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب اللباس رقم ٥٧٨٨، مسلم كتاب اللباس (٣/ ١٦٥٣) رقم ٤٨، أبو داود كتاب اللباس (٤/ ٥٦) رقم ٤٠٨٥، أحمد (٢/ ٣٨٦).

(٥) انظر الفتح: (١٠/ ٢٥٨).

(٦) لقمان: ١٨ـ ١٩.

(٧) الكشاف: (٣/ ٢٣٤).

(٨) ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

وهذا الفعل له خطره الكبير، وأثره السيء في عدم إنجاح الحوار، لذلك فإنه ينبغي للمحاور أن يراقب نفسه في أثناء الحوار ويلاحظ حركاته وطريقته في الكلام وغيره، فالآيات تشير (إلى أدب الداعية إلى الله، إذ إن الدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس، أو التطاول عليهم باسم هدايتهم أو قيادتهم إلى الخير، أو باسم الحوار والمناقشة)[1].

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾[2].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: (أي: لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع. واحتقر أهل الحق، وما معهم من الحق)[3].

٥ ـ تزكية النفس والتحدث عنها بالمدح والثناء: فإن ذلك مذموم منهي عنه قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾[4].

فلا ينبغي للمحاور أن يمدح نفسه ويظهرها ويثني عليها ويشكرها، أو يمتن بأعماله[5] ـ ما لم يكن في ذلك مصلحة راجحة[6] ـ إذ إن ذلك يعتبر مدخلاً للعجب والغرور والتكبر، كما أنه عقبة أمام اقتناع الخصم وإذعانه، فالنفوس تكابر وتعاند أمام من كان هذا حاله. كذلك فإن الله عزّ وجلّ أنكر هذا على قوم ـ قيل هم اليهود[7] ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) انظر الظلال (٥/ ٢٧٩٠) بتصرف.
(٢) الحج: ٨ـ ٩.
(٣) تفسير السعدي: (٣/ ٣١٠).
(٤) النجم: ٣٢.
(٥) انظر ابن كثير: (٤/ ٢٥٧).
(٦) سيأتي إن شاء الله مبحث حول ثناء المحاور على نفسه بالحق أحياناً.
(٧) انظر الطبري: (٥/ ١٢٦).

﴿تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[1].

ومن هذا الباب ما جاء في تغيير النبي ﷺ ـ اسم برة إلى زينب وقال ﷺ: «لا تُزَكُّواْ أَنْفُسَكُم، اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ البِرِّ مِنْكُمَ»[2].

ولعل مما ينبغي للمحاور أن يتفطن له هو أن يتجنب استعمال ضمير المتكلم في حديثه مثل: «أنا وقلت وعلمت وأرى وأرجح»، إذا كان في ذلك مضايقة لمحاوره، وكذا استعمال ضمير الجماعة عن نفسه كقوله: «نحن ورأينا كذا وتجربتنا تدل على كذا» ونحو هذا، إذ قد يؤدي هذا إلى مدح النفس والإعجاب بها، كما أن هذا النوع من الحديث يترك انطباعاً سلبياً لدى السامع يجعله ينفر من الحوار، والإنسان بطبعه يكره من يتعالم عليه وينزله منزلة الجاهل[3].

وإذا كان مدح النفس وتزكيتها ممقوتاً في الحوار، فإن التواضع والاعتراف بالتقصير وعدم العصمة من الخطأ، هو مفتاح لقلب الخصم، وكذا لو انضاف إليها شيء من الثناء على الطرف الآخر بالحق وبحدود، ولذلك فإن من الطرق التي تملك بها زمام الناس دون الإساءة إليهم أو استثارة عنادهم أن يتكلم الشخص عن أخطائه قبل أن ينتقد الشخص الآخر.

٦ ـ التشدق في الكلام والتقعر في الحديث والتكلف فيه:

ويدل على كراهية ذلك قوله ﷺ «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني

---

(١) النساء: ٤٩.

(٢) أخرجه مسلم: الأدب (٣/ ١٦٨٧) رقم ١٩، أبو داود الأدب (٤/ ٢٩٠) رقم ٤٩٥٣.

(٣) انظر أصول الحوار ص ٥٥، رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٣٠.

مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»[1] والثرثار: هو كثير الكلام تكلفاً، والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الإمتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه، ويغرب به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره[2].

ومثله قوله عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»[3]. فالتكلف في الحديث والتعاظم في الكلام مظهر من مظاهر الكبر الممقوت، والذي يجب على المحاور اجتنابه والحذر منه.

٧ ـ ومن صور التكبر وآثاره: الاستبداد بالرأي، (إذ إن المتكبر المغرور يعتقد أن ما يصدر عنه سداد لا خطأ فيه، وأن ما يصدر عن الآخرين خطأ لا سداد فيه، ومثل هذا إذا دعي إلى حق عز عليه الإذعان له والرجوع إليه فيبقى مستبداً برأيه مستمسكاً بقوله، مما يجعله يعيش حياته غارقاً في الأخطاء والسلبيات)[4].

ولعل من هذا القبيل استكبار فرعون وعناده ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾[5]. وهذا الاستكبار

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه كتاب البر (٤/ ٣٧٠) رقم ٢٠١٨، أحمد: (٤/ ١٩٣).

(٢) انظر رياض الصالحين للنووي ص ٢٨٩، وسنن الترمذي (٤/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٣٠٣) رقم ٥٠٠٥، الترمذي الأدب (٥/ ١٤١) رقم ٢٨٥٣، وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، أحمد (٢/ ١٦٥) (وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٤١٨٥).

(٤) انظر آفات على الطريق د. السيد محمد نوح (١/ ١٥٨) بتصرف.

(٥) القصص: ٣٩.

جعله لا يرى إلا رأيه، ولا يريد أن يرى غيره غير رأيه، ويرى أنه على طريق الهدى والرشاد، وهذا ـ والعياذ بالله ـ غاية الضلال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾[1]. وإذا كان هذا خطر الغرور والعجب والتكبر، وتلك بعض صوره ومداخله، فينبغي الحذر منه والخوف والخشية، إذ يكفي أنه كان سبباً في هلاك أفراد وأمم وشعوب، فبه هلك إبليس وقارون، وبسببه عذب فرعون وقومه، ولأجله ضل قوم نوح وعاد وغيرهم.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وقال الله عزّ وجلّ في قصة قارون مع قومه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ..﴾[4] وقال سبحانه في حكاية نوح عن قومه: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾[5].

وقال عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾[6].

---

(١) غافر: ٢٩.
(٢) البقرة: ٣٤.
(٣) القصص: ٧٨ـ ٨١.
(٤) العنكبوت: ٣٩ـ ٤٠.
(٥) نوح: ٧.
(٦) فصلت: ١٥ـ ١٦.

ولذلك فقد خاف السلف تلك الأمراض القلبية، وأقوالهم وأفعالهم في ذلك كثيرة جداً، لا يسع المقام لذكرها ولكن أكتفي بقول مطرف بن عبد الله: (لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً)[1]. فالمقصود أن التواضع إن كان مطلوباً من عموم الناس، فحاجة المحاور إليه أعظم، والكبر والغرور إن كان محذراً منه منهياً عنه، فحذر المحاور ينبغي أن يكون أكثر وأكبر، إذ لا يستقيم الحوار، ولا يخضع الخصم بدون التواضع وحسن الخلق.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين (٣/ ٣٩٠).

المبحث الخامس

الحلم والصبر

إن الكلام عن الصبر وما يتعلق به، كالحلم والعفو وكظم الغيظ وعدم الغضب وعدم الانتصار للنفس ونحو ذلك، مما يطول ذكره وعرضه وذكر أدلته وشواهده، ونماذجه وأمثلته، وذلك لأهميته ودوره، حيث إنه (نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً، منها: الأمر به، والنهي عن ضده، والثناء على أهله، إيجاب محبة الله لهم، وضمان نصرهم...) وروي عن الإمام أحمد أنه قال: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً[1]، ولذلك فسأختصر الكلام فيه وأقسمه إلى النقاط الآتية:

١ ـ فضله ومنزلته:

لقد جاءت النصوص المتعددة في بيان فضله ومكانته، فمنها ما دل على عظيم أجره وجليل قدره، حتى يوفى أجر الصابرين بلا حدٍ ولا حصر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[2]. ومنها ما دل على أن (من صبر على إساءة من أساء إليه وغفر للمسيء جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر، ابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه، فإن ذلك

---

(١) تهذيب مدارج السالكين. عبد المنعم العزي ص ٣٥١ بتصرف.

(٢) الزمر: ١٠.

كله من عزم الأمور التي ندب إليها عباده، وعزم عليهم العمل به[1] قال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[2].

يقول الشيخ السعدي في تعليقه على الآية: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: الأمور التي حث الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولوا العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر، فإن ترك الانتصار للنفس، بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها. والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق. ولكنه يسير على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك. ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه)[3].

كما أن من النصوص ما تعد من كظم غيظه وضبط نفسه عن الانتقام بجزيل الثواب حيث قال ﷺ: «من كظم غيظاً، وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره من الحور العين ما شاء»[4]. ومنها ما يدل على تكفير السيئات ومغفرة الذنوب بسبب الصبر كما في قوله عليه السلام: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[5].

---

(١) انظر الطبري (٢٥/ ٤٠) بتصرف.

(٢) الشورى: ٤٣.

(٣) تفسير السعدي (٤/ ٤٣١).

(٤) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٢٤٨) رقم ٤٧٧٧، الترمذي وحسنه: البر (٤/ ٣٧٢) رقم ٢٠٢١، ابن ماجه: الزهد (٢/ ١٤٠٠) رقم ٤١٨٦، أحمد (٢/ ٤٣٨).

(٥) أخرجه البخاري كتاب المرض رقم ٥٦٤١، مسلم: البر (٤/ ١٩٩٣) رقم ٥٢، الترمذي: الجنائز (٣/ ٢٨٩) رقم ٩٦٦، أحمد (٢/ ٣٠٣).

ويكفي الحليم فضلاً أن الله عزّ وجلّ يحب هذه الصفة كما يحب الأناة وترك العجلة، ولذلك قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1].

وعلى كل حال فإن الرفق عموماً بما في معناه: من الحلم والصبر والتحمل، ممدوح مطلوب، وحيثما وجد فهو زين، وحيثما فقد فهو شين قال ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[2].

ولهذا فقد حرص السلف على التخلق بهذا الخلق الرفيع، والتأدب بهذا الأدب القويم، ولهم في ذلك أقوال وأخبار وقصص وأحداث، تدل على عنايتهم به واهتمامهم، ومن هذه الأقوال في هذا الباب:

قول المنتصر بالله ـ أبو جعفر محمد بن المتوكل ـ حين عفا على أحد الناس فقال: (لذة العفو أعذب من لذة التشفي، وأقبح فعال المقتدر الانتقام)[3].

وقال عروة بن الزبير رحمه الله (رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزاً طويلاً)[2] وكما قيل أيضاً: (الاحتمال قبر المعايب)[4].

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١/٤٨) رقم ٢٥، أبو داود: الأدب (٤/٣٥٨) رقم ٥٢٢٥، الترمذي: البر (٤/٣٦٦) رقم ٢٠١١، ابن ماجه: الزهد (٢/١٤٠١) رقم ٤١٨٨، أحمد (٣/٢٣).

(٢) أخرجه مسلم: البر (٤/٢٠٠٤) رقم ٧٨، أبو داود: الجهاد (٣/٣) رقم ٢٤٧٨، أحمد (٦/٥٨).

(٣) سير أعلام النبلاء: (١٢/٤٤) (والمنتصر بالله: هو محمد بن المتوكل علىٰ الله، كان وافر العقل، راغباً في الخير قليل الظلم، عاش ستة وعشرين سنة، ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت خلافته ستة أشهر وأياماً. انظر السير: ١٢/٤٢ـ ٤٥).

(٤) نفس المصدر (٤/٤٣٦).

(٥) نفس المصدر (٢٠/١٩٦).

وقال المستظهر بالله ـ أبو العباس أحمد بن المقتدي ـ (الصبر على الشدائد ينتج الفوائد)[1] إلى غير ذلك من الأقوال والآثار، وسيأتي إن شاء الله ذكر مزيد من الأمثلة والنماذج.

ولأهمية هذه الخصال وفضلها فإنه يجب على المحاور أن يكون حليماً صبوراً، عفواً محتملاً، لا يغضب لأتفه سبب ولا ينفر لأدنى أمر، ولا يستفز بأصغر كلمة وأقل حركة، إذ إن ذلك يؤدي إلى النفرة والابتعاد بين الطرفين ولا يوصل إلى إقناع الخصم أو التأثير عليه.

٢ ـ ولذلك فقد كان الأمر بهذه الآداب والنهي عن ضدها، وصية الله ورسوله عليه السلام: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[2]، وقال رجل للنبي ﷺ: أوصني، قال «لا تغضب. فردد مراراً، قال: لا تغضب»[3] ومعنى الحديث: اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، ولا تفعل ما يأمرك به الغضب[4].

وقد نقل ابن حجر رحمه الله قولاً لطيفاً لابن التين قال: (جمع ﷺ في قوله: «لا تغضب». خير الدنيا والآخرة، لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق، وربما إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين)[5].

---

(١) نفس المصدر (١٩/ ٣٩٨) (والمستظهر بالله: هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمرالله، ولد سنة سبع وأربعين ومائة، واستُخلِف عند وفاة أبيه وله ستة عشرة سنة، كان موصوفاً بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين وتفقد المساكين مع الفضل والنبل والبلاغة وعلو الهمة وحسن السيرة. انظر السير: ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢).

(٢) البقرة: ١٥٣.

(٣) أخرجه البخاري: الأدب رقم ٦١١٦، الترمذي: البر (٤/ ٣٧١) رقم ٢٠٢٠، الموطأ في الغضب (٢/ ٢٤٣) رقم ٣٩، أحمد: (٢/ ١٧٥).

(٤) انظر الفتح (١٠/ ٥٢٠) بتصرف.

(٥) الفتح (١٠/ ٥٢٠).

ولذلك حث الله على كظم الغيظ والعفو عن الناس، وذلك عندما أثنى على المتصفين بهذه الصفات وعدهم من المتقين ووعدهم بالجنة والمغفرة فقال سبحانه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾[1].

ومعنى الآية: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾ أي: الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، وكظم الغيظ بتجرعه وحفظ النفس من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها، ﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ أي: الصافحين عن الناس عقوبة ذنوبهم إليهم، وهم على الانتقام منهم قادرون، فتاركوها لهم[2].

قال سيد قطب رحمه الله في تعليقه على الآية ما نصه: (كذلك تعمل التقوى في هذا الحقل، بنفس البواعث ونفس المؤثرات. فالغيظ انفعال بشري، تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشري، إحدى ضروراته. وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات)[3].

ولذلك أيضاً أمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأخذ العفو من أخلاق الناس، ومراعاة طبائعهم وإعذارهم وترك الإغلاظ عليهم[4]، كما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾[5].

---

(١) ال عمران: ٣٣ـ ١٣٤.
(٢) الطبري: (٤/ ٩٣) بتصرف.
(٣) الظلال: (١/ ٤٧٥).
(٤) انظر الطبري: (٩/ ١٥٥).
(٥) الأعراف: ١٩٩.

قال الزمخشري: (العفو: ضد الجهد: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا....، والعرف: المعروف والجميل من الأفعال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عنهم وأغضض على ما يسؤك منهم)[1].

فهذه الآية تبين ما ينبغي معاملة الناس به من أخذ وقبول ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفوا ما لاتسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما لديه من خلق جميل، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغض الطرف عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف، والمقابلة بما تقضيه الحال، وتنشرح له صدورهم، وهذا الإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه والسماحة معه، هو واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء[2]. والآية لما فيها من هذه الإشارات إلى الأخلاق والآداب قال فيها الزمخشري: (وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها)[3] وقال فيها الشيخ السعدي ـ رحمه الله: (هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم)[4].

وأجمع من ذلك وأتمه ما قاله فيها الإمام القاضي أبو بكر بن العربي: (قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة، المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيه[5] حسنة إلا أوعتها، ولا

---

(١) الكشاف: (٢/ ١٣٨).

(٢) انظر تفسير السعدي (٢/ ١٨٢)، الظلال (٣/ ١٤١٩) بتصرف.

(٣) الكشاف (٢/ ١٣٩).

(٤) تفسير السعدي (٢/ ١٨٢).

(٥) لعلها: (فيها).

فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة: فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء، والتكليف. وقوله ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنهما ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراده في نفسه وغيره. ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً)[1].

٣ ـ ولعله من خلال الآيتين السابقتين قد تبينت بعض مقتضيات الصبر والحلم، وما يزيد على مجرد ضبط النفس وملكها عند الغضب أو في الصدمة الأولى، فإن هذا مطلوب وهو برهان على القوة والشدة كما قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]. كما أنه دليل على التخلق بالصبر والاحتمال، قال ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[3]، ولكن يزيد على ذلك العفو والصفح: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾[4] وقال سبحانه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[5] أي الحسن الذي قد سلم من الحقد، والأذية القولية والفعلية[6].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٨٢٦) [ومعنى أكرومة: مكرمة من الكرم كأعجوبة من العجب (الصحاح: ٥/ ٢٠٢١)].

(٢) أخرجه البخاري: الأدب رقم ٦١١٤، مسلم: البر (٤/ ٢٠١٤) رقم ١٠٧، الموطأ في الغضب (٢/ ٢٤٣) رقم ٤٠، أحمد (١/ ٣٨٢).

(٣) البخاري: كتاب الجنائز (١٣٠٢)، مسلم كتاب الجنائز (٢/ ٦٣٧، ٦٣٨) رقم ١٥، الترمذي: كتاب الجنائز (٣/ ٣٠٥) رقم ٩٨٨، النسائي كتاب الجنائز (٤/ ٢٢) رقم ١٨٧٠، أبو داود: كتاب الجنائز (٣/ ١٨٩) رقم ٣١٢٤.

(٤) النور: ٢٢.

(٥) الحجر: ٨٥.

(٦) انظر تفسير السعدي: (٣/ ٤٣).

قال سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[1] : (وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي. فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطعن، فيتحول الغيظ الغائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين.. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن.. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين.. إنها العفو والسماحة والانطلاق.. إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب، ودخان يغشىٰ الضمير.. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرفة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير)[2].

إذاً فالصفح والعفو أبلغ من كظم الغيظ ورد الغضب، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، ومغفرة خطيئته، وطهارة القلب نحوه من أي غل أو حقد أو نحوهما، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، واحتسب أجره عند خالقه، وأيقن بقول ربه عزّ وجلّ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[3].

ويزيد على ذلك الصبر والعفو ما هو أكبر منه وأعظم وهو دفع السيئة بالحسنة، ومقابلة فحش الكلام بلينه، وسوء الخلق بحسن الأدب، والشدة بالرفق، ورد الكلمة الجارحة بالكلمة الطيبة العذبة، والعبس بالتبسم، والسخرية والاحتقار بالتوقير والاحترام، وهذا مبلغ لا يصل إليه إلا من صبر وكان ذا حظ عظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

---

(١) آل عمران: ١٣٤.
(٢) الظلال: (١/ ٤٧٥).
(٣) الشورى: ٤٠، وانظر تفسير السعدي (١/ ٢٧١).

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

وتحقيق ذلك كله إنما يكون بتعلمه وتجرع مرارته وتعويد النفس قبوله، قال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه»[2] وفي الحديث أيضاً «ومن يتصبر يصبره الله»[3].

٤ ـ ثم أنتقل إلى ذكر بعض النماذج والأمثلة التي طبق فيها الصبر، وجرب فيها الحلم والعفو، فبانت آثارها، وظهرت نتائجها، فمنها:

صبر الأنبياء عامة على أذى أقوامهم وسفاهتهم، ومقابلة جهلهم واستهزائهم بالحسنى والرفق واللين والصفح والإعراض عنهم.

فهذا نوح عليه السلام يكذبه قومه ويتهموه بالضلال المبين، فيرد عليهم في حلم وهدوء: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾[4] ومثله هود عليه السلام ويتهم بالسفاهة فلا يزيد على نفي هذه التهمة في صبر وحكمة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[5] ويوسف عليه السلام يكيد له إخوته ويفرقون بينه وبين أبيه سنين عدداً، ثم لما يظهر عليهم ويكشف أمرهم، لا يكتفي بالصفح عنهم

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه والطبراني في الأوسط وانظر الزوائد للهيثمي: (١/ ١٣٣)، وحسنه الألباني انظر صحيح الجامع الصغير رقم ٢٣٢٨ ج١ ص ٤٦١).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري: الزكاة (٣/ ٣٣٥)، رقم ١٤٦٩، مسلم الزكاة (٢/ ٧٢٩) رقم ١٢٤، أبو داود: الزكاة (٢/ ١٢٥) رقم ١٦٤٤، الترمذي: البر (٤/ ٣٧٣) رقم ٢٠٢٤، أحمد (٣/ ١٢).

(٤) الأعراف: ٦١.

(٥) الأعراف: ٦٧.

بل يزيد على ذلك فيعلن لهم أنه لا يلومهم ولا يثرب عليهم، ولن يعيرهم بذنبهم، ومع ذلك يدعو لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين[1]، قال تعالى: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].

وأما «ذو النون» ـ يونس عليه السلام فإنه لم يصبر على تكاليف الرسالة، وضاق صدراً بقومه، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضباً، ضيق الصدر، حرج النفس، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين[3]: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ . . ﴾[4] الآيات. ورحم الله سيد قطب إذ قال: (إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر الناس.. إنه عمل مريح، قد يفتأ الغضب، ويهدىء الأعصاب.. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين؟

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية!فليضق صدره، ولكن ليكظم ويمض. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون)[5].

ويوضح مدى ما وصل إليه صبر الأنبياء واحتمالهم عفوهم، قول عبد الله بن مسعود: (كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[6].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يوسف: ٩٢.

(٣) انظر الظلال: (٤/ ٢٣٩٣).

(٤) الأنبياء: ٨٧.

(٥) الظلال: (٤/ ٢٣٩٤).

(٦) أخرجه البخاري كتاب قتال المرتدين (١٢/ ٢٨٢) رقم ٦٩٢٩، مسلم الجهاد =

والأنبياء في ذلك يتبعون ملة أبيهم إبراهيم الذي لقي من أبيه ما لقي، وهدده بالرجم والجلد، فما زاد على أن قال لأبيه المعاند: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ . .﴾[1] الآيات.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تعليقه على الآيات: (وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة، واللين والسهولة، والانتقال من رتبة إلى رتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق، بالقول والفعل، ومقابلة ذلك، بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي)[2].

وإذا كان ذلك هو صبر الأنبياء، فإن نبينا ﷺ قد كان له حظ من الصبر وافر، ونصيب من الحلم والعفو، فها هو عليه الصلاة والسلام يقسم غنائم حنين فيعطي أناساً من أشراف العرب ويؤثرهم يومئذ في القسمة، فيقول الرجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فلما بلغت الكلمة رسول الله ﷺ فتغير وجهه حتى كان كالصرف[3]. ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله! ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[4].

وقد تقدم مثال واضح على صبره عليه السلام في قصة الأعرابي الذي

= (٣/ ١٤١٧) رقم ١٥٠، ابن ماجه: الفتن (٢/ ١٣٣٥) رقم ٤٠٢٥، أحمد (١/ ٣٨٠).

(١) مريم: ٤٧.

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٢٠٦).

(٣) الصرف: صبغ أحمر يصبغ به الجلود (انظر التعليق على مسلم: ٢/ ٧٣٩، وانظر المصباح المنير: ص ١٢٩).

(٤) أخرجه البخاري: المغازي رقم ٤٣٣٦، الزكاة (٢/ ٧٣٩) رقم ١٤٠، أحمد (١/ ٤١١).

جبذه بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنقه ﷺ من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[1].

قال الحافظ في تعليقه على الحديث: (وفي هذا الحديث بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام، وليتأسى به الولاة بعده في خلقه الجميل، من الصفح والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن)[2].

ومن كريم عفوه ﷺ ما جاء في قصة فتح مكة، حيث إنه قد صفح وغفر لمن آذاه وقاتله، وطرده وأخرجه فما إن ظفر عليهم حتى قال: يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وقال: «نصبر ولا نعاقب»[3].

وإذا كانت تلك أخلاق القدوة ﷺ ـ فمما لا شك فيه أن المقتدين به على شاكلته وعلى رأسهم صحابته رضوان الله عليهم الذين تربوا على يده، وعودهم الصبر والتحمل، فها هو خباب رضي الله عنه يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ـ وقد لقينا من المشركين شدة ـ فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع الميشار على مفرق رأسه فينشق باثنين،

---

(١) أخرجه البخاري: اللباس رقم ٥٨٠٩، مسلم الزكاة (٢/ ٧٣٠) رقم ١٢٨، النسائي: القيامة (٨/ ٣٣)، أحمد (٣/ ١٥٣).

(٢) الفتح: (١٠/ ٥٠٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٣٥)، الحاكم (٢/ ٣٥٩) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن هشام في السيرة(انظر تهذيب السيرة ص ٢٩٢).

ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1].

قال في الفتح: (قال ابن التين: كان هؤلاء الذين فعل بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم، قال: وكان في الصحابة من لو فعل به ذلك لصبر، إلى أن قال: وما زال خلق من الصحابة وأتباعهم، فمن بعدهم يؤذون في الله، ولو أخذوا بالرخصة لساغ لهم)[2].

ثم هذا الفاروق رضي الله عنه يطبق مبدأ الحلم والعفو، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل[3]، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[4] وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله)[5].

كما قد كان معاوية رضي الله عنه مضرب المثل في الحلم، حتى إن

---

(١) أخرجه البخاري: مناقب الأنصار (٧/ ١٦٤) رقم ٣٨٥٢، أبو داود كتاب الجهاد (٣/ ٤٧) رقم ٢٦٤٩، أحمد (٥/ ١٠٩).

(٢) الفتح (٧/ ١٦٧).

(٣) الجزل: أي الكثير، انظر الفتح (١٣/ ٢٥٩).

(٤) الأعراف: ١٩٩.

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٤٢) كتاب التفسير.

كان الرجل ليقول له: والله لتستقيمن بنا يا معاوية أو لنقومنك، فيقول بماذا؟ فيقولون: بالخشب[1]، فيقول إذاً أستقيم[2].

ولعل هذه الأمثلة كافية في الدلالة على المقصود، وبيان التطبيق العلمي لمعاني الصبر والتحمل، والحلم والعفو وكظم الغيظ ونحوها.

٥ ـ وإذا كانت تلك منزلة الصبر والعفو، وذلك تطبيقه وأمثلته، فإن المحاور المسلم يحتاج أنواعاً من الصبر كثيرة، إذ إن الحوار والمناقشات تثير في النفس نوازع متعددة من الإنتصار للنفس وللرأي، والقابلية السريعة للاستفزاز، والتعالي على الخصم أو على الحق ونحوها فلا بد من التذكير بالأنواع المتعلقة بالحوار ومنها:

أ ـ الصبر على وجود الحوار ومواصلته، والانتهاء منه بالرأي الراجح الصحيح، فإن بعضاً من الناس لا يطيق الحوار ولا يرضى بالمناقشة ـ مع علمه بالحق وتمكنه من إدارة الحوار ـ، ولكنه يريد أن يأخذ الناس كلامه دية مسلمة وخاصة إذا كان خصمه أقل علماً منه أو أصغر سناً أو أضعف تجربة ونحو ذلك. فهذا يحتاج إلى أن يعود نفسه أن يناقشه الآخرون ويبدون آراءهم، ويراعي أفهامهم، وعليه أن يصبر نفسه مع من هو أقل منه شأناً.

ب ـ الصبر على سوء خلق الخصم، من حيث ضيق صدره، وسرعة غضبه، وسعيه للانتصار لنفسه، ورغبته في ظهور رأيه، إذ قد يواجه المحاور من كان على مثل هذه الشاكلة، وعندها لا ينبغي أن يقابل سوءه بالسوء، بل بالرحابة وضبط النفس والتجرد لطلب الحق، ولو لم يستفد الخصم من حواره إلا هذه المعاني الرفيعة، ورؤيته لتطبيقها العملي فتكفيه فائدة ودرساً.

---

(١) الخشب: جمع خشيب. وهو السيف الصقيل (انظر القاموس المحيط: ١/٦٣).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء: (٣/١٥٤).

ج ـ الصبر على استهزاء الخصم، وقبح ألفاظه، وفحش كلامه، وسوء عبارته، أو نقصه وضعفه وجهله[1] فهنا يحتاج المحاور أن يدفع بالتي هي أحسن، ويعود نفسه تحمل ذلك في سبيل إنجاح الحوار وإقناع الخصم ويحتسب أجره عند الله عزّ وجلّ.

د ـ الصبر على تفنج[2] الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وتصعير الغرور والخيلاء، إذ قد يخذل الحق في موضع لظروف وملابسات، وقد يعلو الباطل لحظة من اللحظات، فتحتاج هذه اللحظة إلى الصبر والاحتمال.

هـ ـ الصبر على شهوات النفس ورغائبها في الانتصار والاستعلاء، وأطماعها في العلو والارتفاع، وضعفها في عدم قبول الهزيمة بسعة صدر، فقد ينفخ الشيطان في المحاور الذي يعلم أن الحق قد ظهر على لسان خصمه، ولكنه لا يعترف به ولا يرضى بقبوله، ويأبى إلا الجدال العقيم، والخصام والعناد، فهنا يحتاج إلى صبر وقوة تكظم الغيظ وتضبط الأعصاب، وتتحكم في الشهوات الخفية للنفس التي يذكيها الشيطان.

و ـ قد يكون الخصم على الباطل الواضح والضلال المبين، ومع ذلك يكون خصماً هادئاً حليماً، عفواً صبوراً، وهذا يحتاج إلى نوع من المصابرة، وهو الصبر على طول صبر الخصم وحلمه وهدوئه، إذ قد ينفد صبر المحاور، ويستفزه ذلك الصبر الطويل فيخسر نتيجة الحوار.

ز ـ ومن أهم أنواع الصبر للمحاور وغيره: الصبر على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار، واستقبال الظهور على الخصم في شكر وتواضع، وأدب ورحمة، بعيداً عن أمراض القلوب وشهوات النفوس، من

---

(١) انظر مصطلح الصبر: مجلة البيان ٢٧/ ٢٧ـ ٢٩.

(٢) تفنج: أي علا وارتفع، يقال: انتفج جنبا البعير: أي ارتفعا (الصحاح: ١/ ٣٤٦).

الكبر والغرور والإعجاب ونحوها. بعيداً عن الشماتة بالطرف الآخر أو تعييره بهزيمته أو إشعاره بضعفه وعجزه، وهذا نوع من الصبر أصعب من الصبر على الهزيمة، ولا يستطيعه إلا المخلصون الصادقون.

٦ ـ وإذا كان الصبر مطلوب، والحِلْم ممدوحاً والعفو محموداً في الأصل، فإن هناك مواضع وأحوالاً ينبغي فيها الغضب ولا يشرع فيها الحلم، ولكن ليس ذلك استجابة لهوى النفس وميلها وشهواتها، وإنما بالضابط الشرعي المحدد ومن ذلك الغضب إذا انتهك حرمة الله، واعتدي على شرعه، ويدل عليه قول عائشة رضي الله عنها: (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)[1] وفي رواية: «فإن انتهكت حرمة الله كان أشد الناس غضباً لله»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: (ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص ما لم يظهر الخطأ، والحث على العفو إلا في حقوق الله تعالى، والندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحل ذلك ما لم يفض إلى ما هو أشد منه، وفيه ترك الحكم للنفس وإن كان الحاكم متمكناً من ذلك بحيث يؤمن منه الحيف على المحكوم عليه، لكن لحسم المادة والله أعلم)[3].

٧ ـ وإكمالاً لهذا الموضوع فلا بد من ذكر علاج الغضب، ووسائل القضاء عليه، إذ إن هذا يفيد المحاور الذي يصعب عليه كظم الغيظ

---

(١) أخرجه البخاري: المناقب رقم ٣٥٦٠، مسلم الفضائل: (٤/ ١٨١٣) رقم ٧٨، أبو داود: الأدب (٤/ ٢٥٠) رقم ٤٧٨٥، الموطأ: حسن الخلق (٢/ ٢٤١) رقم ٢٣١، أحمد (٦/ ٣٢).

(٢) الرواية: ذكرها الحافظ في الفتح وسكت عنها (٦/ ٥٧٦).

(٣) انظر الفتح: (٦/ ٥٧٦).

والتحكم في النفس عند الاستفزاز، وهذه الطرق دلت عليها نصوص الشرع، وذكرها الأئمة الأعلام، فمن ذلك الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم فقد ثبت أنه استب رجلان عند النبي ﷺ، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . الحديث»[1].

ومن ذلك السكوت عند الغضب لقوله ﷺ: «وإذا غضب أحدكم فليسكت»[2].

ومن ذلك ما قاله ﷺ أيضاً: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع»[3]. وقد روي كذلك أن مما يسكن الغضب الوضوء. ففي الحديث: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[4].

ولعل من هذا الباب أيضاً أن يتذكر صبر غيره وما لقيه، ويشهد لذلك ما تقدم من قوله ﷺ: «يرحم الله موسى. قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[5].

وفي ذلك يقول ابن حجر رحمه الله: (ويعين على ترك الغضب استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة

(١) أخرجه البخاري: الأدب: ٦١١٥، مسلم البر (٤/ ٢٠١٥) رقم ١٠٩، أبو داود الأدب (٤/ ٢٤٩) رقم ٤٧٨٠، الترمذي: الدعوات (٥/ ٥٠٤) رقم ٣٤٥٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: (١/ ٢٣٩) وصححه أحمد شاكر برقم ٢١٣٦، والألباني في صحيح الجامع: ٦٩٣.

(٣) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٢٥٠) رقم ٤٧٨٢، أحمد (٥/ ١٥٢) (وانظر مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي: رقم ١٥١٤، صحيح الجامع رقم ٦٩٤).

(٤) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٢٥٠) رقم ٤٧٨٤، أحمد (٤/ ٢٢٦).

(٥) تقدم تخريجه آنفاً.

الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم في حديث سليمان بن صرد[1]، وأن يتوضأ كما تقدمت الإشارة إليه في حديث عطية[2] والله أعلم. وقال الطوفي[3]: أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جلّ وعلا وهو خلاف العبودية. قلت: وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر، وإذا استمر الشيطان متلبساً متمكناً من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، والله أعلم[4]. وكذلك فقد أطال الغزالي في الكلام عن الغضب وأسبابه، وعلاجه، ومما قاله: (والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها...)[5]. ثم ذكر أن الغضب يعالج بمعجون العلم والعمل، وذكر في العلم ستة أمور هي:

---

(١) هو حديث «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد..» وقد تقدم آنفاً.

(٢) هو حديث: «إن الغضب من الشيطان» وقد تقدم أيضاً.

(٣) هو سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، نجم الدين: فقيه حنبلي ولد بقرية طوف بالعراق، جاور الحرمين وتوفي بفلسطين سنة ٧١٦ هـ، له مؤلفات عديدة منها: الإكسير في قواعد التفسير، البلبل في أصول الفقه، مختصر الترمذي وغيرها. (الأعلام للزركلي: ٣/١٢٨).

(٤) انظر الفتح: (١٠/٥٢١).

(٥) انظر الإحياء: (٣/١٨٣).

١ ـ أن يتفكر في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفىء عنه غيظه.

٢ ـ أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو.

٣ ـ أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة.

٤ ـ أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب عن نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء.

٥ ـ أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس، فيعاتب نفسه على تلك الأنفة واتباع خطوات الشيطان، ويذكر بالخزي والافتضاح على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

٦ ـ أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

ثم ذكر ما يتعلق بجانب العمل من الاستعاذة والوضوء والجلوس

والاضطجاع والسكوت، نحو ما تقدم في الأحاديث[1].

وبعد هذه الإفاضة في أدب الصبر والحلم وكظم الغيظ وعدم الغضب وترك الانتصار للنفس، فإن المحاور يحتاج إلى معرفة تلك الأمور التي تقدمت وغيرها. ليعود نفسه هذه الآداب ويتجنب أضدادها، ليذكر نفسه بفضائلها ويحذرها من عواقبها، وليفرق بين ما يؤثر فيه الغضب وما يؤثر فيه الحلم والصبر، وليعالج نفسه إن احتاجت إلى العلاج، كل ذلك حتى يستمر الحوار هادئاً مؤدباً، ولتحفظ فيه النفوس وتصان فيه الأعراض، وليؤدي إلى نتيجة مثمرة، وغاية مستحسنة. والله أعلم.

---

(١) انظر الإحياء: (٣/ ١٨٤ـ ١٨٦).

المبحث السادس

الرحمة والشفقة بالخصم والحرص على إقناعه

إن الحوار مبدأ رفيع، ووسيلة نبيلة، للوصول إلى غاية حميدة، وهدف سام، والمحاور المسلم المخلص الصادق لا يتصور منه إلا الحرص على إظهار الحق لخصمه، والشفقة عليه من البعد والضلال، والخوف عليه من أن تتفرق به السبل، ورحمته باعتباره إنساناً قامت عليه الحجة، وخاصة إن كان هذا الخصم كافراً، فعندها تتأكد الشفقة والرحمة، إذ الإعراض والمكابرة والتولي عن الحق إلى الكفر أو الشرك، تكون نهايته الخلود في نار جهنم والعياذ بالله.

١ ـ والتزام هذا الأدب ليس غريباً على المحاور المسلم الذي يدين بدين الرحمة والهدى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1] فجمع الله غاية رسالته في الرحمة كما في هذه الآية.

والمحاور المسلم يستقي رحمته من رحمة ربه الرحمن الرحيم، الذي قال عن نفسه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[2] وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها[3]. وقال ﷺ عن رحمة ربه: «جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً،

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) هو معنى حديث صحيح أخرجه البخاري: ٥٩٩٩ في كتاب الأدب.

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1] وقال سبحانه وتعالى في تخصيص رحمته للمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[2].

ولذلك فإن هذه الرحمة الواسعة قد شملت الإنس والجن والبهائم والطير والجمادات وغيرها، وعلى المسلم أن يرحم متى وجد مجالاً للرحمة، ولو أن يشفق على كلب فيرحمه، فلعله بذلك أن يدرك رحمة أرحم الراحمين.

فقد صح في الحديث أن النبي ﷺ قال: «بينما كلب يطيف بركية[3] كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي[4] من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها[5] فسقته فغفر لها به»، فكيف بمن يرحم إنساناً ذا كبد فإنه «في كل ذات كبد رطبة أجر»[6]، وكيف بمن يرحم أخاه المسلم، وتكون هذه الرحمة لدينه، وخوفاً عليه من الضلال، وإنقاذاً له من التخبط والاضطراب.

والمحاور المسلم يتمثل الحرص والرحمة والشفقة، اقتداء بنبيه ﷺ، الذي قال الله في وصفه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[7] فهذا نبي

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠٠٠، مسلم: التوبة (٤/٢١٠٨) رقم ١٧، الترمذي: الدعوات (٥/٥٤٩) رقم ٣٥٤١.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

(٣) الركية: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد التحتانية: البئر مطوية أو غير مطوية (انظر الفتح: ٦/٥١٦).

(٤) البغي: بفتح الموحدة وكسر المعجمة هي الزانية، وتطلق على الأمة مطلقاً (انظر الفتح: ٦/٥١٦).

(٥) الموق: بضم الميم وسكون الواو بعدها قاف هو الخف وقيل ما يلبس فوق الخف (انظر الفتح: ٦/٥١٦).

(٦) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠٠٩، أحمد (٢/ ٣٧٥).

(٧) التوبة: ١٢٨.

الرحمة عليه الصلاة والسلام، الذي يعز عليه ويثقل على طبعه وشعوره المرهف، عنت أتباعه ولقاؤهم ما يكرهونه أو يشق عليهم، وهو مع ذلك حريص عليهم، قال في تفسير المنار: (الحرص: شدة الرغبة في الحصول على المفقود، وشدة العناية بحفظ الموجود، وكان عليه السلام حريصاً على اهتداء قومه به، بإيمان كافرهم، وثبات مؤمنهم في دينه، كما قال تعالى له: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾[1] ومعنى ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين كافة، ولذلك وصفه ربه بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[2][3].

ويزيد سيد قطب رحمه الله في بيان هذه الرحمة وذاك الحرص فيقول في معنى ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾: (لا يلقي بكم في المهالك، ولا يدفع بكم إلى المهاوي، فإذا هو كلفكم الجهاد، وركوب الصعاب، فما ذلك من هوان بكم عليه، ولا بقسوة في قلبه وغلظة، إنما هي الرحمة في صورة من صورها. الرحمة بكم من الذل والهوان، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة، وحظ رضوان الله، والجنة التي وعد المتقون)[4].

وإن من تمام رحمته ﷺ أنه أمر بالرحمة وأشار إلى فضلها، وحث عليها مبيناً أن رحمة الله تدرك برحمة الخلق بعضهم لبعض فمن ذلك قوله عليه السلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»[5] وقوله أيضاً: «من لا يرحم لا يرحم»[6] ومثله قوله

(١) يوسف: ١٠٣.

(٢) الأحزاب: ٦.

(٣) انظر مختصر تفسير المنار: (٣/ ٣٦٩ـ ٣٧٠) بتصرف.

(٤) انظر الظلال: (٣/ ١٧٤٣).

(٥) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٢٨٧) رقم ٤٩٤١، الترمذي: البر (٤/ ٣٢٤) رقم ١٩٢٤ وقال حسن صحيح، أحمد (٢/ ١٦٠).

(٦) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠١٣، مسلم الفضائل (٤/ ١٨٠٩) رقم ٦٥، عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٩٨) رقم ٢٠٥٨٩.

أيضاً: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[1]. بل قد وصف من لم يرحم بأنه شقي فقال عليه السلام: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[2].

وقد ذكر الحافظ قول ابن بطال في تعليقه على حديث «من لا يرحم لا يرحم» حيث قال: (فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم، المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب)[3].

ولما شهد ﷺ وفاة ابن لبعض بناته، فبكى عليه السلام فقال: سعد بن عبادة: أتبكي، فقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[4].

وقد عرف السلف رحمهم الله سعة رحمة ربهم وأيقنوا برأفته، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ في ذكره لدعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[5] ومن هذا ما جاء في أن حماد بن سلمة عاد سفيان الثوري، فقال سفيان: أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي لاخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي[6].

---

(١) أخرجه البخاري: التوحيد ٧٣٧٦، مسلم الفضائل (٤/ ١٨٠٩) رقم ٦٦، الترمذي: البر (٤/ ٣٢٣) رقم ١٩٢٢، أحمد (٢/ ٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود: الأدب (٤/ ٢٨٧) رقم ٤٩٤٢، الترمذي البر (٤/ ٣٢٣) رقم ١٩٢٣ وحسنه أحمد (٢/ ٣٠١).

(٣) انظر الفتح (١٠/ ٤٤٠).

(٤) أخرجه البخاري: التوحيد ٧٤٤٨، مسلم: الجنائز (٢/ ٦٣٥) رقم ١١، أبو داود: الجنائز (٣/ ١٨٩) رقم ٣١٢٥، النسائي: الجنائز (٤/ ٢١) رقم ١٨٦٨، ابن ماجه (١/ ٥٠٦) رقم ١٥٨٨، أحمد (٥/ ٢٠٥).

(٥) الحشر: ١٠.

(٦) انظر سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٩).

وعلى كل حال فالرحمة أدب مهم جداً في الحوار، إذ يجب على المحاور أن يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، كما يجب عليه أن ينصح لهم ويجهد، وأن يشفق عليهم ويرحم، إذ ذلك أدعى إلى استجابتهم وأقرب إلى نجاح الحوار.

٢ ـ وإذا كانت تلك منزلة الرحمة والشفقة، وهذه قيمتها في ميزان الشرع، فإن دورها في الحوار آكد، وحاجته إليها أمس فـ(للرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يـرقُّ لآلام الآخرين ويسعى في إزالتها، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى)[١] أما قاسي القلب فإنه يسعى للانتقام، ويتمنى لغيره الأخطاء، ويفرح بها ويرتقبها ويتصيدها، وربما عير بها من غير رحمة ولا شفقة[٢].

فلا بد أن يعلم المحاور أن الحوار وسيلة نبيلة، ينبغي أن تطهر من كل معاني القسوة والغلظة، والفظاظة والشدة، ولا ينبغي أن يكون الحوار بحال من الأحوال ـ فرصة للكيد والانتقام، أو وسيلة لتنفيس الأحقاد، وطريقة لإظهار الغل والحسد، أو لنشر العداوة وبث الكراهة بين الطرفين.

فالرحمة إذاً أدعى إلى تمحيص هدف الحوار وتنقيته وتخليصه، ووضوحه وتبيينه، كما أن وجود الرحمة في قلب المحاور دليل على تجريد الإخلاص لله عزّ وجلّ في نشر دينه، وعلامة على الصدق في الدعوة إلى سبيله، فلا ينبغي للمحاور أن ينسى أنه داعية إلى الله عزّ وجلّ بحواره ومناظرته، فحواره دعوة، وكلامه دين يدين الله به، ونواياه ومقاصده عبادة وقربة، وحركاته وتصرفاته انعكاس لإيمانه وصورة لإسلامه، وعندها لا يملك إلا أن يشفق ويرحم، ويراعي ويحرص، لتكون عبادته لله عزّ وجلّ بالحوار، خالصة محضة، صافية نقية، لا تشوبها شائبة ولا يتطرق

---

(١) انظر خلق المسلم للغزالي ص ٣٤٨.
(٢) انظر الحوار مع أهل الكتاب: ص ١٧٢.

إليها نقص أو خلل. وإضافة إلى ذلك فالرحمة جسر بين المحاور والطرف الآخر، ومفتاح لقلبه وعقله، وخاصة عندما يشعر بها ويلمسها، فتخرج ما في نفسه من أمراض الكبر والبطر والحقد والحسد ونحوها، فهي بذلك وسيلة لجمع القلوب وتأليف الأفئدة، وكلما ظهرت الرحمة على المحاور، واتضحت معالمها، كلما انشرح صدر الخصم، واقترب من محاوره، وأوشك على الإذعان والاقتناع، وبمثل هذا المعنى يمتن الله على نبيه عليه الصلاة والسلام، مشيراً إلى رحمة الله في لينه ﷺ، وأثر ذلك في جمع الناس، وتأليف القلوب، فيقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..﴾[1] الآية.

وتأويل الكلام كما قاله الطبري: (فبرحمة الله يا محمد ورأفته بك، وبمن آمن بك من أصحابك، لنت لهم لتُبَّاعك وأصحابك فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به، وأغلظت عليه، لتركك ففارقك، ولم يتبعك، ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم)[2].

وقال ابن كثير رحمه الله ـ في معنى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: (أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم)[3].

قال قتادة في تذكره لهذه النعمة: (إي والله، لطهره الله من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً رحيماً بالمؤمنين رؤوفاً)[4]. وإتماماً للرحمة بهم

---

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) انظر الطبري: (٤/ ١٥١).
(٣) ابن كثير: (١/ ٤٢٠).
(٤) انظر الطبري: (٤/ ١٥١).

والشفقة عليهم[1] قال له سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.

وفي تلك المعاني السامية يقول سيد قطب رحمه الله: (فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيماً بهم، ليناً معهم. ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب كبير، يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء..)[2].

٣ ـ ومع أن الرحمة ضرورية ومهمة، وشأنها عظيم كما تقدم، إلا أن هذه الرحمة والشفقة، وذلك الحرص واللين، لا يعني التنازل عن شيء من الدين أو المداهنة فيه، أو كتمه وإخفاءه، أو تغييره وتبديله، بل يجب على المحاور المسلم أن يجمع بين الرحمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الشفقة على محاوره والصدع بالحق وإبطال الباطل، وليعلم أنه من (الرحمة بالآخرين ومن الشفقة عليهم، أمرهم بما أوجب الله عليهم، وزجرهم عما نهاهم عنه، فلا تمنعه الرحمة من أداء واجبه، كما يجب ألا يأخذه الأمر والنهي فيتجرد من معاني الرحمة)[3].

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

اجعل لقلبك مقلتين كلاهما ... بالحق في ذا الخلق ناظرتان
فانظر بعين الحكم وارحمهم بها ... إذ لا ترد مشيئة الديان

---

(١) انظر الكشاف: (١/ ٤٧٤).
(٢) الظلال: (١/ ٥٠٠ـ ٥٠١).
(٣) الحوار مع أهل الكتاب ص ١٧٣ بتصرف.

وانظر بعين الأمر واحملهم على أحكـامـه فهمـا إذاً نظـران[1]

٤ ـ وبعد هذا العرض الموجز لأهمية الرحمة ومكانتها، لا بد من ذكر بعض نماذجها وشواهدها في الكتاب والسنة، مع أن الآيات والأحاديث في ذكر الرحمة لا تكاد تحصر، إذ إن مادة الرحمة بمشتقاتها قد وردت في القرآن فيما يزيد على «ثلاثمائة وثمان وعشرين» موضعاً[2]، وورودها في السنة لا يحصى، فهذا دليل واضح على قيمتها وكثرة الإشارة إليها بالأساليب المختلفة، ولذلك فيكفي ذكر بعض الأمثلة مما يكون أقرب إلى موضوع الحوار:

فمن صور الرحمة وآثار الشفقة ما ظهر من حال نبينا ﷺ حتى عاتبه الله في ذلك ونهاه عن المبالغة في الحرص على من أعرض وتولى، إذ بلغ به الأمر أنه يكاد يهلك نفسه ويقتلها حسرة عليهم وشفقة ورحمة بهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[3] وذلك أن النبي ﷺ كان حريصاً على هداية الخلق ساعياً في ذلك أعظم السعي فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم ورحمة بهم[4]، حتى يكاد يهلك نفسه مما يحرص عليهم ويحزن[5]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾[6] وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[7] وكلها تدل دلالة واضحة على رحمة النبي ﷺ

---

(١) الكافية الشافية (النونية): ٢١.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٣٠٤ـ ٣٠٩.

(٣) الكهف: ٦.

(٤) انظر تفسير السعدي (٣/ ١٤١) بتصرف يسير.

(٥) انظر ابن كثير (٣/ ٣٣١) بتصرف.

(٦) الشعراء: ٣.

(٧) فاطر: ٨.

وحزنه الشديد على من لم يؤمن حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم، وشفقة عليهم[1]. وقد بلغت هذه الشفقة غايتها عندما سنحت له الفرصة للقضاء عليهم والانتقام منهم، ولكنه الرحيم المشفق لم يرد ذلك، ويؤثر الصبر والتحمل، حتى في أحلك الظروف وأصعبها فها هي عائشة رضي الله عنها تقول له ﷺ: (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال: النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[2].

قال الحافظ في الفتح: (وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[3] وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[4][5].

ومن هذا الباب دعاؤه ﷺ لبعض من أعرض وعصى، فقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ

---

(١) انظر تفسير السعدي (٤/ ٤٥٧) بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري: بدء الخلق ٣٢٣١، مسلم: الجهاد (٣/ ١٤٢٠) رقم ١١١.
(٣) آل عمران: ١٥٩.
(٤) الأنبياء: ١٠٧.
(٥) انظر الفتح (٦/ ٣١٦).

فقال: يا رسول الله، إن دوساً قد عصت وأبت، فادع الله عليها. فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً، وأت بهم)[1].

وإذا كانت تلك رحمته وشفقته على من كفر وعصى فإن رحمته بمن آمن به وصدقه أوسع وأكبر ومنه قول عائشة رضي الله عنها: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم[2]، وزاد في رواية مالك «وكان يحب ما خف على الناس»[3] وفي رواية أحمد «فكان يخب ما خفف عليهم من الفرائض»[4]. وقد نص الحافظ في الفتح على أن الحديث فيه من الفوائد ما كان النبي ﷺ عليه من الشفقة على أمته والرأفة بهم[5]. ومثل ذلك أيضاً قول عائشة رضي الله عنها أيضاً: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقين»[6].

ومن صور الحرص على هداية الآخرين وإقناعهم ما جاء في حوار نبي الله إبراهيم مع ربه حيث قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[7].

فهذا خليل الله عليه السلام يحرص ويرغب في أن يكون لذريته من الخير والهدى والإمامة كما جعل الله له، وهي شفقة الأبوة والنبوة.

---

(١) أخرجه البخاري: الدعوات ٦٣٩٧، مسلم: فضائل الصحابة (٤/ ١٩٥٧) رقم ١٩٧، أحمد (٢/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: التهجد ١١٢٨، مسلم صلاة المسافرين (١/ ٤٩٧) رقم ٧٧، أحمد (٦/ ١٦٨).

(٣) الموطأ: (١/ ١١١) رقم ٢٠٦ باب صلاة الضحى.

(٤) المسند (٦/ ٣٤).

(٥) انظر الفتح (٣/ ١٤) بتصرف يسير.

(٦) أخرجه البخاري: الصوم ١٩٦٤، مسلم: الصيام (٢/ ٧٧٦) رقم ٦١، الترمذي: الصيام (٣/ ١٣٩) رقم ٧٧٨، أحمد (٦/ ٢٤٢).

(٧) البقرة: ١٢٤.

وقريب من ذلك قصة ذلك النبي الذي أشفق على قومه وخشي أن يفرض عليهم القتال حين طلبوه، ثم لا يطيقونه، ولذلك لما قالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ رد عليهم رد المشفق المحذر، قال ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾[1].

ومنه أيضاً شفقة الخضر على موسى عليهما السلام ـ في أن يكلفه الصبر على ما لا يعلمه[2] حيث قال تعالى في قصتهما: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾[3] وكذا شفقة موسى على من في السفينة من أن يغرقوا حيث قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[4] ولم يقل (لتغرقنا)، فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد يقول نفسي نفسي. فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[5].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره الله عزّ وجلّ في قصة الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى، حرصاً على نصح قومه، ورغبة في هدايتهم حين سمع ما دعت إليه الرسل، وآمن بهم وعلم ما رد به قومه عليهم[6]. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[7] الآيات.

---

(١) البقرة: ٢٤٦.
(٢) انظر الظلال: (٤/ ٢٢٧٩).
(٣) الكهف: ٦٦ـ ٦٨.
(٤) الكهف: ٧١.
(٥) انظر تعليق الجرجاني في حاشيته على الكشاف (٢/ ٤٩٢).
(٦) انظر تفسير السعدي (٤/ ٢٣٣).
(٧) يس: ٢٠ـ ٢١.

يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على استجابة هذا القلب الحي، وسعيه وحركته وحرصه، ما نصه: (إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك، وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين. فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً، ولم يقبع[1] في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصا المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين[2]).

ومن صور الرحمة والشفقة أيضاً ما جاء في حديث عمران بن حصين. قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء[3] فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق. قال: يا محمد! فأتاه. فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني وبم أخذت سابقة الحاج[3]؟ فقال: (إعظاماً لذلك) أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف، ثم انصرف عنه فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيماً

---

(١) يقبع: أي يقف عاجزاً خاضعاً مكتوف اليد، وأصلها من قبع يقبع قبوعاً: إذا أدخل الرجل رأسه في قميصه (الصحاح: ٣/ ٢٦٠).

(٢) الظلال: (٥/ ٢٩٦٣).

(٣) سابقة الحاج هي العضباء حيث كانت لا تكاد تسبق (وهي القصيرة اليد: انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٣/ ٢٥١).

رقيقاً. فرجع إليه فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم قال: لو قلتها وأنت تملك أمرك، أفلحت كل الفلاح، ثم انصرف. فناداه فقال: يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ قال إني جائع فأطعمني، وظمآن فاسقني قال: هذه حاجتك، فغدي بالرجلين[1]. . الحديث.

والأمثلة غير هذه كثيرة متعددة، مما يبين أهمية الرحمة والشفقة، وضرورة الحرص والرأفة، وأثر ذلك في الحوار.

٥ ـ ولعله مع وجود الرحمة والشفقة في قلب المحاور فإن إبداءها والتصريح بها للخصم، أدعى لقبوله وتليين موقفه، إذ إنه إذا رأى من محاوره الحرص عليه والرغبة في إنقاذه وهدايته، وتبين بذلك هدف المحاور وقصده ونيته بوضوح فلا بد من أن يؤثر ذلك تأثيراً إيجابياً، فيفتح قلبه للعدل والإنصاف ويضيق الهوة بين الطرفين، وهذا وحده يعتبر تقدماً ومكسباً وخطوة في طريق نجاح الحوار.

ولهذا فقد جاءت أمثلة ونماذج يصرح فيها المحاور لخصمه، بالخوف عليه والحرص والشفقة لتحقيق تلك الأهداف ومن هذه الأمثلة:

قول نوح عليه السلام لقومه وتصريحه لهم بهذا الأمر كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾[2] وفي الآية الأخرى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾[3] فقد أنذر نوح عليه السلام قومه عاقبة الكفر والتكذيب، في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله[4].

---

(١) أخرجه مسلم: النذر (٣/ ١٢٦٢) رقم ٨، أبو داود: الإيمان (٣/ ٢٣٦) رقم ٣٣١٦ أحمد (٤/ ٤٣٠).

(٢) الأعراف: ٥٩.

(٣) هود: ٢٦.

(٤) انظر الظلال: (٣/ ١٣٠٨) بتصرف.

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تعليقه على قول نوح في الآية ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ ما نصه: (وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم)[1].

كذلك فإن نبي الله هود ـ عليه السلام ـ ينذر قومه ويحذرهم، ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب، فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه، حيث أخبر تعالى عنه أنه ذكر قومه بنعم الله عليهم وأمرهم بتقوى الله وطاعته ثم خوفهم عذابه فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾[2].

وكذلك فقد قال شعيب عليه السلام لقومه بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده ولا شريك له، ونهاهم عن نقص المكيال والميزان وذكرهم بنعم الله عليهم قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾[3] ومن هذا الباب أيضاً خوف إبراهيم عليه السلام على أبيه، بعد أن دعاه إلى عبادة الله، وحذره من عبادة الشيطان، ثم قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٢٢).

(٢) الشعراء ١٣١ـ ١٣٥.

(٣) هود: ٨٤.

(٤) مريم: ٤٥.

ومثله أيضاً ما ذكره الله في شأن نبينا ﷺ مع قومه حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾[1].

ومن نماذج ذلك أيضاً تصريح مؤمن آل فرعون لقومه، بالخوف عليهم في أكثر من موضع، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[2].

ومن أمثلته وصوره أيضاً ما جاء في شفقة النبي ﷺ على أمته من أن يكلفوا ما لا يطيقونه، وكما تقدم أنه ربما ترك العمل رحمة بهم خشية أن يكتب عليهم، وكان يحب التخفيف عليهم، ومن هذا ما فعله ﷺ في أمر صلاة التراويح وكما أخبرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من جوف الليل فصلى في المسجد، فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك. فاجتمع أكثر منهم، فخرج رسول الله ﷺ في الليلة الثانية فصلوا بصلاته، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد في الليلة الثالثة فخرج فصلوا لصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فطفق رجال منهم يقولون الصلاة! فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى خرج لصلاة الفجر. فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم تشهد فقال: «أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها»[3].

ومنه أيضاً ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال

---

(١) هود: ٣.

(٢) غافر: ٣٠ـ ٣٣.

(٣) أخرجه البخاري: الجمعة ٩٢٤ : صلاة المسافرين (١/ ٥٢٤) رقم ١٧٧، أحمد (٦/ ١٦٩).

لمؤذنه في يوم مطير: إذا قلت أشهد ألا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، فلا تقل حي على الصلاة، قل: صلوا في بيوتكم. قال: فكأن الناس استنكروا ذلك، فقال: أتعجبون من ذا؟ قد فعل ذا من هو خير مني. إن الجمعة عزمة[1]، وإني كرهت أن أحرجكم فتمشوا في الطين والدحض[2].

فتبين بتلك الأمثلة أنه لا بأس بالتصريح للخصم، وبيان الحرص والخوف عليه وإظهار الشفقة والرحمة به، وأن ذلك ربما كان أدعى لاستجابة الخصم وإذعانه.

٦ ـ وهذه الرحمة والشفقة وذلك الحرص والخوف على الخصم، ليس معناه المداهنة ولا المودة ولا القربة ولا المحبة للكافر المعاند ـ إن كان الخصم كافراً متفحشاً، والشفقة والرحمة يمكن أن تنتهي عند حد معين، حين يصل الأمر إلى مداه، ويقطع الأمل في الخضوع والاقتناع، ولذلك لما انتهى نوح عليه السلام ـ إلى تلك النهاية مع قومه، وتبين إصرارهم وضلالهم وأوحي إليه أنه لن يؤمن أحد بعد ذلك، عندها انتهى وقت الرحمة والتقرب إليهم، فما كان منه إلا أن أطلق هذه الكلمات: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3].

ولا تعارض بين رحمة نوح ـ عليه السلام ـ في أول أمره وقوله لقومه

---

(١) عزمة: أي واجبة متحتمة، فلو قال المؤذن حي على الصلاة لكلفتم المجيء إليها ولحقتكم المشقة. (التعليق على مسلم: ١/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: الأذان ٦٦٨، مسلم صلاة المسافرين (١/ ٤٨٥) رقم ٢٦. ومعنى الدَحَض: الزلق، يقال: مكان دحض أي زلق، ودحضت رجله: أي زلقت. (انظر الصحاح: ٣/ ١٠٧٥).

(٣) نوح: ٢٦ـ ٢٧.

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ ﴾[1] ونحوها من العبارات اللطيفة الرحيمة الودودة، وبين دعائه عليهم بالهلاك والدمار، وذلك لأن نوحاً كان نبياً يوحى إليه، وعلم من الوحي استمرار قومه على الكفر والتواصي به والإصرار عليه فدعا عليهم، قال قتادة: (في قوله ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾[2] فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح)[3].

قال ابن العربي رحمه الله تعالى: (لما قال لنوح عليه السلام: «إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» حين استنفد ما في أصلاب الرجال، وما في أرحام النساء من المؤمنين، دعا عليهم نوح بقوله: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ فأجاب الله دعوته، وأغرق أمته. وهذا كقول النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم»[4].

فالمقصود أن نوحاً عليه السلام ـ لم يدع عليهم من أول مرة أعرضوا فيها، ولم يغضب ويشتد عليهم حتى أيقن بضلالهم وإصرارهم، وبعد أن دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولذلك فإن الله لم يعاتبه على ذلك بل استجاب دعاءه.

ومن هذا الباب أيضاً قتال الأنبياء لأقوامهم، وما يشهده تاريخهم من غزوات ومعارك وجهاد، مع حرصهم ورحمتهم وشفقتهم، ولكن (أحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائياً، ويحول بينها وبين الوصول إلى

---

(١) الأعراف: ٥٩.
(٢) هود: ٣٦.
(٣) انظر الطبري: (٢٩/١٠١).
(٤) أحكام القرآن: (٤/ ١٨٦٠).

قلوب الآخرين، وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين، إجهازاً كاملاً لا يبقي منهم دياراً ـ أي صاحب ديار ـ فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية، ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيها الكفار، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار، بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها، وهي الحقيقة التي أشار إليها نوح بقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ من أجل هذا دعا نوح ـ عليه السلام ـ دعوته الماحقة الساحقة. ومن أجل هذا استجاب الله دعوته، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر، وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير)[1].

فهذه مبررات نوح في ذلك وتلك أعذاره، مع ما في قلبه من الشفقة والرحمة. ولذلك أيضاً عوتب النبي ﷺ حين قنت وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف»، يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً ـ لأحياء من العرب ـ حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2] الآية[3].

فالأمر أمر الله والدين دينه، الحكم حكمه، والرسول مبلغ ومنذر ومحذر، فبينت هذه الآية أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبَّرون لا مدبِّرون. وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استبعدت

---

(١) الظلال: (٦/ ٣٧١٧).

(٢) آل عمران: ١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري: المغازي ٤٥٦٠، مسلم: المساجد (١/ ٤٦٦) رقم ٢٩٤، أبو داود: الصلاة (٢/ ٦٩) رقم ١٤٤٢، النسائي: التطبيق (٢/ ٢٠١) رقم ١٠٧٣.

فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووفقهم للدخول في الإسلام ـ وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا ـ وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه[1] فيظهر بذلك ألا تعارض بين التودد والرحمة في وقتها، وخاصة في بداية الدعوة، وبين الشدة والجهاد واستخدام القوة بعد استنفاد الوسائل وإقامة الحجة.

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ٢٦٨).

المبحث السابع

العزة والثبات على الحق

إن المحاور المسلم يستمد قوته من قوة الدين الذي يدين به، وعظمة الإيمان الذي يخالط بشاشة قلبه، ومن ذلك فهو ينطلق من عزة في تواضع، وثبات على المبدأ في رفعة ولين، ويعلو بإيمانه مع رحمة الآخرين والشفقة عليهم، وحيث إن الحوار من المواطن التي تثار فيها الشبهات ويكثر خلالها النقد والتشكيك، وخاصة مع الخصم المعاند أو الفاجر أو الكافر، لذلك يحتاج المحاور أن يكون على درجة من العزة واستعلاء الإيمان، مع الثبات على الحق حتى وإن علم من نفسه ضعف الحجة، وقلة العلم، فلا يجوز أن يؤدي الحوار بالمسلم إلى الذلة والمهانة، أو يزعزعه عن الحق المبين.

إن العزة التي يتصف بها المسلم ـ محاوراً كان أو غيره ـ ترجع إلى اعتزازه بربه، الذي له العزة المطلقة الكاملة، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[1] [فهو يؤتيها من يشاء، فكان على من أرادها أن يطلبها منه بصدق الإيمان والسير على سنته تعالى، واتباع هداية وحيه الذي يرشد إلى طرقها ويبين أسبابها، وقد آتاها نبيّه والمؤمنين باهتدائهم بكتابه، وسيرهم على سننه][2].

---

(١) النساء: ١٣٩.

(٢) مختصر تفسير المنار (٢/ ٢٠٤) بتصرف.

ومن طرق العزة المشار إليها ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ . . .﴾ الآية[1].

قال الزمخشري: ومعنى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أن العزة كلها مختصة بالله، عزة الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2] فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه[3].

وقال سيد قطب رحمه الله في تعليقه على الآية الكريمة: (إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية. وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع، عارفاً طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه!

إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لعاصفة طاغية ولا لحدث جلل ولا لوضع ولا لحكم ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً، وعلام؟ والعزة لله جميعاً. وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح، فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيب والعمل الصالح، القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه، والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) الكشاف: (٣/ ٣٠٢).

(٣) تفسير السعدي (٤/ ٢٠٧).

ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة الاستعلاء)[1].

وحتى لا يختلط مفهوم العزة مع المفاهيم المذمومة التي تشترك معه في الاستعلاء وغيره، ولبيان حقيقة العلاقة وكيفية الجمع بين العزة والتواضع وبين الاستعلاء بالإيمان والخضوع لله، يكمل سيد رحمه الله الكلام فيقول: (إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل. وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار، وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة، وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح.. كلا! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله ثم هي خضوع لله وخشوع، وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه، ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه، ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه. هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة، وهذه هي الصلة بين هذا المعنى وذاك في السياق)[2].

وإذا كان الله عزّ وجلّ قد بين طريق العزة ووسائل تحصيلها، بالإيمان والعمل الصالح، فقد حذر سبحانه من طلبها من غير طريقها، وابتغائها عند غير من يملكها، ولذلك بشر المنافقين الذين يوالون الكفرة ابتغاء النصرة والعزة بالعذاب الأليم، إذ إنهم أساؤا الظن بالله وأساؤا تصورهم لمصدر العزة والقوة، فأحبوا ووالوا وقربوا وعبدوا غير الله، فاستحقوا الذل والخزي والعذاب، لأن الأمر إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق، وإما عبودية لغيره كلها استخذاء وذلة وأغلال..[3].

---

(١) الظلال: (٥/ ٢٩٣٠) بتصرف يسير.

(٢) نفس المصدر (٥/ ٢٩٣١).

(٣) انظر الظلال (٢/ ٧٨٠).

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله في تعليقه على الآيات: (وما أحوج ناساً ممن يدعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض، أن يتدبروا هذا القرآن.. إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين.. وإلا فإن الله غني عن العالمين)[2].

وإذا كان أمر العزة لله وحده، وطريقه هوالإيمان والعمل الصالح، فلا معنى لأن يذل المؤمن أو يهين ولا أن يخضع أو يركع لغير العزيز الجبار المتكبر، ولذلك قال سبحانه وتعالى محذراً وموجهاً المؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[3].

فهذه الآية تمثل حال العزة والاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن ـ ما دام مؤمناً ـ إزاء كل شيء وكل وضع وكل قيمة وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان، والعزة بالله وحده، فالمؤمن هو الأعلى.. الأعلى سنداً ومصدراً، فهو من الله يتلقى، وإلى الله يرجع، وعلى منهجه يسير.. وهو الأعلى ضميراً وشعوراً، وخلقاً وسلوكاً وهو الأعلى شريعة ونظاماً[4]، ولذلك فقد نهاه الله عن الضعف والوهن، ونهاه عن التنازل وتضييع المبادىء، لأن الله معه ولن يتركه أو يهمله، ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ

---

(١) النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) الظلال: (٢/ ٧٨٠).

(٣) آل عمران: ١٣٩.

(٤) انظر معالم في الطريق لسيد قطب: ١٦٣ـ ١٦٦.

أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾[1] والوهن: الضعف في العمل، وفي الأمر، وكذا في الرأي[2].

والإنسان لا يهن، إلا إذا كان أذل من غيره، وأضعف عدداً، أو عُدداً وقوة داخلية وخارجية[3].

ومن هذا الباب، ومن صور العزة والكرامة التي وجدت وحققت في الواقع، ما جاء في عزة يوسف عليه السلام حيث سجن وظلم، ولبث في السجن بضع سنين، ولما جاءه الفرج، وسنحت له الفرصة للخروج ـ وليس أي خروج ـ إنما كان بطلب الملك نفسه، وليقربه ويصطفيه ويدنيه، ومع ذلك لم يستجب لذلك، ليحفظ كرامته ويصون عرضه، وتتبين براءته، وتظهر عزته: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾[4].

فلما تبينت للملك براءته، وتبين له معها كرامته وإباؤه، إذ إنه لم يتهافت على الخروج من السجن، ولم يتهافت على لقاء الملك، وإنما وقف وقفة الرجل الكريم الشريف، المتهم في سمعته، المسجون ظلماً وكيداً، ويطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك[5].. كل ذلك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه حتى قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[6].

---

(١) محمد: ٣٥.
(٢) مختصر المنار: (١/ ٤٠٥).
(٣) تفسير السعدي (٥/ ٣٩).
(٤) يوسف: ٥٠.
(٥) انظر الظلال (٤/ ٢٠٠٤) بتصرف.
(٦) يوسف: ٥٤.

يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على ذلك الموقف العجيب: (فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقوا السراح ـ فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء.. يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء)[1].

وبمثل موقف يوسف عليه السلام تكون العزة والاستعلاء، وهكذا المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء، والقوى المتنفجة، والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية[2].

وهكذا وقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها، في معسكر رستم قائد الفرس المشهور: حيث جاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (حتى نزل القادسية ومعه ما لا يزيد على سبعة آلاف والمشركون ثلاثون ألفاً أو نحو ذلك، فقالوا: لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم؟ ارجعوا. قال المسلمون ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نبلهم ويقولون «دوك دوك»[3] وشبهوها بالمغازل، ثم قالوا: ابعثوا إلينا رجلاً من عقلائكم يبين لنا ما جاء بكم. فقال المغيرة بن شعبة: أنا، فعبر إليهم فقعد مع رستم على السرير فنخروا وصاحوا فقال: إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم. فقال رستم: صدق، ما جاء بكم؟ فقال: إنا كنا قوماً في شر وضلالة، فبعث الله إلينا نبياً فهدانا الله به ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة تنبت في هذا

---

(١) الظلال: (٤/ ٢٠٠٥).

(٢) انظر معالم في الطريق لسيد قطب ص ١٦٦.

(٣) يظهر أن هذه كلمة فارسية تدل على السخرية والاحتقار.

البلد، فلما أكلناها وأطعمناها أهلينا قالوا: لا صبر لنا عنها، أنزلونا هذه الأرض حتى نأكل من هذه الحبة.

فقال رستم: إذاً نقتلكم. قال: إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار وأديتم الجزية. قال: فلما قال وأديتم الجزية نخروا وصاحوا وقالوا: لاصلح بيننا وبينكم. فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟ فقال رستم: بل نعبر إليكم، فاستأخر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم[1].

وفي رواية أخرى: أن المغيرة بن شعبة أقبل والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوة[2] لا يصل إلى صاحبهم، حتى يمشى عليهم غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي، حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فتتروه وأنزلوه ومغثوه[3]. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستبعد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.. إلخ)[4].

وهكذا تكون العزة، وهكذا يقف الأعزاء، وهكذا يتكلم الكرماء.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: (٢/ ٣٨٩)، البداية والنهاية (٧/ ٤١) بتصرف.
(٢) الغلوة: الغاية مقدار رمية (الصحاح: ٦/ ٢٤٤٨).
(٣) المعنى: ضربوه ضرباً غير مبرح (الصحاح: ١/ ٢٩٣).
(٤) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٢ـ ٤٠٣).

وليس هذا موقفاً فردياً نادراً، أو فلتة من المغيرة بن شعبة ليس لها نظير، كلا بل كان هذا طابعاً عاماً ومظهراً سائداً لدى كل مسلم صادق يقف في مثل ذلك الموقف، ويواجه مثل هذه الأحداث.

فهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه ـ يقف في تلك المعركة نفسها (القادسية) موقفاً مشابهاً للمغيرة، تظهر فيه الثقة والعزة، وتتجلى فيه الكرامة والإباء: فقد بعثه سعد بن أبي وقاص رسولاً إلى رستم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهروا اليواقيت واللآلىء الثمينة، والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، قد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وماموعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.. إلخ[1].

ومثل ذلك كان من حذيفة بن محصن في كلامه مع رستم، وموقفه مع الفرس، في نفس تلك المعركة حيث بعثه سعد بن أبي وقاص بعد ربعي بن عامر، وبعث بعده المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنهم أجمعين[2].

---

(١) انظر البداية والنهاية (٧/ ٤٠، وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠١).
(٢) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٢).

ولما ظهر من الثلاثة من توافق في الرأي، وقوة في التعبير، وعزة وكرامة وصدق، خلص رستم تألفاً بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا! ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً، هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن بلغ من إربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء[1].

فهذه أمثلة لطيفة في بيان العزة التي ينبغي أن يتصف بها المحاور المسلم ـ لا سيما إن كان خصمه كافراً أو معانداً ـ فيجدر به حينئذ ألا يذل أو يهين، بل يعلو بإيمانه ويسمو بمبادئه، وإن كان ضعيفاً في عدده وعدته، فليست العزة بالقوى المادية، ولا بالمظاهر البراقة، كلا بل تكون بقوة القلب وصدق العزيمة، وبتمكن الإيمان وثبات النفس على الحق.

ويتعلق بالعزة جداً مبدأ الثبات على الحق، فهو من دلالاتها ومن أمارات الصدق والقوة، والمحاور يحتاجه ولا بد له منه، إذ المقصود من الحوار: إقناع الآخرين وإرجاعهم إلى الحق والصواب، فإذا كان المحاور نفسه مضطرب النفس مشوش الأفكار، يضعف أمام الشبه المختلفة، وينهار أمام الأباطيل الملفقة ويتزعزع عند النقاش الجاد، ويتراجع ويتنازل عن مبادئه الأصلية، التي لا تقبل التبديل ولا التغيير، فمثل هذا الأجدر به ألا يتجاسر على الحوار، وألا يدخل في جدال، إذ ينعكس الهدف الذي من أجله وجد الحوار.

وهناك أمثلة ونماذج متعددة، تدل على مواقف قوية في الثبات على الحق أمام مختلف التحديات:

---

(١) نفس المصدر (٢/ ٤٠٣).

ولعل من أبرز المواقف المشرفة وأنبل النماذج ما كان من سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى لما تبين لهم الحق وظهر أمره وصدقه، فما كان منهم إلا أن سجدوا لله تعالىٰ وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾[1].

فلجأ الطاغية الأثيم إلى التهديد بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح، فقال لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾. ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابات، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾[2]. وهنا وقف هؤلاء المؤمنون الصادقون موقف العزيز المستعلي، وثبتوا على دينهم الحق، واستحقروا الحياة كلها ـ إن كانت في الكفر والطغيان ـ ورأوا أن القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة، وأن الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة[3]، فأضافوا إلى القوة والثبات التحدي والإفحام: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾[4]. وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾[5].

كما أن مواقف الأنبياء في وجوه أقوامهم، كلها عزة وثبات، وقوة وإباء، وما التحدي[6] الذي يعلنه النبي لقومه إلا دليل على ذلك الاستعلاء والثبات.

---

(١) طه: ٧٠.

(٢) طه: ٧١.

(٣) انظر الظلال (٤/ ٢٣٤٣) بتصرف.

(٤) طه: ٧٢.

(٥) الشعراء: ٥٠.

(٦) سيأتي الكلام مفصلاً بأدلته عن التحدي ـ بإذن الله تعالى.

ومن تلك المواقف الكثيرة المتعددة موقف نبي الله هود عليه السلام حين كذبه قومه وعاندوه، فأعلن براءته منهم ومن آلهتهم، وتحداهم أن يكيدوا له جميعاً، وتوكل على ربه الذي نواصيهم بيده، كل ذلك وهو فرد واحد، ويواجه قوماً غلاظاً حمقى، ولكنها عزة الإيمان واستعلاؤه وثقة الإيمان واطمئنانه[1]: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾[2].

يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على موقف هود عليه السلام: (إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو، حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم.. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة، وقوة المال، وقوة العلم البشري، وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات... وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة، وأن الناس ـ كل الناس ـ إن هم إلا دواب من الدواب)[3].

وكما ذكرت آنفاً فإن مواقف الأنبياء كلها ثبات وقوة، وعزة واستعلاء، وهم أحق من يعتز، وأجدر من يستعلي، إذ إنهم بالله يتصلون، ومنه يستمدون، وبنصره يثقون. ولعل المقام يطول لو استعرضنا قصصهم ومواقفهم تفصيلاً، ولكن أشير باختصار إلى بعض مواقف الثبات والقوة في بعض حواراتهم:

فمنها موقف الخليل إبراهيم عليه السلام عندما حاجه قومه وأخافوه فثبت ورد عليهم في ثقة وأمن واطمئنان، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ

---

(١) انظر الظلال (٤/ ١٨٩٩).

(٢) هود: ٥٤ـ٥٦.

(٣) الظلال (٤/ ١٩٠٦).

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّۚ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ . .﴾[1].

ومنها موقف: موسى عليه السلام في مواجهته الطويلة القوية لفرعون، ومن ذلك لما أنكر فرعون دعوة موسى وتعجب من مقالته، وقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾[2].

وذلك لطغيان فرعون وتصوره أنه لا يمكن أن تصدر دعوة مضادة له إلا من مسحور أو مجنون غير عاقل، ولكن رد عليه موسى الكليم عليه السلام في قوة وعزة، ومواجهة بالحق بلا تردد أو تنازل: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾[3].

ومن مواقف الثبات في السنة ما أخرجه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي قلابة قال: كنت بالشام في حلقة فيها مسلم بن يسار. فجاء أبو الأشعث. قال: قالوا: أبو الأشعث، أبو الأشعث. فجلس فقلت له: حدث أخانا حديث عبادة بن الصامت. قال: نعم، غزونا غزاة، وعلى الناس معاوية، فغنمنا غنائم كثيرة، فكان فيما غنمنا آنية من فضة، فأمر معاوية رجلاً أن يبيعها في أعطيات الناس. فتسارع الناس في ذلك، فبلغ عبادة بن الصامت فقام فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة، والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا سواء بسواء، عيناً بعين، فمن زاد أو ازداد فقد أربى. فرد الناس ما أخذوا، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيباً فقال: ألا ما بال رجال

---

(١) الأنعام: ٨٠ـ ٨١.
(٢) الإسراء: ١٠١.
(٣) الإسراء: ١٠٢.

يتحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث. قد كنا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه. فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة، ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من رسول الله ﷺ وإن كره معاوية (أو قال: وإن رغم). ما أبالي أن لا أصحبه في جنده ليلة سوداء[1].

فهذا ثبات من عبادة بن الصامت رضي الله عنه على حجته وما سمعه من رسول الله ﷺ وعدم التنازل عنه لأجل معاوية.

ومثله ثبات عمر رضي الله عنه على رأيه في مسألة التيمم للجنب، حيث أخرج أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن أبزى قال: كنت عند عمر فجاءه رجل فقال: إنا نكون بالمكان الشهر والشهرين. فقال عمر: أما أنا فلم أكن أصلي حتى أجد الماء، قال: فقال عمار: يا أمير المؤمنين، أما تذكر إذ كنت أنا وأنت في الإبل فأصابتنا جنابة، فأما أنا فتمعكت، فأتينا النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا، وضرب بيديه إلى الأرض، ثم نفخها، ثم مسح بهما وجهه ويديه إلى نصف الذراع»، فقال عمر: يا عمار، اتق الله، فقال: يا أمير المؤمنين، إن شئت والله لم أذكره أبداً، فقال عمر: كلا والله لنولينك في ذلك ما توليت[2].

فقول عمر: (يا عمار اتق الله) أي فيما ترويه، وتثبت فيه فلعلك نسيت أو اشتبه عليك، فإني كنت معك ولا أتذكر شيئاً من هذا[3]. وهذا

---

(١) أخرجه مسلم: المساقاة (٣/ ١٢١٠) رقم ٨٠، النسائي: البيوع (٧/ ٢٧٥) رقم ٤٥٦٢.

(٢) هذه رواية أبي داود: الطهارة (١/ ٨٦) رقم ٣٢٢، وأصله في البخاري: التيمم ٣٣٨، وفي النسائي الطهارة (١/ ١٦٦) رقم ٣١٢.

(٣) انظر الفتح (١/ ٤٥٧) [ولعلّ الأظهر هنا: ثبات عمار ـ رضي الله عنه ـ على موقفه وعدم التزعزع عنه حتىٰ في مواجهة أمير المؤمنين].

هو موقف الثبات من عمر على حجته ورأيه، وذلك عذره ومبرره. إذ إنه قد انتهى إلى ما علم ـ وإن خفي عليه ما أخبر به عمار.

ومن هذا الباب أيضاً ما كان من ثبات أبي هريرة رضي الله عنه ـ في حواره مع كعب الأحبار، وذلك أن النبيﷺ قال: «فقدت أمة من بني إسرائيل، لا يدري ما فعلت، ولا أراها إلا الفار، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الأبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته» قال أبو هريرة: فحدثت هذا الحديث كعباً فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم. قال ذلك مراراً قلت: أأقرأ التوراة؟[1].

فهنا ثبت أبو هريرة رضي الله عنه على حديثه الذي سمعه من النبي ﷺ ـ ثم أنكر على كعب تكراره لسؤاله، فقال له «أأقرأ التوراة» ويعني بذلك أنه ليس عنده شيء إلا سمعه عن النبي ﷺ فلم ينقل عن التوراة أو غيرها من الكتب[2].

ومن آخر هذه الأمثلة المختصرة ما جاء في حديث سلمة بن صخر الأنصاري رضي الله عنه حيث أنه ظاهر من امرأته في شهر رمضان ثم إنه وقع عليها، فلما جاء إلى النبي ﷺ وأخبره بخبره قال له: أنت بذاك؟ قال قلت: أنا بذاك. قال: أنت بذاك؟ قال قلت: أنا بذاك. قال: أنت بذاك؟ قال قلت: أنا بذاك، وها أنذا فامض في حكم الله فإني صابر لذلك... الحديث[3].

---

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق ٣٣٠٥، مسلم: الزهد (٤/ ٢٢٩٤) رقم ٦١، أحمد (٢/ ٢٣٤).

(٢) انظر التعليق على الحديث في صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٩٤).

(٣) أخرجه أبو داود: الطلاق (٢/ ٢٧٢)، الترمذي وحسنه: التفسير (٥/ ٤٠٥) رقم ٣٢٩٩، أحمد (٤/ ٣٧) وحسنه الأرناؤوط في جامع الأصول برقم (٥٨٢١) ج٧ ص ٦٥٠.

فواضح من الحديث ثبات سلمة رضي الله عنه على الحق وصدقه في ذلك، مع أن الأمر في غير مصلحته، بل واضح استعداده وقبوله لحكم الله مهما كان، وصبره لذلك، فكان له الفرج على يد رسول الله ﷺ حيث أعانه في كفارته، فرجع بعد ذلك إلى قومه وقال لهم: (وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة).

ولعل هذه النماذج كافية في الدلالة على المقصود، وبيان أهمية العزة التي تتفق مع التواضع، وضرورة الثبات الذي لا ينافي التدرج، وعلى المحاور أن يشعر بقيمة هذا الأدب، ويراعي ذلك المبدأ بحكمة واتزان.

المبحث الثامن

حسن الاستماع

لا بد للمحاور الناجح أن يتقن فن الاستماع، فكما أن للكلام فناً وأدباً، فكذلك للاستماع مثله، والمتحدث البارع مستمع بارع، والاهتمام بكلام الطرف الآخر وحسن الانصات إليه، مفتاح لقلب الخصم، ودليل على الصدق في طلب الحق والحرص على إظهاره واتباعه، ولكل طرف في الحوار الحق في إبداء ما عنده من الآراء والأقوال والشبه، وليس الحوار من حق طرف واحد يستأثر فيه بالكلام دون محاوره، ففرق بين الحوار الذي فيه معنى النقاش وتبادل الآراء والتجاوب في الكلام وبين الاستماع إلى كلمة أو محاضرة أو نحوها. ولا ينبغي للمحاور أن يحصر همه فيما سيقوله هو لمستمعه، دون أن يلقى لكلام خصمه بالاً، والناس يفضلون المستمع الجيد على المتكلم الجيد[1]. وفي الاستماع إلى الطرف الآخر نوع من التواضع، وإعطاء الأهمية لكلام الآخرين يطرد العجب بالنفس وأدعى إلى الإخلاص والتجرد، وفيه مراعاة للوقت ولاستيعاب الخصم للكلام، إذ إن المستمع لا يستطيع أن يركز في سماعه أكثر من ربع ساعة، وبعدها يكل الذهن ويقل التركيز[2].

ومقاطعة كلام الطرف الآخر إضافة إلى ما فيه من سوء الأدب

---

(١) انظر أصول الحوار ص ٢٧.

(٢) رسالة قل«إنما أعظكم بواحدة» ص ٢٦ـ ٢٧.

واحتقار الآخرين، فإنه طريق سريع لتنفير الخصم وانفضاضه وتقليل قيمة فاعله، ومن ابتلي بهذا الداء ـ داء مقاطعة الآخرين وعدم الإنصات إليهم ـ فكأنما طبق نصيحة كارينجي القائلة: (إذا كنت تريد أن ينفض الناس من حولك، ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك، فهاك «الوصفة»: لا تعط أحداً فرصة الحديث.. تكلم بغير انقطاع عن نفسك، وإذا خطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدث فلا تنتظر حتى يتم حديثه: إنه ليس ذكياً مثلك ولا أريباً، فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف؟! اقتحم عليه الحديث واعترضه في منتصف كلامه)[1].

وقد قال الشاعر في الثناء على المستمع الجيد:

من لي بإنسان إذا خاصمته ... وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شربت من ... أخلاقه وسكرت من أدابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه ... وبقلبه ولعله أدرى به!![2]

وإضافة إلى ذلك فإن قطع الفكرة أو التشويش عليها يؤثر على تسلسل الأفكار وترابطها[3]، ويؤدي إلى اضطرابها ونسيان بعضها.

وقد ذكر العلماء في آداب المتناظرين: ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر حتى يفهم مراده من كلامه تماماً، وأن ينتظر كل واحد منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه ولا يقطع عليه كلامه من قبل أن يتمه[4].

فلا يحسن الاستعجال في قطع كلام الخصم أو مناقشته قبل فهم كلامه، بل الواجب الانصات وحسن السماع، فإن في ذلك فائدة للطرفين

---

(١) كيف تكسب الأصدقاء ص ٩٧.
(٢) انظر أصول الحوار ص ٢٧.
(٣) رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٤٢.
(٤) انظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: (٢/٧٦)، أصول المعرفة والاستدلال للميداني: ص ٣٨٣.

على السواء، فأما المتكلم: فقد يغير الدليل، أو يزيد عليه بما يدفع الاعتراض، أو يحذف فيه ما يوجب الخلل، أو يدلل على مقدمة نظرية، أو ينبه على مقدمة خفية، فيسلم من مناقشة الخصم، وأما المستمع أو الطرف الآخر فربما يخطىء بالاستعجال فيظهر جهله، وقد يذكر المحاور بعد إقامة دليله ما يظهر به ما خفي على محاوره، ليكفيه مؤنة البحث والنقاش، وقد يؤدي استعجال البحث والمناقشة إلى فساد الحوار وضياع الوقت[1].

وكيف يليق بالمحاور المسلم ألا يستمع للآخرين ولا يلقى لهم بالاً، وربه السميع البصير العليم بما في الصدور يستمع إلى أعدى الأعداء إبليس، ويترك له الفرصة في الكلام، بل في التهديد والوعيد، فسبحان الله العليم الحليم، القائل سبحانه في هذا الشأن.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾[2].

هذا الحوار الذي تكرر ذكره في القرآن عدة مرات، والذي يظهر منه عناد إبليس وكبره وغروره، يبرز فيه إمهال الله وإنظاره للّعين إبليس، وإنما (أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)[3]، (فلما علم

---

(١) انظر أداب الحوار والمناظرة د. علي جريشة: ص ٦٩. بتصرف.

(٢) الأعراف: ١١ـ ١٨.

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٠٤).

إبليس إنه منظر بادى ربه ـ من خبثه ـ بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾[1][2].

وحسن الاستماع يحتاج إلى تهيئة النفس للإنصات، والبعد عما يشغل أو يقلل التركيز، ولا بأس بأن يظهر المحاور تهيئه واستعداده وتقبله لكلام محاوره، وأن يتفاعل معه أثناء السماع، ويعطيه الفرصة الكافية لإبداء آرائه، ويمنحه فرصة السؤال والتثبت، وكل ذلك وغيره تمثل في أدب رسول الهدى ﷺ وهو يحاور ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد ـ والنبي ﷺ ـ متكىء بين ظهرانيهم فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: قد أجبتك، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك الله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)[3].

---

(١) ص: ٨٢.

(٢) تفسير السعدي (٤/ ٣٠٢).

(٣) تقدم ذكره في المبحث الأول من هذا الباب ص ١٢٢.

فيلاحظ أن النبي ﷺ قد تهيأ للرجل، حتى قال له: «قد أجبتك: أي أسمعتك، والمراد إنشاء الإجابة»[1].

ثم أعطاه مطلق الحرية في السؤال والاستفسار فقال له: «سل ما بدا لك». ثم أنصت إليه فعلاً. وأجابه على أسئلته حتى انتهى، ثم انطلق مؤمناً ورسولاً مبلغاً من وراءه من قومه.

بل أعجب من ذلك: إنصاته ﷺ وحسن استماعه للمخالفين له، وصبره على كلامهم، مع أنه يظهر في بعضه الجهل والتعدي، أو سوء الأدب وعدم التقدير له، ولكن أخلاق النبوة تحول بينه ﷺ وبين أي تصرف آخر غير حسن الإنصات والرد الجميل بعده.

ومن المواقف التي تبين هذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذا الريح[2]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال فلقيه فقال: يا محمد! إني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، قال فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء. فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[3]. قال فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال:

---

(١) انظر الفتح (١/ ١٥١).

(٢) أي من الجنون ومس الجن (انظر التعليق على الحديث في صحيح مسلم: ٢/ ٩٣).

(٣) أي وسطه ولجته (انظر التعليق على الحديث في صحيح مسلم: ٢/ ٩٣).

فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي. قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة. فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضماد)[1].

فالنبي ﷺ يستمع إلى ضماد وهو يعرض عليه سفاهة أهل مكة وطعنهم فيه عليه السلام، ويحسن الإنصات فلا يسكته ولا يزجره، ثم يرد عليه بكلمات لطيفة تقرع قلبه، فيقاطعه قبل أن يكمل، ويطلب إعادتها ثم يسلم رضي الله عنه وأرضاه.

ومثل هذا بل وأعجب منه ما جاء في السير وبعض المسانيد من محاورة عتبة بن ربيعة للنبي ﷺ وذلك أن عتبة، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي

---

(١) أخرجه مسلم الجمعة ٢/ ٩٣ رقم ٤٦.

يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ حمٓ ﴿٢﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[1] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.. إلخ)[2].

فهذا الحوار يظهر منه واضحاً حسن إنصات رسول الله ﷺ، وتهيئة نفسه لسماع خواطر مقززة من رجل كافر، مع ذلك يقول له (قل يا أبا الوليد). وما قاله سفه وعرض رخيص، إلا أن النبي ﷺ يتلقاها حليماً، ويستمع كريماً، وهو مطمئن هادىء ودود. لا يعجل عتبة عن استكمال هذه الخواطر الصغيرة، حتى إذا انتهى قال في هدوء وثبات وسماحة[3] ليتأكد من فراغه: «أقد فرغت يا أبا الوليد» فهو ﷺ يضرب لنا مثلاً في أدب الاستماع وحسن الإنصات، فلا يكفي أنه يستمع إلى رجل كافر

---

(١) فصلت: ١ـ ٥.

(٢) انظر تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ص ٦٢ـ ٦٣، والقصة أخرجها غير ابن إسحاق في السيرة: البغوي في التفسير (٦/ ١٠٧) في تفسير سورة فصلت، وقد ذكر بعض رواياتها ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٠ـ ٩١) وقال عن رواية البغوي وهذا أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، وذكر بعدها رواية ابن إسحاق هذه وقال (وهذا السياق أشبه من الذي قبله والله أعلم) والقصة حسنّها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ١١٣.

(٣) انظر الظلال: (٥/ ٣١١٧).

معاند، وكلامه حمق وسفه بل يطلب منه أن يخرج كل ما في جعبته، كل ذلك بلطف وطيب كلام وسعة صدر، حتى يكنى عتبة (يا أبا الوليد) زيادة في أدبه وحسن خلقه وكريم شمائله.

ولعل قصص الأنبياء عليهم السلام حافلة بالأمثلة والنماذج لحسن استماع الرسل لأقوامهم، وإنصاتهم للشبه والاعتراضات، بل للسب والشتم والاعتداء في القول أحياناً ـ ومع ذلك يصبرون على سماع تلك الأقوال والكلمات النابية ويتلوها منهم الرد الحميل، أو الجواب المفحم بأدب لطيف، وكلام منزه عن السفاهة والشتائم. وذكر الأمثلة يطول جداً، ولكن أشير إلى بعض الأقوال الآثمة والشبه الباطلة التي استمعها الأنبياء من أقوامهم.

قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

قوله تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[3].

وقال أيضاً عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٦٠.
(٢) هود: ٢٧.
(٣) الأعراف: ٦٦.
(٤) هود: ٥٣.

وقوله تعالى في قوم شعيب عليه السلام: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾[1].

وقال فيهم أيضاً: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[4].

ومن ذلك أقوال فرعون المتعددة في أمر موسى عليه السلام ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[6] وقوله أيضاً ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[7].

وقوله تعالى في قصة موسى أيضاً: ﴿ قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾[8].

---

(١) الأعراف: ٨٨.
(٢) الأعراف: ٩٠.
(٣) هود: ٨٧.
(٤) هود: ٩١.
(٥) الشعراء: ٢٧.
(٦) الشعراء: ٢٩.
(٧) الشعراء: ٣٤.
(٨) غافر: ٢٥ـ ٢٦.

إلى غير ذلك من الأمثلة والشواهد التي تثبت حسن استماع الأنبياء عليهم السلام، وإنصاتهم لتلك الترهات والضلالات، وضبط النفس في أثناء عرضها، ثم ما يتلو ذلك من الرد المفحم اللطيف.

ولا بأس أن يستنصت المحاور من أمامه حتى يتم سماعهم جيداً، فعن جرير بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ - في حجة الوداع: «استنصت الناس»[1] ثم قال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[2] وليس من الأدب عدم الاهتمام واللامبالاة بكلام المحاور، أو عدم الاكتراث برأيه، أو تعمد الانشغال عنه في أثناء كلامه بل ينبغي أن يتكلف الصبر على استماع محاوره، ويتعمد إظهار الاهتمام بكلامه، فهذا أدعى للتفاهم بين الطرفين، وأقرب لنجاح الحوار، حتى وإن كان الكلام معروفاً لدى السامع أو مكرراً، فهذا عطاء بن أبي رباح علامة التابعين رحمه الله يقول: (إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد)[3].

والاستماع إلى الطرف الآخر والعناية به وحسن الإنصات له إضافة إلى ما فيها من احترام وتقدير الآخرين، فإنها تشرح نفس الطرف الآخر، وتهيئها لقبول الحق وتمهدها للرجوع عن الخطأ، ومهما كان الخصم معانداً فإنه إن وجد مستمعاً طيباً هادئاً لبقاً لا بد وأن يتأثر، فإن: (أشد الناس جفافاً في الطبع وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين إزاء مستمع صبور عطوف.. مستمع يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغاضب، يصول ويجول كالحية الرقطاء وهو ينفث سمه هنا وهناك)[4].

---

(١) أي مرهم بالإنصات: انظر رياض الصالحين ص ٣١٣.

(٢) أخرجه البخاري: العلم ١٢١، مسلم الإيمان (١/ ٨١) رقم ١١٨، أبو داود: السنة (٤/ ٢٢٠) رقم ٤٦٨٦، أحمد (٢/ ٨٥).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٨٦).

(٤) كيف تكسب الأصدقاء: ص ٩٢.

والمقصود أن حسن الاستماع، وإعطاء الفرصة للخصم في إبداء آرائه وعدم الاستئثار بالكلام دون الطرف الآخر، والصبر على ما قد يكون في كلام الخصم من إساءة أو تعريض أو نحوه، وعدم مقاطعته أو الانشغال عنه، كل ذلك من الأدب اللطيف، والخلق الجميل، الذي ينبغي أن يتصف به المحاور حتى يكون ناجحاً.

وليعلم المحاور أن الاستئثار بالكلام والإطالة فيه ـ غالباً ـ ما يدل على إعجاب المرء بنفسه، أو حب الشهرة والثناء، أو الغفلة عن تقدير الطرف الآخر من حيث العلم والوقت والموقف[1].

---

(١) أصول الحوار ص ٢٥.

المبحث التاسع

المحبة رغم الخلاف

ما دام أن الخلاف واقع لا محالة، ولا بد من وجوده وحصوله، فإذا كان هذا الخلاف بين مسلمين صادقين في طلب الحق، جادين في الوصول إلى نتيجة صحيحة، ثم كان خلافاً في قضية جزئية، أو مسألة فرعية، فلا يجوز بحال من الأحوال أن يؤدي بهما مثل هذا النوع من الخلاف إلى شيء من التباغض والتنافر، أو التقاطع والتهاجر، أو التشاحن والتدابر: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا..»[1].

فأخوة الدين يجب أن تبقى فوق تلك الخلافات الجزئية، والمحبة في الله لا يجتمع معها شيء من هذه التصرفات التي يذكيها الشيطان، واختلاف وجهات النظر لا ينبغي أن تقطع حبل المودة، ومهما طالت المناظرة أو تعدد الحوار أو تكررت المناقشة، فلا يليق أن تؤثر على القلوب، أو تكدر الخواطر، أو تثير الضغائن والإحن.

ولذلك فينبغي للمحاور المخلص أن يتجنب ذلك كله، وأن يحرص على ألا يتسلل إلى قلبه شيء من تلك الهنات، وعليه أن يخطب ود أخيه، وينتزع ما قد يكون تسلل إليه من غل أو حقد أو نحوهما بسبب الحوار والمناقشة، كما أنه يجب أن يكون متذكراً هذا الأمر جيداً ـ قبل وأثناء

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم وغيره وتقدم في مبحث التواضع ص ١٧٥.

وبعد ـ الحوار والمناظرة، فلا يخرج من الحوار معلناً الخصومة على محاوره، أو موسعاً الهوة بينه وبين إخوانه، مهما كلفه الأمر من اللين والتواضع وخفض الجناح، وعليه أن يتذكر القول المشهور: «واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»[1].

ثم لينظر كل محاور إلى تطبيق هذا القول، وإلى صفاء القلوب وطهارة النفوس، من خلال اختلافات السلف رضوان الله عليهم ـ والتي قد يصل بعضها إلى حد رفع السيف والقتال ـ مع بقاء أصل الأخوة الدينية، والمحبة الإسلامية والتعبير عنه بالكلمات المؤثرة، والمواقف الإيمانية الفذة.

فهذان الخليفتان الراشدان، أفضل رجلين في هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ مبشران بالجنة، ومقربان إلى رسول الله ﷺ، ثم هما يختلفان في أمور كثيرة وقضايا متعددة، مع بقاء الألفة والمحبة، ودوام الأخوة والمودة، وذلك من آثار تربية النبوة، ويظهر ذلك من خلال بيان بعض المواقف والمسائل التي اختلفا فيها، ثم من خلال النظر في ثناء كل منهما على صاحبه والثقة به والإقرار بمنزلته، فمن مواقف الخلاف بينهما:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كانت بين أبي بكر وعمر محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه. فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ـ قال أبو الدرداء: ونحن عنده ـ فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم هذا فقد غامر. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول لله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله،

---

(١) انظر أصول الحوار ص ٤٩.

لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟، هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدقت»[1].

فهذا خلاف بين الخليفتين الراشدين ـ رضي الله عنهما ـ ولكنه لم يذهب بالمودة ولم يقطع حبل الأخوة بينهما، وقد جاء في حديث ابن عمر عند الطبراني في نحو هذه القصة: (أن النبي ﷺ قال لعمر: «يسألك أخوك أن تستغفر له فلا تفعل، فقال: والذي بعثك بالحق ما من مرة يسألني إلا وأنا أستغفر له، وما خلق الله من أحد أحب إليّ منه بعدك، فقال أبو بكر: وأنا والذي بعثك بالحق كذلك»[2]).

ومن الخلاف بينهما ما جاء في حديث ابن الزبير رضي الله عنه قال: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت الآية[3].

ومن الخلاف الذي كان بينهما، اختلافهما في وفاة رسول الله ﷺ، ثم في حرب المرتدين، ثم في جمع المصحف ونحوها[4] وإن كانت مثل هذه الخلافات تنتهي بمجرد ورود النص فيها، أو بيان المصلحة منها.

وهناك اختلافات بينهما في مسائل فقهية أو نظرية، استمرت ودامت ولكنها لم تؤثر شيئاً في نفسيهما، ومن ذلك (اختلفا في سبي أهل الردة فرأى

---

(١) تقدم تخريجه في الباب الأول ص ٢٢.

(٢) انظر الفتح (٧/ ٢٥).

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٨٤٧، ٤٨٤٥ في كتاب التفسير وتقدم في الباب الأول.

(٢) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٢٣٢).

أبو بكر سبي نسائهم، ورأى عمر عكس ذلك، ولذلك فقد نقض عمر في خلافته حكم أبي بكر في هذه المسألة وردهن إلى أهليهن، لكنه لم ينشق على أبي بكر، فلكل اجتهاده في المسائل القابلة للاجتهاد، واختلفا في قسمة الأراضي المفتوحة. فقسمت في عهد أبي بكر ولم تقسم في عهد عمر، وكذلك في أمر الخلافة فقد استخلف أبو بكر من بعده عندما مات، وعمر لم يستخلف بل جعل الأمر شورى)[1].

مع هذا الخلاف وغيره بينهما إلا أن كلاً منهما كان يحمل الحب والتقدير للآخر ويظهر ذلك من ثناء كل واحد منهما على صاحبه، فمن ذلك ما جاء في قصة الخلافة بعد الرسول ﷺ، وفيها(فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس)[2].

ومنه ما تقدم في المحاورة التي كانت بينهما وقال عمر للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق ما من مرة يسألني إلا وأنا أستغفر له، وما خلق الله من أحد أحب إلي منه بعدك. فقال أبو بكر، وأنا والذي بعثك بالحق كذلك[3].

وفي المقابل كم كانت ثقة أبي بكر بعمر رضي الله عنهما ـ ويكفي في ذلك أنه استخلفه من بعده ليكون إماماً لأمة محمد ﷺ وقال لرعيته وهو في مرض موته: (إني وليت أمركم خيركم في نفسي)[4].

---

(١) انظر أدب الخلاف لابن حميد ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: فضائل الصحابة ٤٣٦٦٨، الترمذي المناقب (٥/٦٠٦) رقم ٣٦٥٦.

(٣) تقدم آنفاً.

(٤) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٣).

ولما قال له طلحة بن عبيد الله: استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك. فقال أبو بكر ـ وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله تفرقني ـ أو أبالله تخوفني ـ إذا لقيت الله ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك[1].

إلى غير ذلك من الأقوال والمواقف والتي تبين أنه رغم المحاورة والجدال والخلاف الذي وقع بين الصاحبين ـ رضوان الله عليهما ـ إلا أن المحبة بقيت، لم يشبها أي شائبة من غل أو حقد أو كدر.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كان من خلاف بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما ـ في ميراث النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: (أن فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ ـ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ، مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: لا نورث، ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد ﷺ من هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً. فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر. فلما توفيت دفنها زوجها علي ـ رضي الله عنه ـ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأتنا أحد معك، كراهة لمحضر عمر، فقال عمر:

---

(١) نفس المصدر (٢/ ٣٥٥).

لا والله، لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينهم. فدخل عليهم أبو بكر. فتشهد علي فقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً، حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيه عن الخير، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته. فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر فتشهد، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره الذي اعتذر إليه، ثم استغفر، وتشهد علي فعظم حق أبي بكر، وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكاراً للذي فضله الله به، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً فاستبد علينا، فوجدنا في أنفسنا، فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت. وكان المسلون إلى علي قريباً حين راجع الأمر المعروف)[1].

فهذا خلاف أخر بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما ولكن يظهر معه الاحترام والمحبة والاعتراف بالفضل، ولذلك قال القرطبي فيما نقله عنه ابن حجر ـ رحمهما الله ـ (من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن الاعتذار وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت منفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحياناً لكن الديانة ترد ذلك والله الموفق)[2].

ومن صور ذلك أيضاً ما كان من خلاف ـ بل من قتال ـ بين علي وعائشة رضي الله عنهما، ثم وبعد انتهاء القتال بينهما في وقعة الجمل:

---

(١) أخرجه البخاري: المغازي ٤٢٤٠، وأحمد (١/ ١٠).

(٢) انظر الفتح (٧/ ٤٩٥).

(راح علي ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف مع عائشة، وصفية ابنة الحارث مختمرة تبكي، فلما رأته قالت: يا علي، يا قاتل الأحبة، يا مفرق الجمع، أيتم الله بنيك منك، كما أيتمت ولد عبد الله منه، فلم يرد عليها شيئاً، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فسلم عليها وقعد عندها، وقال لها: جبهتنا صفية[1]، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم، فلما خرج علي أقبلت عليه فأعادت عليه الكلام، فكف بغلته وقال: أما لهممت وأشار إلى الأبواب من الدار ـ أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه ـ وكان أناس من الجرحى قد لجؤوا إلى عائشة، فأخبر علي بمكانهم عندها، فتغافل عنهم ـ فسكتت. فخرج علي، فقال رجل من الأزد: والله لا تفلتنا هذه المرأة. فغضب وقال: صه! لا تهتكن ستراً، ولا تدخلن داراً، ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن، وإنهن لمشركات، وإن الرجل ليكافح المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس. ومضى علي، فلحق به رجل، فقال يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب، فتناولا من هو أمضّ لك شتيمة من صفية، قال: ويحك! لعلها عائشة، قال: نعم، قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما:

جزيت عنا أمنا عقوقاً

وقال الآخر: يا أمنا توبي فقد خطيت.

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا

---

(١) أي استقبلتنا بما نكره (انظر الصحاح: ٦/ ٢٢٣٠).

على رجلين، فقال: اضرب أعناقهما، ثم قال: لأنهكنهما عقوبة. فضربهما مائة مائة، وأخرجهما من ثيابهما)[1].

فهذا علي ـ رضي الله عنه ـ مع خلافه الذي بلغ حد القتال مع أم المؤمنين عائشة إلا أنه يغضب على من تناولها ويأمر بمعاقبته.

ولما أرادت عائشة رضي الله عنها الخروج من البصرة، جهزها علي بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهز يا محمد، فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس فخرجت على الناس وودعوها: وودعتهم، وقالت: يا بني تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدين أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، وإنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وأنه عندي على معتبتي من الأخيار. وقال علي: يا أيها الناس: صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.. ثم شيعها علي أميالاً وسرح بنيه معها يوماً[2].

فسبحان الذي شرف أولئك بصفاء القلوب ودوام المحبة ـ حتى في حال الاختلاف ـ وبالأدب الحسن والخلق الجميل، فعلي رضي الله عنه يثني على عائشة رضي الله عنها وينهى عن إيذائها أو تناولها باللسان، ثم يجهزها ويشيعها، وهي رضي الله عنها تثني عليه وتعترف بأنه من الأخيار، وتقلل من شأن الخلاف الذي كان، حتى تجعله كالخلاف العادي البشري الذي يكون بين المرأة وأحمائها، ثم تنهى عن أن يعتدي أحد من أصحابها على أحد بشيء، فرضي الله عن الصحابة أجمعين.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٨).

(٢) نفس المصدر: ٣/ ٦٠ـ ٦١ بتصرف يسير.

وتبعاً لذلك الخلاف فقد كان عمار بن ياسر في صف علي ضد عائشة رضي الله عنهم، ومع خلافه معها، يقول عمار لها بعدما فرغ القوم من الجمل: يا أم المؤمنين، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك! قالت: أبو اليقظان! قال: نعم. قالت: والله إنك ـ ما علمت ـ قوال الحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك[1].

وفي مرة ينال أحدهم من أم المؤمنين عائشة، بمحضر من عمار رضي الله عنهما ـ فيقول له عمار: اسكت مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ!! أشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة، لقد سارت أمنا عائشة رضي الله عنها مسيرها وإنا لنعلم أنها زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلانا بها. إياه نطيع أو إياها[2].

فالخلاف بين عائشة وعمار رضي الله عنهما لا يمنعها من أن تنصفه وتثني عليه بما هو أهله، ولا يمنعه هو من أن يدافع عنها ويشهد بفضلها ويعترف بما فيها. وتبعاً لذلك أيضاً: يدخل عمران بن طلحة بن عبيد الله على علي رضي الله ـ بعد ما فرغ من موقعة الجمل ـ وقد كان طلحة والد عمران ضد علي فيها ـ فيرحب علي بعمران ويدنيه ويقول: إني لأرجو أن يجعلني، وإياك من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[3]. ثم أخذ يسأله عن أهل بيت طلحة فرداً فرداً وعن غلمانه وأمهات أولاده: يا ابن أخي كيف فلان وكيف فلانة؟ فيتعجب بعض الحاضرين من ذلك، فيقول رجلان منهم: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونوا إخواناً في الجنة؟ فيغضب علي رضي الله عنه

---

(١) نفس المصدر: (٣/ ٦١).

(٢) انظر أدب الخلاف لابن حميد ص ٢٧.

(٣) الحجر: ٤٧.

ويقول لهما: فمن هو إذن إن لم أكن أنا وطلحة!! ويسأل بعضهم علياً رضي الله عنه عن أهل الجمل: أمشركون هم؟ فيقول: من الشرك فروا، قال: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قال: فمن هم إذن؟ فيقول: إخواننا بغوا علينا[1].

فعلي رضي الله عنه يرى أنه وطلحة إخوة في الدنيا وفي الجنة، رغم الخلاف بينهما، بل يرى أن أهل الجنة الذين قاتلوه كلهم إخوة له، وهذا من عظيم شرفه رضي الله عنه.

ومن الخلاف المعلوم المشهور: ما كان بين علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ وبعد وفاة علي رضي الله عنه، يدخل حمزة بن ضرار الكناني على معاوية، فيقول معاوية: صف لي علياً، فقال له: أوتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال له: لا أعفيك، قال: أما إذ لا بد فإنه والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفيه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان والله كأحدنا يدنينا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألنا، وكان مع تقربه إلينا وقربه لنا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يقول للدنيا: إلي تعرضت!! إلي تشوفت، هيهات هيهات، غري غيري، قد بتتك ثلاثاً، فعمرك قصير

---

(١) أدب الخلاف ص ٢٦.

ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. فوكفت دموع معاوية رضي الله عنه على لحيته لا يملكها، وجعل ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء فقال معاوية: كذلك كان أبو الحسن رحمه الله كيف وجدك عليه يا ضرار؟ قال: وجد من ذبح واحدها في حجرها، لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها[1] فلم يمنع معاوية رضي الله عنه ـ ذلك الخلاف الطويل مع علي رضي الله عنه، أن يبكي عليه ويعترف بمناقبه وفضائله ويترحم عليه.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المجال، أن من علامات وجود المحبة ـ رغم الخلاف ـ طهارة القلب وصفاء الخاطر نحو المخالف وقبول معذرته، وهذا ما كان من يوسف الصديق عليه السلام، حين عاداه إخوته وكادوا له، فلما ظهر عليهم وكشف أمرهم، واعترفوا بالخطأ، قبل معذرتهم واستغفر لهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[2]. . قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟ قال الذهبي: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون[3].

ولعل في هذه الأمثلة كفاية في بيان المقصود، والدلالة على الخلاف في المسائل الفرعية، والقضايا الاجتهادية، والأمور الجزئية، مع محاور مسلم مخلص، لا بد أن تضفي عليه المحبة، وتطغى فيه الأخوة، وتغلب

---

(١) انظر أدب الخلاف ص ٢٨ـ ٢٩.

(٢) يوسف: ٩١ـ ٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٦).

فيه المودة، ولا بد أن يتذكر كل طرف من المتحاورين ضرورة المحافظة على هذا الأصل، وأهمية تنقية القلوب وتصفية الخواطر، قبل وبعد الحوار، وإلا كان الحوار فاشلاً، إذ إنه يكون قد قضى على أصل عظيم، وحبل متين، وملأ القلب غلاً وحقداً، وشحناء وبغضاً، إضافة إلى عدم التوصل إلى رأي موحد في القضية المطروحة للحوار.

المبحث العاشر

الهدوء والثقة بالنفس

تقدم بحث طويل في الصبر والحلم وعدم الغضب، وحيث إن له علاقة بهذا المبحث، إذ الهدوء والسيطرة على النفس من مقتضيات الصبر، لذلك فسأختصر في هذا المبحث الذي أفردته هنا لأهميته في الحوار، وضرورته في المناقشات والمناظرات، مقتصراً على قواعد وضوابط ووسائل مهمة في تحقيق هذا الأدب والوصول إليه، ومنها:

١ ـ يجب أن توحي شخصية المحاور بالهدوء والصفاء والتوازن، وقبل الدخول في الحوار عليه أن يتأكد من قدرته على قيادة نفسه وضبط أعصابه، إذ لا يمكن لمن لا يسيطر على نفسه أن يسيطر على الآخرين أو يخضعهم للحق الذي معه، مهما كان واثقاً من صحة وصدق أفكاره، فإنه إن لم يخضع نفسه ويملكها، تعذر عليه أن ينقل أفكاره إلى الغير.

٢ ـ والهدوء المطلوب هو الهدوء الناجم عن قوة وإرادة، والذي يصحبه ترتيب للأفكار وحسن استماع للخصم، وفهم واستيعاب لكلامه وتمييز بين ما يمكن إقراره وما يجب رده، ومراقبته لتصرفات الطرف الآخر، وليس الهدوء الصادر عن خمول وخور، وضعف وسوء فهم أو لا مبالاة، فإن هذا سلبية تعصف بالحوار، ووسيلة لفشل المحاور واندحاره وإن كان محقاً.

٣ ـ على المحاور ألا يعرف الخوف والقلق، والذعر والاضطراب،

وإذا وجد عنده شيء من ذلك لا شعورياً، فعليه أن يتقن إخفاءه بمجرد الشعور به، وأن يسارع إلى حالته الطبيعية، واستعادة توازنه، ليوحي إلى خصمه بالثبات والقوة ـ خاصة ـ في حالة إذا كان المحاور يملك الحق البين، والخصم على باطل بين، ومع ذلك يعاند ويكابر ويماطل ويرفض الأدلة الواضحة والبراهين الثابتة، ويلقي بالشبه والأباطيل لزعزعة محاوره عن الحق.

وعندما يتجنب المحاور ردود الفعل العصبية، ويكبح جماح نفسه، ويستقبل الانتقادات بروح مرحة، ويتقبل الاعتراضات بصبر وتؤدة، عندها يطمئن بهدوئه المؤيدون له، ويدفع عنهم القلق والفزع الذي قد تثيره شبهات الخصم وتشكيكاته وعندها يثبت لخصمه أنه صاحب إرادة قوية لا تتحول عن الحق ولا تزيغ عنه ولا تتنازل، كما أن ذلك الهدوء العميق يثير القلق لدى الخصم العنيد، ويشعره بالضعف والحبوط والفشل، ويحس بأنه أمام قوة لا تقهر، وأن آراءه وشبهه وتشكيكاته لا مكان لها ولا قيمة ولا وزن في مواجهة الحق الأكيد.

٤ ـ وحتى يحافظ المحاور على هدوئه، عليه أن يحسن الاستماع ويتكلف الصمت والإنصات، إذ الثرثرة تفقده الاحترام والثقة، وعليه أن يعتاد على مواجهة الشبه والاعتراضات وكأنها عادية.

أما سرعة الانفعال والتوتر العصبي، والهياج والقلق، فتأثيرها سيء على ذهن المحاور ونفسيته، ولا يمكن تلافي نتائجها السلبية اذا صدرت عن المحاور أمام خصمه، وبالتالي لا يمكن استمرار الحوار ولا يتوقع نجاحه أو تحقيق مهمته وأهدافه إذا بدت تلك البوادر وظهرت تلك الأعراض.

٥ ـ ولذلك فعلى المحاور ألا يرفع صوته أكثر مما يحتاج إليه السامع، ففي ذلك رعونة وإيذاء، ورفع الصوت لا يقوي حجة صاحبه قط،

وفي أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون، ضعيف الحجة، يستر عجزه بالصراخ، على عكس صاحب الصوت الهادىء الذي يعكس عقلاً متزناً وفكراً منظماً، وحجة وموضوعية.

ويضرب المثل في ذلك بالبحر إذ يقال: «الماء العميق أهدأ» إذ تجد الصخب والضجيج على الشاطىء حيث الماء الضحل، ولا جواهر ولا درر، وتجد الهدوء والسكون لدى الماء الأعمق حيث نفائس البحر وكنوزه[1].

ومن هنا كان توجيه لقمان لابنه بغض الصوت وتقصيره ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية [واغضض من صوتك: أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم][3].

ومثله قال الزمخشري: (فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة، وإن جعلوا حميراً وصوتهم نهاقاً، مبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان[4].

---

(١) أصول الحوار ص ٥٦.

(٢) لقمان: ١٩.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

(٤) الكشاف (٣/ ٢٣٤).

فتبين بذلك أن رفع الصوت سوء أدب، ولا فائدة منه ولا مصلحة، ولا يعد ميزة أو منقبة، وإلا لما اختص بذلك الحمار[1]، فهو مذموم غاية الذم، وكما قال سيد قطب رحمه الله: (والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق)[2].

والأمثلة والنماذج في بيان الهدوء والاطمئنان وأثره على الحوار كثيرة، وقد تقدم من قصص الأنبياء وصبرهم وحسن استماعهم، حتى عندما يكون الكلام ضدهم، من شبهة غايتها التشكيك، أو تهمة هدفها التنفير، أو شتم وسفاهة دافعها التشفي والانتقام، ثم مع ذلك نجد ثقة الأنبياء بأنفسهم بعد ثقتهم بربهم عزّ وجلّ، ونلمس السكينة والطمأنينة وبرودة الأعصاب وهدوء البال، ولو خوطب غير الأنبياء بتلك الأقوال والحماقات، لما طاق سماعها، ولما استطاع تحملها ـ إلا ما شاء الله ـ وإلا فمن يملك صبر نوح ـ عليه السلام في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ولا يزدادون إلا بعداً وضلالاً ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[3] ولا يكتفون بإصرارهم على الكفر حتى يضيفوا إلى ذلك سوء الأدب منهم، والسخرية والاستهزاء بنبيهم واتهامه بالضلال والكذب حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾[4] وقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾[5]، فيتلقى ذلك برحابة صدر وهدوء نفس ولا يزيد في الرد

---

(١) انظر تفسير السعدي (٤/ ١١٠).
(٢) الظلال: (٥/ ٢٧٩٠).
(٣) نوح: ٧.
(٤) الأعراف: ٦٠.
(٥) هود: ٢٧.

عليهم على أن ينفي ذلك عنه ويبين لهم حقيقة رسالته: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾[1]، وقريب منه أمر هود عليه السلام إذ قال له قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2] فيستقبل هذه الشتيمة القبيحة والتهمة الشنيعة، بثقة واطمئنان ويردها بأدب جم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3].

ومثل ذلك سائر الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذين كانوا قدوة الأدب والهدوء والثقة وحسن الاستماع، واللين والسماحة والرفق والبشاشة، حتى مع المخالفين لهم، وهذا رسول الله ﷺ يأتيه المنافقون ـ أعداء الله (فيجدون منه ﷺ ـ أدباً رفيعاً في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة، يعاملهم بظاهرهم حسب أصول الشريعة، ويهش لهم ويفسح لهم من صدره، فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه، ويصفونه بغير حقيقته، ويقولون عن النبي ﷺ ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: سماع لكل قول، فيرد الله عليهم: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[4] فهو يستمع إليكم في أدب ولا يجبهكم بنفاقكم، ولا يرميكم بخداعكم، ولا يأخذكم بريائكم[5].

والخلاصة: أنه ينبغي أن يسود الحوار هدوء وطمأنينة، وضبط للأعصاب، وبعد عن الانفعالات، (وعلى المحاور الحكيم أن يراقب نفسه، بنفس الدرجة من اليقظة والانتباه التي يراقب فيها الآخرين، وليتذكر دائماً أنه بالقدر الذي يظهر فيه مسيطراً على نوازعه ولسانه وصوته وطريقته

---

(١) الأعراف: ٦١.
(٢) الأعراف: ٦٦.
(٣) الأعراف: ٦٧.
(٤) التوبة: ٦١.
(٥) انظر الظلال (٣/ ١٦٧٠ـ ١٦٧١).

في الأداء، يفوز باحترام الآخرين، كما عليه إذا وجد خللاً في شيء من ذلك أن يعدل طريقته فوراً، ويعتذر عن إساءته، ولا يستسلم لعاطفته أو لهواه فيتمادى في أخطائه وهذا من ألزم ما يلزمه كرجل ينشد الحق، ويبحث عن الصواب، ويريد الهداية للآخرين)[1].

---

(١) أصول الحوار ص ٢٨.

المبحث الحادي عشر

احترام الطرف الآخر

على المحاور أن يحترم الأطراف الأخرى التي يحاورها، مسلمة كانت أو غير مسلمة، ويمنحها حقها المتوجب لها من التقدير والتوقير، فنحن مأمورون أن ننزل الناس منازلهم، دون تملق أو نفاق أو كذب أو نحوه، فهذا يجعلنا أقدر على الإقناع، ويجعل فرصة استماع الآخرين لنا أفضل[1].

فلا بد من التأدب مع الخصم وحفظ اللسان عما يسوءه من الألفاظ، وأن يثني عليه بما فيه وفكرته من الإيجابيات والخير الكثير[2]، وأن يتجنب الاستهزاء به والسخرية منه[3]، وكل ما يشعر باحتقار المناظر وازدرائه لصاحبه، أو وسمه بالجهل أو قلة الفهم، كالتبسم والضحك والغمز والهمز واللمز[4]، وأن يتجنب كلام السفهاء، فإنه من وظائف الجهال يسترون بها جهلهم[5].

قد تسبب كلمة طائشة أو تعبير قاس محقر، حقداً عميقاً، بينما

---

(١) ملخصاً عن أصول الحوار ص ٣٩.

(٢) رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٤٧ بتصرف يسير.

(٣) آداب البحث للشنقيطي: (٢/ ٧٦) بتصرف يسير.

(٤) أصول المعرفة للميداني ص ٣٨٢.

(٥) أدب الحوار لجريشة ص ٧٠.

تخفف اللهجة المهذبة من قسوة الملاحظة وتجعلها مقبولة، والمحاور العاقل يحترم محاوره، حتى لو لم يكن راضياً عنه، إذ من المستحيل أن يكون الخصم مثالياً، كما أن إطلاق الشتائم لا تشرف من يطلقها، بل تخفض قيمته، وتقلل احترام الآخرين له، وتفتح في النفوس جرحاً لا يندمل[1].

ولعل فيما تقدم من ثنايا البحث أمثلة عديدة على هذا الأدب الجميل، فأول من اتصف به الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ـ وها هي قصصهم ومحاوراتهم في القرآن والسنة، ولم يحفظ عن أحد منهم كلمة قبيحة أو رد سفيه سيء، أو عبارة تحمل شتيمة أو غمز أو همز أو لمز، كل ذلك رغم ما وجدوه وعانوه من أقوامهم من اتهام لنواياهم والطعن في أعراضهم أو أخلاقهم أو عقولهم، فما زادهم ذلك إلا حلماً وصبراً، وثباتاً ويقيناً، فأي احترام للكائن البشري فوق هذا التقدير والأدب والاحترام، ولا حاجة لإعادة نفس القصص والآيات التي تقدمت فيما يتعلق بالكلمة الطيبة وخلق الصبر والحلم، أو حسن الاستماع أو نحوها، وإنما المقصود الإشارة إلى هذا الخلق النبيل، وبيان اتصاف الأنبياء به، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ الرفيق الحليم، الذي ما كان يزيده جهل الجاهل إلا حلماً، فيأتيه أعرابي ويجبذه من ردائه ويغلظ له في القول، فيبتسم في وجهه ويعطيه ما يرضيه، بل يعرض له اليهود ويسبونه بقولهم (السام عليكم) كناية عن الموت والهلاك فلا يزيد على أن يقول: وعليكم ولما تجاوزت عائشة هذه الكلمات عاتبها، ثم هو يستمع بأدب واحترام لعتبة بن ربيعة ولأحبار اليهود وسفهاء المشركين وغيرهم[2].

ولئن كانت هذه أخلاق النبوة، فأتباع الأنبياء من العلماء والمحدثين

---

(١) لمحات في فن القيادة ص ٨٤ـ ٨٧.

(٢) تقدم ذكر هذه الأمثلة في عدة مباحث منها «الصبر»، «حسن الاستماع» وغيرهما.

والفقهاء هم أولى الناس بتمثل هذه الآداب فقد كان التوقير والاحترام بينهم مشاعاً، لا في وجوه بعضهم البعض فحسب، بل حتى في حال غياب الأقران عن بعضهم.

ومن صور هذا التقدير والاحترام: ما أشار إليه الحافظ في الفتح نقلاً عن القرطبي في بيان الفوائد من الحوار الذي دار بين أبي بكر وعلي في مسألة الميراث، حيث قال: (من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة والاعتذار، وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة)[1].
ومنها أن البراء بن مالك رضي الله عنه سئل عن مسئلة فقال للسائل: سل زيد بن أرقم، فإنه خير مني وأعلم[2].

ومنها أبا برزة الأسلمي كان يلبس الصوف، فقيل له: إن أخاك عائذ بن عمرو يلبس الخز، قال: ويحك! ومن مثل عائذ!؟ فانصرف الرجل، فأخبر عائذاً، فقال: ومن مثل أبي برزة؟

قال الذهبي: (قلت هكذا كان العلماء يوقرون أقرانهم)[3].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: كان يحيى بن سعيد يجالس ربيعة [الرأي]، فإذا غاب ربيعة، حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان كثير الحديث فإذا حضر ربيعة كف يحيى إجلالاً لربيعة، وليس ربيعة أسن منه، وهو فيما هو فيه، وكان كل واحد منهما مبجلاً لصاحبه[4].

فلا بد إذاً من تقدير مخلص للخصم، وإظهار اهتمام بالآخرين،

---

(١) الفتح: ٧/ ٤٩٥.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٢).
(٤) نفس المصدر (٦/ ٩٢).

واحترام وتوقير وتقدير، وحتى في حالة الظهور والانتصار فإنه ينبغي للمحاور أن يدع الطرف الآخر يحتفظ بماء وجهه، فإنما المقصود بيان الحق وإزهاق الباطل، لا تعيير الأشخاص أو إحراجهم وإذلالهم.

المبحث الثاني عشر

الجرأة والغضب لنصرة الحق

تقدم أنه ينبغي للمحاور أن يكون رفيقاً حليماً، هيناً ليناً، يتسم بالصبر وعدم الغضب أو الانفعال لكن قد يواجه أحياناً مواقف يستلزم فيها الغضب ولكن لنصرة الحق، وتستدعي منه قوة في الحق وصلابة وجرأة على مواجهة الخصوم وصراحة لا يخاف صاحبها في الله لومة لائم.

فعندما يعتدى على أصل من أصول الدين، أو يطعن في شيء من معالمه، أو ينال من حملته من الأنبياء أو الصحابة أو العلماء السائرين على نهجهم، أو عندما تتعمد مخالفة الحق بعد العلم به، أو نحواً من هذه الحالات، فإنه يجدر بالمحاور عندئذ أن يتجرأ في نصرة الحق، ويغضب لانتهاك محارم الله، وعليه أن يصبر بعد ذلك ويتحمل نتيجة تلك الجرأة والقوة، فقد يؤذى بسببها أو يبتلى ولكن له سلف في الأنبياء والأتقياء والصلحاء والعلماء، وقد تقدم قول عائشة عن النبي ﷺ: «فإن انتهكت حرمة كان أشد الناس غضباً لله»[1].

وأمثلة هذا النوع متعددة أذكر منها على سبيل المثال:

غضبه ﷺ حين طعن في أمانته وعدله، وذلك حين قسم غنائم حنين، فجاء رجل فقال: يا محمد اعدل. فقال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا

---

(١) تقدم في مبحث «الصبر» ص ١٩٧.

لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». وفي رواية أن الرجل قال: اتق الله يا محمد! فقال النبي ﷺ: «فمن يطع الله إن عصيته! يأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني»[1] الحديث.

ولما بلغه ﷺ عن أبي ذر أنه سب رجلاً فعيره بأمه، قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[2].

ففي هذين الموقفين غضب لنصرة الحق وجرأة لقوله.

وأما تحجر قوم إبراهيم عليه السلام لم يملك نفسه ـ وهو الأواه الحليم ـ إلا أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته لهم ولأصنامهم وعقيدتهم الفاسدة[3].

فهو يقول لهم تارة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[4] وتارة يقول: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[5] ويمكن أن يكون من هذا الباب جرأة مريم البتول، حين أخبرها الرسول بما يخدش سمع الفتاة الخجول، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً، وهي امرأة عذراء، فتدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها، وصراحة من كان في مثل موقفها، فالحياء هنا والسكوت لا يجدي،

---

(١) تقدم في مبحث الصبر.

(٢) أخرجه البخاري الإيمان ٣٠، مسلم الإيمان (٣/ ١٢٨٢) رقم ٣٨، أحمد ٥/ ١٦١.

(٣) انظر الظلال (٥/ ٢ـ ٢٦).

(٤) الشعراء: ٧٥ـ ٧٧.

(٥) الممتحنة: ٤.

والصراحة أولى[1]، فتقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾[2].

ومن هذا الباب أيضاً غضب ابن عمر رضي الله عنه نصرة لسنة النبي ﷺ فقد حدث بما سمعه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها» فقال رجل: والله لنمنعهن. فأقبل عليه ابن عمر: فسبه سباً سيئاً، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن[3].

ومن ذلك جرأة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مع مروان ابن الحكم في صلاة العيد، حيث كان مروان يجره نحو المنبر ليبدأ بالخطبة، وكان هو يجره نحو الصلاة، فلما رأى ذلك قال رضي الله عنه: أين الابتداء بالصلاة؟ فقال مروان: يا أبا سعيد قد ترك ما تعلم. فقال: كلا والذي نفسي بيده! لا تأتون بخير مما أعلم (ثلاث مرات ثم انصرف)[4].

وفي الترمذي في باب إشعار البدن، أن وكيعاً قال لرجل ممن ينظر في الرأي: أشعر رسول الله ﷺ ويقول أبو حنيفة: هو مثلة؟ فقال الرجل: فإنه روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مثلة. فغضب وكيع غضباً شديداً وقال: أقول لك: قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم؟ ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا[5].

ومن ذلك أيضاً ما بوب به الإمام البخاري بقوله: (باب الغضب في

---

(١) الظلال: (٤/٢٣٠٦) بتصرف.

(٢) مريم: ٢٠.

(٣) أخرجه مسلم: الصلاة (١/٣٢٧) رقم ١٣٥، أبو داود: الصلاة (١/١٥٢) رقم ٥٦٨، ابن ماجه: المقدمة (١/٨) رقم ١٦، أحمد (٢/٤٣).

(٤) أخرجه مسلم العيدين (٢/٦٠٥) رقم ٩.

(٥) سنن الترمذي: ٩١٤ باب الحج.

الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره)[1]، وذكر فيه حديث الرجل الذي قال: يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رؤي النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»[2].

ومنه حديث الرجل الذي سأل عن اللقطة فقال: «اعرف وكاءها أو قال: وعاءها وعفاصها، ثم عرفها سنة ثم استمتع بها، فإن جاء ربها فأدها إليه» قال: فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه ـ أو قال: احمر وجهه ـ فقال: «وما لك ولها»؟... الحديث)[3]. ولعل السبب في غضبه في الحديثين لأنه كان نهى قبل ذلك عن تطويل الصلاة وعن التقاط ضالة الإبل، وقيل في الثاني لأن السائل قصر في فهمه، فقاس ما يتعين التقاطه على ما لا يتعين[4].

وحديث أن النبي ﷺ سئل عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب.. فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عزّ وجلّ[5].

وقد ذكر الحافظ رحمه الله بعد هذه الأحاديث أن الواعظ من شأنه أن يكون في صورة الغضبان لأن مقامه يقتضي تكلف الانزعاج لأنه في صورة

---

(١) انظر الفتح (١/ ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: العلم رقم ٩٠، مسلم الصلاة (١/ ٣٤٠) رقم ١٨٢، الترمذي: الصلاة (١/ ٤٦١) رقم٢٣٦، النسائي: الإمامة (٢/ ٩٤) رقم ٨٢٣، أحمد (٤/ ١١٨).

(٣) أخرجه البخاري: العلم رقم ٩١، مسلم اللقطة (٣/ ١٣٤٦) رقم ١، الترمذي الأحكام (٣/ ٦٤٦) رقم ١٣٧٢، أحمد (٤/ ١٦٦).

(٤) انظر الفتح (١/ ١٨٧).

(٥) أخرجه البخاري: العلم رقم ٩٢ (باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكرهه).

منذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه، لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حق كل أحد بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين[1].

ومن المواضع التي غضب فيها رسول الله ﷺ، حين قال اليهودي: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فلطمه الأنصاري، فلما اشتكى إلى النبي عليه السلام غضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه. ثم قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله.. الحديث»[2].

ومن المواطن التي غضب فيها رسول الله ﷺ لما سترت عائشة رضي الله عنها سهوة لها بقرام فيه تماثيل: فلما قدم فرآه عرفت الكراهية في وجهه، فهتكه وتلون وجهه وقال: «يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»[3]. وكذا غضبه عليه السلام حين كلمه أسامة بن زيد رضي الله عنه في أمر المرأة المخزومية التي سرقت، فقال ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[4].

وغير ذلك من النماذج والحالات التي يشرع فيها الغضب، ويستحسن فيها الحزم، ولذلك قال الزمخشري بعد كلامه عن الصبر

---

(١) انظر الفتح (١/ ١٨٧).
(٢) أخرجه البخاري: الأنبياء رقم ٣٤١٤، مسلم الفضائل (٤/ ١٨٤٣) رقم ١٥٩.
(٣) أخرجه البخاري اللباس رقم ٥٩٥٤، مسلم اللباس (٣/ ١٦٦٦) رقم ٨٧.
(٤) أخرجه البخاري: ٦٧٨٨ كتاب الحدود، مسلم: الحدود ٨، الترمذي الحدود (٤/ ٣٧) رقم ١٤٣، النسائي: قطع السارق (٨/ ٧٣) رقم ٤٨٩٨، ابن ماجه (٢/ ٨٥١) رقم ٢٥٤٧.

والعفو: [ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه: وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: دونك فانتصري»[1]][2].

إلى غير ذلك من أمثلة هذا وشواهده، وقد تبين من خلال ذلك أن الجرأة في الحق، والغضب متى انتهكت المحارم أو اعتدي على الشريعة، مطلب لا يتنافى مع آداب الحوار التي تقدمت، بل لكل موقف ما يناسبه من الحقوق والآداب.

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه: النكاح (١/ ٦٣٧) رقم ١٩٨١، أحمد (٦/ ٩٣) (وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم (١/ ١١٨).

(٢) انظر الكشاف: (٣/ ٤٧٣).

الباب الثالث

آداب الحوار العلمية

الباب الثالث
آداب الحوار العلمية

وأعني بها الآداب التي تتعلق بمادة الحوار الأصلية، وموضوعاته الأساسية، والضوابط والأصول العلمية، من حيث إيراد المعلومات وترتيبها وتقريرها أو ردها، وما يتعلق بذلك من أسس يجب اتباعها أو محاذير يجب اجتنابها حتى ينضبط الحوار ويحقق نتيجته.

وأجمل ذكر هذه الآداب أولاً ثم أبدأ في تفصيلها على الترتيب:

١ ـ العلم.

٢ ـ البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق.

٣ ـ التدرج والبدء بالأهم.

٤ ـ الدليل.

٥ ـ الوضوح والبيان.

٦ ـ الصدق والأمانة.

٧ ـ التثبت.

٨ ـ الرد على الشبه بما يناسبها.

٩ ـ ضرب الأمثلة.

١٠ ـ العدول عن الإجابة باستخدام المعاريض وأسلوب الحكيم.

١١ ـ تأكيد القضية وتقريرها.

١٢ ـ الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ.

١٣ ـ الاحتمالات.

١٤ ـ التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم.

وسأجعل كل أدب منها مبحثاً مستقلاً، على ما تقدم في الباب السابق، والله الموفق.

المبحث الأول

العلم[1]

مما لا شك فيه أن العلم شرط أساسي لنجاح الحوار وتحقيق غايته، وبدونه لا ينجح حوار ولا تستقيم مناظرة، بل يكن الضرر أكبر من النفع، ويهدر الوقت ويضيع الجهد بلا ثمرة تذكر.

والعلم المقصود هنا والذي يشترط في المحاور، ليس مطلق العلم بتفاصيل الأمور وأنواع العلوم ومختلف الفنون، كلا، بل هو العلم المتعلق بموضوع الحوار والذي لا يتم إلا به، والذي الجهل به يطعن في أهلية المحاور ويضعف الحوار أو يهوي به في هاوية من الجهل والتخبط.

ومن أنواع العلم المطلوب توفرها فيمن يحاور في أي قضية ما يلي:

١ ـ العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وجمع النصوص منهما في القضية المطروحة للنقاش والمسألة التي حولها الخلاف، إذ لا يمكن أن يستقيم حوار في قضية جاءت فيها النصوص ودلت عليها الأدلة ـ بدون أن تعلم وتجمع هذه النصوص، فقد يكون الحوار ـ بدون علم ـ في قضية محسومة وفي حكم منتهي بنص صريح في الكتاب والسنة، ولا مجال للنقاش أو الجدال فيها أصلاً، بل عندها يكون الحوار باطلاً من أصله. لكن إن كان الحوار في موضوع ليس فيه نص قاطع، بل هو محل للاجتهاد

---

(١) تقدم شيء من الكلام عن العلم في ذكر شروط المحاور كما في الباب الأول.

ويقبل الخلاف فيه، فعندئذ لا بد من العلم بأصول الاجتهاد وضوابط الاستنباط والقواعد التي يبنىٰ عليها الاجتهاد والخلاف، حتى يتوصل بها إلى الحكم الصحيح والرأي الراجح.

٢ ـ العلم بما ينقض الرأي المخالف للصواب، ومعرفة الردود والأجوبة القوية التي يمكن أن تواجه بها الشبهات والاعتراضات التي يثيرها الخصم، ولا يكفي في الحوار ـ الذي يقصد به إقناع الطرف الآخر برأي معين أو قطع حجته والقضاء على شبهاته، وإرجاعه إلى الحق ـ لا يكفي فيه مجرد معرفة أدلة الرأي الراجح دون معرفة الجواب على أدلة الرأي المرجوح أو المعارض، وبدون العلم بالرد الواضح والجواب البين على الرأي المخالف، فقد يتعرض المحاور إلى الشك فيما عنده أو التردد والتراجع عن شيء من الحق، أو قد تتعرض أدلته إلى الاحتمال وتطرأ عليها الشبه فيسقط الاستدلال بها أو يضعف، ولا ينتهي الحوار إلى غايته المطلوبة ونتيجته المرجوة.

٣ ـ العلم بالطرف الآخر من حيث منزلته ومقدار علمه ومعرفة ظروفه وأحواله، فلا بد من (أن يكون المتحاوران متقاربين ـ ما أمكن ـ في العلم والجاه، وأن يجتنب ذا هيبة يخشى أو يستحي من مناظرته لأن ذلك يؤثر على قوة الحجة والجرأة على الإدلاء بها)[1].

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في ذكر آداب المتناظرين: (ومنها أن يتجنب المناظرة مع من هو أهل المهابة العظيمة والاحترام العظيم، كيلا تدهشه وتذهله جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي، ومنها ألا يحتسب خصمه حقيراً قليل الشأن لأن ذلك يؤديه إلى عدم الجد والاجتهاد

---

(١) انظر رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٤٦ وانظر أصول المعرفة والاستدلال ص ٣٨٢.

في القيام بحجته فيكون ذلك سبباً لغلبة الخصم الضعيف له، وغلبة القرن الحقير أشنع من غلبة القرن العظيم كما قال الشاعر:

ولـــو أنـــي بليـــت بهـــاشمـــي خئـــولتـــه بنـــو عبـــد المـــدان
لهـــان علـــي مـــا ألقـــى ولكـــن تعـــالـــوا فـــانظـــروا بمـــن ابتـــلانـــي

وعن حاتم الطائي لما لطمته عجوز قبيحة قال: لو ذات سوار لطمتني)[1].

فلا بد من العلم التام والمعرفة الصحيحة بالخصم المقابل وقدره ومدى قوته أو ضعفه، ولا يكفي مجرد الظن في ذلك، إذ قد يظن خصمه حقيراً ضعيفاً قليل الشأن، فهذا يقلل من اهتمامه، فيمكن خصمه الضعيف منه، وربما مع ذلك أن يتسلل إلى النفس شيء من العلو والغرور والتفاخر الذي يتنافى مع أدب الحوار، بل مع أخلاق الإسلام وتعاليمه، ولعل من هذا الباب ما جاء في قول النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب. . . .»[2] فبين له حقيقة خصمه.

قال ابن حجر رحمه الله: (هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا يكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان)[3].

وقد يظن المحاور خصمه أقوى منه بكثير، فعندها يتخاذل ويضعف عن تقديم حجته على الوجه المطلوب[4].

كما أنه لا بد من معرفة ظروف الطرف الآخر النفسية والجسدية

---

(١) أداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٧٦).
(٢) أخرجه البخاري ١٤٩٦ الزكاة، مسلم الإيمان (١/ ٥١) رقم ٣١.
(٣) الفتح: (٣/ ٣٥٨).
(٤) انظر أصول المعرفة والاستدلال ص ٣٨٢ بتصرف.

وغيرها، ويراعي الجو المناسب للحوار ـ على ما تقدم في الباب السابق[1] ـ ويبتعد عن الأحوال التي قد يكون الخصم فيه قلقاً أو مضطرباً أو منفعلاً، إذ لا فائدة من الحوار في مثل هذه الظروف.

٤ ـ العلم بآداب الحوار والبحث والمناظرة، ومراعاة هذه الآداب والحرص على تطبيقها، والسعي في التأدب بها على القدر المستطاع، إذ هي وسائل إلى نجاح الحوار، وطريق إلى استمراره بصورة متزنة صحيحة، دون أن يعصف به شيء مما يعكر جو الحوار أو يقطعه أوينتهي به إلى غير فائدة ولا نتيجة، لذا كان من الضروري على المحاور أن يتعلم هذه الآداب ويحيط بها قبل الدخول في الحوار، وأن يراقب نفسه ويلاحظها في العمل بها.

ولما كان العلم هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق، وللتفكير السليم وإقامة الحجج والبراهين على هذا الحق، جاءت النصوص الكثيرة في الأمر به والحث عليه وبيان منزلة أهله وفضلهم، والإنكار على من لا يعلم، وإرجاع الأمور إلى الحكيم العليم، ونحو ذلك حتى تكررت مادة (علم) في القرآن ما يقارب «سبعمائة وسبع وعشرين» مرة[2]، ولا شك أن هذا العدد الهائل يدل على أهمية القضية ومكانتها في الشرع.

ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] والمعنى: لا يستوون[4].

وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[5].

---

(١) انظر مبحث «تهيئة الجو المناسب» من الباب السابق.
(٢) انظر العجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٦٩ـ ٤٨٠.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) انظر الطبري (٢٣/ ٢٠٣).
(٥) المجادلة: ١١.

كما وصف سبحانه العلماء بالخشية وبالفهم والمعرفة والعقل حيث قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2] أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه[3].

والأحاديث في أمر العلم كثيرة جداً ويكفي في ذلك قول النبي ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[4].

قال الحافظ في شرحه: (ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ـ أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع ـ فقد حرم الخير...، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم)[5]. ومنها الحديث العظيم الذي يقول فيه النبي ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[6].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) ابن كثير: (٣/ ٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري: العلم: ٧١، مسلم: الزكاة (٢/ ٧١٨) رقم ٩٨، الترمذي: العلم (٥/ ٢٨) رقم ٢٦٤٥، ابن ماجه (١/ ٨) رقم ٢٢٠، أحمد (١/ ٣٠٦).

(٥) الفتح: (١/ ١٦٥).

(٦) أخرجه البخاري: العلم باب ١٠ معلقاً، أبو داود: العلم (٣/ ٣١٦)، الترمذي: العلم (٥/ ٤٨) رقم ٢٦٨٢، ابن ماجه: المقدمة (١/ ٨١) رقم ٢٢٣.

والنصوص كثيرة معلومة، ومما يهمنا منها ما جاء في الإنكار على من يجادل ويناظر ويحاور بغير علم ولاهدى ولا بصيرة، كما قال تعالى في الإنكار على أهل الكتاب في محاجتهم بالباطل وبدون علم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

قال القرطبي رحمه الله: (في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده..، وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2][3].

ففي الآية إنكار على كل من يحاج فيما لا علم له به[4]، وفيها دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به[5]. ومثله الإنكار لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[6].

ولذلك نهى سبحانه عن أن يتبع المسلم ما لا علم له به، وأن يتدخل فيما لا يعنيه ولا يحسنه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[7] كما أنكر سبحانه وتعالى على الذين ادعوا أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى فقال لهم تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[8].

---

(١) آل عمران: ٦٦.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٧٠).
(٤) انظر ابن كثير (١/ ٣٨٢).
(٥) انظر تفسير السعدي (١/ ٢٥١).
(٦) الحج: ٨.
(٧) الإسراء: ٣٦.
(٨) البقرة: ١٤٠.

وأنكر عزّ وجلّ على من تقول بغير علم وادعى أن له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

فمن خلال ذلك تبين أهمية العلم بالنسبة للمحاور وغيره، وأنه يجب على المحاور خاصة ألا يجادل أو يحاور في موضوع لا يعرفه جيداً، ولا يدافع عن فكرة لم يقتنع بها تماماً، فإنه بذلك يسيء إلى الفكرة والقضية التي يدافع عنها، ويعرض نفسه للإحراج وعدم التقدير والاحترام[2]، بل إذا علم من نفسه عدم الأهلية للحوار وقلة العلم بموضوعه فعليه ألا يدخل فيه أصلاً.

لذلك على المحاور أن يتأكد من قدرته على خوض غمار الحوار والدخول في النقاش، وعليه أن يعد مادته إعداداً متقناً دقيقاً، وعندها تسهل مهمته في الحوار ويصل إلى غايته بأسرع طريق.

وإذا كان المحاور على ثقة ويقين من علمه وإخلاصه، ورأى أن في إظهار علمه والتصريح بأنه أعلم من خصمه، مصلحة ظاهرة فلا بأس بذلك، فإن له أسوة في هذا الأمر كما تبينه النماذج التالية:

قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[3]. وقول إبراهيم لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾[4].

---

(١) يونس: ٦٧.
(٢) انظر أصول الحوار ص ٢٣.
(٣) الأعراف: ٦٢.
(٤) مريم: ٤٣.

فهو العلم الذي جاءه من الله فهداه، ولو أنه أصغر من أبيه سناً وأقل تجربة، ولكن هذا المدد من الله، وذلك العلم من العليم الحكيم، فتح له باب الرحمة والهداية، وجعله أهلاً لأن يتبع فيهدي ـ بأذنه ـ إلى صراط مستقيم[1].

ومثله قول شعيب ومن قبله نوح وصالح عليهم السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾[2].

فهو يشعرهم بأنه على بينة من الله، وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، فهو يصدر عن هذه البينة واثقاً مستيقناً[3].

وهناك عدة أمثلة أيضاً في قصة يوسف عليه السلام فمنها قول يعقوب لبنيه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[4]، وقول يوسف للملك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[5] فهو يذكر من صفاته ـ الحفظ والعلم ـ ما تحتاج إليه المهمة التي تواجهه، والتي يرى أنه أقدر عليها وأمكن[6].

وإذا تقررت هذه القضية فلا عجب أن يقول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[7] فهو يبدأ بهذه المقدمة اللطيفة والمفاجأة، ليضمن إصغاء الملك له، وعفوه عنه[8].

---

(١) انظر الظلال (٤/ ٢٣١١)، وابن كثير (٣/ ١٢٣).
(٢) هود: ٨٨.
(٣) انظر الظلال: (٤/ ١٩٢٠).
(٤) يوسف: ٨٦.
(٥) يوسف: ٥٥.
(٦) انظر الظلال (٤/ ٢٠٠٥).
(٧) النمل: ٢٢.
(٨) انظر الظلال (٥/ ٢٦٣٨).

ومن أمثلة في السنة ما جاء في قصة الخضر وقوله لموسى ـ عليهما السلام ـ (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه)[1].

ومثله ما أخرجه البخاري عن أبي حازم قال: (سألوا سهل بن سعد من أي شيء المنبر؟ فقال: ما بقي في الناس أعلم مني، هو من أثل الغابة، عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ﷺ)[2].

فمن خلال الأمثلة يتبين أنه يمكن للمحاور أن يظهر علمه بتلك الصورة، شريطة ألا يؤدي ذلك إلى الكبر والغرور ونحوهما، فإن هذه الأمراض القلبية تنافي الإخلاص ولا تستقيم مع العلم.

ولا ينبغي للمحاور ولا لغيره أن يجمع المعلومات أو يحشد الأدلة لمجرد تقوية رأيه، ولكن ينبغي أن يكون العلم الذي يستعمله في الحوار والنصوص التي يستخدمها، لمعرفة الحق والوصول إليه فقط، ومن أقوال وكيع بن الجراح ـ رحمه الله ـ: (من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنة، ومن طلبه ليقوي به رأيه، فهو صاحب بدعة)[3].

ويروى عن الشافعي رحمه الله ـ في بيان ضرورة العلم للحوار والمناظرة قوله: (ما ناظرت عالماً إلا غلبته، ولا ناظرت جاهلاً إلا غلبني).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التأكيد على ضرروة العلم لمن يتصدى للحوار والمناظرات ما نصه: (وقد ينهون عن المجادلة

---

(١) أخرجه البخاري: العلم: (١٢٢)، مسلم: الفضائل (٤/ ١٨٤٧) رقم ١٧٠، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٠٩) رقم ٣١٤٩، أحمد (٥/ ١١٨).

(٢) أخرجه البخاري: الصلاة ٣٧٧، أحمد (٥/ ٣٣٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٤٤).

والمناظرة، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة. وقد ينهى عنها إذا كان المناظر معانداً يظهر له الحق فلا يقبله ـ وهو السفسطائي ـ فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات بينة بنفسها ضرورية وجحدها الخصم كان سوفسطائياً، ولم يؤمر بمناظرته بعد ذلك، بل إن كان فاسد العقل داووه، وإن كان عاجزاً عن معرفة الحق ـ ولا مضرة فيه ـ تركوه، وإن كان مستحقاً للعقاب عاقبوه مع القدرة: إما بالتعزير وإما بالقتل، وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلا بالقهر.

والمقصود أنهم نهوا عن المناظرة من لا يقوم بواجبها، أو مع من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة، أو فيها مفسدة راجحة فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال. وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى. وفي الجملة جنس المناظرة والمجادلة فيها محمود ومذموم، ومفسدة ومصلحة، وحق وباطل)[1] ا.هـ.

(فلا بد أن تنعقد العزائم على بلوغ أقصى المراتب في التحصيل العلمي، ولا شك أن أولي النهي يعلمون أن قلة العلم قد جرأت رجالاً كثيرين على المراء الذي ينشىء الخلاف العقيم إنشاءاً، ويؤجج نيرانه تأجيجاً)[2].

وحيث إن هذا الأدب ـ العلم من أهم الآداب، بل هو شرط أساسي

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٧/ ١٧٣ـ ١٧٤).

(٢) مجلة الفيصل: العدد ١٨٨ ص ٢٢ ملف العدد «الحوار» والكلام للدكتور عبد الله التركي.

للحوار، فما سيأتي من مباحث في هذا الباب تتعلق به، وبعضها توضيح له وفرع عنه، وزيادة بيان لأهميته، ولذلك فلا يحتاج إلى الإطالة في هذا المبحث حيث سيتم بما بعده إن شاء الله.

المبحث الثاني

البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق

لا شك أن بين كل اثنين مختلفين حداً مشتركاً من النقاط المتفق عليها بينهما والتي يسلم بها الطرفان، والمحاور الذكي الناجح هو الذي يستطيع أن يبرز أكثر قدر ممكن من مواطن الاتفاق. إذ إن البدء بالأمور المتفق عليها كالمسلمات والبدهيات ـ يقلل الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويشعر كلاً منهما أن هوة الخلاف ضيقة، وهذا له أثره الإيجابي، ومردوده النفسي في الحوار.

وعلى الخلاف منه فيما لو كان البدء بنقاط الخلاف، أو بمواضع النزاع فإن فجوة الخلاف تتسع، وتقل فرص التلاقي، كما أنه يغير القلوب ويكدر الخواطر، ويثير النفوس للتنافس في الغلبة ورد أقوال المحاور بدون النظر إلى صحة الفكرة، ونسيان الهدف الذي من أجله وجد الحوار.

إن المحاور الذي يبدأ بتقديم نقاط الاتفاق بينه وبين الطرف الآخر، إنما يبدأ في الحقيقة بكسب ثقته ويبني معه جسراً من التفاهم إلى الأمر محل الخلاف[1].

---

(١) ملخص بتصرف من رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» للجليل، ورسالة «أصول الحوار».

وإضافة إلى ما سبق فإن فائدة معرفة النقاط المشتركة تتلخص في أمرين:

أولهما: تحرير محل النزاع، وتحديد نقطة الخلاف وحجمه.

ثانيهما: التدرج وحسن ترتيب القضايا على بعضها.

فلا بد أن يكون الحوار حول مسألة محددة، فإن كثيراً من الحوارات يكون جدلاً عقيماً سائباً ليس له نقطة محددة ينتهي إليها، كما أنه ينبغي للمحاور أن يبني على الأسس والمسلمات المتفق عليها ويتدرج من خلالها إلى إقناع محاوره. ويحسن في الانتقال من القضية التي يقررها إلى أخرى تترتب عليها، ومن الشواهد على ذلك ما يلي:

أسلوب القرآن في إثبات ألوهية الله عزّ وجلّ ونفي ما عداه من الآلهة والإنكار على من اتخذ معه أو من دونه أنداداً، وذلك بعد إثبات ربوبيته سبحانه وتعالى، والبدء بما يسلم به المشركون من الخلق والتدبير، ومن أمثلته: ما ذكره الله تعالى من خلقه للناس وعنايته بهم، ثم نهيهم بعد ذلك عن أن يجعلوا له نداً، حيث قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

قال الطبري رحمه الله بعد ذكر الآية: (يعني بذلك أنه أنزل من السماء مطراً، فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وغرسهم ثمرات رزقاً لهم غذاء وأقواتاً، فنبههم بذلك على قدرته وسلطانه وذكرهم به آلاءه لديهم، وأنه هو الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم ويكفلهم دون من جعلوه له نداً وعدلاً من الأوثان والآلهة، ثم زجرهم عن أن

(١) البقرة: ٢١ـ ٢٢.

يجعلوا له نداً مع علمهم بأن ذلك كما أخبرهم، وأنه لا ند له ولا عدل، ولا لهم نافع ولا ضار ولا خالق ولا رازق سواه)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد ولا ند يعارض. فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق)[2].

فواضح من خلال هذه الآيات أن الله عزّ وجلّ بدأهم بما يقرون به من الآلاء والنعم، وبما يعترفون به من أنه خالقهم ورازقهم ومدبر شؤونهم، وهي نقاط مشتركة وموضع اتفاق من الجميع ثم رتب عليها نهيهم عن اتخاذ الأنداد مع علمهم وإقرارهم بربوبيته، ومع اعترافهم بتفضله وإحسانه.

ومما يصلح أن يكون شاهداً في حسن ترتيب القضايا على بعضها ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله في كلامه عن مجادلة إبراهيم للنمرود في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[3].

حيث قال ـ رحمه الله ـ ما نصه: (ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيى وتميت، فالذي يحيى ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو

---

(١) الطبري: (١/ ١٦٣).
(٢) الظلال: (١/ ٤٧).
(٣) البقرة: ٢٥٨.

من المشرق فإن كنت إلهاً كما تدعي تحيى وتميت فأت بها من المغرب؟.. إلى أن قال: وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأولى إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما أدعاه نمرود في الأول والثاني ولله الحمد والمنة)[1].

فعلى هذا القول يكون إبراهيم عليه السلام قد رتب قضية التصرف في الوجود والإتيان بالشمس على قضية الإحياء والإماتة، وذلك حتى يقيم الحجة على خصمه ويبهته.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله.. (يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الآلهة.. إلى أن قال: وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾).

أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء)[3]، فكما هو ظاهر من الآيات أن الله عزّ وجلّ أقرهم بربوبيته وأثبت أنه سبحانه حق

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣١٣).
(٢) يونس: ٣١ـ ٣٢.
(٣) ابن كثير: (٢/ ٤١٦).

باعترافهم. وهذه نقاط اتفاق ـ ثم رتب على ذلك ألوهيته وإبطال ما عداه من الآلهة والأرباب[1].

وقريب من هذا: الأسئلة المتعددة التي أمر الله بتوجيهها للمشركين لتقريرهم بإجابتها المتفق عليها، في إثبات الربوبية ومن ثم الانتقال إلى إثبات الألوهية ونفي الولد والند والشريك حيث قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[2].

فبعد تلك الأسئلة المحرجة، تجيء هذه الاعترافات الواضحة والأجوبة الصادقة البينة التي لا يمكن العدول عنها أو إنكارها، ثم تأتي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة التوحيد وبطلان ما يدعونه لله من الولد والشريك، وفي اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير: ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ ﴾[3].

ومن أدلة ذلك أيضاً ما ذكره الله عزّ وجلّ في حوار إبراهيم لقومه حيث قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ . . إلى قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[4].

---

(١) انظر فتح القدير (٢/ ٤٤٣)، الظلال: (٣/ ١٧٨٢).

(٢) المؤمنون: ٨٤ـ ٩١.

(٣) انظر الظلال: (٤/ ٢٤٧٨).

(٤) الشعراء: ٦٩ـ ٧٧.

فهذه الأسئلة من إبراهيم عليه السلام فيها تقريرهم بقضايا متفق عليها وهي بيان عجز الآلهة عن النفع والضر، ومن ثم يترتب عليها بيان بطلانها وعدم صلاحيتها بل عداوتها وهجرها، وبيان المستحق الوحيد للعبادة وهو رب العالمين.

ومن شواهد ذلك أيضاً ما جاء في حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه في رواية الإمام مسلم عن أنس بن مالك، قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد: أتانا رسولك فزعم لنا أن الله أرسلك؟ قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: نعم... الحديث[1].

قال النووي رحمه الله: (هذه جملة تدل على أنواع من العلم، قال صاحب التحرير: هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه، فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو، ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع ثم لما وقف على رسالته وعلمها، أقسم عليه بحق مرسله وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين، ثم إن هذه الأيمان جرت للتأكيد وتقرير الأمر لا لافتقاره إليها، كما أقسم الله تعالى على أشياء كثيرة، هذ كلام صاحب التحرير)[2].

فهذا ضمام رضي الله عنه يسأل أسئلة معلومة الإجابة، ومحل اتفاق الجميع عليها ثم يرتب عليها أسئلة أخرى، حتى يصل إلى مقصوده.

---

(١) تقدم ذكره مراراً: انظر ص ٧٧.

(٢) مسلم بشرح النووي: (١/ ١٧٥).

ومثل ذلك أيضاً حديث حجة الوداع من رواية عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ذكر أن النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه قال: أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.. إلى قوله ﷺ: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... الحديث»[1].

قال النووي: هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفخيم والتقرير والتنبيه على عظم حرمة هذا الشهر والبلد واليوم[2].

وواضح من أسئلته ﷺ أنها واضحة الإجابة، وموضع اتفاق بين جميع السامعين، ولكن أراد أن ينتقل منها إلى أمر آخر وهو بيان حرمة المسلم فرتبها على تلك النقاط المشتركة والقضايا المتفق عليها.

ولعله من خلال النماذج السابقة تتبين أهمية البدء بالنقاط المشتركة ومواضع الاتفاق، لتوفير الوقت والجهد، ولتهيئة نفسية الخصم، ولترتيب القضايا على بعضها وتحرير محل النزاع، ولذلك ينبغي أن يحرص المحاور على أن يلقي على الطرف الآخر أسئلة يكون جوابها: «نعم»، ويتجنب ما يكون جوابه النفي، يقول أحد مفكري الغرب: (دع الطرف الآخر يوافق في البداية على الأسئلة التي تطرحها عليه ويجيب «بنعم» وحل ما استطعت بينه وبين «لا» لأن كلمة «لا» عقبة كؤود يصعب التغلب عليها فمتى قال أحد: «لا» أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصراً لنفسه.

إن قول «لا» هو أكثر من مجرد التفوه بكلمة مكونة من حرفين، إن كيانه بغدده وأعصابه وعضلاته، يتحفز ليناصره في اتجاهه إلى الرفض،

---

(١) تقدم تخريجه. انظر ص ١٢٤.

(٢) شرح النووي (١١/١٦٩).

بينما لا يكلف قول: «نعم» أي نشاط جسماني). ويقول أيضاً: فالمتحدث اللبق هو الذي يحصل في مبدأ الأمر على أكبر عدد من الإجابات «بنعم»[1].

(١) كيف تكسب الأصدقاء (١٥٣ـ ١٥٤).

المبحث الثالث

التدرج والبدء بالأهم

إن المحاور العاقل الذكي هو الذي يصل إلى هدفه بأقرب طريق، فهو لا يضيع وقته في ما لا فائدة منه ولا علاقة له بأصل موضوع الحوار، أو بمقدمات يظنها مهمة وهي ليست كذلك، فيضيق الوقت على الموضوع الأساسي، وربما لا يكمل نقاشه أو لا يعطى حقه ولا يخرج منه بنتيجة، ولذلك فإن معرفة الأهم والبدء به وتحديده بوضوح يسهل كثيراً من المهمة، ويختصر الطريق في الوصول إلى الحق، وهذا ليس معناه عدم تهيئة الجو المناسب للحوار، أو إهمال المقدمات الضرورية والتي لا بد من ذكرها، كلا وإنما المقصود التوازن في ذلك أولاً، ثم وبعد المقدمات والتهيئة، يختار أهم قضية في الموضوع للبدء بنقاشها ومن ثم الانتقال إلى غيرها وهكذا.

ولعل أوضح الأمثلة لذلك بدء الأنبياء ـ عليهم الصلوات والسلام ـ بأهم قضية وأكبر غاية، بل هي أم القضايا وأساسها، ألا وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وعدم صرف شيء منها لغيره، وكذلك فقد كان كل نبي أول ما يبدأ بدعوة قومه يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1] قالها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام كلهم بدأ بنفس

---

(١) الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥.

الكلمة وقالوا نفس اللفظة وما ذاك إلا لأهميتها وكونها أصل ما يدعو إليه الأنبياء وأهم ما جاؤا به.

ومثله بدء النبي ﷺ دعوته بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، خاصة في الحوار المذكور في سورة فصلت حيث قال المشركون كما ذكر الله عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ فكان الرد عليهم بتوضيح القضية وتبسيط المطلوب وإجلاء الأمر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ . . .﴾[1] الآيات.

وهي نفسها القضية التي بدأ بها يوسف عليه السلام في دعوة السجناء قبل أن يعبر لهم رؤياهم، أو يسترسل معهم في حديث فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾[2].

قال الشيخ السعدي رحمه الله في ذكر الفوائد من قصة يوسف عليه السلام: (ومنها: أن يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف ـ لما سأله الفتيان عن الرؤيا ـ قدم لهما قبل تعبيرها ـ دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له)[3]. بل كان مما يأمر به النبي ﷺ عند إرساله للرسل وبعثه للكتب، أن يبدأوا بدعوة الناس إلى هذه القضية العظيمة والمبدأ الأصيل، ومن ثم يتدرجوا منها إلى

---

(١) فصلت: ٥ـ ٦.

(٢) يوسف: ٣٩ـ ٤٠.

(٣) تفسير السعدي: (٢/٤٤٨).

غيرها، فيبدأوا بالأهم فالأهم، فها هو ﷺ يبعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فيقول له: إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة)[2].

وهذه القضية العظيمة ـ أعني الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ـ هي الأمر الذي بدأ الله به كلامه لموسى عليه السلام قبل أن يرسله أو يأمره، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ ﴾[3] ... الآيات. حيث أتبع ذلك بالكلام عن العصا ثم اليد ثم إرساله إلى فرعون، وعندها طلب موسى وزيراً من أهله هو هارون، ثم الكلام عن أم موسى ثم تكرار الإرسال بقوله: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ ﴾[4]. وتثبيتهما، إلخ القصة.

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ: ١٤٥٨، ومسلم الإيمان: ٣٢ وقد تقدم في المبحث الأول من هذا الباب.

(٢) الفتح: (٣/ ٣٥٩)

(٣) طه: ٩ـ ١٤.

(٤) طه: ٤٣.

والمقصود منها أن بداية الحوار الطويل، كانت بأهم قضية وأولاها، ثم تلتها بقية القضايا وهكذا.

وهذا المبدأ هو الذي كان يربي العلماء طلابهم عليه، فيلقنوهم مع العلم، التدرج فيه ومراعاة الأهم والبدء به، بل وترك غير المهم من فضول العلم والكلام وغيره، وهذا مثال لعالم رباني، يتضح من خلاله هذا الأدب وبصورة عملية (قال المزني: قلت إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرت إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟

فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟، قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون.

أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها: تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء. فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات، تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . .﴾[1] الآية، فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك، قال: فتبت)[2].

---

(١) البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٣٢).

إذا تقرر هذا الأدب ـ وهو البدء بالأهم ـ فقد يحتاج المحاور إلى أن يتدرج ويتنازل مع خصمه، ويسلم له ببعض الأمور تسليماً جدلياً مؤقتاً، وذلك حتى يصل إلى القضية الأهم والمسألة الأم، أو لتقريب وجهات النظر بينهما، أو لزعزعة موقف الخصم المعاند، خاصة إذا كان الأمر المتنازل عنه أو المسلم به ـ جدلياً ـ، مسألة شكلية أو جزئية، لا تمس أصل قضية الحوار، أو لا تؤثر فيها بشكل واضح، أو كان في التسليم بها تدرجاً إلى دليل قوي وحجة بينة، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب هو بداية النجاح للمحاور المحق، إذ إن الخصم المعاند ـ غالباً ـ ما يتمسك بجزئية تافهة أو حجة واهية، ويظن أنها القاصمة لخصمه، وأنه سيعلو بها وينتصر، فيبني عليها جميع نقاط الحوار والنقاش، ويرجع إليها كل صغيرة وكبيرة، فإذا سلم له المحاور من بداية الطريق، تسليماً مؤقتاً، وأظهر موافقته التامة على شبهته ـ التي يظنها حجة دامغة ـ عندها يكون المحاور قد أحرق أهم ورقة لخصمه، وعندها يمكن للمحاور أن يجر خصمه إلى القضية الأهم ويلقي عليه من الحجج والبراهين ما تفحمه وتسقطه، إذ لا يملك جواباً ولا رداً لها، لأنه لم يحسب لها أي حساب أصلاً.

وهناك عدة أمثلة ونماذج لهذا الأسلوب فمنها:

قصة إبراهيم عليه السلام والأسلوب الذي اتبعه مع قومه ليصل بهم إلى التوحيد وإبطال الشرك، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾[1] وهذا على وجه التنزل مع الخصم، أي هذا ربي ـ بزعمكم ـ فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية والعبادة؟ وهل هناك دليل على ألوهيته؟ إذ لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهاً بغير حجة ولا برهان[2] ولذلك: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[3].

(١) الأنعام: ٧٦.

(٢) انظر تفسير السعدي: (٢/ ٣٧).

(٣) الأنعام: ٧٦.

فبطلت إذن عبادة الكوكب، ثم فعل مثل ذلك لما رأى القمر ولما رأى الشمس، حتى وصل بهم إلى حد إبطال عبادة الشمس والقمر وسائر الكواكب، ولم يبق إلا أن يتبرأ مما يشرك به قومه وأن يتوجه بالعبادة لخالقها الذي فطر السموات والأرض: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وهذا الأسلوب من الخليل عليه السلام. وقوله ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ (قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة)[2].

وهذا الذي استعمله إبراهيم عليه السلام هو التسليم الجدلي، فإبراهيم كان مناظراً لقومه، فقال ما قال تمهيداً للإنكار عليهم، فحكى مقالتهم أولاً حكاية استدرجهم بها إلى سماع حجته على بطلانها، إذ أوهم أنه موافق عليها على زعمهم ثم كر عليه بالنقض، بانياً دليله على قاعدة الحس ونظر العقل[3].

ولعل من هذا الباب أيضاً ومن التنازل الظاهري، والذي يقصد منه بيان الحق للخصم، والعدل والإنصاف معه، ما جاء في قوله تعالى في الحوار مع المشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[4].

---

(١) الأنعام: ٧٧ـ ٧٩.
(٢) انظر الكشاف: (٢/ ٣١).
(٣) مختصر تفسير المنار: (٢/ ٤٩٤).
(٤) سبأ: ٢٤.

قال ابن كثير: (أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب..)[1]. ومن هذا مجاراة المعاند حتى يصل إلى الحقيقة[2]، وكما في الآية بعدها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[3].

وقريب منه ما فعله النبي ﷺ مع كفرة قريش المعاندين، والمكذبين بالقرآن وبالتوراة حيث قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[4].

فهو يسير معهم خطوة في الإفحام والإحراج، ويتدرج بهم ليبين كذبهم وعنادهم، فكأنه يقول لهم: إن لم يكن يعجبكم القرآن، ولم تكن تعجبكم التوراة، فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من القرآن والتوراة فأتوا به أتبعه[5].

وهذا غاية في التنازل مع الخصم، وإلا فإن النبي عليه السلام ـ يعلم أن القرآن حق، والتوراة حق، وهما من كلام الله، لا يملك المشركون مثلهما فضلاً عن كتاب أهدى منهما، ولكنه التدرج بهم والتنازل معهم بقصد إثبات عجزهم وإفحامهم، وإثبات صدقه وصحة الكتاب الذي معه.

ويظهر مثل هذا الموقف في قصة يوسف التي تقدمت الإشارة إليها آنفاً، فيوسف عليه السلام الذي بدأ مع السجناء حواره بالقضية الأهم ـ وهي الأمر بتوحيد الله وعبادته ـ يتدرج معهم فيها خطوة خطوة، ويعرضها

---

(١) ابن كثير: (٣/ ٥٣٨) وانظر الكشاف: (٣/ ٢٨٩) والظلال: (٥/ ٢٩٠٥).
(٢) انظر أدب الحوار لجريشة ص ٦٧.
(٣) سبأ: ٢٥.
(٤) القصص: ٤٩.
(٥) انظر الظلال: (٥/ ٢٦٩٩).

بموضوعية، فيبدأ بسؤال مجرد يهز به فطرتهم ويوقظها: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]. وفي هذا السؤال جوابه، فلا شك أن الواحد القهار خير، وهو الذي يستحق العبادة وحده، ثم يخطو يوسف ـ عليه السلام ـ خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية، وأوهامها الواهية فيقول: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[2] فتلك الآلهة والأرباب لا دليل على عبادتها ولا حجة لها ولا برهان، فلم يجعل الله لها سلطاناً، ولم ينزل بها من سلطان، ثم يضرب يوسف ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين لمن ينبغي أن يكون السلطان، ولمن ينبغي أن يكون الحكم ولمن ينبغي أن تكون الطاعة... أي لمن ينبغي أن تكون العبادة فيقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[3].

فقرر أخيراً أن الدين الصحيح القيم هو الذي لا يعبد فيه إلا الله وحده لا شريك له، وبذلك يصل إلى مراده من تقرير توحيد الله سبحانه[4].

ولعل من هذا أيضاً ما تكرر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام من طلبهم من أقوامهم أن يفترضوا ـ ولو مجرد افتراض ـ أن يكونوا مرسلين من عند الله، وأن يفترضوا أن معهم حجة وبينة، ولا شك في صدق الأنبياء وثقتهم في ربهم، ولكنه من باب التنزل مع الخصم لتقريب الأمر إليه وزعزعة موقفه، ومن الآيات في ذلك:

قول نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[5].

---

(١) يوسف: ٣٩.
(٢) يوسف: ٤٠.
(٣) يوسف: ٤٠.
(٤) انظر الظلال: (٤/ ١٩٨٩ـ ١٩٩١) بتصرف.
(٥) هود: ٢٨.

وقول صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾[1].

ومثلهما قول شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ..﴾[2] الآية.

قال الشوكاني رحمه الله: (وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع، لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين، لأنهم في شك من ذلك)[3]، فكأن الأنبياء يرجعون أمر صدقهم إلى أقوامهم، ويطرحون الموضوع للتفكير والرأي والنظر، وكأن النبي يقول لقومه: (فكروا في قولي وأخبروني)[4]، مع أن الأمر حق لا مرية فيه، وليس متروكاً لعقول أولئك وآرائهم أصلاً.

ومثل ذلك ما قاله النبي ﷺ لقومه كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾[5]. يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على الآية: (وأمام هذه النفس العارية من كل رداء، المكشوفة من كل ستار، يسألهم: فماذا أنتم إذن صانعون إن كان هذا الذي تكذبون به من عند الله، وكان هذا الوعيد حقاً، وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ..﴾. إنه احتمال يستحق الاحتياط، فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط)[6].

---

(١) هود: ٦٣.
(٢) هود: ٨٨.
(٣) فتح القدير: (٢/٥٠٨).
(٤) انظر زبدة التفسير ص ٢٩٣.
(٥) فصلت: ٥٢.
(٦) الظلال: (٥/ ٣١٣٠) بتصرف يسير.

ومثله مجاراة الأنبياء لأقوامهم وصولاً إلى تبكيتهم وإلزامهم[1] كما في قوله تعالى في حوار الأنبياء مع أقوامهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . .﴾[2] (فكأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قالوا في الرد على المنكرين لنبوتهم: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن دعواكم هذه لا تنتج عدم الرسالة، ولا تنافي أن يمن الله علينا بها)[3].

وهذا التنازل مع الخصم تكرر في مواقف متعددة ذكرت في السنة فمنها على سبيل المثال:

ما جاء في قصة الحديبية ـ والحديث طويل ـ وإنما الشاهد منه: «فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب. فقال النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ فقال سهيل أما ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فوالله ما أدري ما هي: ولكن أكتب باسمك كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ فقال النبي ﷺ أكتب: «باسمك اللهم» ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم إنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله»، قال الزهري: وذلك لقوله: لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على

---

(١) انظر أدب الحوار لجريشة ص ٦٨.

(٢) إبراهيم: ١١.

(٣) انظر مناهج الجدل ص ٨٣.

دينك ـ إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟... إلخ القصة)[1].

ولا شك أن في هذه القصة يظهر التنازل مع الخصم ومسايرته في أمور جزئية يسيرة، ولذلك ذكر ابن حجر رحمه الله من فوائد القصة: (جواز بعض المسامحة في أمر الدين، واحتمال الضيم فيه، ما لم يكن قادحاً في أصله، إذا تعين ذلك طريقاً للسلامة في الحال، والصلاح في المآل، سواء كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم)[2].

ومن هذا الباب ما ورد في قصة الحبر اليهودي، التي حدث بها ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقال: (كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي.. إلخ الحديث»[3].

وفيه تواضع النبي ﷺ، وتنازله مع اليهودي في مسألة ندائه بصفة الرسالة «يا رسول الله» أو باسمه «محمد» وذلك للوصول إلى أصل الموضوع الذي جاء اليهودي للجدال فيه، وهو السؤال عن بعض أمور الآخرة والقيامة وعن الولد ومن ثم تصديقه للنبي ﷺ فيما أخبره به.

ومن الأمثلة في ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (استعمل على المدينة رجل من آل مروان. قال فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً. قال: فأبى سهل. فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا

---

(١) أخرجه البخاري: الشروط: ٢٧٣١، أحمد: (٤/ ٣٣٠).

(٢) الفتح: (٥/ ٣٥٣).

(٣) تقدم في الباب الثاني: (مبحث التواضع) انظر ص ١٦٨، وسيأتي بطوله ص ٥٢٠.

التراب. فقال سهل: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي التراب. وإن كان ليفرح إذا دعي بها. فقال له: أخبرنا عن قصته. لم سمي أبا تراب؟ قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد علياً في البيت. فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني فخرج، فلم يقل عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان، انظر أين هو؟ فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد. فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه يقول: «قم أبا التراب! قم أبا التراب»[1].

ففي هذا الأسلوب الذي اتبعه سهل رضي الله عنه وهو التنازل لحجة الخصم الذي طلب منه لعن (أبا التراب) فذكر له ـ تنازلاً معه ـ، ما كان من حب علي لهذه الكنية وفرحه بها، مما دعا خصمه إلى السؤال عن قصتها، فقصها عليه، وفيها عبرة له إذ تبين فضل علي رضي الله عنه، وتذكر أن الذي كناه بتلك الكنية هو رسول الله ﷺ، وفي هذا كفاية للرد على ذلك الخصم.

وبالجملة فالتنازل الجزئي المؤقت، والتسليم الجدلي، في أمر لا يقدح في أصل الموضوع، بل في أمر شكلي جزئي يسير، يفيد كثيراً في تقريب وجهات النظر، وفي زعزعة موقف المعاند، وفي الوصول إلى القضية الأهم.

كما أن عدم مراعاة الترتيب والتدرج في العلم والحوار والنقاش، يبعثر الجهد ويفقد التركيز: (فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج)[2] وتعليم

---

(١) أخرجه البخاري: الصلاة ٤٤١، مسلم: فضائل الصحابة (٤/ ١٨٧٤) رقم ٣٨.
(٢) انظر إحياء علوم الدين: (١/ ٥٢).

العلم بطريق الحوار وغيره يجب أن يكون بالتدرج، لأن الشيء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده[1].

---

(١) انظر الفتح: (١/١٦٣).

المبحث الرابع

الدليل

إن أهم ما ينجح الحوار، وأول ما ينبغي استحضاره والعناية به، وهو من مقتضيات العلم ـ الذي هو شرط في الحوار ـ الدليل، فإن الإقناع لا بد أن يكون بالحجة والبرهان لا بمجرد الكلام، والرد من غير دليل، بمنزلة هدم العلم بالشك المجرد، وسوق الحقائق المجردة أقل تأثيراً في النفوس من سوقها مدعمة بالشواهد المعتمدة، سواء من الكتاب أو السنة أو أقوال الأئمة والعلماء أو غيرهم.

ولا بد من إثبات صحة الدليل وكما قيل: (إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل)[1]، ولا يحسن بالمحاور أن يستدل بأدلة ضعيفة أو حجج واهية، فدليلان قويان لا يمكن الرد عليهما أفضل من سوقهما مع ثلاثة أدلة أخرى يمكن الأخذ والرد فيها، إذ ربما يستغلها الطرف الآخر فيضعف الفكرة ويسيء إلى موقف صاحبها بسبب الأدلة الضعيفة[2].

ومتى وجد الدليل وثبتت صحته، فلا بد من صحة دلالته على المطلوب، وإلا لما كان له فائدة أو أثر في إيراده، ولا بد أيضاً من ترتيب الأدلة حسب قوتها وصراحتها في الدلالة على المقصود.

---

(١) الرد على المخالف: ص ٦٤.

(٢) أصول الحوار ص ٣٨ بتصرف.

والكلام طويل فيما يتعلق بالدليل، ولذلك فسوف أقصر الكلام في النقاط الآتية:

١ ـ المبادرة بتقديم الدليل.
٢ ـ إيراد الأدلة القوية.
٣ ـ طلب الدليل، وقبوله.
٤ ـ الانتقال في الدليل، وإقفال المناقشة.

ولكل قضية منها أدلة وشواهد في الكتاب والسنة، بل كلا منها يمكن أن تكون مبحثاً مستقلاً، ولكن من باب الاختصار وجمع الموضوع أكتفي بتفصيلها هنا تحت هذا المبحث العام الذي يجمعها تقريباً.

أولاً: المبادرة بتقديم الدليل:

إن مما ينبغي أن يتميز به المحاور المسلم ألا يقرر مسألة أو يذكر فكرة، إلا وله عليها برهان واضح ودليل قوي، حتى يكون للحوار فائدة، ومنعاً من إطالة الكلام في جدل عقيم أو أقوال لا تنتهي، ما لم تجد حجة فاصلة يقدمها المحاور مثبتاً بها كل كلمة يقولها، وكل قضية يطرحها، ولذلك فأمثلة هذا كثيرة جداً في سير الأنبياء والعلماء والدعاة الموقعين عن رب العالمين، إذ إنهم يدعون إلى أمور بينة وعلى بصيرة وعلم ويقين، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[1]، ومن الشواهد في ذلك:

تقديم الأنبياء عليهم السلام ومبادرتهم بطرح ما معهم من البينات والحجج والدلالات، فهذا صالح عليه السلام يبدأ دعوة قومه إلى توحيد الله مقدماً معه البينة والبرهان، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا

---

(١) يوسف: ١٠٨.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً..﴾[1].

ومثله فعل شعيب عليه السلام إذ قال تعالى في قصته: ﴿... وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

وكذلك فعل موسى وهارون عليهما السلام إذ أمرهما الله بأن يأتيا فرعون ويخبراه بأمر الرسالة والنبوة مع تقديم الحجة والبينة، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[3] وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[4] وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذي استمعوا لقول موسى، ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته، ومن ثم وجد نفسه مضطراً لأن يطلب الدليل الذي قدمه موسى وعرضه منذ البداية[5].

ومن شواهد ذلك في السنة ما جاء في قصة استئذان أبي موسى على عمر ـ رضي الله عنهما ـ: عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» فقال: والله لتقيمن عليه بينة، أمنكم أحد سمعه من

---

(١) الأعراف: ٧٣.
(٢) الأعراف: ٨٥.
(٣) طه: ٤٧.
(٤) الشعراء: ٣٠.
(٥) انظر الظلال: (٥/٢٥٩٣).

النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك[1].

فهذا أبو موسى رضي الله عنه يبادر بتقديم الدليل مع الإجابة، فيخبر عما عمله من أنه استأذن ثلاثاً فلما لم يؤذن له رجع، ويأتي بالدليل على عمله هذا مما سمعه من رسول الله ﷺ.

ومثل ذلك ما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»[2].

فيقدم عمر رضي الله عنه الحجة والدليل عند إبداء رأيه واعتراضه على ما رآه أبو بكر رضي الله عنه.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كان من عائشة رضي الله عنها في الحديث عن ابن أبي عتيق قال: تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثاً، وكان القاسم رجلاً لحانة[3] وكان لأم ولد، فقالت عائشة: ما لك لا تحدث كما يتحدث ابن أخي هذا؟ أما أني قد علمت من أين أتيت، هذا أدبته أمه وأنت أدبتك أمك، قال: فغضب القاسم وأضب[4] عليها، فلما

(١) أخرجه البخاري: الاستئذان ٦٢٤٥، مسلم: الأداب (٣/ ١٦٩٤) رقم ٣٣، أبو داود: الآداب ٤، الاستئذان ٥١٨٠، ابن ماجه: الأدب (٢/ ١٢٢١) رقم ٣٧٠٦، أحمد ٣/ ٦.

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة ١٣٩٩، مسلم الإيمان (١/ ٥١) رقم ٣٢، النسائي الزكاة: (٥/ ١٤) رقم ٢٤٤٣، أبو داود: الزكاة (٢/ ٩٥) رقم ١٥٥٦، الترمذي: الإيمان (٥/ ٣) رقم ٢٦٠٦.

(٣) لحانة: أي كثير اللحن في كلامه (شرح النووي: ٥/ ٤٦).

(٤) أضب: أي حقد (شرح النووي: ٥/ ٤٧، وانظر المصباح المنير ص ١٣٥).

رأى مائدة عائشة قد أتي بها قام، قالت: أين؟ قال: أصلي، قالت: اجلس، قال: إني أصلي، قالت: اجلس غدر! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»[1].

وواضح في هذا المثال تقديم عائشة رضي الله عنها للدليل ومبادرتها بالحجة والبرهان عند الحاجة إليه.

ومن هذا الباب ما كان من ابن عباس رضي الله عنهما حيث خطب الناس يوماً بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم. وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بني تميم لا يفتر ولا ينثني: الصلاة الصلاة. فقال ابن عباس: أتعلمني بالسنة؟ لا أم لك!. ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء[2].

وقريب منه أيضاً ما جاء في حديث زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنهما قالت: كانت عجوز تدخل علينا ترقي من الحمرة، وكان لنا سرير طويل القوائم. وكان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوت، فدخل يوماً، فلما سمعت صوته احتجبت منه، فجاء فجلس إلى جانبي فمسني فوجد مس خيط، فقال: ما هذا؟ فقلت: رقي لي فيه من الحمرة، فجذبه وقطعه، فرمى به وقال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمائم والتولة شرك» الحديث[3].

وظاهر في هذين الحديثين: تقديم الدليل والمبادرة به من كل من ابن عباس وابن مسعود، رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم: المساجد (١/ ٣٩٣) رقم ٦٧، أبو داود: الطهارة (١/ ٢٢) رقم ٨٩، أحمد (٦/ ٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: المسافرين: (١/ ٤٩١) رقم ٥٧.

(٣) أخرجه أبو داود: الطب (٤/ ٩) رقم ٤٨٨٣، ابن ماجه الطب (٢/ ١١٦٦) رقم ٣٥٣٠، أحمد (١/ ٣٨١) (وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ٢/ ٢٦٩).

وهناك أمثلة كثيرة غير ما ذكرت أتركها للاختصار، ولأن القضية لا تحتاج إلى مزيد إيضاح، ففي الأمثلة السابقة كفاية إن شاء الله.

ثانياً: إيراد الأدلة القوية:

إذا تقررت أهمية الأدلة وقيمتها ودورها في اختصار الحوار ونجاحه، وقد تقدم أن الأدلة لا بد وأن تكون صحيحة موثقة، وأن إيراد الأدلة الضعيفة ولو كشواهد مع أدلة قوية قد تؤدي بالحوار إلى متاهات وجدال لا ينتهي، وأن الاكتفاء ولو بدليل واحد صحيح قاطع خير من سوق عشرات الأدلة الواهية معه، ظناً أنها تزيد في الحجة أو تدعم موقف المحاور، بل ربما كانت سبباً في إضعاف الدليل القوي واهتزاز موقف المحاور، لا سيما إن كان في جمع من الناس قد تعلق بأذهانهم تلك الأدلة الضعيفة والردود التي تسقطها، وقد ينسون الدليل الواضح الصريح. ولذلك فقد ظهر استخدام الأدلة القوية في حوارات كثيرة ذكرت في الكتاب والسنة فمن ذلك:

ـ جواب النبي ﷺ الصارم، ورده القوي على زوجه كما في سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾[1].

(والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة ـ في حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار! ـ ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها)[2].

ـ ومن ذلك أيضاً ما كان من قصة ابن عباس رضي الله عنه مع الخوارج حيث قال: (لما خرجت الحرورية أتيت علياً رضي الله عنه،

---

(١) التحريم: ٣.

(٢) الظلال: (٦/٣٦١٦).

فقال: ائت هؤلاء القوم، فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيراً، قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا مرحباً بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون علي؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل (وقال أبو داود: اسم أبي زميل سماك بن الوليد الحنفي)[1].

فهذا الجواب من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما يظهر فيه قوة الدليل وإقناع الخصم وإلقامه الحجة، التي لا يملك معها أي اعتراض أو عناد أو غيره.

ـ ومثل ذلك ما جاء في محاجة آدم وموسى عليهما السلام وفيها قال موسى لآدم: «أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وعلمك الأسماء كلها وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت نبي بني إسرائيل الذي كلمك الله من وراء الحجاب، لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: أفما وجدت أن ذلك كان في كتاب الله قبل أن أخلق؟ قال: نعم، قال: فبم تلومني في شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»[2] وتظهر هنا قوة الحجة في آدم عليه السلام والتي استطاع أن يحج بها موسى. وأمثلة هذا كثيرة وسيأتي شيء منها ـ بمشيئة الله تعالى ـ عند ذكر التحدي والإفحام، وإنما المقصود أن يستعمل المحاور أقوى ما لديه من حجج وأوضح ما عنده من براهين فيحكم النقض للشبه، ويكشف زيف الباطل، ويقذف بالحق القوي الأبلج على الباطل الضعيف حتى يتلجلج.

ألم تر أن الحق تلقاه أبلجا وأنك تلقى باطل القول لجلجا.

---

(١) تقدم تخريجها في الباب الأول وستأتي كاملة. انظر ص ٥٧ ـ ٥٢٢.

(٢) تقدم تخريجه في الباب الأول. ص ٢٩.

فلا يبقى للخصم ولا لمن يسمعه متعلق يلبس به الحق بالباطل، وليعلم المحاور أن الحق يوهن لوهاء الرد وضعفه[1].

ولذلك فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع، مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين)[2].

ثالثاً: طلب الدليل وقبوله:

إن أكبر ما يفحم الخصم المعاند، وأعظم ما يحرجه، ويكشف تزييفه، طلب الدليل منه في كل قضية ومسألة تحتاج إلى استدلال، وهذا أمر لا ينبغي أن يتساهل به المحاور، فلا يقبل فكرة إلا بدليلها، ولا رأياً إلا بحجته، بل هذا هو أخصر طريق لإسكات الخصم وهزيمته، وأيسر أسلوب لإنهاء الجدال العقيم، وأقرب وسيلة للوصول إلى حوار هادف أصيل، لا يبنى على الأوهام والظنون، أو الأحداس والتخمين، كلا وإنما على الأدلة الصريحة الواضحة التي يمتلكها الطرفان، ولأن الحوار إذا كان كلاماً مجرداً من البراهين، وآراء وأفكار عارية من الأدلة، فلن ينتهي عند حد، ولن يحقق غاية، ولن يخرج منه بنتيجة، ومتى ظهر الدليل الصحيح، واتضحت دلالته على المقصود، لزم قبوله والتسليم به، ولا يصح رده أو الاعتراض عليه.

ولذلك فقد تكرر هذا الأمر كثيراً في الحوارات المذكورة في الكتاب والسنة، خاصة فيما يتعلق بالمعاندين والمغالطين للحقائق ومن ذلك مثلاً:

ـ ما ذكر في قوله تعالى في الحوار مع أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن

---

(١) انظر الرد على المخالف: ص ٦٣ بتصرف.

(٢) الفتاوى: (٢٠/ ١٦٤ـ ١٦٥).

﴿يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[1].

قال الطبري رحمه الله في الآية: (وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، إلى أمر عدل بين جميع الفرق، مسلمها ويهودها ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى دون غيرهم من سائر البشر هاتوا برهانكم على ما تزعمون من ذلك فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى محقين، والبرهان: هو البيان والحجة والبينة)[2].

ـ ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[3].

وهذه الآية أيضاً جاءت في شأن أهل الكتاب وبعض دعواتهم الكاذبة والتي تظهر بطلانها عند طلب الدليل منهم.

ـ وكذا ما جاء في شأن المشركين وطلب الدليل منهم كما في الآية: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[4].

---

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الطبري: (١/ ٤٩٢).
(٣) آل عمران: ٩٣.
(٣) الأنعام: ١٤٨.

وهنا يطلب منهم دليل على أن الله رضي منهم أن يشركوا به ـ كما يزعمون ـ وأن يحللوا ويحرموا من دونه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ ولما لم يكن عندهم علم ولا حجة ولا دليل، فهم على جهل وظنون كاذبة لا أساس لها من الواقع والصحة[1].

ـ ومن الأمثلة التي فيها إبطال كلام الخصم لعدم وجود الدليل، وعدم إقامة الحجة والبرهان، والاستدلال بعدم وجود السلطان المبين على كذب الخصم وافترائه ما جاء في الآية: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾..﴾[2]

والآيات في هذا المعنى كثيرة وسيتكرر ذكر شيء منها في مباحث أخرى قريبة من هذا، وأما الأحاديث في بيان هذا الأدب والالتزام به فهي كثيرة أيضاً وأذكر منها:

ـ طلب المرأة للدليل من ابن مسعود عندما قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه، فقالت: بلغني عنك أنك قلت كيت وكيت، قال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ قالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، قال: إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3] قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ قد نهى عنها... الحديث)[4].

---

(١) انظر زبدة التفسير للأشقر ص ١٨٨.

(٢) يونس: ٦٨ـ ٦٩.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) أخرجه البخاري: التفسير ٤٨٨٦، مسلم اللباس (٣/ ١٦٧٨) رقم ١٢٠، أبو داود: الترجل (٤/ ٧٥) رقم ٤١٦٩، ابن ماجه: النكاح (١/ ٦٤٠) رقم ١٩٨٩.

فهذا فيه سؤال المرأة لابن مسعود وطلبها للدليل والتأكد منه.

وعلى المحاور أن يجتهد في طلب البينة ويبحث عمن لديه الدليل ويسأل الحجة ولو من غير الخصم، لأن المقصود أولاً هو الوصول إلى الحق. ومما يوضح ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه (أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيه، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم... الحديث)[1].

ـ وقريب منه ما جاء في حديث البراء بن عازب قال: (مر النبي ﷺ بيهودي محمم مجلود، فدعاهم فقال: «هكذا تجدون في كتابكم حد الزاني؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا الرجم. فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وكنا إذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع. فاجتمعنا على التحميم والجلد، مكان الرجم. فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه» وأمر به فرجم)[2].

فهذا أيضاً فيه طلب الحجة من غير الخصم بل ممن يملكها من أهل العلم منهم.

ـ وهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله يبتلى ويضرب

---

(١) تقدم تخريجه من «مبحث العلم» ص ٢٨٥.

(٢) أخرجه مسلم: الحدود (٣/ ١٣٢٧) رقم ٢٨، أبو داود الحدود (٤/ ١٥٣) رقم ٤٤٤٨، ابن ماجه: الحدود (٢/ ٨٥٥) رقم ٢٥٥٨.

ويعذب، ثم يطلب منه التنازل حتى يقول له المعتصم: يا أحمد أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، فلا يزيد على أن يقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله[1]، وهكذا فعل كلما أرادوا منه أن يلين أو يخضع، يسكتهم بطلب الدليل فيعجزون ويفحمون.

والأمثلة كثيرة في هذا الجانب، إذ مدار كل حوار هادف هو الدليل، وتقديمه وطلبه وقبوله لتحقيق نجاح الحوار.

رابعاً: الانتقال في الدليل، وإقفال المناقشة:

قد يتعذر على الخصم فهم دليل ما، وقد لا تتضح له وجه الدلالة فيه، كما أنه قد يفهمه ويدركه لكنه يتعمد المغالطة وعدم الإذعان والتسليم، عندئذ لا بد للمحاور من أن ينتقل إلى دليل آخر ويأتي بمثال أوضح لا يجد الخصم معه مفراً دون الانقطاع أو التسليم[2]، وفي ذلك توفير الوقت والجهد من العبث والضياع.

ومن أمثلة هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود، التي قال الله فيها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[3].

ففي هذه الآية يقدم إبراهيم عليه السلام دليلاً على أن الله هو الرب سبحانه وتعالى، وهذا الدليل هو أن الله يحيى ويميت، فعارضه النمرود بنفس دليله فزعم أنه كذلك يحيى ويميت، مع الفارق العظيم والواضح بين

---

(١) انظر مقدمة المسند لأحمد شاكر: (١/ ٩٥).
(٢) انظر مناهج الجدل ص ٨٢ (للألمعي).
(٣) البقرة: ٢٥٨.

ما يقصده كل منهما، فلم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يدخل في إبطال دليل خصمه، لأنه يعرف فساد هذه المعارضة لاختلاف المقصود بالإحياء والإماتة عندهما، فانتقل لإلزامه وإفحامه وقطع لجاجته[1]، إذ لا يخلو حال النمرود: (إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلح للحجة)[2].

قال القرطبي في الآية: (وذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة، وفزع نمرود إلى المجاز وموه على قومه، فسلَّم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الألباب يكذبونه)[3].

ـ وقريب من ذلك ما فعله موسى عليه السلام في حواره مع فرعون، حيث سأله فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4] فأجابه بما يناسب حاله من تجاهله الرب سبحانه، وبما يوجه نظره إلى هذا الكون الهائل والتفكير في رب الكون كله، رب العالمين، قال ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[5]، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها[6] وخشي فرعون من

---

(١) انظر مناهج الجدل ص ١٥٤ بتصرف.
(٢) عن استخراج الجدل من القرآن، ص ٦٧ـ ٦٨ (لابن الحنبلي).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٢/ ١٨٦)، وانظر تفسير الظلال: (١/ ٢٩٨).
(٤) الشعراء: ٢٣.
(٥) الشعراء: ٢٤.
(٦) تفسير القرطبي: (٧/ ٦٧).

تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى قلوب من حوله من المستمعين، فالتفت إليهم يعجبهم من هذا القول، أو لعله يصرفهم عن التأثر به[1]، ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2] وهم يستمعون كما يستمع هو، ولكنه يظهر تعجبه من هذا القول الغريب، الذي لا عهد لهم به، ولم يقله أحد قبله. عند ذلك يزيد موسى في البيان، وينتقل إلى دليل أوضح وأقرب: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾[3]: (فجاءه بدليل يفهمونه عنه، لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا، وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكون)[4].

وهذا الدليل أشد مساساً بفرعون ودعواه وشبهه، فموسى يجيبه بأن رب العالمين هو ربه ورب قومه ورب آبائهم وأجدادهم وما فرعون إلا واحد من عبيده، لا إله كما يدعي بين قومه، ولذلك فلا يطيق فرعون سكوتاً على هذه القاصمة، وهناك من يستمع لهذه الأقوال، ومن ثم يرمي قائلها في تهكم بالجنون[5] ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[6] أي ليس يجيبني عما أسأل[7]، فأردف موسى ما ذكر بشاهدين آخرين[8] فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[9] أي ليس ملكه كملكك، لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب[10]، وذلك لأن المشرق

---

(١) الظلال: (٥/ ٢٥٩٢).
(٢) (٣) الشعراء: (٢٥ـ ٢٦).
(٤) القرطبي (٧/ ٦٧).
(٥) الظلال: (٥/ ٢٥٩٢) بتصرف.
(٦) الشعراء: ٢٧.
(٧) القرطبي: (٧/ ٦٧).
(٨) استخراج الجدل من القرآن ص ٧١.
(٩) الشعراء: ٢٨.
(١٠) القرطبي: (٧/ ٦٧).

والمغرب آيتان عظيمتان لا يقدر فرعون على ادعائهما[٧]، ومن ثم اندحضت حجته، وسقطت أدلته، فخشي من يقظة الشعوب وصحوة القلوب، فلجأ إلى إنهاء الحوار مع موسى بالتهديد الغليظ، وبالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٢]، ولا شك أن هذا دليل العجز، وعلامة الضعف، ولكنها سمة الطغاة في القديم والجديد[٣].

ـ ومن أمثلته في السنة ما جاء في حوار ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما، حيث قال أبو موسى: أرأيت يا أبا عبد الرحمن إذا أجنب فلم يجد ماء كيف يصنع؟ فقال عبد الله: لا يصلي حتى يجد الماء، فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي ﷺ: «كان يكفيك» قال: ألم تر عمر لم يقنع بذلك؟ فقال أبو موسى: فدعنا من قول عمار، كيف تصنع بهذه الآية؟[٤].

فما درى عبد الله ما يقول فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا، لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم[٥].

قال ابن حجر رحمه الله في قول أبي موسى (فدعنا من قول عمار): (فيه جواز الانتقال من دليل إلى دليل أوضح منه، ومما فيه الاختلاف إلى ما فيه الاتفاق)[٦]. وقال الكرماني: (وفي الباب جواز المناظرة، وجواز

---

(١) استخراج الجدل ص ٧١.
(٢) الشعراء: ٢٩.
(٣) الظلال: (٥/ ٢٥٩٢) بتصرف.
(٤) الآية قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ المائدة: ٦.
(٥) تقدم تخريجه في الباب السابق ص ٢٣٣.
(٦) الفتح: (١/ ٤٥٥).

الانتقال فيها من حجة إلى حجة، وجواز الاجتهاد)[1].

فتبين مما سبق أن الانتقال في الدليل أسلوب متبع في الحوار، وأن في الانتقال من دليل إلى آخر نوع من إقفال المناقشة ـ ولو جزئياً في الدليل المنتقل عنه، وهذا الأدب يحتاج إلى حكمة المحاور وسرعة بديهيته واستحضاره لعدة أدلة قوية يمكن الانتقال فيها، كما ظهر من خلال الأمثلة السابقة.

وإن كان في بعض الأحيان يجد المحاور أن شقة الخلاف بينه وبين خصمه كبيرة جداً، وأن هناك أموراً أساسية غير متفق عليها ولا يسمح الوقت بتقريرها، أو أن الخصم معاند مغالط مكابر، والحوار معه تضييع للوقت وتبديد للجهد، عند ذلك يكون من الأفضل إقفال المناقشة بطريقة لبقة ذكية تشعر أن الطرف الأول لم ينسحب عجزاً، ولم يترك المناقشة هزيمة.

---

(١) شرح الكرماني: (٣/ ٢٣١).

المبحث الخامس

الوضوح والبيان

إن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان وجودة العرض، من عوامل نجاح الحوار، ويكون له الأثر الأكبر في إيضاح الفكرة وقبول الطرف الآخر لها، وربما ضاع الحق لسوء التعبير عنه، وظهر الباطل لفصاحة قائله وبلاغته.

لذلك ينبغي للمحاور الجيد أن يضبط كلامه ويتقن لغته، ويتجنب الألفاظ الغريبة صعبة الفهم، أو الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معان من غير توضيح للمعنى المراد منها، وذلك أن الكلام المحكم الجميل، الذي يخلو من الخطأ، وتتضح فيه مخارج الحروف، ويخرج متوالياً بانتظام وترتيب واسترسال، يترك أحسن الأثر في السامع الذي يفهمه ويجعله يحترم قائله، لأنه يرى قائله محيطاً بما يقول، قادراً على الإفصاح والإيضاح[1].

وهذا الوضوح والبيان وحسن الصياغة والعرض تقتضي أموراً منها:

أ ـ التزام لسان العرب في الصياغة من غير إغراب ولا تعقيد، فإن الألفاظ قوالب للمعاني، وهي رسل لها، وإذا فات جمال العرض، آلت

---

(١) انظر أصول الحوار ص ٢٩ ورسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٣٣ بتصرف.

إلى مرض محض، قال الشافعي: (ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لجهلهم لسان العرب)[1].

ب ـ الاقتصاد في السياق وتفصيل الألفاظ على قدر المعاني، وذلك أن الرد ضرورة تقدر بقدرها، وينبغي الحرص على الوصول إلى المطلوب بأقرب عبارة وأوجز لفظ، والحذر من تكثير الكلام وتكراره وتطويله ـ إلا لحاجة ـ، أو اشتماله على الغث والسمين فهو مخل ممل، بما يجلبه من وهاء وفتور[2].

ج ـ الدقة في اختيار الأدلة والشواهد الصحيحة الصريحة الواضحة الدلالة، والبعد عن الضعيف أو العام أو المجمل، والذي قد يكون محل نقاش وجدل يحول دون وضوح الحق وبيان الراجح.

د ـ الإسهاب والتفصيل في الإجابة عند الحاجة ـ لقصد التوضيح، أو زيادة في التأكيد والتثبيت، أو نفياً لشبه محتملة أو نحو ذلك مما تقتضيه المصلحة ويحكمه الموقف.

ـ ولا شك أن حوارات الكتاب والسنة وما فيهما من أجوبة وردود وأدلة وشواهد، قد تميزت بالوضوح والبيان من حيث الالتزام باللغة الفصحى الواضحة، وجمال العرض ومناسبة الألفاظ للمعاني، والسلامة من التطويل الممل والاختصار المخل، والتنزيه عما لا فائدة فيه ولا طائل من ورائه، وكل ذلك مسلم به واضح بيِّن لا يحتاج إلى استدلال.

ولكن هناك شواهد وأمثلة لبعض القضايا الجزئية المتعلقة بهذا الأدب فمنها:

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٧٤).

(٢) ملخصه بتصرف عن الرد على المخالف ص ٦٥ـ ٦٨، وانظر أدب الحوار لجريشة: ص ٧٠.

ـ دقة ابن مسعود رضي الله عنه في الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] كما تقدم في المبحث السابق في حواره مع المرأة، وقوله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. قال: إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ قد نهى عنها.. الحديث[2].

ـ وحيث إن الحوار مبني على خلاف، وقد يؤثر هذا الخلاف في النفوس وتتكدر منه الخواطر، لذلك فإن توضيح الأمر وبيان العذر، وتجلية الحقيقة، لها دور كبير في تصفية القلوب وإعادة الود، ولعل مما يصلح مثالاً لهذا ما كان أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين عرض ابنته حفصة على عثمان فلم يتزوجها، ثم عرضها على أبي بكر، فصمت ولم يرجع إليه شيئاً، فوجد عليه أكثر مما وجد على عثمان، فلبث ليالي ثم خطبها النبي ﷺ فتزوجها، فلقيه أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: قلت نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا إني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها[3].

إن الإيجاز في الجواب والتفصيل فيه، يرجع في كثير من الأحيان إلى المسألة المطروحة للنقاش، وإلى حال المخاطب أحياناً، أو نحو

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) تقدم تخريجه في المبحث السابق. ص ٣١٨.

(٣) أخرجه البخاري: النكاح ٥١٢٢، النسائي النكاح (٦/٧٧) رقم ٣٢٤٨، أحمد (١/١٢).

ذلك، بحيث يتضمن الكلام الجواب وما يتعلق به من تفصيلات واحتمالات، وهذا الإمام البخاري رحمه الله يترجم لأحد أبوابه بقوله: (باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله)[1] ثم ذكر فيه حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: (أن رجلاً سأله: ما يلبس المحرم؟ فقال: «لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس، ولا ثوباً مسه الورس أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين»[2]).

قال الحافظ في شرحه: (قال ابن المنير: موقع الترجمة التنبيه على أن مطابقة الجواب للسؤال غير لازم، بل إذا كان السبب خاصاً والجواب عاماً جاز، وحمل الحكم على عموم اللفظ لا على خصوص السبب، لأنه جواب وزيادة فائدة. ويؤخذ منه أيضاً: أن المفتي إذا سئل عن واقعة واحتمل عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه إلى أن يعديه إلى غير محل السؤال: تعين عليه أن يفصل الجواب، ولهذا قال: «فإن لم يجد نعلين» فكأنه سأل عن حالة الاختيار فأجابه عنها وزاد حالة الاضطرار.. إلى أن قال: وفي الحديث أيضاً العدول عما لا ينحصر إلى ما ينحصر طلباً للإيجاز، لأن السائل سأل عما يلبس فأجيب بما لا يلبس، إذ الأصل الإباحة ولو عدد له ما يلبس لطال به.. إلخ كلامه)[3].

وقال ابن القيم: (يجوز للمفتي أن يجيب السائل بأكثر مما سأله

---

(١) كتاب العلم ـ رقم الباب ٥٣ (الفتح: ١/ ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري العلم ١٣٤، مسلم: الحج (٢/ ٨٣٤) رقم ١، أبو داود (٢/ ١٧٠) رقم ١٨٢٣، الترمذي: الحج (٣/ ١٨٥) رقم ٨٣٣، النسائي: الحج (٥/ ١٢٩) رقم ٢٦٦٧.

(٣) الفتح: (١/ ٢٣١).

عنه، وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده، ومن عاب ذلك فلقلة علمه)[1].

فهذا الحديث فيه جمع بين الإيجاز والتفصيل، فقد فصل الجواب للحاجة إلى التفصيل، وأوجز عندما كان الجواب لا ينحصر.

ومثل هذا أيضاً ما قاله المغيرة لترجمان كسرى عندما سأله: ما أنتم؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله: «نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر والحجر، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات والأرضين ـ تعالى ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا رسالة ربنا ﷻ: أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم»[2].

وقد ذكر الحافظ في الفتح: أن هذا يدل على فصاحة المغيرة وبلاغته، فقد اشتمل كلامه هذا الوجيز على بيان أحوالهم الدنيوية، من المطعم والملبس ونحوهما، وعلى أحوالهم الدينية أولاً وثانياً، وعلى معتقدهم من التوحيد والرسالة والإيمان بالمعاد، وعلى بيان معجزات الرسول ﷺ وإخباره بالمغيبات ووقوعها كما أخبر[3].

ومن البيان وتوضيح الإجابة وتفصيلها عند الحاجة ما فعله ابن عمر رضي الله عنهما حيث جاء رجل من أهل مصر وحج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟

---

(١) أعلام الموقعين: (٤/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري: الجزية ٣١٥٩.

(٣) الفتح: (٦/ ٢٦٦) بتصرف يسير.

قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أبين لك. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه». وأما تغييبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله بيده اليمنىٰ: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك)[1].

ويظهر من هذا الحديث أن السائل كان ممن كان يتعصب على عثمان فأراد بالمسائل الثلاث أن يقرر معتقده فيه، ولذلك كبر مستحسناً لما أجابه به ابن عمر، ثم فهم ابن عمر منه مراده، لما كبر، وإلا لو فهم ذلك من أول سؤاله لقرن العذر بالجواب، وحاصله أنه عابه بثلاثة أشياء، فأظهر له ابن عمر العذر عن جميعها، ولذلك قال له بعد البيان: (اذهب بها الآن معك) أي اقرن هذا العذر بالجواب حتى لا يبقى لك فيما أجبتك به حجة على ما كنت تعتقده من غيبة عثمان، ولا ينفعك ما تمسكت به بعد ما بينت لك[2].

ومن التفصيل في الجواب أيضاً ما جاء في حديث أبي الطفيل قال: (قلت لابن عباس: أرأيت هذا الرمل بالبيت ثلاثة أطواف، ومشي أربعة

---

(١) أخرجه البخاري فضائل الصحابة ٣٦٩٨، أحمد (٢/ ١٠١).
(٢) انظر الفتح (٧/ ٥٩) بتصرف.

أطواف. أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة، قال فقال: صدقوا وكذبوا.

قال قلت: ما قولك: صدقوا وكذبوا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قدم مكة. فقال المشركون: إن محمداً وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزل. وكانوا يحسدونه قال: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا ثلاثاً ويمشوا أربعاً، قال قلت له: أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة. قال: صدقوا وكذبوا. قال قلت: وما قولك: صدقوا وكذبوا؟ قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون هذا محمد، هذا محمد، حتى خرج العواتق من البيوت. قال: وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه ركب، والمشي والسعي أفضل)[1].

فهنا ينصف ابن عباس ويفصل كما في قوله صدقوا وكذبوا: مبيناً أنهم صدقوا في أن النبي ﷺ فعل ذلك، وكذبوا في قولهم: إنه سنة مقصودة متأكدة[2].

ومن الاستطراد المفيد، والتفصيل المهم، الذي يناسب حال المخاطب ويقصد به تعليمه ولفت نظره إلى بعض المهم ما جاء في حديث جابر بن سليم عندما قدم على النبي ﷺ وقال: أنت رسول الله؟ فقال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلَّت راحتك فدعوته ردها عليك. .»[3].

---

(١) أخرجه مسلم: الحج (٢/ ٩٢١) رقم ٢٣٧، أبو داود المناسك (٢/ ١٨٤) رقم ١٨٨٥، الترمذي المناقب (٥/ ٦٢٩) رقم ٣٧٠٦.

(٢) انظر شرح النووي (٩/ ١٠).

(٣) تقدم في الباب الأول ص ٨٠.

ومن النماذج القرآنية التي جمعت بين الدقة والوضوح والبيان مع الإسهاب والتفصيل اللازم ما جاء في حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه حيث قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1]. فهذه بداية الحوار ويظهر فيه المجاوبة والأخذ والرد، ولكن أمام تحجر هؤلاء القوم وتصبهم لم يجد إبراهيم ـ على حلمه وأناته ـ إلا أن يهزهم بعنف، ويعلن عداوته لأصنامهم وعقيدتهم الفاسدة، ويستثني ربه سبحانه وتعالى «إلا رب العالمين» ثم يستطرد بدقة وروعة في وصف ربه عزّ وجلّ، ويسترسل في تصوير صلته به، متذكراً إنعامه وأفضاله، ويجمع في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين، والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض، والبعث والحساب بعد الموت، وفضل الله وتقصير العبد، وهي العناصر التي ينكرها قومه وينكرها المشركون[2]. . ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ . . .﴾[3] الآيات.

ولعل هذه النماذج المختصرة كافية في بيان أهمية الوضوح والدقة والبيان والتفصيل وحسن العرض والصياغة، ودور ذلك كله في نجاح الحوار وتحقيق أهدافه.

---

(١) الشعراء: ٦٩ـ ٧٤.

(٢) انظر الظلال: (٥/ ٢٦٠٢ـ ٢٦٠٣).

(٣) الشعراء: ٧٥ـ ٨٢.

المبحث السادس

الصدق والأمانة

إن المحاور المسلم لا بد أن يكون صادقاً أميناً، وهذا من مقتضيات إيمانه، والمؤمن لا يكون كاذباً، والحوار أمانة يجب ألا يخونها المحاور بالغش والغموض وكتم الحقائق والتلفيق ونحو ذلك، فهو مسؤولية يحاسب عليها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1] كما أن الكذب والغدر والخيانة والفجور في الخصومة من أبرز صفات المنافق كما قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[2].

فلا بد من احترام الحقيقة، والقيام بمسؤولية الكلمة، والحوار المبارك هو الحوار الصادق الذي يطمئن كل طرف فيه إلى الآخر، واللجوء إلى الغموض والمراوغة قلة في الإخلاص وضعف في النفس، ويؤدي إلى فقدان الثقة بين الطرفين ومن ثم إلى فشل الحوار.[3].

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) أخرجه البخاري: الإيمان ٣٤، مسلم: الإيمان (١/٧٨) رقم ١٠٦، الترمذي: الإيمان (٥/١٩) رقم ٢٦٣٢، النسائي: الإيمان (٨/١١٦) رقم ٥٠٢٠، أحمد (٢/١٨٩).

(٣) انظر رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٢٨ـ ٣٥.

ومن مقتضيات هذا الأدب ما يلي:

أ ـ الأمانة في العرض والنقل فلا يجوز قطع عبارة عن سياقها أو عزلها عن مناسبتها عند الاقتباس لتخدم رأياً ما، فإن بتر النقول والنصوص والدس في الكلام وتحريف الأقوال من مسالك أهل البدع والأهواء، وهو نقص في الدين والإخلاص وهو أخو الكذب والخيانة، فضلاً عن أنه يعرض فاعله للسخرية وعدم الثقة به متى اكتشف تلاعبه بالنصوص وتحايله في الاستشهاد[1].

ب ـ التوثيق: فلا بد أن تكون مسائل الحوار موثقة من الناحية العلمية والإسنادية، فلا يستدل بشيء إلا مسنداً لقائله ومصدره الذي أخذ منه، فإن ذكر الحقائق مدعمة بمصادرها ومراجعها، أعمق أثراً في النفوس من ذكرها مجردة.

ج ـ ومن ذلك الإعراض عن النقول الضعيفة والحجج الواهية، والأدلة الساقطة، وكذا عدم الاستشهاد بآراء وأقوال من لا يطمئن إلى علمه وأمانته.

د ـ ومن مقتضيات هذا الأدب أيضاً: الإخلاص والتجرد في طلب الحق، والعدل والإنصاف مع الخصم ـ وقد تقدم ذكرها في مباحث سابقة ـ وكذا بذل النصيحة للطرف الآخر، فهي من دلائل الصدق وعلامة الأمانة.

هـ ـ ومن لوازم ذلك أيضاً عدم كتم شيء من الحق أو إخفاء بعض العلم الذي له علاقة بموضوع الحوار، ـ خاصة إذا كان ظاهر تلك الأدلة المسكوت عنها لصالح الطرف الآخر ـ فإن في ذلك خرم للأمانة، وقدح

---

(١) انظر الرد على المخالف: ص٥٨، ولمؤلفه بحث مستقل بعنوان «تحريف النصوص».

في مصداقية فاعله، الذي أخذ عليه وعلى أمثاله الميثاق ببيان الحق وعدم كتمان العلم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1] وإضافة إلى تعرض فاعل ذلك للعقاب الأليم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[2] وفي الحديث: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[3].

و ـ ومما يدخل في هذا الباب أيضاً عدم تعمد اتباع المتشابه من الأدلة والشواهد والنقول والأقوال، فهذا مسلك أهل الزيغ الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ...﴾[4] الآية.

قال الشاطبي رحمه الله: (وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة، حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه، ويشترط في ذلك أن لا يعارضه أصل قطعي)[5].

ويدخل في هذا أيضاً الاقتصار على دليل واحد وعدم النظر في الأدلة الأخرى خاصة إذا كانت معارضة له ـ في الظاهر.

قال الشاطبي أيضاً: (ثم اتباعه للمتشابه ـ ولو كان من جهة الاسترشاد به لا للفتنة به ـ لم يحصل به مقصود على حال. فما ظنك به إذا

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) البقرة: ١٥٩ـ ١٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود: العلم (٣/ ٣٢٠) رقم ٣٦٥٨، الترمذي: العلم (٥/ ٢٩) رقم ٢٦٤٩، ابن ماجه (١/ ٩٦) رقم ٢٦١، أحمد (٢/ ٢٦٣).

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) الاعتصام: (١/ ٢٣٩).

اتبع ابتغاء الفتنة؟ وهكذا المحكم إذا اتبعه ابتغاء الفتنة به، فكثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة، اقتصاراً بالنظر على دليل ما، وإطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له.. إلى أن قال، وكذلك الأمر في كل مسألة فيها الهوى أولاً، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب.. إلخ)[1].

وهناك نصوص وأمثلة كثيرة تدل على ضرورة هذا الأدب وأهميته وأثره، كيف لا؟ (والعقيدة الإسلامية عقيدة الصدق والوضوح والاستقامة والنصاعة، ولا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة فضلاً عن الكذب والخداع والخيانة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[2]. فهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العملي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة)[3].

فهذا المنهج الذي يقوم على الصدق والأمانة، ويحاسب فيه الفرد على كلامه وسمعه وبصره بل وقلبه، لا يمكن لمن آمن به إلا أن يكون صادقاً أميناً، ليس في الحوار فحسب، بل في كل صغيرة وكبيرة من حياته، قولاً وعملاً، قلباً وقالباً، قال سيد قطب رحمه الله عند الآية السابقة: (والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى، ويجعل

---

(١) نفس المصدر (١/ ٢٢٢ـ ٢٢٣).

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) الظلال: (٤/ ٢٢٢٧) بتصرف يسير.

الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد..

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً. أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة)[1].

ولما كان أمر الصدق والأمانة من الأهمية بمكان، حرص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على إبراز هذا الجانب قبل محاورة أقوامهم فهذا هود عليه السلام يلخص مهمته ودوره في كلمات معدودة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[2] بل هؤلاء الأنبياء من نوح إلى هود إلى صالح إلى لوط إلى شعيب كل منهم يقول ويعلن بهذه الكلمة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[3] ـ كما في سورة الشعراء ـ قبل الدخول في أي نقاش أو حوار، إذ إن أهم مقدمات الدعوة حتى يستجاب لصاحبها ـ الصدق في الرسالة والأمانة في التبليغ، فلا يخون ولا يخدع، ولا يزيد شيئاً أو ينقصه[4].

وكذلك كان رسولنا ﷺ في أموره وأحواله ـ حتى قبل البعثة ـ يعرف بالصدق والأمانة، فقد كان يأمنه المشركون[5]، وكان يظهر الصدق عليه في كلامه وأفعاله بل في تقاسيم وجهه، فهذا عبد الله بن سلام رضي الله عنه يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل قدم

---

(١) الظلال: (٤/٢٢٢٧).
(٢) الأعراف: ٦٨.
(٣) الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.
(٤) انظر الظلال: (٥/٢٦٠٧).
(٥) انظر تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٢٣.

رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ ـ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.. الحديث)[1].

وكما قالت عائشة رضي الله عنها لمسروق: (من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2][3].

وقال أنس رضي الله عنه: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه ـ يعني قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[4][5].

ومن أمثلة الصدق في الحجة والأمانة في العرض: ما كان من أمر الأنصار رضوان الله عليهم حين قالوا يوم حنين: (إن هذا لهو العجب. إن سيوفنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ـ فجمعهم، فقال: ما الذي بلغني عنكم؟ قالوا: هو الذي بلغك. وكانوا لا يكذبون. قال: أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا إلى بيوتهم، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم!

لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً، لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار»[6]).

---

(١) أخرجه الترمذي: القيامة (٤/ ٦٥٢) رقم ٢٤٨٥، ابن ماجه: إقامة الصلاة (١/ ٤٢٣) رقم ١٣٣٤، أحمد (٥/ ٤٥١) (وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ٥٦٩).

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) أخرجه البخاري: التوحيد ٧٥٣١، مسلم: الإيمان (١/ ١٥٩) رقم ٢٨٧، الترمذي (٥/ ٢٦٢) رقم ٣٠٦٨.

(٤) الأحزاب: ٣٧.

(٥) أخرجه البخاري: التوحيد ٧٤٢٠، مسلم الإيمان (١/ ١٦٠) رقم ٢٨٨، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٥٢) رقم ٣٢٠٧، أحمد (٦/ ٢٤١).

(٦) أخرجه مسلم الزكاة (٢/ ٧٣٣) رقم ١٣٢، الترمذي: المناقب (٥/ ٧١٤) رقم ٣٩٠١.

فالأنصار هنا لا يكذبون ولا يهربون من الإجابة، بل يصدقون ويعترفون بما قالوا فرضي الله عنهم جميعاً.

ومثل ذلك ما روي في حوار عمر مع أسماء بنت عميس ـ وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ـ فقال عمر لها: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت كلمة: كذبت يا عمر! كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم. وكنا في دار أو في أرض ـ البعداء البغضاء ـ في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ـ ونحن كنا نؤذى ونخاف. وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله. ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحق بي منكم. وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم، أهل السفينة هجرتان»[1].

فتظهر أمانة النقل في قول أسماء رضي الله عنها (وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك).

ـ ولعل مما يصلح أن يكون شاهداً لمسألة الأمانة والصدق في الحجة ما حدث به أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجين من المسجد، فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها» قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله! ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: المغازي ٤٢٣٠، مسلم فضائل الصحابة (٤/١٩٤٦) رقم ١٦٩.
(٢) أخرجه البخاري: الأدب ٦١٧١، مسلم البر (٤/٢٠٣٣) رقم ١٦٤، الترمذي: =

وهنا يظهر أيضاً صدق هذا الرجل حيث اعترف بعدم إكثاره من هذه العبادات، مع بيانه للأمر العظيم الذي يملكه بقلبه وهو حب الله ورسوله ﷺ.

وإذا كانت الحجة في صالح المتكلم، فإن الصدق فيها والأمانة في عرضها ونقلها وشرحها وبيانها أمر سهل طبيعي، بل محبب إلى نفس المتكلم، ولكن يتمحص الصادق الأمين، ويتميز المخلص الوفي، عندما تكون الحجة لصالح خصمه ويكون الدليل خلاف رأيه، ثم مع ذلك يصدق ويدلي بما عنده طلباً للحق، وتجرداً لله عزّ وجلّ وإبراء للذمة، ولعل فيما يلي من الأمثلة ما يدل على هذا النوع النادر من الصدق والإخلاص والأمانة:

ففي حديث الإفك وحيث كان النبي ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمر عائشة رضي الله عنها ـ (فقال: يا زينب ما علمت؟ ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع)[1].

فهنا يظهر صدق زينب وأمانتها، مع ما كان بينها وبين عائشة من التنافس في طلب الرفعة والحظوة عند النبي ﷺ[2]، ولكن ذلك لم يحملها على الكذب أو الخداع ونحوه.

ومن المواقف العجيبة التي تبين قبح الكذب ـ حتى في الجاهلية ـ كما هو قبيح في الإسلام، ما جاء في حوار أبي سفيان مع هرقل، حين دعا

= الزهد (٤/ ٥٩٥) رقم ٢٣٨٥ (ومعنى «استكان» أي: خضع. انظر الصحاح: ٦/ ٢١٩٠).

(١) تقدم تخريجه في الباب السابق ص ١٥٨.

(٢) انظر الفتح: (٨/ ٤٧٨).

هرقل ركب قريش الذين كانوا تجاراً بالشام وفيهم أبو سفيان، الذي روى القصة فقال: (فقال هرقل: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة... إلخ الحديث)[1].

فهذا موقف من مواقف الخصام والعداوة بين النبي ﷺ وأبي سفيان، مع عدم حضور النبي ﷺ، ومع أن الفرصة سنحت لأبي سفيان أن يكذب أو يخون ويغش، ولكنه ترك الكذب استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذاباً، وإلا فإنه كان واثقاً ممن معه بعدم تكذيبه ـ إن كذب ـ لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري: بدء الوحي ٧، مسلم: الجهاد (٣/ ١٣٩٣) رقم ١٧٧٣، أحمد (١/ ٢٦٢).

(٢) انظر الفتح: (١/ ٣٥).

ولعل قريباً من هذا ما جاء في مقتل عبد الله بن سهل، فاتهموا اليهود بقتله، فجاء أخوه عبد الرحمن وابنا عمه حويصة ومحيصة إلى النبي ﷺ فتكلموا، فقال لهم رسول الله ﷺ: يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته، قالوا: أمر لم نشهده كيف نحلف؟.. إلخ[1].

وهذا هو الشاهد حيث أنهم أبوا الكذب مع أن الموقف في صالحهم وضد اليهود، ولكنه الصدق والأمانة.

والأمثلة في هذا لا تنحصر، إذ إن هذا الأمر مع كونه أدباً في الحوار فهو مبدأ إسلامي رفيع، وخلق نبيل لا خيار للمسلم في التحلي به، ولا يليق به إلا التخلق به، فهو من مقتضيات إخلاصه وتقواه.

---

(١) أخرجه مسلم: القسامة (٣/ ١٢٩١) رقم ١، أبو داود: الديات (٤/ ١٧٥) رقم ٤٥٢٠، النسائي: القسامة (٨/ ٨) رقم ٤٧١٣.

المبحث السابع

التثبت

إن من أهم مقومات الحوار الناجح أن تراعى فيه الحقائق الثابتة والأدلة الواضحة وأن يقوم على أساس الصدق واليقين، لا على مجرد الوهم والظن والشك، فإن هذا الدين يأبى أن تقوم قضية من قضاياه إلا على أساس الوضوح والاستقامة والنصاعة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[1] (فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق. ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج، لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة. ولم يبق مجال للظن والشبه في عالم الحكم والقضاء والتعامل. ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم... ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته من قول يقال ورواية تروى. من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل. ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية)[2].

ومن هذا الباب تحذير النبي ﷺ من الظن حيث قال: «إياكم والظن

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) الظلال: (٤/ ٢٢٢٧) بتصرف يسير.

فإن الظن أكذب الحديث»[1] وكذا تحذيره من الكلام في كل شيء وبكل ما يسمع من غير تعقل ولا تثبت حيث قال أيضاً: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[2] ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً، وهو يحدث بكل ما سمع[3].

لذلك وجب التثبت من كل قول أو حادثة أو مسألة، ويتأكد التثبت عند الاستدلال بشيء من حديث رسول الله ﷺ، إذ إن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، ونسبة الأقوال إليه من غير تثبت مطية إلى الكذب: قال ﷺ: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[4].

ومن النصوص العامة التي تؤكد أهمية التثبت وتقرر ضرورته، وتبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[5].

ولعل قراءة عامة قراء أهل المدينة تبين المعنى بوضوح إذ قرأوا: ﴿فتثبتوا﴾ والمعنى على كلا القراءتين: أي أمهلوا حتى تعرفوا صحته، ولا تعجلوا بقبوله[6].

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠٦٦، مسلم البر (٤/ ١٩٨٥) رقم ٢٨، الترمذي: البر (٤/ ٣٥٦) رقم ١٩٨٨، أحمد (٢/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم المقدمة (١/ ١٠) رقم ٥.

(٣) انظر مقدمة مسلم: (١/ ١١).

(٤) أخرجه مسلم المقدمة (١/ ٩)، الترمذي: العلم (٥/ ٣٦) رقم ٢٦٦٢، ابن ماجه: المقدمة (١/ ١٤) رقم ٣٨، أحمد (٥/ ١٤).

(٥) الحجرات: ٦.

(٦) انظر تفسير الطبري: (٢٦/ ١٢٣).

فمتى تطرق الشك إلى الخبر أو ضعف ناقله وجب التثبت، ولم يجز الحكم به أو العمل بموجبه إلا بعد التأكد، وليس ذلك أمراً عسيراً أو تكليفاً شاقاً، لأن التأخر في قبوله والعمل به أهون وأيسر من التعجل ومؤاخذة الغير أو إصابته عن جهل وتسرع، مما يثير العداوة والبغضاء، وبعدها لا ينفع الندم، ويصعب التراجع وإصلاح الخطأ، كما أن المطلوب هو التثبت من كلام ونقل غير الثقة، وأما الثقة الصالح الذي لا يعرف عنه كذب ولا تدليس فيقبل منه، قال سيد قطب عند تفسيره هذه الآية: (ومدلول الآية عام وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروضة بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة، والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء. وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار)[1].

وعلى هذا فإن أدلة هذا الأمر كثيرة متعددة، وقد جاءت في صور مختلفة، فهناك أمثلة عديدة في جانب التثبت في الأخبار، وشواهد على لزوم التثبت في الأدلة وخاصة الحديث، ونماذج في التثبت في الأحداث، وأخرى يؤكد راويها أنه متثبت مما يروي وينقل، ولكثرة الأمثلة والنماذج، فسأقتصر على بعض منها في كل جانب من تلك الجوانب.

ففي جانب التثبت في الأخبار يمكن ذكر الأمثلة الآتية:

ـ تثبت سليمان عليه السلام من خبر الهدهد وعدم التسرع في

---

(١) الظلال: (٦/ ٣٣٤١).

تصديقه أو تكذيبه، وذلك حين قال الهدهد فيما قاله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ . ﴾[1] الآيات فلا يتسرع سليمان في الأمر، ولا يستخفنه النبأ العظيم الذي جاء به. وإنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته. شأن النبي العادل والملك الحازم: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2] .

ومنه تثبت النبي ﷺ حين بلغه أن بني سلمة يعزمون على الانتقال من ديارهم إلى قرب المسجد فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تنتقلوا قرب المسجد، قالوا: نعم يا رسول الله! قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سلمة! دياركم تكتب آثاركم. دياركم تكتب آثاركم»[3].

وكذا تثبته من عبد الله بن عمرو بن العاص حين أخبر أنه يقول: لأقومن الليل ولأصومن النهار ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟ قال: قد قلته يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ فإنك لا تستطيع ذلك.. الحديث»[4].

ولعل من هذا أيضاً أنه لما بلغ عائشة رضي الله عنها قول أهل الإفك، حيث أخبرتها أم مسطح بذلك، فاستأذنت النبي ﷺ في أن تأتي أبويها قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما.. إلخ[5].

---

(١) النمل: ٢٢ـ ٢٣.

(٢) النمل: ٢٧ـ ٢٨.

(٣) مسلم: المساجد (١/ ٤٦٢) رقم ٢٨٠، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٦٣) رقم ٣٢٢٦.

(٤) البخاري: الصوم ١٩٧٥، مسلم (٢/ ٨١٢) رقم ١٨١، النسائي: الصيام (٤/ ٢٠٩) رقم ٢٣٨٨، أحمد (٢/ ١٨٩).

(٥) تقدمت الإشارة إليه قريباً (انظر ص ٣٤٠).

وفي حديث الإفك كله تثبت النبي ﷺ من هذا الخبر بسؤال بريرة مرة، وسؤال زينب بنت جحش مرة أخرى، وفيه تثبت أبي بكر أيضاً وعدم تسرعه في الأمر، لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهراً كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام[1].

وفي جانب التثبت في الأحداث ما كان من تثبت النبي ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة في فتح مكة بعد أن كان منه ما كان، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ بالوحي، فلم يعجل بالحكم على حاطب حتى استدعاه وسأله: «ما حملك على ما صنعت»[2] إذ إن أول المراحل عند وقوع حادثة أو سماع خبر هي مرحلة التثبت من وقوع الحدث ومن صحة الخبر، وفي هذه الحادثة تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ألا وهي الوحي، والمرحلة الثانية هي مرحلة التثبت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ وهو ما فعله النبي ﷺ حين سأل حاطباً بنفسه عن سبب فعلته[3].

ومنه أيضاً تثبته ﷺ من خالد بن الوليد رضي الله عنه، عندما قتل رجل مسلم رجلاً من الروم وأخذ سلبه، فمنعه خالد بن الوليد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: يا خالد، ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله استكثرته.. الحديث[4].

ويظهر ذلك جلياً في قصة ماعز حيث إن النبي ﷺ تثبت من أصل

---

(١) انظر الفتح: (٨/ ٤٨٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري ٣٩٨٣، مسلم: فضائل الصحابة: (٤/ ١٩٤١) رقم ١٦١ وتقدم تخريجه في الباب السابق.

(٣) انظر رسالة «وإذا قلتم فاعدلوا» لعبد العزيز الجليل ص ٣٩.

(٤) أخرجه مسلم الجهاد (٣/ ١٣٧٣) رقم ٤٣، أبو داود: الجهاد (٣/ ٧٢) رقم٢٧١٩، أحمد (٦/ ٢٦).

خبره فقال له: «أحق ما بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني؟ قال: بلغني أنك وقعت بجارية آل فلان، قال: نعم..» الحديث[1].

وتثبت من قومه فسألهم عنه «أبه جنون» فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشرب خمراً» فقام رجل فشمه فلم يجد منه ريح خمر.[2] ثم رجمه بعد هذا التثبت والتأكد.

ولعل قريباً من هذا سؤاله ﷺ للصحابة حين أخبره ذو اليدين أنه قد صلى العصر ركعتين، فقال ﷺ: «أكما يقول ذو اليدين»، وفي رواية «أصدق ذو اليدين»[3].

وفي جانب التثبت في الدليل، والتأكد من الحديث ـ خاصة ـ ما حصل من عمر رضي الله عنه عدة مرات من التشديد في هذا الأمر والتثبت وطلب البينة، ومن ذلك: (لما أستأذن عليه أبو موسى ـ رضي الله عنه ـ ثلاثاً، فلم يأذن له فرجع، فسأله عن سبب رجوعه فأخبره بقول النبي ﷺ: «الاستئذان ثلاثاً فإن أذن لك وإلا فارجع»، فقال عمر: لتأتيني على هذا ببينة، وإلا فعلت وفعلت، فأتى بأبي سعيد الخدري[4].

فسأله عمر عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك يا ابن الخطاب! فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عمر: سبحان الله! إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت)[5].

---

(١) أخرجه مسلم: الحدود (٣/ ١٣٢٠) رقم ١٩، أبو داود: الحدود (٤/ ١٤٣) رقم ٤٤١٩، الترمذي: الحدود (٤/ ٣٥) رقم ١٤٢٧، أحمد (١/ ٣٢٨).

(٢) هذه رواية لمسلم: الحدود (٣/ ١٣٢١) رقم ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري: الصلاة ٤٨٢، مسلم: المساجد (١/ ٤٠٣) رقم ٩٧، النسائي: السهو (٣/ ٢٠) رقم ١٢٢٤.

(٤) وفي رواية لمسلم أنه جاء بأبي بن كعب انظر مسلم الآداب: ٣٣ (ج٣ ص ١٦٩٤).

(٥) تقدم تخريجه في المبحث الرابع ص ٣١١.

وفي رواية الموطأ أن عمر قال لأبي موسى: (أما أني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ)[1].

ومثله ما ذكره المغيرة بن شعبة قال: سأل عمر بن الخطاب عن إملاص المرأة ـ وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنيناً فقال: أيكم سمع من النبي ﷺ فيه شيئاً؟ قال فقلت: أنا، فقال: ما هو؟ قلت: سمعت النبي ﷺ يقول: «فيه غرة عبد أو أمة» فقال: لا تبرح حتى تجيئني بالمخرج فيما قلت، قال: فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد معي أنه سمع النبي ﷺ يقول: «فيه غرة عبد أو أمة»[2].

ومن هذا الباب أيضاً ما حدث به أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، ولا أراها إلا الفأر. ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟» قال أبو هريرة: فحدثت هذا الحديث كعباً فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم. قال ذلك مراراً.

قلت: أأقرأ التوراة؟[3].

ومثله ما كان من عائشة رضي الله عنها، حين حدثها عروة حديثاً سمعه من عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء».

(فلما حج عبد الله بن عمرو قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي! انطلق إلى عبد الله فاستثبت لي منه الذي حدثتني عنه، فلما سأله وأخبرها، عجبت فقالت: والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو)[4].

---

(١) الموطأ: (٢/ ٢٧٠).
(٢) أخرجه البخاري: الاعتصام ٧٣١٧.
(٣) تقدم في الباب الأول ص ٢٣٣.
(٤) أخرجه البخاري الاعتصام ٧٣٠٧، أحمد (٢/ ٢٠٣).

ولا بأس أن يزداد المحاور ثباتاً أو يزيد الأمر تأكيداً، ففي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عمارة بن رؤيبة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»، يعني الفجر والعصر. فقال له رجل من أهل البصرة: آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال الرجل: وأنا أشهد أني سمعته من رسول الله ﷺ. سمعته أذناي ووعاه قلبي[1].

وفي قصة إسلام عمرو بن عبسة وإخباره بما علمه إياه رسول الله ﷺ من فضل الوضوء والصلاة وأنهما يكفران الذنوب والخطايا، فلما حدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ. فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة! انظر ما تقول، في مقام واحد يعطى هذا الرجل! فقال عمرو: يا أبا أمامة! لقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، ولا على رسول الله. لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً (حتى عد سبعاً) ما حدثت به أبداً. ولكني سمعته أكثر من ذلك[2].

وسأترك بقية الأمثلة اختصاراً، وفيما ذكر كفاية ـ إن شاء الله ـ في الدلالة على لزوم التثبت وأهميته بالنسبة للحوار، وضرورة الحذر من تصديق كل شيء أو من الاستعجال قبل التأكد من صحة المعلومات.

---

(١) أخرجه مسلم: المساجد (١/ ٤٤٠) رقم ٢١٤، أبو داود: الصلاة (١/ ١١٣) رقم ٤٢٧، أحمد (٤/ ١٣٦).

(٢) أخرجه مسلم: صلاة المسافرين (١/ ٥٧١) رقم ٢٩٤، أحمد (٤/ ١١١)، ابن خزيمة في صحيحه: (١/ ٨٥) رقم ١٦٥ مختصراً.

المبحث الثامن

الرد على الشبه بما يناسبها

يكثر في الحوار إيراد الشبه التي ربما كانت عائقاً أمام اقتناع الخصم وإذعانه، وغالباً ما يطرح الخصم المعاند مثل هذه الشبه للإعراض عن الحق أو للتلبيس على محاوره، أو لتضييع الوقت والهروب من الحوار والمناقشة، وربما كان الأمر مشتبهاً فعلاً على الخصم ويحتاج إلى كشف الشبهات وإزالة الإشكالات.

لذلك فلا بد من قوة وصرامة في مقابلة الشبه التي يطرحها الخصم، كما أنه لا بد من مواجهته بما قد يكون عنده من شبه تعرف عنه حتى ولو لم يصرح بها.

ومن شواهد ذلك في القرآن ما ذكره الله عزّ وجلّ عن المنافقين في أول سورة البقرة حيث قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

قال القرطبي رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ رداً عليهم وتكذيباً لقولهم، قال أرباب المعاني: من أظهر الدعوى كذب ألا

---

(١) البقرة: ١١ـ ١٣.

ترى أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ وهذا صحيح)[1].

قال ابن عاشور: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصاراً للمؤمنين، ولولا جفاء قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لما تصدى القرآن لسبابهم... إلى قوله: فتحسن فيه الصراحة والصرامة)[2].

ويقول الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي: (ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ حصر الإصلاح في جانبهم ـ وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الصلاح ـ قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾[3].

فهذا القول من الله جلّ ثناؤه في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ وقوله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ تكذيب للمنافقين ورد عليهم فيما ادعوه من الإصلاح ومقابلة للشبهة بما يناسبها من الصراحة والصرامة[4].

ومن هذا الباب أيضاً رد إبراهيم عليه السلام على قومه حين خوفوه ما أشركوا حيث قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾[5].

فلقد كانت حجة إبراهيم عليه السلام قوية حين قابل تخويفهم له بآلهتهم بتخويفهم من الله عزّ وجلّ الذي جعلوا له الشركاء والأنداد من غير حجة ولا سلطان، ثم طرح عليهم ذلك السؤال المحرج سؤال المؤمن

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٢٠٤).
(٢) التحرير والتنوير: (١/ ٢٨٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٣٧).
(٤) انظر الطبري: (١/ ١٢٧)، الكشاف: (١/ ٦٣).
(٥) الأنعام: ٨١.

الواثق الذي يبين أن الذي يستحق الأمن والاطمئنان هو فريق المؤمنين، وأنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم المؤمن الموحد المرسل من ربه، وإنما الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة.

قال الزمخشري: (وكيف أخاف، لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه، وأنتم لا تخافون مما يتعلق به كل مخوف، وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه «سلطاناً»، أي: حجة، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه، كأنه قال: وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف)[1].

ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾[2] فلما واجههم بالحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم وعلت حجته وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة[3].

ويظهر هذا الأدب واضحاً في نفي نوح عن نفسه الضلالة، ونفي هود عن نفسه السفاهة حتى اتهما بهما ـ عليهما السلام ـ حيث قال سبحانه في قصة نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[4].

وقال في قصة هود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[5].

---

(١) الكشاف: (٢/ ٣٢).

(٢) الأنعام: ٨٣.

(٣) انظر الطبري (٧/ ٢٥٣ـ ٢٥٩)، الظلال: (٢/ ١١٤٢).

(٤) الأعراف: ٦٠ـ ٦٢.

(٥) الأعراف: ٦٦ـ ٦٨.

فنجد أن نبيَيْ الله عليهما السلام، قد واجه كل واحد منهما الشبهة التي أثيرت حوله بما يناسبها، حيث نفى كل منهما التهمة التي اتهم بها، ثم أثبتا لنفسيهما الرسالة، وكشفا لهم عن حقيقة دعوتهما ومنبعها، وأنهما يحملان مع الرسالة النصح والأمانة، وهذا الرد على تلك الشبهة: غاية في الأدب وحسن الخلق الذي يناسب حال المخاطبين.

قال الزمخشري في هذا المعنى: (وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإعفاء وترك المقابلة بما قالوا ـ مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ: أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم)[1].

ومن نماذج ذلك أيضاً ما ذكره الله عزّ وجلّ عن نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2].

فهذا نوح عليه السلام يجيب قومه جواب الواثق ويخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء، إنه يبادلهم سخرية بسخرية فإنهم إن كانوا يسخرون منه لأنه يصنع الفلك فإنه يسخر منهم كذلك ، ولكن لأنهم لا يدركون ما وراء هذ العمل من تدبير الله، وما ينتظرهم من الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة[3].

وقريب من هذا ما أشار الله عزّ وجلّ إليه في الرد على المشركين حين أثاروا الشبهة حول تحريم أكل الميتة، وقالوا للمؤمنين: أتأكلون ما

(١) الكشاف: (٢/ ٨٧)، انظر الظلال: (٣/ ١٣٠٩)، زبدة التفسير: ٢٠٢.
(٢) هود: ٣٨.
(٣) انظر الكشاف: (٢/ ٢٦٨)، الظلال: (٤/ ١٨٧٧).

قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون الميتة، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[1].

فبين سبحانه أن تلك الشبهة وحي من الشياطين لقنوها لأوليائهم المشركين، ليعاندوا بها الله ورسوله وليجادلوا المؤمنين بغير حجة ولا برهان[2].

وقريب منه أيضاً ما ذكره الله من رد على من ادعى الإيمان من الأعراب، حيث قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[3].

قال الزمخشري في بيان دلالة الآية وبلاغة الرد ما نصه: (أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، ودفع ما انتحلوه، فقيل: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل: كذبتم، ووضع ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون.

ورب تعريض لا يقاومه التصريح، واستغنى بالجملة التي هي ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا[4] لاستهجان إن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل ولكن أسلمتم ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوة كما كان قولهم آمناً، كذلك ولو قيل ولكن أسلمتم

---

(١) الأنعام: ١٢١.
(٢) انظر التفسير السعدي: (٢/ ٦٤)، زبدة التفسير: ١٨٢.
(٣) الحجرات: ١٤.
(٤) الأصل: آمنوا.

لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به[1].

فظهر مما سبق من كلام الزمخشري واضحاً مقابلة ادعاء الأعراب الإيمان، بما يناسبه من النفي والتكذيب لدعواهم، وبأسلوب التعريض والتلميح[2]، مع مراعاة الأدب الحسن الذي يتناسق مع طبيعة الأعراب الجافة الغليظة.

ومن شواهد هذا النوع ما رد الله به على اليهود وغيرهم في مسألة تحويل القبلة حيث قال الله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[3]

وذكر الشيخ السعدي كلاماً حول الآية ملخصه: أن الآية اشتملت على معجزة، وتسلية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه، من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله دينه، فأخبرهم بأنه لا بد أن يعترض السفهاء، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه، قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، وقد كان في قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ مجيباً لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[4].

فتبين من خلال ذلك أن الآية فيها مقابلة الخصم بما عنده، والمبادرة

---

(١) الكشاف: (٣/ ٥٧).
(٢) سيأتي مبحث خاص في ذلك ـ إن شاء الله.
(٣) البقرة: ١٤٢.
(٤) تفسير السعدي: (١/ ١٠٤ـ ١٠٥).

بإبطال شبهه، وأن هذا الأسلوب أبلغ في الرد، وأعمق في التأثير. ولعل من هذا الباب أيضاً ما جاء في مجابهة الرسل لأقوامهم، ومواجهتهم بما عندهم من الشبه والمنكرات والمبادرة بإبطالها والرد عليها، فعلى سبيل المثال ما ذكره الله عزّ وجلّ عن لوط عليه السلام، حيث قال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

وكذا قوله في الآية الأخرى عنه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[2].

قال في الظلال: (ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط، حتى إن لوطاً ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين)[3].

ومثل ذلك مواجهة شعيب لقومه، والمبادرة بالإنكار عليهم في أمر التطفيف، بعد دعوتهم للتوحيد، كما في قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ . . .﴾[4] الآية، فقد واجههم شعيب عليه السلام بما عندهم من الفساد، وبدأهم بما يعرف من الضلال.

وقبل الانتقال إلى أمثلة السنة نكمل المسيرة مع القرآن بذكر شواهد مختصرة سريعة تبين كيفية مواجهة الشبه بما يناسبها فمن ذلك مثلاً:

---

(١) الأعراف: ٨٠ـ ٨١.

(٢) الشعراء: ١٦٥ـ ١٦٦.

(٣) الظلال: (٣/ ١٣١٥).

(٤) الأعراف: ٨٥.

قولـه تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ثم واجه هذا الأمر ورد عليه بقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى فيهم أيضاً: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ فكان الجواب عليهم: ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾[2].

وقوله تعالى في الرد على شبهة أخرى من شبههم ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فكان الرد أقوى وأحزم: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[3].

وكذلك قول الله فيهم ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[4].

وفي حث المؤمنين على مواجهة أعدائهم بقوة وإيمان صادق يقول سبحانه: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[5].

وفي مواجهة الكفار عموماً يقول تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[6].

---

(١) البقرة: ١٤ـ ١٥.
(٢) التوبة: ٤٩.
(٣) التوبة: ٨١.
(٤) التوبة: ٧٩.
(٥) التوبة: ١٣.
(٦) الأنفال: ٣٠.

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾[1].

إلى غيرها من الآيات في مثل هذا الباب.

ومن أدلة ذلك من السنة حديث عائشة رضي الله عنها كما في رواية مسلم ونصه (عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[2] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[3] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض فقالت: أولم تسمع أن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[4] أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[5].

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[6].

---

(١) الطارق: ١٧.
(٢) التكوير: ٣٣.
(٣) النجم: ١٣.
(٤) الأنعام: ١٠٣.
(٥) الشورى: ٥١.
(٦) المائدة: ٦٧.

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1])[2].

فهذه عائشة رضي الله عنها ترد على شبهة مسروق، وذلك ببيان المقصود من الآية التي استدل بها، استناداً إلى ما سمعته من النبي ﷺ في تفسيرها، فتبطل استدلاله بالآيتين، ثم تقابل ذلك الاستدلال باستدلال أقوى منه، تؤيد به قولها وذلك حين قالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ..﴾ أو لم تسمع أن الله يقول ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآية.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام وفيه: قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فكان جواب آدم عليه السلام مقابلاً لكلام موسى من حيث التذكير بالنعم والثناء عليه، حيث قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً، ثم استدرجه بسؤاله عن زمن كتابة التوراة، وأن فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[3] وإن ذلك كان مكتوباً عليه قبل أن يخلق بأربعين سنة، وبذلك حج آدم موسى[4].

ومن أمثلته أيضاً حوار أبي هريرة وعبد الله بن سلام، في الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة، وفيه قول عبد الله: إني لأعلم تلك

---

(١) النمل: ٦٥.

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١/ ١٥٩)، رقم ٢٨٧، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٩٤) رقم ٣٢٧٨.

(٣) طه: ١٢١.

(٤) تقدم تخريجه في أول الرسالة ص ٢٩.

الساعة. قال أبو هريرة: فقلت يا أخي حدثني بها. قال: هي آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس. قال قلت: أليس قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة»، وليست تلك الساعة صلاة؟ قال: أليس قد سمعت رسول الله ﷺ يقول «من صلى وجلس ينتظر الصلاة لم يزل في صلاته حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها» قال: قلت: بلى! قال: فهو كذلك[1].

فقد قابل عبد الله بن سلام رضي الله عنه الشبهة التي أشكلت على أبي هريرة، بما يناسبها، فحين ذكر أبو هريرة حديثاً، ذكر له حديثاً يبينه ويقضي على شبهته.

ومن شواهد ذلك من السنة حديث خباب رضي الله عنه قال: (جئت العاص بن وائل السهمي، أتقاضاه حقاً لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾[2])[3].

قال في الفتح: (والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به)[4].

فقد أحسن خباب رضي الله عنه في مواجهة العاص بما يناسبه حاله، لما عرف عنه من إنكار البعث والنشور.

---

(١) أخرجه النسائي: الجمعة (٣/ ١١٥) رقم ١٤٣٠ بهذا اللفظ، الموطأ: الصلاة (١/ ٨٨) رقم ٩٣، أحمد (٦/ ٧)، (وصححه الألباني في صحيح النسائي ١٣٥٤).

(٢) مريم: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري: التفسير ٤٧٣٢، الترمذي: التفسير (٥/ ٣١٨) رقم ٣١٦٢، أحمد (٥/ ١١١).

(٤) الفتح: (٨/ ٤٣٠) وانظر تحفة الأحوذي: (٨/ ٤٨٤).

ومثل ذلك ما ورد في حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ومواجهته ليهود حيث قال لهم: فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق[1].

فقد واجههم بما يكتمونه في أنفسهم، من المعرفة برسالته ﷺ، وإن ما جاءهم به حق لا مرية فيه.

فمما سبق من أمثلة ونماذج يتبين أنه لا بد للمحاور من التفطن إلى شبه خصمه ويقابلها بالرد المناسب المقنع، والجواب الواضح البين الذي يكشف الشبهة ويزيل اللبس والإشكال عنها، فيضع محاوره أمام خيار واحد، لا يملك إلا أن يسير فيه ويسلم برأي محاوره.

كما أنه يحسن بالمحاور أن يتنبأ بما يمكن أن يلقى عليه خصمه من الشبه[2]، ويفترض الإشكالات التي قد تكون عقبة أمام اقتناع الطرف الآخر، وبالتالي إعداد الجواب المناسب لها وإظهار القوة لإبطالها، ويكون كل ذلك في صراحة وصرامة، مع مراعاة لين الكلام وحسن الأدب، ولطف العبارة...

ثم إذا تقرر هذا الأدب الرفيع، فإنه يجب على المحاور أن يحذر من مسلك الطريقة الفرعونية، في رد الحق بالباطل، ومقابلة الحجة بالشبهة، فراراً من التسليم للحق، وهروباً من الاعتراف بالخطأ، كما قد قال فرعون لموسى ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[3]. فإنه قد رد الحق البين بالسحر المزعوم، متهماً موسى بذلك في رسالته وأمانته، وهو مسلك المعاندين في كل زمان، عند عجزهم عن الحجة القوية والأدلة الظاهرة، وفي ذلك يقول

---

(١) أخرجه البخاري: مناقب الأنصار ٣٩٣٨، أحمد (٣/١٠٨).

(٢) سيأتي مبحث مستقل في مثل هذا الأمر ـ إن شاء الله.

(٣) طه: ٥٨.

سيد قطب رحمه الله في تعليقه على الآية المذكورة: (وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفي وراءها هدفاً من أهداف هذه الأرض، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم.. ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات، إما خارقة كآيات موسى، وإما مؤثرة في الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم، وإن لم تكن من الخوارق. فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهرياً... سحر، نأتي بمثله! كلام، نأتي بكلام من نوعه!صلاح، نتظاهر بالصلاح! عمل طيب، نرائي بعمل طيب! ولا يدركون أن للعقائد رصيداً من الإيمان، ورصيداً من عون الله، فهي تغلب بهذا وبذاك، لا بالظواهر والأشكال)[1].

(١) الظلال: (٤/ ٢٣٤٠).

المبحث التاسع

ضرب الأمثلة

المتحدث الناجح والمحاور الذكي، هو الذي يحسن ضرب الأمثلة ويتخذها وسيلة لإقناع محاوره بالفكرة الصحيحة، أو لتقريب وجهات النظر والتعبير عن المعاني وشرحها، فالأمثلة الجيدة تزيد المعنى وضوحاً وبياناً، وهي تفيد مع العالم كما تفيد مع من دونه، وتؤثر على الكبير كما تؤثر على الصغير[1].

ولما للأمثلة من دور إيجابي فعال في تقريب المعاني والإقناع بها، فقد اعتنى القرآن بها كثيراً، فأشار إلى أهميتها وبيان هدفها، وهو أن يفقه السامع ويتفكر ويعقل: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3]، كما أشار إلى أن العالم الحق هو الذي يعقل الأمثال ويدرك مقاصدها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

وقد ذكر في القرآن عدد كبير من الأمثلة في مواضع مختلفة

---

(١) أصول الحوار: ص ٣٠ بتصرف يسير.

(٢) إبراهيم: ٢٥.

(٣) الحشر: ٢١.

(٤) العنكبوت: ٤٣.

وبأساليب متنوعة، منها ما ذكر فيه لفظ: (المثل) وهذه تزيد على العشرين مثلاً، ومنها ما يذكر المثل بصيغة التشبيه ونحوها، ويلاحظ تنوع الموضوعات التي يضرب لها المثل، وتعدد الجوانب التي ترد فيها.

ففي جانب التوحيد وبيانه وإظهار ثمرته وقوته يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

وفي المقابل وفي التحذير من الشرك والكفر ومتعلقاته يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

فكلمة التوحيد راسخة في قلب المؤمن في دنياه وآخرته، وكلمة الكفر والباطل نهايتها إلى الفناء والبوار، وفي ضرب هذه الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني[3].

وفي هذا الجانب أيضاً: يضرب مثلاً لمن يعبد الله وحده، ولمن يعبد آلهة متعددة ويشرك بالله العظيم: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[4].

وفي جانب الإنكار على اليهود تركهم العمل بما عندهم من العلم والكتاب يشبههم بقبيح من الحيوانات: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[5].

---

(١) إبراهيم: ٢٤ـ ٢٥.

(٢) إبراهيم: ٢٦.

(٣) انظر زبدة التفسير ص ٣٣٣.

(٤) الزمر: ٢٩.

(٥) الجمعة: ٥.

وفي جانب التحذير من النفاق والإنكار على المنافقين يقول الله تعالى عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[1].

فها هنا يضرب الله مثلين للمنافقين: أحدهما: ناري، والآخر: مائي، فيشبه حالهم من استضاءتهم بنور الإيمان ومعرفة الحق، ثم الخروج منه إلى ظلمة الكفر والنفاق، بمن كان في ظلمة واحتاج إلى النار فلما أضاءت له الطريق زال عنه نورها، وعاد إلى الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فاجتمعت عليه ظلمات متعددة: ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟[2].

ويشبههم أيضاً بمن يسير في ظلمة ومطر شديد ورعد وبرق، فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فالمنافقون إذا سمعوا الحق والقرآن وما فيه من الوعيد والزواجر يصموا آذانهم عن سماعه، كما أنهم ربما يصيبهم شيء من الخير والغنيمة، فهذا الضياء الذي يمشون فيه، ولكن إذا أصابهم بلاء رجعوا عن دينهم وارتدوا كفاراً[3]. وهذ كقوله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾[4] الآية.

---

(١) البقرة: ١٧ـ ٢٠.

(٢) انظر تفسير السعدي: (١/ ٤٠).

(٣) انظر زبدة التفسير ص ٥.

(٤) النساء: ١٤١.

وفي جانب حث المؤمنين على الإنفاق يقل تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[1].

والأمثلة غير ذلك كثيرة في كتاب الله، وفي السنة أكثر من ذلك، فقد كان النبي ﷺ يكثر من ضرب الأمثلة وتقريب المعاني بالأمور المحسوسة، فهو أحياناً يطرح مثلاً من عنده ثم يربطه بمعنى عظيم كما في قوله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»[2].

وهو أحياناً يجيب على أسئلتهم بمثل يوضح الإشكال ويزيل اللبس، فقد سأله الصحابة فقالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا ، قال: فإنكم ترونه كذلك... الحديث»[3].

وهو أحياناً يطلب منهم مثلاً لشيء معين كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات روقها ولا ولا ولا... تؤتي أكلها كل حين، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري: المواقيت ٥٢٨، مسلم: المساجد (١/ ٤٦٢) رقم ٢٨٣، النسائي: الصلاة (١/ ٢٣٠) رقم ٤٦٢، أحمد (١/ ٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: الأذان ٨٠٦، مسلم: الإيمان (١/ ١٦٣) رقم ٢٩٩، أبو داود: السنة (٤/ ٢٣٣) رقم ٤٧٢٩، الترمذي: الجنة (٤/ ٦٨٨) رقم ٢٥٥٤، ابن ماجه: الزهد (٢/ ١٤٥٠) رقم ٤٣٣٦، أحمد (٢/ ٢٧٥).

لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة.. الحديث»[1].

وهو يستخدم التشبيه البليغ في الإقناع وإزالة الشبهات، ففي صحيح البخاري: (باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين وقد بين النبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل)[2].

وذكر فيه حديث أبي هريرة أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن إمرأتي ولدت غلاماً أسود وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من أبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقاً، قال: فأنى ترى ذلك جاءها؟ قال: يا رسول الله عرق نزعها، قال: ولعل هذا عرق نزعه.. الحديث[3].

ثم ذكر حديث ابن عباس أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: (إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ قالت: نعم، قال: فأقضوا الذي له، فإن الله أحق بالوفاء)[4].

ولعل مثل هذا تماماً حديث المرأة التي قالت للرسول ﷺ: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: «أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟»

---

(١) أخرجه البخاري: التفسير ٤٦٩٨، مسلم: المنافقين (٤/ ٢١٦٤) رقم ٦٢، الترمذي الأمثال (٥/ ١٥١) رقم ٢٨٦٧، أحمد (٢/ ٦١).

(٢) الفتح: (١٣/ ٢٩٦) كتاب الاعتصام بالسنة.

(٣) أخرجه البخاري: الاعتصام ٧٣١٤، مسلم: اللعان (٢/ ١١٣٧) رقم ١٨، أبو داود: الطلاق (٢/ ٢٨٦) رقم ٢٢٦٠، الترمذي: الولاء (٤/ ٤٣٩) رقم ٢١٢٨، النسائي: الطلاق (٦/ ١٧٨) رقم ٣٤٧٨، ابن ماجه: النكاح (١/ ٦٤٥) رقم ٢٠٠٢، أحمد (٢/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري: الاعتصام ٧٣١٥، النسائي: الحاج (٥/ ١١٦) رقم ٢٦٢٣.

قالت: نعم، قال: «فدين الله أحق بالقضاء»[1].

وفي مرة أتى النبي ﷺ المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول سحقاً سحقاً»[2].

ولاستقرار هذه القضية ولأهمية ضرب الأمثلة، فقد استخدمها الصحابة رضوان الله عليهم في مناقشاتهم واختلافهم، فهذه عائشة رضي الله عنها وقع عليها الابتلاء وأصابها الهم والحزن ـ كما في حادثة الإفك ـ فأرادت أن تهون من مصابها، وتخفف من الآمها، فالتمست لنفسها مثلاً، فلما سألها رسول الله ﷺ عما أشيع عنها ولم يجب عنها أبوها ولا أمها، فأجابت: (قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به، وإن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم إني بريئة ـ لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم إني بريئة ـ لتصدقني. والله ما

---

(١) أخرجه البخاري: الصوم ١٩٥٣، مسلم: الصيام (٢/ ٨٠٤) رقم ١٥٤، الترمذي: الصوم (٣/ ٨٧) رقم ٧١٦، ابن ماجه الصيام (١/ ٥٥٩) رقم ١٧٥٨.

(٢) أخرجه مسلم: الطهارة (١/ ٢١٨) رقم ٣٩، النسائي: الوضوء (١/ ٩٤) رقم ١٥٠، ابن ماجه: الزهد (٢/ ١٤٣٩) رقم ٤٣٠٦، الموطأ: الوضوء (١/ ٤٠) رقم ٢٦، أحمد (٢/ ٣٠٠).

أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1])[2].

وكذلك لما خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام، ثم أخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار من معه من المهاجرين، ثم استشار الأنصار، فاختلفوا، فاستشار مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! (وكان عمر يكره خلافه) نعم. نفر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان. إحدهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه» فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف.[3].

ولما كان ضرب المثل نوع من القياس، فيحسن هنا تلخيص أنواع القياس التي تشبه ضرب الأمثلة، وأن نذكر بعض أمثلتها، فمن ذلك[4]

أ ـ الأقيسة الإضمارية: وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) تقدم تخرجه ص ١٥٨ وغيرها.

(٣) أخرجه البخاري: الطب ٥٧٢٩، مسلم: السلام (٤/ ١٧٤٠)رقم ٩٨، أحمد (١/ ١٩٤).

(٤) ملخصه من مناهج الجدل ص ٧٦ـ ٧٩ بتصرف وإضافة عليها.

وجود ما ينبىء عن المحذوف[1]، وبمعنى آخر: هو ما ذكرت فيه مقدمة واحدة فقط، ومثاله قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[2] وتقدير المعنى في هذه المقايسة: أي إن كان الخلق من غير أب مسوغاً لاتخاذ عيسى إلهاً أو ابناً لله، فإن آدم أولى بذلك من عيسى لأنه خلق من غير أب ولا أم، وهم لا يقولون بذلك، بل لم يقل به أحد[3].

وهذا النوع تكرر في أدلة القرآن كثيراً، وهو يعطي الدليل قوة وفصاحة وبياناً، قال شارح الطحاوية: (والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدنيوية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها، استدل بها، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها.. والطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف، وهي طريقة القرآن)[4].

ب ـ قياس الخلف: وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[5] وتقريره: أن لو كان في السموات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان، ولأدى ذلك إلى فسادهما، ولكنهما صالحان غير فاسدين فدل على الوحدانية، ويسمى هذا النوع أيضاً دليل التمانع[6].

---

(١) منهاج الجدل: ص ٧٦.
(٢) آل عمران: ٥٩.
(٣) انظر الحوار مع أهل الكتاب ص ٢١٠.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨.
(٥) الأنبياء: ٢٢.
(٦) مناهج الجدل ص ٧٧ـ ٧٨.

ج ـ قياس التمثيل: وهو إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأن يقيس الأمر الذي يريد إثباته على أمر معروف عند المخاطب أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، ويبين الجهة الجامعة بينهما، وكثير من أدلة البعث والقيامة ترجع إلى هذا النوع، كعقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[2].

د ـ قياس الأولى: وهو أن تكون العلة في الفرع أولى بالحكم منها في الأصل، ويصلح مثالاً له ما ذكر في النوع الأول من قياس عيسى على آدم وإبطال من قال بألوهيته أو بنوته من باب الأولى[3].

إلى غير ذلك مما يتعلق بالقياس، وإنما المقصود التنبيه على أهمية ضرب المثل وقوته في الاستدلال، والإشارة إلى أنواع من هذا الباب، لاستخدام المناسب منها في الحوار والمناظرة.

وقد لخص الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بعض فوائد ضرب الأمثلة، في تعليقه على حديث النخلة وتشبيهها بالمؤمن، فقال: (وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام، وتصوير المعاني لترسخ في الذهن، ولتحديد الفكر في النظر في حكم الحادثة)[4].

ويبين ابن القيم أن الأمثال تضرب: (لتقريب المراد وتفهيم المعنى،

---

(١) قَ: ١٥.

(٢) يس: ٧٨ـ ٨١.

(٣) الحوار مع أهل الكتاب: ص ٢١٠.

(٤) الفتح: (١/ ١٤٧).

وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق، أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته)[٢].

(١) إعلام الموقعين: (١/ ١٨٢ـ ١٨٣).

المبحث العاشر

العدول عن الإجابة
باستخدام المعاريض وأسلوب الحكيم

إن الأصل في الحوار الناجح أن يبنى على الصدق والوضوح والبيان ـ كما تقدم ـ إذ يفترض في المتحاورين أن يكونا مخلصين متجردين للحق، غايتهما الوصول إليه والدلالة عليه لاتباعه، ولكن قد تتعذر هذه الصفات في بعض الخصوم، فقد يكون الخصم مجادلاً يهوى المراء والكلام، وقد يقصد إضاعة الوقت والتهرب من مواجهة الحوار الجاد، وقد يلقى أسئلة لا قيمة لها ولا تفيد شيئاً في الحوار، أو قد يكون في الإجابة على أسئلته ما يصده عن الحق ويحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة: عند مثل هذه الظروف ونحوها، يضطر المحاور إلى أن يعدل بخصمه عن الجواب المباشر للسؤال المطروح، إلى جواب مفيد مهم، وذلك باستخدام أسلوب الحكيم المعروف عند العرب، والذي جاءت أمثلة له في الكتاب والسنة مراراً، أو باستعمال المعاريض والتورية في الكلام، بحيث يفهم السامع شيئاً غير ما يقصده المتكلم، وها هي بعض النماذج المختصرة لهذه القضية:

فمن أبرز الأمثلة على استعمال أسلوب الحكيم في الجواب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ . . ﴾[1]

(١) البقرة: ١٨٩.

الآيةِ، على ما جاء في بعض الروايات أن السؤال كان عن ظهورها ونموها وتناقصها وتغير أحوالها، فما بالها تصنع هذا؟

وهنا اتجه الجواب إلى واقع الحياة العملي، لا إلى مجرد العلم النظري، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر ووظيفته في المجموعة الشمسية ونحو ذلك، لكنه عدل عن الإجابة العلمية البحتة التي ربما لا يدركها السائل ولا تفيده كثيراً في المهمة التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي..[1].

ومثل هذا الجواب في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ.. ﴾[2].

فهذا السؤال عن نوع ما ينفقون.. فجاءهم الجواب يبين صفة الإنفاق، ويحدد كذلك أولى مصارفه وأقربها[3].

ومن هذا النوع أيضاً ومما يظهر فيه العدول عن الإجابة، لمن سأل عن الساعة كما في هذين الحديثين:

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف

---

(١) انظر الظلال: (١/ ١٨٠ـ ١٨١) بتصرف.
(٢) البقرة: ٢١٥.
(٣) الظلال: (١/ ٢٢١).

إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1].

ـ وأوضح منه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجين من المسجد، فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة!؟، قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت»[2].

فالسؤال في الحديثين عن زمن الساعة وموعدها، ولم يكن الجواب كذلك، بل كان الجواب في الحديث الأول بذكر علامة بارزة، وهي علامة تحمل معنى مؤثر موحي، ينبه به السامع إلى وجوب أداء الأمانة والتحذير من إضاعتها، وكان الجواب في الحديث الثاني بلفت نظر السامع إلى ما هو أهم من معرفة موعد القيامة، ألا وهو الاستعداد لها والعمل قبل مجيئها.

وكما تقدم فقد يكون ترك الإجابة عن السؤال أو الشبهة، وتحويل وجهة الحوار إلى طريق أخرى، وعدم مناقشة ما يطرحه الخصم أصلاً، بل عدم المبالاة والانفعال بكلامه، قد يكون هذا علاجاً ناجحاً لبعض الخصوم في صرفهم عن شبهاتهم ومتعلقاتهم، ففي الحديث: (عن ابن عباس رضي الله عنه أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذه الريح[3]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي قال: فلقيه فقال:

---

(١) أخرجه البخاري: العلم: ٥٩، أحمد: (٢/ ٣٦١).

(٢) تقدم تخريجه في مبحث الصدق ص ٣٣٩.

(٣) الريح هنا: كناية عن الجن، سموا أرواحاً لكونكم لا يرون، فهم بمنزلة الأرواح (انظر النهاية لابن الأثير: ٢/ ٢٧٢).

يا محمد! إني أرقى من هذا الريح، وإن الله يشفي علي يدي من يشاء. فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد» قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[1]. قال فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي. قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها، فإن هؤلاء قوم ضماد)[2].

فانظر كيف قابل النبي ﷺ كلام ضماد وكيف واجهه، إنه لم يدافع أو يرد أو يناقش شبهه وكلامه، فيما يتعلق بمس الجن ونحوه، بل استمع إليه حتى انتهى، ثم استفتح بخطبة الحاجة التي كانت وحدها كافية في تغيير وجهة الحوار ودفة النقاش، بل في تغيير مجرى حياة ضماد وقومه بإذن الله تعالى.

وإذا لم ينجح هذا الأسلوب وتعذر العدول بالخصم إلى موضوع آخر، ففي معاريض الكلام مندوحة عن الكذب[3]، وفي التورية بالكلام فرصة للتخلص من الشبه المحرجة أو المتعنتة، وأمثلة هذا متعددة فمنها:

---

(١) أي لجته ووسطه (انظر النهاية لابن الأثير: ٥/ ٨١).

(٢) تقدم تخريجه. ص ٢٣٧.

(٣) هذا لفظ حديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد من طريق قتادة عن مطرف بن عبدالله قال: صحبت عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة فما أتى عليه يوم إلا أنشدنا فيه الشعر، وقال: إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب. (انظر الأدب المفرد: ٦٦/ ٢٥٩).

ما ذكره الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام بعد أن حطم أصنام قومه إلا كبيراً لهم فتركه، فلما سألوه عن ذلك: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ كان جوابه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1].

قال الزمخشري عند هذه الآية: (هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة[2] من علماء المعاني، والقول فيه: إن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها، على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك ـ وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟ـ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ـ، فقلت له: بل كتبته أنت، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء، لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش، لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر. ثم ذكر أقوالاً واحتمالات أخر منها أنه أسند الفعل إلى أكبرها لأنه هو الذي تسبب في تحطيمها، لما كان يراه إبراهيم من شدة وزيادة تعظيمهم له، والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه... إلخ)[3].

ومثل هذا قولة إبراهيم عليه السلام أيضاً حين دعوه إلى الخروج معهم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾[4].

---

(١) الأنبياء: ٦٢ـ ٦٣.

(٢) الراضة: يقصد بهم المتروضين والمتمرسين في هذا الفن (انظر الصحاح: ٣/ ١٠٨١).

(٣) الكشاف: (٢/ ٥٧٧).

(٤) الصافات: ٨٨/ ٨٩.

قال ابن كثير رحمه الله في الآية ما ملخصه: (إن معنى سقيم: أي ضعيف، وأما قول النبي ﷺ في الحديث: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات: اثنتين منها في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله في سارة: «هي أختي»[1] فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا ولما، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني.. ثم ذكر تخريجات المفسرين لمعنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ حيث قال بعضهم: أي بالنسبة إلى ما يستقبل يعني مرض الموت، وقيل أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى)[2].

وكذا قال الزمخشري عند هذه الآية: (والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرض وورى، والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم، ومنه المثل: كفى بالسلامة داء)[3].

وقال سيد قطب رحمه الله تعالى: (قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه، وأفصح عنه ليتركوه وشأنه، ولم يكن هذا كذباً منه. إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم، وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه!)[4].

وأما قولة إبراهيم الثالثة حيث قال عن سارة(هي أختي) فقد خرّجها إبراهيم بنفسه حيث جاء في بعض طرق الحديث أنه قال لها: (إن هذا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري: الأنبياء: ٣٣٥٨، مسلم: الفضائل (٤/ ١٨٤٠) رقم ١٥٤، أبو داود: الطلاق (٢/ ٢٧٢) رقم ٣٢١٢، الترمذي التفسير (٥/ ٣٢١) رقم ٣١٦٦، أحمد (٢/ ٤٠٣).

(٢) ابن كثير: (٤/ ١٣).

(٣) الكشاف: (٣/ ٣٤٤).

(٤) الظلال: (٥/ ٢٩٩٣).

الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي، وإنك أختي في الإسلام[1]، وفي رواية أخرى أنه قال لها: (يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني)[2].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره البخاري رحمه الله في باب «المعاريض مندوحة عن الكذب»، عن أنس رضي الله عنه قال: (اشتكى ابن لأبي طلحة، قال فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً، ونحته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات... الحديث)[3].

ذكر الحافظ من فوائد الحديث: (مشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها أن لا تبطل حقاً لمسلم)[4].

وقد استعمل بعض السلف المعاريض لحاجات معينة ومن هذه الاستعمالات أن إبراهيم النخعي كان إذا طلبه إنسان لا يحب لقاءه خرجت الجارية، فقالت: اطلبوه في المسجد. وأتاه رجل مرة فقالت: إني ذكرت رجلاً بشيء فبلغه عني، فكيف اعتذر إليه؟ قال: تقول: (والله إن الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء)[5].

---

(١) انظر الفتح: (٦/ ٣٩٢).
(٢) هذه رواية البخاري المتقدم تخريجها آنفاً.
(٣) أخرجه البخاري: الجنائز ١٣٠١، أحمد (٣/ ١٠٥).
(٤) الفتح: (٣/ ١٧١).
(٥) انظر سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٩).

وفي ترجمة الإمام أحمد عن إسحاق بن هاني قال: كنا عند أحمد بن حنبل في منزله، ومعه المروذي، ومهنّى، فدق داق الباب، وقال: المروذي ها هنا؟ فكأن المروذي كره أن يعلم موضعه فوضع أصبعه في راحته وقال: ليس المروذي ها هنا، وما يصنع المروذي ها هنا؟ فضحك أحمد، ولم ينكر[1].

والمقصود عموماً أن استخدام المعاريض ـ أحياناً ـ ولحاجة، أمر سائغ ويمكن للمحاور الاستفادة منه إذا دعته الحاجة ولزم الأمر، كما أن استعمال أسلوب الحكيم سائغ أيضاً، وكل ذلك للعدول عن الإجابة إذا كان في إظهارها مفسدة محتملة أو ضرر متوقع أو تفويت لمصلحة أعظم.

---

(١) نفس المصدر: (١١/٣١٩).

المبحث الحادي عشر

تأكيد القضية وتقريرها

قد يتشعب موضوع الحوار، وتتعدد القضايا المطروحة للنقاش، ولكن تكون ثمة قضية بارزة مهمة، يحبذ التركيز عليها وتأكيدها، ويفضل تثبيتها عند الخصم وتقريرها، فعلى المحاور ألا تفرق به السبل عن أصل الموضوع وأساس القضايا، بل عليه أن يستخدم الأسلوب المناسب لرد الحوار إلى الموضوع المهم، ولفت النظر إلى القضية الأم، فيمكنه أحياناً أن يؤكد ما يريد توكيده بتكرار كلامه مرتين أو ثلاثاً أو غير ذلك حسب أهمية الكلام ـ وقد (كان ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه)[1]، وكثيراً ما ترد الأحاديث التي فيها التكرار ثلاث مرات أو نحوها، خاصة في المواضع الحساسة المهمة، وعندما يكون الأمر عظيماً، كما فعل ذلك ـ ﷺ ـ في حجة الوداع بعد أن قرر حرمة دم المسلم وماله وعرضه حيث قال: «فإن الله تبارك وتعالى قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم ـ إلا بحقها ـ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت (ثلاثاً) كل ذلك يجيبونه: ألا نعم.. الحديث»[2] وكذا لما أراد أن يبين أكبر الكبائر وأعظم المحرمات كرر السؤال عنها ثلاث مرات: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» (ثلاثاً) ثم أراد تأكيد تحريم واحدة منهن

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري عن أنس: العلم: ٩٥.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٢٤.

وبيان عظم قبحها، ولأنها أسهل وقوعا على الناس والتهاون بها أكثر، والحوامل عليها كثيرة من عداوة وحسد وغيرها، إضافة إلى أن مفسدتها متعدية[1]، فذكرها ثم كررها مرات ومرات، وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قال الصحابة ليته سكت[2].

وعن عبد الله بن عمرو قال: تخلف رسول الله في سفر سافرناه، فأدركناه وقد أرهقنا الصلاة،[3] صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً[4].

قال ابن حجر رحمه الله: (قوله: «مرتين أو ثلاثاً» هو شك من الراوي، وهو يدل على أن الثلاث ليست شرطاً، بل المراد التفهيم، فإذا حصل بدونها أجزأ)[5].

وكما ثبت عنه ﷺ تكرار الكلام الذي يريد تأكيده وتفهيمه، وتكرار السؤال الذي يريد أن ينبه إلى أهميته، فقد ثبت عنه أنه كرر الإجابة على بعض الأسئلة ثلاثاً، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله! قال: بركات الأرض، قالوا: يا رسول الله وهل يأتي الخير

---

(١) انظر الفتح: (٥/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: الشهادات: ٢٦٥٤، مسلم: الإيمان (١/ ٩١) رقم: ١٤٣، أحمد (٥/ ٣٧).

(٣) أي غشيتنا وأدركتنا، يقال أرهق الصلاة: إذا أخرها حتى يدنو وقت الأخرىٰ (الصحاح: ٤/ ١٤٨٦).

(٤) أخرجه البخاري: العلم ٩٦، مسلم الطهارة (١/ ٢١٣) رقم ٢٥، أبو داود: الطهارة (١/ ٢٤) رقم ٩٧، الترمذي: الطهارة (٥٨١) رقم ٤١، ابن ماجه: الطهارة (١/ ١٥٤) رقم ٤٥٠، أحمد (٢/ ١٩٣).

(٥) الفتح: (١/ ١٨٩).

بالشر؟ قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، لا يأتي الخير إلا بالخير، لا يأتي الخير إلا بالخير... الحديث)[1].

ولما قال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد».

قالوا: يا رسول الله! وإن كان فيه؟

قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه (ثلاث مرات)[2].

ومما تكرر فيه السؤال والجواب معاً حديث أبي ذر وفيه قال ﷺ: «ذاك جبريل عرض لي في جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. قال: فقلت: يا جبريل! وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قال قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر»[3].

ومن أساليب التوكيد أيضاً، الحلف على الأمر المقصود بيانه وتوكيده، والنصوص التي تبدأ بالقسم كثيرة جداً سواء ما كان منها في القرآن أو السنة، فمن أمثلة القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾[4].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري: الرقاق ٦٤٢٧، مسلم: الزكاة (٢/ ٧٢٧) رقم ١٢١.

(٢) أخرجه الترمذي: النكاح (٣/ ٣٨٤) رقم ١٠٨٤، ابن ماجه النكاح (١/ ٦٣٢) رقم ١٩٦٧، (وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٦٦).

(٣) أخرجه البخاري: الرقاق ٦٤٤٣، مسلم: الزكاة (٢/ ٦٨٨) رقم ٣٣.

(٤) يونس: ٥٢.

(٥) الحجر: ٩٢ـ ٩٣.

وقوله أيضاً: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[3].

إلى غير ذلك من الأقسام القرآنية التي استخدمت لتوكيد الكلام وتقريره.

وأما أمثلة السنة فيه أكثر من أن تحصر، فكم من الأحاديث التي يقسم فيها النبي ﷺ بقوله: «والذي نفسي بيده» أو «والذي نفس محمد بيده» وقد جمع السيوطي عشرات منها في (الجامع الصغير)[4] ومما ذكره قوله ﷺ:

«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، لا يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[5].

«والذي نفسي بيده، لا يؤمن، أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[6].

ومن حلفه ﷺ أيضاً قوله مثلاً:

---

(١) النحل: ٥٦.
(٢) الذاريات: ٢٣.
(٣) التغابن: ٧.
(٤) انظر صحيح الجامع الصغير للألباني: (٢/ ١١٨٧ـ ١١٩٢).
(٥) أخرجه مسلم الإيمان (١/ ١٤٣) رقم ٢٤٠.
(٦) أخرجه البخاري الإيمان ١٥، مسلم الإيمان (١/ ٦٧) رقم ٧٠، النسائي الإيمان (٨/ ١١٤) رقم ٥٠١٣، ابن ماجه المقدمة (١/ ٢٦) رقم ٦٧.

«والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1].

ومما جمع فيه بين الحلف والتكرار: قوله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، الذي لا يأمن جاره بوائقه»[2].

ومثله ما جاء في إحدى روايات مسلم لحديث قتال الخوارج، حيث قال علي: (فيهم رجل مخدج اليد، لولا أن تبطروا لحدثتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ؟ قال[3]: قلت: أنت سمعته من محمد ﷺ؟ قال: إي ورب الكعبة! إي ورب الكعبة! إي ورب الكعبة!)[4].

وأحياناً يمكن توكيد الخبر بما يثبته ويؤيده، من بيان الطرق الوثيقة، التي وصل منها، لكونه سمعه بنفسه، أو تكرر عليه، أو شاهد الحادث، أو نقله عن ثقة، ونحو ذلك[5]. ومثاله ما جاء في حديث أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي العدوي رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد بن العاص ـ وهو يبعث البعوث إلى مكة: «إئذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن مكة حرمها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ولم يحرمها الناس... الحديث»[6].

---

(١) أخرجه البخاري الدعوات ٦٣٠٧، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٨٣) رقم ٣٢٥٩، ابن ماجه الأدب (٢/ ١٢٥٤) رقم ٣٨١٦، أحمد (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠١٦ بهذا اللفظ، وبغيره مسلم الإيمان (١/ ٦٨) رقم ٧٣، الترمذي القيامة (٤/ ٦٦٩) رقم ٢٥٢٠، أحمد (١/ ٣٨٧).

(٣) القائل هنا هو عبيدة السّلماني كما سيأتي بيانه في الرواية الأخرىٰ.

(٤) أخرجه مسلم: الزكاة: (٢/ ٧٤٦) رقم ١٥٤، أبو داود: السنة (٤/ ٢٤٥) ابن ماجه المقدمة (١/ ٥٩) رقم ١٦٨، أحمد (١/ ٨٨).

(٥) انظر تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام. (١/ ٥٣١).

(٦) أخرجه البخاري: جزاء الصيد ١٨٣٢، مسلم: الحج (٢/ ٩٨٧) رقم ٤٤٦، =

وقد أخذ الحافظ من الحديث: (جواز إخبار المرء عن نفسه بما يقتضي ثقته وضبطه لما سمعه...، ووقوع التأكيد في الكلام البليغ)[1].

ويتعلق بتوكيد القضية تقريرها عند الخصم، وأخذ تسليمه بها، قبل الانتقال منها إلى غيرها، فهذا أنفع للحوار وأخصر للوقت، وأقرب إلى ترتيب القضايا والتدرج بها، والخروج بنتيجة من الحوار، ومعرفة مدى الاتفاق والاختلاف بين المتحاورين، وبذلك أيضاً تنحصر نقاط الخلاف وتضيق الهوة بين المختلفين.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[2].

ومثله ما سيكون في اليوم الآخر من تقرير للمخالفين والمعاندين في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[4].

= الترمذي: الحج. (٣/ ١٦٤)، النسائي المناسك (٥/ ٢٠٥) رقم ٢٨٧٦، أحمد (٤/ ٣١).

(١) انظر الفتح (٤/ ٤٥).

(٢) آل عمران: ٨١.

(٣) الأنعام: ٣٠.

(٤) الأنعام: ١٣٠.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ . . .﴾[1] الآية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾[2].

إلى غير ذلك من مثل هذه التقريرات التي تهدف إلى تثبيت القضية وتأكيد الموضوع، وأمثلة هذا في السنة متعددة، أيضاً، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: (خرج رسول الله ﷺ في أضحى ـ أو في فطر ـ إلى المصلى، فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكن اكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من أحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها)[3].

ومثل ذلك لما احتاج النبي ﷺ أن يقرر عند الأنصار بعض ما أنعم الله عليهم، لما أن جاءهم الرسول فآمنوا، حيث إن النبي ﷺ لما فتح حنيناً قسم الغنائم، فأعطى المؤلفة قلوبهم، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم فحمد الله وأثنى

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) الملك: ٨ـ ٩.

(٣) أخرجه البخاري: الحيض ٣٠٤، مسلم: الإيمان (١/ ٨٦) رقم ١٣٢، أبو داود: السنة ٤٦٧٩، الترمذي الإيمان (٥/ ١٠) رقم ٢٦١٣، ابن ماجه: الفتن (٢/ ١٣٢٦)، رقم ٤٠٠٣، أحمد (٢/ ٦٦).

عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين، فجمعكم الله بي؟ ويقولون: الله ورسوله أمن. فقال: ألا تجيبوني؟ فقالوا: الله ورسوله أمن.. الحديث»[1].

فالاستفهام في تلك الأمثلة للتقرير والتوكيد. ومن النماذج التي استخدم فيها الاستفهام التقريري أيضاً، واستخدم أسلوب آخر لتقرير الخصم بالحجة بحيث يستخرج الجواب من الخصم أولاً، ثم يبين له أن هذا الجواب نفسه هو القضية التي يريد المحاور أن يقررها أو يثبتها، فعن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب، فقال رسول الله ﷺ: يا أبي ـ وهو يصلي ـ، فالتفت أبي ولم يجبه، وصلى أبي فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك، فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحي إلي أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله، قال: تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته)[2].

وكذا استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب مع اليهود ـ وهم معروفون

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث: «الصدقة والأمانة» انظر ص ٣٣٨ (ومعنى عالة: من الفقر والفاقة. انظر الصحاح: ٥/ ١٧٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي: فضائل القرآن (٥/ ١٥٥) رقم ٢٨٧٥، وقال: «حديث حسن صحيح»، أبو داود: الصلاة ١٤٥٨، أحمد (٢/ ٤١٣).

ببهتانهم وتقلبهم ـ فلما أسلم عبد الله بن سلام قال: (يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله)[1].

ـ ومع اليهود أيضاً، فعندما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لي من كان ها هنا من يهود، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا : نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت، قال: فهل أنتم صادقي عن شيء، إن سألت عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك)[2].

ومن طرق تقرير الأمر عند الخصم وأخذ تسليمه بذلك: استحلافه على الأمر المراد تقريره وإثباته لديه، وأمثلة هذا متعددة، ففي حديث قتال الخوارج لما ذكر علي ـ رضي الله عنه ـ الخوارج وما قاله فيهم

---

(١) أخرجه البخاري: مناقب الأنصار: ٣٩٣٨، أحمد (٣/١٠٨). وتقدم

(٢) أخرجه البخاري: الجزية ٣١٦٩، أحمد (٢/٤٥١).

رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله: (وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض. فلما قتل بعضهم على بعض، قال علي: التمسوا فيهم المُخْدَج، فالتمسوه فلم يجدوه. فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض. قال: أخروهم. فوجدوه مما يلي الأرض فكبر. ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين! الله الذي لا إله إلا هو! لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو! حتى استحلفه ثلاثاً. وهو يحلف له)[1].

قال النووي (وإنما استحلفه ليسمع الحاضرين، ويؤكد ذلك عندهم ويظهر لهم المعجزة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، ويظهر لهم أن علياً وأصحابه أولى الطائفين بالحق وأنهم محقون في ذلك)[2].

ومن هذا الباب ما كان من ضمام بن ثعلبة حيث استحلف النبي ﷺ عدة مرات، فقال: (أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم! فقال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم.. ثم استحلفه على الصيام ثم على الزكاة إلخ)[3].

قال الحافظ في شرح الحديث: (ثم أقسم عليه به أن يصدقه عما يسأل عنه، وكرر القسم في كل مسألة تأكيداً وتقريراً للأمر، ثم صرح بالتصديق، فكل ذلك دليل على حسن تصرفه وتمكن عقله)[4].

---

(١) تقدم ذكره انظر ص ٣٨٦ (ومعنى المخُدْج: من أخدجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق فهي مخدج، ومنه مخدج اليد أي: ناقص اليد «انظر الصحاح: ١/ ٣٠٩»).

(٢) شرح مسلم: (٧/ ١٧٣).

(٣) تقدم تخريجه في الباب الأول، انظر ص ٧٧.

(٤) الفتح (١/ ١٥١).

ثم قال في ذكره لفوائد الحديث: (وفيه الاستحلاف على الأمر المحقق لزيادة التأكيد)[1].

ومن استحلاف الخصم أيضاً ما جاء في حديث البراء بن عازب قال: مر على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً. فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك أنشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم..»[2].

فقد كان لاستحلاف الخصم هنا أثر بالغ، فكان سبباً في صدقه وإقراره بالحق واعترافه بالخطأ.

ومثل هذا أيضاً لما دخل العباس وعلي رضي الله عنهما على عمر ليقضي بينهما فقال عمر: اتئدا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، قالوا: نعم. ثم أقبل على العباس وعلي فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»، قالا: نعم... إلخ الحديث[3].

ومما يمكن الاستشهاد به في هذا الجانب ما جاء في وفود المقدام بن معد يكرب، وعمرو بن الأسود، ورجل من بني أسد من أهل قنسرين إلى معاوية بن أبي سفيان، فقال معاوية للمقدام: أعلمت أن الحسن بن علي توفي؟ فرجع المقدام. فقال له رجل: أتراها مصيبة؟ قال له: ولم لا أراها

---

(١) نفس المصدر: (١/١٥٣).
(٢) تقدم تخريجه ص ٣١٩.
(٣) تقدم تخريجه ص ١٥٣.

مصيبة، وقد وضعه رسول الله ﷺ في حجره فقال: هذا مني، وحسين من علي»؟!

فقال الأسدي: جمرة أطفأها الله عزّ وجلّ. قال: فقال المقدام: أما أنا فلا أبرح اليوم حتى أغيظك، وأسمعك ما تكره. ثم قال: يا معاوية! إن أنا صدقت فصدقني، وإن أنا كذبت فكذبني، قال: أفعل، قال:

فأنشدك بالله، هل سمعت أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الذهب؟ قال: نعم.

قال: فأنشدك بالله، هل تعلم أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير؟ قال: نعم.

قال: فأنشدك بالله، هل تعلم أن رسول الله ﷺ، نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها؟ قال: نعم.

قال: فوالله! لقد رأيت هذا كله في بيتك يا معاوية.

فقال معاوية: قد علمت أني لن أنجو منك يا مقدام.. إلخ [1].

والأمثلة في هذا الجانب كثيرة، ولعل فيما ذكر كفاية في بيان المقصود، وتوضيح أهمية تأكيد القضية وتقريرها، واستخدام الأساليب المختلفة والمناسبة لتحقيق هذه الأمر ، وضماناً لنجاح واستمرار الحوار بإذن الله تعالى.

واختتم هذا المبحث بنقل بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما له علاقة بموضوع تقرير القضايا وأخذ تسليم الخصم عليها، فقد قال رحمه الله تعالى: (... والقرآن مشتمل على هذا وهذا! ولهذا إذا جادل يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية، التي لا يمكن أحد أن

---

(١) أخرجه أبو داود: اللباس ٤١٣١ (وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٣٤٧٩) وتقدم ص ١٥٥.

يجحدها: لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل، كما في مثل قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[2].

إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير، المتضمن إقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التي تدل على المطلوب، فهو من أحسن جدل بالبرهان، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات، وإن لم تكن بينة معروفة فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية.

والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها، كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم، بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس، وهي برهانية.. إلخ كلامه)[3].

---

(١) الطور: ٣٥.

(٢) قَ: ١٥.

(٣) الفتاوى: (١٩/ ١٦٤ـ ١٦٥).

المبحث الثاني عشر

الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ

إن من أهم الآداب وأبرز الصفات التي ينبغي للمحاور المخلص الصادق أن يتميز بها، أن يكون الحق ضالته والصواب مراده، فحيثما وجده أخذه، إذ إن من الطبيعي أن يخطىء الإنسان في مناقشاته وحواره وكلامه، والعاقل هو الذي يسلم بخطئه، ويعود إلى الصواب حالما يتبين له، بل ويفرح بظهور الحق ويشكر لصاحبه إرشاده ودلالته إليه.

والتسليم بالخطأ صعب على النفس ـ خاصة إذا كان في جمع من الناس ـ، ولذلك فهو يحتاج إلى تجرد لله وصدق وإخلاص، ومراغمة للنفس مع قوة وشجاعة حتى يعتاد عليه، وعندها سيجد له حلاوة قد تقارب أحياناً حلاوة الفوز والانتصار، وعندها يكسب صاحبه احترام الناس وتقديرهم، على عكس الإصرار على الخطأ الذي يفقده احترام الناس بل يفقده احترامه لنفسه[1].

فعلى المحاور أن يعلم أنه بشر يخطىء ويصيب، وعليه أن يكون من خير الخطائين برجوعه إلى الحق واعترافه بالخطأ، قال ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[2].

---

(١) ملخص من أصول الحوار ص ٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي: القيامة (٤/ ٦٥٩) رقم ٢٤٩٩، ابن ماجه الزهد (٢/ ١٤٢٠) رقم ٤٢٥١، أحمد (٣/ ١٩٨).

ومن جهة أخرى: إذا علمت أنك ستهزم بأخطائك وستكشف وتفتضح وتظهر المعايب، أفليس من الأحجى أن تسبق أنت خصمك إلى التسليم بها؟! أليس من الأفضل أن تستمع إلى النقد الذي توجهه أنت إلى نفسك بدلاً، من أن تنصت إليه من شخص آخر ـ يخالفك وربما يتصيد أخطاءك ويتحين الفرصة لإحراجك. ولذلك فعليك أن تذكر مثالبك وتعترف بجميع أخطاءك التي ترى أن خصمك يعتزم أن يقولها عنك، وقلها عن نفسك قبل أن تسنح له الفرصة، عندها فأنت تحبس الرياح عن شراعه، وعندها سيهون خطؤك أمامه وأمام الآخرين، بل ربما دافع هو عنك وبرر لك بعض أخطائك.

واعتراف المحاور بأخطائه يساعد الخصم أيضاً في الرجوع إلى الحق والاعتراف بأخطائه هو، كما أن البدء بانتقاد النفس، والاعتراف بأنها ليست معصومة من الأخطاء، يهيىء نفسية الخصم إلى سماع الانتقادات الموجهة إليه، وقبول ذلك بصدر رحب، كما ينبغي للمحاور أن يجعل الغلطة التي يريد إصلاحها سهلة ميسورة التصحيح، فهذا يسهل على الخصم الرجوع عنها والاعتراف بها.

ولما كان هذا الأدب من أهم مقومات الحوار الناجح، ومن الأصول والأسس التي يبنى عليها النقاش، فقد تعددت أمثلته وكثرت نماذجه وشواهده، مما يضطر إلى الاختصار والاكتفاء بالإشارة إلى بعض الأمثلة دون تفصيل، وبيان بعضها بما يناسب الحال والله المستعان.

فمن أمثلة القرآن:

ما جاء في حوار المولى عزّ وجلّ مع ملائكته بشأن خلق آدم وذريته، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ

أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[1] الآيات.

قال الطبري رحمه الله في شرح الآيات ما نصه: (فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم، وبدت لهم هفوة زلتهم، أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة، كما قال نوح حين عوتب في مسئلته، فقيل له: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ : ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2] وكذلك فعل كل مسدد للحق موفق له، سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوبته)[3].

ومثل هذا ما جاء في حواره سبحانه مع آدم وحواء وما وقع منهما من معصية، ثم ما تلاها من رجوع إلى الحق وتسليم بالخطأ حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

(إنها خصيصة الإنسان التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه.. الاعتراف، والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف والاستعانة به وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته... وإلا كان من الخاسرين)[5].

وأما رجوع سحرة فرعون وإيمانهم برب العالمين، فهو مثال

---

(١) البقرة: ٣٠ـ ٣٢.
(٢) هود: ٤٦ـ ٤٧.
(٣) الطبري: (١/ ٢١٩).
(٤) الأعراف: ٢٢ـ ٢٣.
(٥) الظلال: (٣/ ١٢٧٠).

واضح لهذا الأدب، إذ ما أن ألقى موسى عصاه، حتى وقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة، الذين بذلوا غاية جهدهم في فنهم الذي أتقنوه، وجاؤا بأقصى ما يملك السحر أن يصنعوه، وهم جمع كثير، محشور من كل مكان، وموسى وحده وليس معه إلا عصاه، ثم إذا هي تلقف ما يأفكون، فلا يبقى لحبالهم وعصيهم أثر، عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً، وهم أعرف الناس بأنه الحق[1]، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

فلما عرف السحرة الحق وأيقنوه، بعد أن عرفوا باطلهم وجربوه، فتحولوا من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين[3].

ومن صور الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه، ما وقع من إخوة يوسف بعد أن فعلوا به ما فعلوا، فلما ضاق بهم الأمر ومسهم الضر، وبلغوا حداً من الاسترحام والضيق والانكسار، ذكرهم يوسف بماضيهم الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه إلا الله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ عندها لمع في نفوسهم خاطر من بعيد: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ عندها لم يكن لهم إلا التسليم بالخطأ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾[4].

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له

---

(١) الظلال: (٥/ ٢٥٩٥) بتصرف.

(٢) الشعراء: ٤٦ـ ٤٨.

(٣) الظلال: (٣/ ١٣٥٠) بتصرف يسير.

(٤) يوسف: ٨٩ـ ٩١.

عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان، يقابله يوسف بالصفح والعفو، شيمة الرجل الكريم[1].

ومن الأمثلة السريعة التي جاءت في كتاب الله وتصلح شواهد لمسألة الاعتراف بالحق والرجوع إليه مع التسليم بالخطأ والاعراض عنه ما يلي:

ما جاء في تسليم عزير بقدرة الله تعالى بعد أن تعاظم إحياء القرية بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه وأخبره بما لبثه، ثم أراه كيفية إحياء حماره، فعندها عاين من قدرة الله ما عاين[2]: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[3].

ومثل ذلك رجوع موسى عليه السلام وتوبته إلى ربه بعد أن سأل رؤية ربه في الدنيا: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[4].

وكذا ما تقدم من رجوع نوح عليه السلام عن مسئلته، وذلك حين سأل عن إغراق ابنه، فعاتبه الله في ذلك، فسارع بالتوبة والاستغفار، والرجعة عن هذه الهفوة[5]. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[6].

---

(١) الظلال: (٤/٢٠٢٧) بتصرف.
(٢) انظر الطبري: (٣/٤٦).
(٣) البقرة: ٢٥٩.
(٤) الأعراف: ١٤٣.
(٥) انظر الطبري: (١/٢١٩).
(٦) هود: ٤٥ـ٤٧.

ومن هذا الباب أيضاً: رجوع امرأة العزيز واعترافها بأنها هي التي راودت يوسف عليه السلام عن نفسه، وأنه بريء من التهمة التي سجن لأجلها: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

وقريب من هذا رجوع أصحاب الجنة كما في سورة القلم واعترافهم بخطئهم، إذ عزموا على منع الفقراء والمساكين حقهم، فعاقبهم الله بإهلاك جنتهم، فعادوا إلى رشدهم، وتابوا إلى ربهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

وقد أشار بعض المفسرين إلى هذا الأدب الرفيع، الذي ينبغي أن ينضبط به كل محاور مخلص، حتى يؤتي الحوار ثمرته، فقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى أن ما ذكره الله تعالى من آيات في محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود تدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة، ثم ذكر عدداً من الأدلة على ذلك، ثم ذكر قول المزني صاحب الشافعي: (ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عزّ وجلّ وأن يقبل منها ما تبين)[3].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[4]. قال الشيخ السعدي رحمه الله ما نصه: (ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب، وآداب النظر. فإن

---

(١) يوسف: ٥١.
(٢) القلم: ٢٨ـ ٣٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٨٦).
(٤) العنكبوت: ٤٦.

الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق. ولا يرد الحق، لأجل قوله، ولو كان كافراً)[1].

ويدخل في هذا الباب قول الإمام الشافعي رحمه الله: (ما كابرني أحد على الحق ودافع، إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته، واعتقدت مودته)[2].

ولذلك كان الشافعي رحمه الله يعلن عن رجوعه عن أي خطأ أو قول يتبين أنه مخالف للصواب، فقد قال رحمه الله: (كل ما قلته فكان من رسول الله ﷺ خلاف قولي مما صح فهو أولى، ولا تقلدوني)[3].

كما أعلن استعداده لقبول أي خبر صحيح ومن أي جهة كان. يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: قال الشافعي (أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا فإذا كان خبر صحيح، فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً)[4].

وأما أمثلة هذا الباب في السنة فهي كثيرة جداً، وكذلك سأختصرها، وأكتفي بما يؤدي الغرض منها ويناسب الحال:

فها هو النبي ﷺ ـ معلم الأمة ومربيها على مثل هذه الآداب والفضائل ـ يرجع إلى قول امرأة يهودية، بعد أن تبين له بالوحي صحة قولها: بأن أهل القبور يفتنون في قبورهم ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود. وهي تقول: هل شعرت إنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما تفتن يهود» قالت عائشة: فلبثنا ليالي. ثم قال رسول الله: هل شعرت أنه

---

(١) تفسير السعدي: (٤/ ٦٥).
(٢) (٣) (٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٣).

أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور؟ قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر)[1].

وإذا كان هذا خلق المعلم فكيف يكون التلاميذ؟ وإذا كان هذا أدب المربي فكيف يكون بمن رباهم على عينه وتحت نظره؟ وما دامت هذه سمات القدوة، فالمقتدون به أثر من آثاره، وحسنة من حسناته، وهم على نهجه يسيرون، وسنته يقتفون، وبسيرته يهتدون، والأمثلة خير شاهد عن حسن ما كانوا يصنعون وصدقهم فيما يتبعون:

فقد حدث عبد الملك بن أبي بكر ابن عبد الرحمن عن أبي بكر، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقص، يقول في قصصه: من أدركه الفجر جنباً فلا يصم. فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث (لأبيه) فأنكر ذلك. فانطلق عبد الرحمن وانطلقت معه، حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة ـ رضي الله عنهما ـ فسألهما عبد الرحمن عن ذلك. قال فكلتاهما قالت: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم. قال: فانطلقنا حتى دخلنا على مروان، فذكر ذلك له عبد الرحمن. فقال مروان: عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة، فرددت عليه ما يقول قال: فجئنا أبا هريرة وأبو بكر حاضر ذلك كله قال: فذكر له عبد الرحمن. فقال أبو هريرة: أهما قالتاه لك؟ قال: نعم. قال: هما أعلم.

ثم رد أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفضل بن عباس. فقال أبو هريرة: سمعت ذلك من الفضل، ولم أسمعه من النبي ﷺ. قال: فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك[2].

---

(١) أخرجه مسلم المساجد: (١/ ٤١٠) رقم ١٢٣، النسائي: الجنائز (٤/ ١٠٤) رقم ٢٠٦٤.

(٢) أخرجه مسلم الصيام (٢/ ٧٨١) رقم ٨٠، ابن ماجه الصيام (١/ ٥٤٣) رقم ١٧٠٣، أحمد (١/ ٢١٣).

وأخرج البخاري بسنده عن علقمة قال: (كنا جلوساً مع ابن مسعود فجاء خباب فقال: يا أبا عبد الرحمن أيستطيع هؤلاء الشباب أن يقرؤوا كما تقرأ؟ قال: أما إنك لو شئت أمرت بعضهم يقرأ عليك. قال: أجل. قال: اقرأ يا علقمة. فقال زيد بن حدير ـ أخو زياد بن حدير ـ: أتأمر علقمة أن يقرأ وليس بأقرئنا؟ قال: أما إنك إن شئت أخبرتك بما قال النبي ﷺ في قومك وقومه. فقرأت خمسين آية من سورة مريم. فقال عبد الله: كيف ترى؟، قال: قد أحسن. قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً إلا وهو يقرؤه. ثم التفت إلى خباب وعليه خاتم من ذهب فقال: ألم يأن لهذا الخاتم أن يلقى؟ قال: أما إنك لن تراه علي بعد اليوم. فألقاه)[1].

وقد ذكر الحافظ من فوائد هذا الحديث: (أن بعض الصحابة كان يخفى عليه بعض الأحكام فإذا نبه عليها رجع، ولعل خباباً كان يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود على تحريمه، فرجع إليه مسرعاً)[2].

ومثل هذا ما تقدم من رجوع عمر وتسليمه بحديث «الاستئذان ثلاث. فإن أذن ذلك وإلا فارجع»، بعد أن أنكره على أبي موسى الأشعري، فلما تثبت عمر من الخبر، وجاءه أبو سعيد الخدري وأخبره بصحة ذلك عن رسول الله ﷺ، فقال عمر: (ما كنت علمت بهذا)[3].

وموقف آخر لعمر رضي الله عنه وذلك أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة فقال عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: من ابن أبزى؟ قال: رجل من موالينا. قال عمر: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري: المغازي ٤٣٩١.

(٢) الفتح: (٨/ ١٠١).

(٣) تقدم تخريجه في المبحث الرابع انظر ص ٣١١.

إنه قارىء لكتاب الله تعالى، عالم بالفرائض، قاض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[1].

ولما كان عمار بن ياسر بالمدائن، أقيمت الصلاة، فتقدم عمار وقام على دكان يصلي، والناس أسفل منه، فتقدم حذيفة فأخذ على يديه، فأتبعه عمار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمار من صلاته قال له حذيفة: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أم الرجل القوم فلا يقم في مكان أرفع من مقامهم» أو نحو ذلك قال عمار: (لذلك اتبعتك حين أخذت على يدي)[2].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الصحابة أو من في منزلتهم، بل إن كل متجرد للحق، طالب للصواب، صادق مع نفسه، فإنه لا بد وأن يسلم بخطئه متى عرفه، ويرجع إلى الحق إذا تبين، وإلا كان مجادلاً مكابراً، وهذه أمثلة تبين اعتراف أناس ـ وهم على الكفر ـ بصدق النبي ﷺ وصحة كلامه ودينه:

ففي قصة إسلام ضماد حين قدم مكة وعرض الرقية على النبي ﷺ، فاستفتح النبي ﷺ بقوله: («إن الحمد لله نحمده ونستعينه..») فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء. ولقد بلغن ناعوس البحر. قال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي)[3].

---

(١) أخرجه مسلم: المسافرين (١/ ٥٥٩) رقم ٢٦٩، ابن ماجه: المقدمة (١/ ٧٩) رقم ٢١٨، أحمد (١/ ٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود: الصلاة ٥٨٩، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٥٥٨.

(٣) تقدم تخريجه ص ٢٣٧.

ومنه ما تقدم في محاورة النبي ﷺ للحبر اليهودي، وذلك حين سأله اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد النون، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً» قال: صدقت. قال: وجئت أسأل عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: ينفعك إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسأل عن الولد؟ قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله. وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله، قال اليهودي: لقد صدقت. وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب..[1].

ومثل هذا ما جاء في اعتراف هرقل عظيم الروم بصدق النبي ﷺ، بعد محاورته لأبي سفيان وسؤاله عن أمور وعلامات، حتى إذا فرغ قال للترجمان: (قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت لو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

---

(١) تقدم في مبحث التواضع. وهو في صحيح مسلم: (١/٢٥٢) الحيض: ٣٤، انظر ص ١٦٨.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. . .) الحديث[1].

فكل صاحب عقل سليم، متجرد للحق مخلص، لا يسعه عند ظهور البيان، ووضوح الدلالات، وتبين الحقائق، إلا أن يعترف بخطئه ـ إن كان مخطئاً ـ ويذعن للحق ويعود إلى الصواب، دون تردد أو مماطلة، وبلا تهرب أو تحايل، والمؤمن الصادق هو أولى الناس بهذا الأدب، وأحقهم بهذا الخلق، قدوته في ذلك إبراهيم الخليل الذي وصفه ربه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾[2]. أي: متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره، منيب رجاع إلى طاعته[3].

وقدوته محمد النبي الكريم ﷺ وصحابته الغر الميامين، رضوان الله عليهم أجمعين.

وإذا كان الاعتراف بالحق والرجوع إليه مطلوباً، فمطلوب أيضاً التسليم بعدم العلم، وعدم التحرج من قولة: «الله أعلم» أو «لا أدري» أو

---

(١) تقدم تخريجه أيضاً انظر ص ٣٤١.
(٢) هود: ٧٥.
(٣) الطبري: (١٢/ ٨٠).

نحوهما فإن الواجب رد العلم إلى من هو أعلم، وعدم التعالم أو الخوض في مناقشات ومناظرات بغير علم، أو الخجل من السؤال والاستيضاح والتستر على الجهل فإن ذلك ممقوت مذموم، لا يليق بعاقل، فضلاً عن مسلم متجرد، وكلام ومواقف السلف في هذا كثيرة، وأدلته وشواهده عديدة:

فهاهم الملائكة الكرام البررة يعترفون بقصورهم ويسلمون لربهم فيقولون: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1].

قال الطبري: (وهذا خبر من الله جلّ ذكره عن ملائكته بالأوبة إليه، وتسليم علم ما لم يعلموه، وتبريهم من أن يعلموا أو يعلم أحد شيئاً، إلا ما علمه تعالى ذكره)[2]. وقال القرطبي رحمه الله في المسألة الثانية عند هذه الآية: (الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: «الله أعلم» «ولا أدري»، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء)[3].

وها هم الرسل يقرون بعدم علمهم، ويرجعون العلم إلى ربهم، قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾[4].

بل إن الله تعالى يلقن رسوله ﷺ هذا الأدب ويعلمه بما يجيب به عند سؤاله عما لا يعلمه كما في الآيات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[5].

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾[6].

---

(١) البقرة: ٣٢.
(٢) الطبري: (١/ ٢٢٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٩٦).
(٤) المائدة: ١٠٩.
(٥) الأعراف: ١٨٧.
(٦) الأحزاب: ٦٣.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١).

﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ - ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ (٢).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣).

إلى غير ذلك من المواضع والشواهد.

وهذا الأدب تأدب به موسى عليه السلام، مع أنه كان في حالة مواجهة ومناظرة مع الطاغية المتجبر فرعون، وفي موقف تحد وإفحام، ومع ذلك لما يسأله فرعون عن شيء من الغيب لا يتردد في إرجاعه إلى ربه العالم به ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ (٤).

وقريب منه موقف هود عليه السلام حين تحداه قومه أن يأتيهم بالعذاب، فرد الأمر إلى ربه عزّ وجلّ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٥).

وآيات القرآن في هذا كثيرة معلومة، وفيما تقدم ذكره منها كفاية في بيان المقصود، والدلالة على المطلوب.

وكثيراً ما كان الصحابة يتأدبون بهذا الأدب اتباعاً فيه لقدوتهم العظيمة - ﷺ - الذي ما كان يتردد في إرجاع العلم إلى من هو أعلم، كما

---

(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) الكهف: ٢٢-٢٦.
(٣) الملك: ٢٥-٢٦.
(٤) طه: ٥١-٥٢.
(٥) الأحقاف: ٢٢-٢٣.

في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: أي البلدان أحب إلى الله، وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: «لا أدري، حتى أسأل جبريل عليه السلام، فأتاه جبريل، فأخبره: أن أحسن البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق»[1].

وكثيراً ما يتكرر في السنّة عن الصحابة حينما يسألهم النبي ﷺ عن شيء فيقولون الله ورسوله أعلم، كما في أسئلته لهم في حجة الوداع عندما سألهم عن اليوم والشهر والبلد[2]، وغير ذلك.

ولما قال بعض الصحابة عن رجل من المسلمين: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله تعالى؟» قال: الله ورسوله أعلم[3].. الحديث.

وقال عبد الله بن مسعود: (يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به.. ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، قال الله عزّ وجّل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[4].. إلخ[5].

وكان علي يقول: (وأبردها على الكبد، «ثلاث مرات». قالوا: وما

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨١)، والحاكم (١/ ٩٠) (وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٢٣).

(٢) تقدم ذكره مراراً، وانظر ص ١٢٤.

(٣) أخرجه البخاري: الصلاة: ٤٢٥، مسلم المساجد (١/ ٤٥٥) رقم ٢٦٣، أحمد (٥/ ٤٤٩).

(٤) صّ: ٨٦.

(٥) أخرجه البخاري: التفسير ٤٨٠٩، مسلم: المنافقين (٤/ ٢١٥٥) رقم ٣٩، الترمذي: التفسير (٥/ ٣٧٩) رقم ٣٢٥٤.

ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم)[1].

وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل، قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به[2].

وقال يحيى بن سعيد للقاسم بن عبيد الله: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك أن تسأل عن شيء من أمر هذا الدين، فلا يوجد عندك منه علم ولا مخرج. فقال القاسم: وعم ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى، أبي بكر وعمر. فقال القاسم: أقبيح من ذاك عند من عقل عن الله، أن أقول بغير علم، أو آخذ عن غير ثقة. قال: فسكت فما أجابه[3].

وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلاً في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري.

وذكر عن مالك رحمه الله أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري [4].

وغير ذلك من الأقوال والأمثلة والمواقف والنماذج التي تبين ضرورة التسليم بالخطأ والرجوع إلى الحق، ورد العلم إلى من هو أعلم، وأن ذلك من الأصول المهمة والآداب الرفيعة، التي بها يكون نجاح الحوار وثمرته.

---

(١) (٢) تفسير القرطبي: (١/١٩٦).
(٣) مقدمة صحيح مسلم مختصراً (١/١٦).
(٤) تفسير القرطبي (١/١٩٧).

المبحث الثالث عشر

الاحتمالات

إن من الأساليب المهمة في مواجهة أي خصم معاند، ومن الطرق الناجحة في محاورة أي مخالف، أن يستخدم معه أسلوب السبر والتقسيم، وذلك بأن تحصر جميع الاحتمالات الواردة في القضية، ثم يبدأ في إبطال كل احتمال غير صالح على حدة، حتى لا يبقى إلا الاحتمال الراجح، فيتعين القول به[1].

وهو أسلوب منطقي يقبل به كل منصف متجرد، ولا يعارضه عاقل، ولا يرفضه إلا مكابر مجادل.

وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب في عدد من المواضع ومع عدد من المعاندين، ومن ذلك الرد على أهل الكتاب الذين ادعوا أن مكثهم في النار أياماً معدودة، فكان جواب هذه الفرية: أن أخبر سبحانه وتعالى: أن صدق دعواهم متوقف على أحد أمرين لا ثالث لهما: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[2]، إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى

(١) انظر مذكرة أصول الفقه للشيخ الشنقيطي ص ٢٥٧.
(٢) البقرة: ٨٠.

وصلت بهم الحال إلى أن يقتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق. فتعين بذلك، أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون. والقول عليه بلا علم، من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات[1].

ومن أمثلة هذا أيضاً الرد على المشركين في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[2].

ووجه الاستدلال بالآيات ما ذكره السيوطي في كتاب «الإتقان» حيث قال: (إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة، وإناثها أخرى، رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما أو لا يدرى له علة وهو التعبدي، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ﴾[3]

فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها. والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم

---

(١) انظر تفسير السعدي (١/ ٧١) بتصرف يسير.

(٢) الأنعام: ١٤٣ـ ١٤٤.

(٣) الأنعام: ١٤٤.

بعض في حالة، وبعض في حالة أخرى، لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال)[1].

فيتجلى في هذه الآيات تطبيق هذا الأسلوب حيث حصرت الأقسام الممكنة والاحتمالات كلها في ثلاثة أقوال لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل، إلا واحداً من هذه الثلاثة وهم لا يقولون بشيء منها، فتبين فساد قولهم وضرورة تسليمهم لشرع الله عزّ وجلّ[2].

ومن هذا الباب أيضاً الرد على الكافر الأثيم، العاص بن وائل السهمي، حيث قال فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[3].

قال الشيخ السعدي في تعليقه على هذا الأسلوب في الآية: (وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة، فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية وقد علم أن هذا لله وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا من أطلعه الله عليه من رسله، وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذين عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، والناجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك، بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾، أي ليس الأمر كما زعم، فليس للقائل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسائل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم

---

(١) الإتقان في علوم القران: (٤/ ٦٤).
(٢) انظر تفسير السعدي (٢/ ٧٨).
(٣) مريم: ٧٧ـ ٧٨.

إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقول..)[1] إلخ كلامه رحمه الله. وذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، «مؤمن آل فرعون»، الذي كان سبباً من الأسباب التي اندفع بها شر فرعون وملئه عن موسى عليه السلام، فهيأ الله لموسى ذلك الرجل الصادق فقام وأنكر على قومه قتل موسى، ثم سهل لهم الأمر بهدوء تصحبه قوة الحجة، وبحكمة يرافقها الإلزام المقنع، حيث أخذهم على طريقة التقسيم فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[2] أي: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره ومختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه. وأما إن كان صادقاً، وقد جاءكم بالبينات، فلا بد أن يصيبكم بعض ما يعدكم من عذاب الدنيا إن تعرضتم له.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل[3].

ومثل هذا ما وقع من استدلال على المشركين في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4].

(وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم. وقد تقرر في العقل

---

(١) تفسير السعدي: (٣/ ٢١٨).
(٢) غافر: ٢٨.
(٣) انظر الكشاف: (٣/ ٤٢٣)، السعدي (٤/ ٣٦٠).
(٤) الطور: ٣٥.

مع الشرع، أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي لا خالق لهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال، أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه، فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث وهو أن الله هو الذي خلقهم. . .)[1].

ومن شواهد هذا في مناظرات السلف ما وقع لابن عمر رضي الله عنه حين سئل عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال عبد الله بن عمر: هي حلال. فقال رجل: أن أباك قد نهى عنها. فقال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ: أمر أبي يتبع، أم أمر رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ. فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ[2].

فهنا وضع ابن عمر السائل أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن يتبع أمر رسول الله ﷺ ويسلم بصحة فتوى ابن عمر في جواز التمتع، وإما ان يتبع رأي عمر رضي الله عنه ويترك صنيع رسول الله ﷺ، فكان أن سلم بالحق ورجع إليه.

والمقصود أن هذا من الأساليب النافعة، والآداب اللطيفة التي ينبغي أن يعتادها المحاور، ويستخدمها متى دعت الحاجة إليها فهي أقرب إلى إقناع المخالف وتسليمه بالصواب.

---

(١) تفسير السعدي: (٥/ ١١٤ـ ١١٥).
(٢) أخرجه الترمذي: الحج (٣/ ١٧٦) رقم ٨٢٤ (وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٦٥٨).

المبحث الرابع عشر

التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم

إن أسلوب التحدي في الحوار، ولو كان بالحجة الدامغة والدليل المبين، يبغض صاحبه للآخرين، وقد يفحم الخصم ويعجز عن الجواب ولكنه لا يقتنع، أو يسكت بقوة الحجة، ومع ذلك لا يسلم للحق، لأنه أحرج أو أفحم أو أهين أمام الآخرين.

وحيث إن الهدف من الحوار هو الوصول إلى الحق، سواء تم ذلك على يدي المحاور أو خصمه، فعلى المحاور ما استطاع إلى ذلك سبيلاً أن يتجنب أسلوب الإفحام والإسكات، لأنه قد لا يقود الخصم المعاند إلى الهداية، ويترك في نفسه حقداً وغيظاً، والمطلوب هو استلال كل بغض وكراهية من قلوب الآخرين، بل ربما كان كسب القلوب أهم من كسب المواقف. ولكن يلجأ إلى التحدي والإفحام مع المماحكين الذين همهم الجدال والاستهزاء وإثارة الشبه وتضليل الآخرين، والإساءة إلى الفكرة وإهانة المبادىء، أو من تجاوز حدود الأدب، أو نحو ذلك، فمثل هؤلاء ربما لا يناسب معهم اللين والرفق، وإنما ينبغي إفحامهم ودحض حججهم وإسقاط هيبتهم من النفوس، وإحراجهم وإسكاتهم أمام الملأ، وتبيين وهن أفكارهم واضطراب أقوالهم.

ولا بأس من الهجوم الحاد المركز على مثل هذه النوعية من الخصوم، وتسفيه آرائهم ضمن حدود الآداب الإسلامية، فربما كان ذلك

مطلباً مقصوداً، وإذا اقتضت المصلحة جرحهم بالتحدي والإفحام، فلا بأس بذلك، لأنهم يمثلون الباطل أمام الناس، وينبغي أن يرى الناس الباطل مهزوماً مدحوراً[1].

فقد تكون الدعوى صحيحة ظاهرة، تلمسها الحواس وتستيقنها النفوس، ومع ذلك نجد عند بعض الخصوم لدداً ومكابرة للحق، فيعارض كل ما خالف معتقده وهواه دون تدبر للحقائق، أو عدل في النظر والتفكير، كما كان الحال في معارضة المشركين للرسول ﷺ في أمر القرآن، وتشكيكهم في نسبته إلى الله تعالى، فكان رد القرآن عليهم بنقض جميع الشبه والمعارضات التي أوردوها، وإزالة كل الملابسات التي أثاروها، ثم تحداهم في مقامات متعددة بأن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2] أو بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[3] أو بسورة واحدة من مثله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[4].

كما تحدى القرآن تحدياً عاماً للثقلين الجن والإنس على أن يأتيا بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[5].

فلما تحداهم القرآن في تلك المقامات فعجزوا عن معارضته، فثبت صدق الرسول، وبطلت دعوى الخصوم، لأن التحدي قد جعل دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله تعالى، والدليل متى عورض بمثله بطل عمله

---

(١) انظر أصول الحوار ص ٤٥ـ ٤٦، ورسالة الجليل ص ٤٨.
(٢) الطور: ٣٤.
(٣) هود: ١٣.
(٤) البقرة: ٢٣.
(٥) الإسراء: ٨٨

فيسقط الاحتجاج به)[1] ولما أمر الله سبحانه وتعالى بالتلطف في المناقشة ـ حتى مع الكفار ـ استثنى حالة إذا ما طغوا وبغوا، فاعتبروا اللطف ضعفاً، فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فعندها يستعمل معهم الغلظة والشدة، ويكون العنف هو الدواء[2]: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ . .﴾[3] الآية.

وعندما جادل النمرود إبراهيم في ربه، بعد أن أوتي الملك، فكان ذلك سبب استعلائه وتكبره، وطلب الأدلة والبراهين على وجود الله عزّ وجلّ، استحق الإسكات والتحدي، وأن يبهت ويفحم، بعد أن ادعى شيئاً من خصائص الألوهية والربوبية: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾[4].

وبذلك وقف وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته[5]، وبان كذب دعواه، والحمد لله رب العالمين.

ولعل من أنواع التحدي التي جاءت في كتاب الله عزّ وجلّ: المباهلة التي أمر الله بها وبين صفتها، في سياق حوار مع أهل الكتاب حول عيسى عليه السلام، فقال: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾[6].

وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران، وقد تصلبوا على

---

(١) انتهى ملخصاً من مناهج الجدل: ٨٧ـ ٩٠.
(٢) انظر الكشاف: (٣/٢٠٨).
(٣) العنكبوت: ٤٦.
(٤) البقرة: ٢٥٨.
(٥) انظر تفسير السعدي (١/٢٠٦).
(٦) آل عمران: ٦١.

باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين، بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته. فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح الحق، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه، فلما دعاهم إلى المباهلة تشاوروا في إجابته، ثم قال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا[1] فلم يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم إن باهلوه هلكوا، هم وأولادهم وأهلوهم، فصالحوه، وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة[2].

وقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله في ذكر الفوائد من قصة وفد نصارى نجران: (ومنها: أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد: أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين، ولم ينكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة)[3].

وقال ابن حجر في ذكر الفوائد من القصة نفسها ما نصه: (وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء، ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة.

---

(١) هذا نص رواية البخاري ٤٣٨٠، وأخرجه أحمد (١/ ٤١٤).
(٢) انظر تفسير السعدي (١/ ٢٤٩).
(٣) زاد المعاد: (٣/ ٦٤٣).

ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها شهرين)[1].

وعلى المحاور قبل أن يعلن التحدي أو يقبله أن يتأكد من قدرته على إقامة الحجة وإظهار الحق، لا سيما إن كان الحوار سيتم على ملأ من الناس، فلا يجوز له أن يخذل الحق أو يقصر في بيانه، فيبدو ضعيفاً سقيماً فيغتر الناس بالباطل وانتفاشه.

وقد أشار إلى هذه المسألة ابن القيم رحمه الله في تعليقه على قصة وفد نجران المتقدمة حيث قال: (ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك،بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله، وليخل بين المطي وحاديها، والقوس وباريها...)[2].

ولذلك لما أراد فرعون أن يتحدى موسى عليه السلام وكان من مظاهر التحدي أن طلب منه تحديد موعد للقاء مع السحرة، وترك له حرية اختيار ذلك الموعد: «للتحدي». ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي، ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف: ﴿مَكَانٗا سُوٗى ٥٨﴾[3] مبالغة في التحدي!

وقبل موسى التحدي، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، وطلب أن يجمع الناس ضحى، ليكون المكان مكشوفاً، والوقت ضاحياً:

---

(١) فتح الباري: (٨/ ٩٥).
(٢) زاد المعاد: (٣/ ٦٣٩).
(٣) طه: ٥٨.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾[1] فقابل التحدي بمثله، وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً، وهكذا أمضى موسى التحدي وكسب الرهان[2]، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون[3].

إن أقل ما في التحدي مع الخصم المعاند: هو إقامة الحجة عليه، وتجليتها للآخرين ليكون الجميع على بصيرة من الحق و: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[4].

فمتى بلغ المحاور ما عنده من الحق، واجتهد في نصرته، فقد أدى ما عليه، وإن لم يذعن الخصم إلى الحق، وهذا الذي فعله الأنبياء مع المعاندين من أقوامهم، فبعد أن كفر قوم صالح واستكبروا وتحدوا: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[5] عندها أهلكوا وأعلمهم نبيهم بأنه قد بلغهم ونصحهم: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[6].

ومثل ذلك فعل شعيب بعد أن أهلك الله قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[7].

---

(١) طه: ٥٩.

(٢) الأولى أن يقال: «ونصره الله» أو نحوها بدلاً من عبارة «وكسب الرهان» التي قد لا تليق مع مقام النبوة، والله أعلم.

(٣) انظر الظلال: (٤/ ٢٣٤٠).

(٤) الأنفال: ٤٢.

(٥) الأعراف: ٧٧.

(٦) الأعراف: ٧٨ـ ٧٩.

(٧) الأعراف: ٩٣.

وأختتم بيان أسلوب التحدي والإفحام بذكر نماذج له من السلف في مناظراتهم وقصصهم فمنها:

دخل الحجاج على أسماء، فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم. قالت: كذبت! كان براً بوالدته، صواماً قواماً، ولكن أخبرنا رسول الله ﷺ: «إنه سيخرج من ثقيف كذابان: الآخر منهما شر من الأول وهو مبير»[1][2].

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أخريات الناس: ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وضعته في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك[3].

وفي سيرة الحافظ أحمد بن علي بن مسلم الأبار[4] يقول عن نفسه: كنت بالأهواز، فرأيت رجلاً قد حف شاربه، فذكر له أصحاب الحديث، فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئاً. فقلت: أنت لا تحسن تصلي. قال: أنا؟ قلت: نعم، أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت ورفعت يديك؟ فسكت، قلت: فما تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت؟ فسكت،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم: فضائل الصحابة (٤/ ١٩٧١) رقم ٢٢٩، الترمذي: الفتن (٤/ ٤٩٩) رقم ٢٢٢٠، أحمد (٦/ ٣٥١).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦١).

(٤) كنيته أبو العباس: قال الخطيب عنه: ثقة حافظاً متقناً، حسن المذهب، توفي سنة ٢٩٠ هـ وعاش نيفاً وثمانين سنة (سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٤٤٣).

فقلت: ألم أقل: إنك لا تحسن تصلي؟ فلا تذكر أصحاب الحديث[1].

فهذه أجوبة مفحمة لخصوم لا يطلبون حقاً، ولا ينشدون صواباً ولا يراعون حواراً.

ومن أعجب الأمثلة ما أجاب به القاضي أبو بكر الباقلاني[2] في محاورته مع النصارى، حيث سأله أحد الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ فقال الباقلاني مجيباً له على البديهة: هما أمرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة، فبرأهما الله عزّ وجلّ، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج ـ يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم ـ وكلاهما بريئة مما قيل فيها، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحي الله عزّ وجلّ، عليهما السلام[3].

وفي مجلس آخر دخل البطرك ـ مقدم النصارى ورئيس أساقفتهم ـ فلما توسط المجلس قام له ملكهم ورجاله تعظيماً له، فقضوا حقه، ومسحوا أطرافه، وأجلسه الملك إلى جنبه، ثم أقبل على القاضي أبي بكر، فقال: يا فقيه هذا البطرك، قيم الديانة، وولي النحلة. فسلم القاضي عليه أحفل سلام، وسأله أحفل سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد فعظم

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٤٤٤).

(٢) اسمه محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري ثم البغدادي ابن الباقلاني، صاحب التصانيف، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه، كان ثقة إماماً بارعاً، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري توفي عام ٤٠٣ هـ (سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٩٠).

(٣) البداية والنهاية: (١١/ ٣٧٤)، سير أعلام النبلاء: (١٧/ ١٩٢)، ترتيب المدارك: (٤/ ٥٩٤ ـ ٦٠٠).

قوله هذا عليه، وعلى جميعهم، وتغيروا له وصلبوا وجوههم وأنكروا قول أبي بكر عليه. قال القاضي: وما أنكرتم من كلامي. فقال الملك: إننا ننزه هؤلاء عن الصاحبة والولد. فقال القاضي: يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتربأونه به عن ذلك. ولا تستعظمونه لربكم ـ عزّ وجهه ـ فتضيفون ذلك إليه، سوأة لهذا الرأي، ما أبين غلطه.

فسقط في أيديهم، وبهتوا وانكسروا، ولم يحيروا جواباً، وتداخلتهم له هيبة عظيمة[1].

إلى غير ذلك من الأمثلة والنماذج التي تثبت قيمة هذا الأسلوب وأهميته ودوره، ومدى الحاجة إليه وخاصة مع ألد الخصام، من المجادلين المعاندين.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: (١٧/ ١٩١).

الباب الرابع

آداب الحوار اللفظية

الباب الرابع
آداب الحوار اللفظية

وأعني بها الآداب التي تتعلق بالألفاظ المختارة، والكلمات المنتقاة، والعبارات المناسبة، والتي تطرح وتدور في أثناء الحواء من قبل الطرفين.

وحيث إن الحوار ـ غالباً ـ ما تصاحبه الرغبة في الظهور على الخصم، والخوف من الانهزام أو الإحراج أمام الآخرين فربما انعكس أثر ذلك على ألفاظ المحاور، فيلقي كلمة خشنة، أو لا يسعفه التعبير فيزل لسانه بتعبير سيىء، قد يؤجج الصراع بين الطرفين، ويشعل الفتيل بين المتحاورين.

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب مبدؤها كلام[1]

لذلك يلزم المحاور أن يراعي ألفاظه فيدققها وينقحها، ويتبين فيها ويزنها، قبل أن تخرج من فيه فلا يستطيع ردها، أو يندم عليها بعد فوات الأوان، فتعصف بالحوار وتهوي به في مكان سحيق.

فلا بد إذن من مراعاة لكل عبارة يتفوه بها المحاور، وكل كلمة يعزم على قولها، حتى يستقيم الحوار ويحرز تقدماً.

---

(١) هذا البيت لِنَصْر بنِ سَيَّار صاحب خُرسَان (انظر العقد الفريد لابن عبد ربّه: «١/٨٦» ط الأولى ١٤٠٤ هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، وانظر ديوان المتنبي بشرح العكبري: ١/٣٦٤ .ط.مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥ هـ).

وإجمال هذه الآداب اللفظية على الترتيب كما يلي:

١ ـ العبارة المناسبة وحسن العتاب.

٢ ـ التذكير والوعظ.

٣ ـ التعريض والتلميح بدل التصريح.

٤ ـ أدب السؤال.

٥ ـ ذكر المبررات عند الاعتراض.

٦ ـ طلب الإنظار وعدم الاستعجال.

٧ ـ ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق.

٨ ـ مباغتة الخصم وقطع الطريق عليه.

٩ ـ محاذير لفظية

وعليه فسأجعل كل أدب منها مبحثاً مستقلاً، كما سبق في الأبواب المتقدمة إن شاء الله.

المبحث الأول

العبارة المناسبة وحسن العتاب

إن استعمال الأساليب الجميلة، والعبارات اللطيفة، والكلمات العذبة، والمؤدية للمعنى على أكمل وجه لتضيق هوة واسعة، وتحطم حواجز قوية، وتلين قلوباً قاسية، وتقرب خصماً معانداً: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤﴾[1].

إن المحاور الذكي العاقل، يناقش بتلطف وأناة وأدب، ومن الأشياء التي تفتح مغاليق النفوس، وتفعل فعلها في القلوب، أن يقول المحاور لخصمه في بدء حديثه ـ مثلاً: اسمح لي أن أبدي وجهة نظري في الموضوع، قد أكون مخطئاً، وأشكرك لو تفضلت وصححت لي خطئي.

وطلاقة اللسان مع كثرة الكلام تحتاج إلى عقل واع يحدد مواقع الكلم، ومواطن اللفظ، فيختار الحديث المناسب للمجالس المناسبة، وينتقي أطايب الكلام على قدر الرجال، والعبارات الجميلة دليل على الشفافية وحسن الانتقاء[2].

وقد أمر الله عزّ وجلّ بدعوة الناس بحكمة وموعظة حسنة، وإذا لزم

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) انظر: «ربانية التعليم» د. عبد الله الحسن ص ١٨، ٣٦، أصول الحوار ص ٤٣.

الجدال فليكن بأحسن الطرق وأقوم السبل، فقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1].

وأكد على تقديم التي هي أحسن في كل مجال، فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه، وذلك حتى يتقوا أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فإن الشيطان ينزغ بين الأخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها، فيتلمس سقطات الفم وعثرات اللسان، فيغري بها العداوة والبغضاء، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم، كما أنها تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمنا من نزعاته ونفثاته[2]. قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾[3].

وليس هذا مجرد توجيه نظري لا حقيقة له. كلا، بل إن الله ـ سبحانه ـ لما أرسل موسى وهارون إلى فرعون اللعين، أمرهما بلين القول وحسن الكلام. ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾[4] بل علمهما ما يقولانه واختار لهما ألطف عبارة: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[5].

وهذا المصطفى ﷺ يقول عنه أنس ـ رضي الله عنه ـ: «لم يكن النبي ﷺ سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له ترب جبينه»[6].

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) انظر الظلال: ٤/ ٢٢٣٤ بتصرف.
(٣) الإسراء: ٥٣.
(٤) طه: ٤٤.
(٥) النازعات: ١٨.
(٦) أخرجه البخاري: الأدب: ٦٠٣١، أحمد ٣/ ١٢٦.

سبحان الله! هذا حاله وذلك مقاله عند المعتبة، فكيف في حالات الرضا والصفاء.

واستأذن رجل عليه فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة. فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه. فلما سألته عائشة عن ذلك قال: يا عائشة: «متى عهدتني فاحشاً؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[1].

فهذا الرجل مع سوئه الذي يعلمه النبي ﷺ فيه، لكنه ينبسط إليه ويلين له القول ليتألفه، وهكذا فما أمكن الشخص أن ينصح ويتعامل بالرفق فلا يجوز له أن يفعله بالعنف، لأنه قد يكون سبباً لإغراء الخصم وإصراره على ذلك الفعل كما في طبع كثير من الناس من الأنفة، لا سيما إن كان الآمر دون المأمور في المنزلة.[2]

ومن سنته ـ ﷺ ـ عموماً اختيار الألفاظ السالمة من المعايب، ومن ذلك مثلاً: تبديل بعض الأسماء الى ما هو أحسن منها[3]، ومنه نهيه ﷺ عن وصف الإنسان نفسه بالخبث، حيث قال: «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي»[4].

قال ابن حجر: (ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه.. وإن كان المعنى المراد يتأدى بكل منهما)[5].

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠٣٢، أبو داود: الأدب: ٤٧٩١.

(٢) انظر الفتح: ١٠/ ٤٥٤، ٤٦٦ بتصرف.

(٣) من ذلك تغييره لاسم حزن إلى سهل وبرة إلى زينب ونحوه (انظر: البخاري كتاب الأدب، باب ١٠٨).

(٤) أخرجه البخاري الأدب: ٦١٧٩، ومسلم: الألفاظ ٤/ ١٧٦٥ رقم ١٦، أبو داود: الأدب: ٤٩٧٨، أحمد ٦/ ٥١.

(٥) انظر الفتح: ١٠/ ٥٦٤.

ومن الأمثلة التي تظهر فيها حسن عبارته ولين كلامه وطيب قوله ـ ﷺ ـ:

ترحيبه بالقادم عليه وتأنيسه، كما قال لوفد عبد القيس: «مرحباً بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خزايا ولا ندامى»[1]. (وقد تكرر ذلك من النبي ﷺ، ففي حديث أم هانىء.. مرحباً بأم هانىء»، وفي قصة عكرمة بن أبي جهل «مرحباً بالراكب المهاجر» وفي قصة فاطمة «مرحباً بابنتي» وكلها صحيحة)[2].

ومن ذلك أيضاً ما تقدم في رده على اليهود حينما كانوا يقولون «السام عليكم» فلا يزيد في الرد عليهم على قوله «وعليكم» بل ينهى عائشة عن سبابهم وشتامهم.[3].

ومن ذلك ما تقدم أيضاً في قصة معاوية بن الحكم عندما تكلم في الصلاة فزجره القوم، قال معاوية: فلما انصرف رسول الله ﷺ، دعاني بأبي وأمي هو، ما ضربني ولا كهرني، ولا سبني ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، قال: «إن صلاتنا هذه، لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن»[4].

ومن حسن عبارته وإرضائه لجميع الأطراف المختلفة باختيار الكلمة المناسبة، قوله للغلامين الذين اختلفا في قتل أبي جهل فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فنظر في سيفيهما فقال: «كلاكما قتله»[5]، فطيب قلبيهما بمثل هذه العبارة المختارة.

---

(١) تقدم تخرجه في«تهيئة الجو المناسب للحوار» ص ١٢١.

(٢) الفتح: ١/ ١٣١.

(٣) تقدم تخريجه في مبحث «الكلمة الطيبة» ص ٩١.

(٤) تقدم تخريجه في مبحث «الكلمة الطيبة» أيضاً ص ٩٢.

(٥) أخرجه البخاري: الخمس ٣١٤١، مسلم: الجهاد ٣/ ١٣٧٢ رقم ٤٢، أحمد ١/ ١٩٣.

ومما يدخل في موضوع العبارة المناسبة: حسن العتاب لمن أخطأ أو ظلم، فلم يكن من هديه ﷺ النهر والزجر والتأنيب والتعبير، الذي يشعر بانتقاص الآخرين أو إذلالهم أو الحقد عليهم أو نحو ذلك، بل كان عتابه لطيفاً، يشير إلى الأخطاء من طرف خفي، فيفهمه المعني بالكلام، دون أن يجرحه أو يسيء إليه. وقد تقدم آنفاً أنه كان عند المعتبة لأحد من أصحابه يقول «ما له ترب جبينه»[1].

ولما رجع من خيبر مع أصحابه فاضطجعوا، وتعهد بلال بإيقاظهم فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي ﷺ وقد طلع حاجب الشمس، فقال: (يا بلال أين ما قلت؟ قال: ما ألقيت علي نومة مثلها قط...)[2].

فاكتفى في معاتبة بلال بسؤاله عما التزم به، ثم قبل عذره عندما اعتذر بأمر سائغ قد يقع لكل أحد من الناس.[3]

وعندما جاءه رجل[4] قد ظاهر من امرأته، فوقع عليها قبل أن يكفر فقال له: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟»[5].. الحديث. فمع أن الرجل قد أخطأ بالظهار ـ أولاً ـ، وأخطأ بالوقوع على امرأته قبل الكفارة ـ ثانياً ـ، مع ذلك يعاتبه في أدب ولطف بل ويدعو له بالرحمة.

ولما خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى الشام، فوقع الوباء

---

(١) تقدم تخريجاً آنفاً.

(٢) أخرجه البخاري: مواقيت الصلاة ٥٩٥، النسائي: الإمامة ٢/١٠٦ رقم ٨٤٦، أحمد ٦/٣٠٧.

(٣) انظر الفتح: ٢/٦٦.

(٤) جاء في روايات أخر أن مثل هذا وقع لسلمة بن صخر، وأوس بن الصامت ـ رضي الله عنهما ـ كما في تخريج هذه الرواية.

(٥) أخرجه الترمذي: الطلاق ٣/٤٩٤ رقم ١١٩٩، وقال: «حسن صحيح»، أبو داود: الطلاق ٢٢٢١، النسائي: الطلاق ٦/١٦٧ رقم ٣٤٥٧، ابن ماجه: الطلاق ١/١١٦٦ رقم ٢٠٦٥، الحاكم: الطلاق ٢/٢٠٤.

بالشام، فاستشار الصحابة، فأشار عليه بعضهم بالرجوع فعزم على ذلك. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (وكان عمر يكره خلافه) نعم. نفر من قدر الله إلى قدر الله[1]... إلخ.

ففي هذا عتاب لطيف من عمر لأبي عبيدة، فيه معنى التقدير والإكرام لمنزلته وفضله.

وفي سيرة علي بن الحسين أنه كان بينه وبين ابن عمه حسن بن حسن شيء، فما ترك حسن شيئاً إلا قاله، وعلي ساكت، فذهب حسن، فلما كان في الليل، أتاه علي، فخرج، فقال علي: يا ابن عمي إن كنت صادقاً فغفر الله لي. وإن كنت كاذباً، فغفر الله لك، السلام عليكم. فالتزمه حسن، وبكى حتى رثى له[2].

وهذا فيه عتاب حسن، وعفو وصفح، ومودة وإخاء.

وعلى كل حال فإن الصفح والعفو وترك العتاب ـ ربما كان أولى ـ في أكثر المواطن، ولكن إن كان في النفس شيء نحو المخطىء من حقد أو نحوه، فعندها يكون التنفيس بالعتاب أولى من كتمه أو السكوت على مضض وحقد وكراهية. قال الأحنف: (العتاب مفتاح الثقالى، والعتاب خير من الحقد)[3].

ومن العبارة المناسبة: حسن المناداة للطرف الآخر، واختيار أحب الأسماء إليه أو بكنيته أو بلقب يشعر بتقديره وحسن الاهتمام به، أو نحو ذلك مما يقتضيه المقام، ويناسب منزلة المخاطب.

وقد تأدب بهذا الأنبياء في خطابهم لأقوامهم، فقد كان يقول الرسول

---

(١) تقدم في مبحث «ضرب الأمثلة من الباب السابق» ص ٣٧٠.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٧.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٩٤.

منهم لخصمائه: «يا قوم»: في تودد وسماحة، وتذكير بالأواصر التي تجمعهم، وذلك بندائهم ونسبتهم إليه، ونسبة نفسه إليهم، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغش قومه[1].

وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ومن ثم يسأله ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾[2][3].

ويوسف عليه السلام لما أراد دعوة السجينين إلى عقيدة التوحيد الخالص، تحبب إليهما بصفة مؤنسة، فكأنه اتخذهما صاحبين له ورفيقين على دربه، ثم دخل بهما إلى صلب الدعوة[4] فقال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾[5].

ولما أراد النبي ـ ﷺ ـ تسكين غضب علي ـ حين اختصم هو وفاطمة ـ فأتاه ﷺ وهو مضطجع في المسجد قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: قم أبا تراب، قم أبا تراب[6] فهذا فيه ممازحة المغضب بما يحصل به تأنيسه، ومن ذلك تلقيبه بالكنية، وقد كان علي يفرح إذا دعي بذلك[7].

---

(١) انظر الظلال: ٤/١٨٧٣، ١٨٩٦.
(٢) مريم: ٤٢.
(٣) الظلال: ٤/٢٣١١.
(٤) نفس المصدر: ٤/١٩٨٩.
(٥) يوسف: ٣٩.
(٦) تقدم تخريجه ص ٣٠٧.
(٧) انظر الفتح: ١/٥٣٦

وعندما يصدر هذا الأدب من الأعلى لمن هو دونه، أو من الكبير للأصغر منه سناً، فإنه يكون أوقع في النفس وأحب، فكيف عندما يصدر من رسول لأحد أتباعه، وها هو ﷺ ينادي أبي بن كعب بكنيته فيقول له: يا أبا المنذر! أتدري أي آية في كتاب الله أعظم؟... الحديث.[1]

بل وينادي أبا ذر بكنيته ـ حتى في حال غضبه عليه فيقول: «يا أبا ذر! أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»... الحديث.[2] بل قد تقدمت قصة حواره مع عتبة بن ربيعة ـ وهو مشرك كافر ـ ومع ذلك كان يناديه ـ ويكرر ذلك مراراً ـ بكنيته التي يحبها فيقول له: «قل يا أبا الوليد» ـ «أو قد فرغت يا أبا الوليد» ـ «قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك».[3]

بل قد كان ذلك منه ـ ﷺ ـ حتى مع فرعون هذه الأمة «أبو جهل»، فقد ذكر المغيرة بن شعبة أنه بينما يمشي هو وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقيهما رسول الله ﷺ فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم! هلم إلى الله وإلى رسوله، إني أدعوك إلى الله... إلخ[4].

والمقصود أن اختيار العبارات المناسبة، وانتقاء الألفاظ اللطيفة، وحسن العتاب، وحسن المناداة، مع لين الكلام وطيب المقال، مع تقديم اعتذار بالخطأ والتقصير، وسماحة وتودد للطرف المقابل، كل ذلك من الهدي النبوي، ومن الأدب الرفيع الذي يطمئن خواطر الآخرين، ويستل ما قد يكون في نفوسهم من عناد أو حقد أو مكابرة.

---

(١) أخرجه مسلم: المسافرين ١/٥٥٦ رقم ٢٥٨، أبو داود: الصلاة ١٤٦٠ ، أحمد ٥/ ١٤٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٠.

(٣) تقدم ذكرها في مبحث «حسن الاستماع» والقصة حسّنها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ١١٣.

(٤) القصة أخرجها البيهقي في «دلائل النبوة»: (٢/٢٠٧) وإسنادها حسن.

وينبغي للمحاور ألا يغفل عن هذا أو ينساه حتى في أصعب الحالات على النفس وأشدها، وليجعل حكمته في قول الله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾[1]، وليتلطف كما تلطف أبو شريح خويلد بن عمرو الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ حيث قال لعمرو بن سعيد بن العاص وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به... ثم أخبره بحديث حرمة القتال في مكة.[2]

قال ابن دقيق العيد: (فيه حسن الأدب في المخاطبة للأكابر لا سيما الملوك فيما يخالف مقصودهم، لأن ذلك يكون أدعى للقبول، لا سيما في حق من يعرف منه ارتكاب غرضه، فإن الغلطة عليه قد تكون سبباً لإثارة نفسه ومعاندة من يخاطبه)[3] اهـ.

---

(١) الإسراء: ٢٨.

(٢) تقدم في مبحث «تأكيد القضية» في الباب السابق.

(٣) انظر أحكام الأحكام: ٣/ ٢٣.

المبحث الثاني

التذكير والوعظ

إن بعض الخصوم قد لا تنقصهم الحقائق، ولا يحتاجون إلى كثير من المعلومات، فقد تكون مقررة لديهم ذهنياً، ولكن يأبون الاعتراف بها، أو يرون في ذلك عيباً أو ذلاً، فعلى المحاور أثناء تبيينه للإدلة وعرضه للقضية أن يمزج معها شيئاً من التذكير ولوناً من المواعظ المؤثرة، والتي تطرق قلوبهم كما تطرق الأدلة عقولهم، وإذا ما نجح المحاور في هذا باستخدام الترغيب أو الترهيب، فخاطب العقل بالعلم والروح بالذكر، فستتهيأ نفسية الخصم لقبول الحق، وتكون أقرب إلى التجرد عن الهوى، والبعد عن الكبر والعناد.

وكثيراً ما استخدم هذا الأسلوب في القرآن، فخاطب المعاندين من أهل الكتاب أو المشركين أو غيرهم، وذكرهم بنعم مختلفة، وحذرهم من الكفر والمعصية، وخوفهم من المصير يوم القيامة، كل ذلك مع جدالهم وتفنيد شبههم ودحض افتراءاتهم ومن أمثلة ذلك:

ـ تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ـ والتي ينبغي مقابلها بالشكر والإيمان ـ ومنها تفضيلهم على العالمين، وإنجاؤهم من آل فرعون، بل وإغراق عدوهم، وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وإحياؤهم بعد موتهم وتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى، وتفجير الينابيع من الأرض.. إلخ النعم التي ذكرها الله في آيات عديدة من سورة البقرة

وغيرها، كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ . . .﴾[1].

ـ ومرة أخرى يذكرهم بعاقبة الكفر والعصيان، ويضرب لهم أمثلة بمن عصى أو كفر منهم وكيف كانت عاقبته: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2] وكما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾﴾[3].

ـ ومرة يذكرهم باليوم الآخر ليكون رادعاً لهم عن تكذيبهم وإعراضهم كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4] وغيرها من الآيات في هذا الباب.

ـ ومثل هذا تذكير المشركين في مواقف عديدة بقدرة الله ووحدانيته وألوهيته، وتخويفهم من عذابي الدنيا والآخرة كما في الآيات المختلفة في سورة الأنعام ومنها:

ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[5].

ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم

---

(١) البقرة: ٤٦ وما بعدها إلى ٦٤.
(٢) البقرة: ٦٥ـ٦٦.
(٣) النساء: ٤٧.
(٤) البقرة: ٤٨.
(٥) الأنعام: ٤٠ـ٤١.

بِهِۦٓ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (١).

ـ ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (٢).

ويلاحظ توجيه الآيات للمشركين وأمر النبي ﷺ بأن يحاورهم ويحاجهم بها، لما فيها من الحجج والبينات مع الوعظ والتذكير، والترهيب والتخويف.

ـ وأما الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه فقد استخدموا هذا الأسلوب كثيراً، فتارة يذكرون بالفضائل والنعم المشهودة المحسوسة من التمكين في الأرض وتسخير خيراتها، بإرسال الأمطار، وإنبات الزرع والثمار، وتوفير أماكن السكن والإقامة، وبسط الأجسام، والإمداد بالأموال والبنين وتكثير العدد ونحو هذا.

وتارة يذكرون بعذاب الدنيا وأخذ الله الظالمين بصور مختلفة من الإهلاك: فمنهم من أهلك بالسنين ونقص الخيرات والثمرات، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أغرق، ومنهم من خسف به وهكذا.

وتارة يذكرون مع ذلك بعذاب الآخرة، والوقوف بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف على النار، وتطاير الصحف، وقراءة الكتب، ومناقشة الحساب، وذهاب الأموال والسلطان، وغير ذلك من مشاهد اليوم الآخر.

---

(١) الأنعام: ٤٦ـ ٤٧.

(٢) الأنعام: ٦٣ـ ٦٥.

ـ فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾[1].

وفي موقف آخر معهم يخبر عنه بقوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾[2].

وهكذا حاول نوح أن يسلك كل طريق للهداية، وأن يصل إلى قلوبهم وعقولهم وآذانهم بشتى الوسائل ومختلف الأساليب، في دأب طويل، وصبر جميل، باختيار الكلمات المؤثرة والعبارات الموحية من الوعظ والترقيق والتذكير بالله ونعمه وفضائله.

ـ وهود عليه السلام ـ يذكر قومه تارة بنعمة جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام وزادهم بسطة في الخلق: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾[3]

ومرة أخرى يذكرهم بأمر آخر فيقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾[4].

---

(١) هود: ٢٦.

(٢) نوح: ١٠ـ ٢٠.

(٣) الأعراف: ٦٩.

(٤) هود: ٥٢.

ـ ومثله فعل صالح عليه السلام حين قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1].

ـ وأما شعيب ـ عليه السلام ـ فلفت نظرهم إلى نعمة تكثيرهم، وإلى النظر في عاقبة المفسدين: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾[2].

ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وهود وصالح ولوط عليه السلام فقد يفعل هذا في مثل تلك القلوب القاسية ما لم يفعله التوجيه العقلي اللين الذي يحتاج إلى رشد وتفكير: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾[3].

وهكذا يطوف بهم في دروب مختلفة، ومجالات متعددة من العظة والتذكر والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين[4].

ـ وهذا موسى ـ عليه السلام ـ يعظ قومه ويذكرهم، فيحشد لهم ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات[5]: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾[6].

---

(١) الأعراف: ٧٤.

(٢) الأعراف: ٨٦.

(٣) هود: ٨٩ـ ٩٠.

(٤) انظر الظلال: ٤/ ١٩٢١.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٨٦٩.

(٦) المائدة: ٢٠.

وفي موضع آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾[1] ... الآيات.

وفي موقف المناظرة والتحدي لا ينسى هذ الأدب والأسلوب النافع فهو يخاطب السحرة قبل دخول مباراة التحدي، ويبذل لهم النصيحة ويحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يتوبون إلى الله ويدعون التحدي بالسحر والدجل: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾[2].

ومؤمن آل فرعون الذي دافع عن موسى وحذر قومه من عواقب الكذب والإعراض، يذكرهم بنعمة الملك أولاً، ثم يخوفهم مصيراً كمصير قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، ثم يتبعهم بالتحذير من عذاب الآخرة يوم لا يكون لهم من الله من عاصم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ ـ ويقول أيضاً: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾.

ـ وقال ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[3].

وهكذا تمضي المواعظ وتفعل فعلها وتطرق القلوب وتلينها، اذا لم تطرق الحجج العقول وتنيرها.

فهو أسلوب نافع مجرب، سار عليه الأنبياء، فعلى المحاور أن يذكر ويحذر خصمه، ويرغبه في التجرد وطلب الحق والتسليم بالخطأ متى تبين

---

(١) إبراهيم: ٦.

(٢) طه: ٦١.

(٣) الآيات: ٢٩ـ ٣٣ من سورة غافر.

والإذعان لحكم الله ورسوله ـ ﷺ ـ ويرهبه من التعالي والتمادي في الباطل والكبر والغرور والانتصار للنفس، وها هو عمر ـ رضي الله عنه ـ لما يخبره عمار ـ رضي الله عنه ـ بقصة التيمم التي كانت بينهما، فلم يتذكرها عمر فيقول له: يا عمار، اتق الله[1] فلم يتردد عمر في تذكير عمار وتخويفه بالله وكلاهما صحابيان جليلان ـ رضي الله عنهما.

فاستخدام هذا الأسلوب ـ خاصة إذا كان قبل البدء في الحوار ـ له أهمية كبرى، وأثر يلمس على الطرف الآخر، وكل محاور يحتاج إلى أن يتقي الله في حواره، في كلامه وأحكامه وأدلته وأدبه حتى لا يخرج في شيء من ذلك عن الهدي النبوي، وحتى ينضبط الحوار ويحقق ثمرته.

---

(١) تقدم ذكرها في مبحث «الثبات» وغيره. ص ٢٣٣.

المبحث الثالث

التعريض والتلميح بدلاً عن التصريح

إن لفت النظر إلى الأخطاء من طرف خفي، وتجنب اللوم المباشر، وعدم تخطئة الطرف الآخر بعبارة صريحة، كل ذلك له أثره في تسليم الخصم للحق والرجوع عن الخطأ، فالنفوس غالباً لا تتحمل أن تواجه بقوة وصرامة، وهناك من الألفاظ الموحية والكلمات اللطيفة والتي تؤدي الغرض نفسه، دون جرح لمشاعر الآخرين، أو إشعارهم بالذل والهزيمة.

(ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المخطىء بطريق التعريض ما أمكن ويتجنب التصريح، بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة، ويورث الجرأة على الهجوم، ويهيج الحرص على الإصرار، والتعريض يميل النفوس الفاضلة والأذهان الزكية، إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به، ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته)[1].

ولقد استعمل هذا الأسلوب كثيراً، سواء في الكتاب أو السنة، فمن نماذجه القرآنية:

ـ أن موسى عليه السلام عرض بقومه حين ترددوا في ذبح البقرة

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٧١ بتصرف.

وأجابوا في سفاهة وسوء أدب، واتهموا نبيهم بأنه يسخر منهم ويستهزىء بهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ وكان رد موسى عليه السلام على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح؛ إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جلّ علاه، وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه[1]: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

ـ ومرة أخرى يستخدم موسى عليه السلام هذا الأسلوب عندما جاء قومه بالبينات فكذبوا وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾[3] فيرد عليهم رداً مؤدباً مهذباً، يلمح فيه ولا يصرح، وفي الوقت ذاته ناصع واضح، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل[4]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[5].

ـ وفي معرض مواجهة المشركين والرد عليهم، يلقن الله رسوله ـ ﷺ ـ هذا الأسلوب الحكيم، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[6] فهو يدعوهم إلى تدبر حالهم والنظر والتفكر وافتراض هلاكه ومن معه، حيث أنهم لو حصل هذا، ما نفعهم شيئاً أن تتحقق أمانيهم في هلاكه، ولا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال، (ولكنه لا يقول لهم: فمن يجيركم من عذاب

---

(١) الظلال: ١/٧٨.
(٢) البقرة: ٦٧.
(٣) القصص: ٣٦.
(٤) انظر الظلال: ٥/٢٦٩٤.
(٥) القصص: ٣٧.
(٦) الملك: ٢٨.

أليم؟ ولا ينص على أنهم كافرون، إنما يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.. وهو أسلوب في الدعوة حكيم، يخوفهم من ناحيته، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية، فلو جابههم بأنهم كافرون، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم.. فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد. ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعل في النفس من أسلوب التصريح)[1].

ـ وكذا يلمح يوسف عليه السلام ـ بالسجينين بعد أن يتودد إليهما، ليدخل من مؤانستهما إلى صلب الدعوة وتصحيح العقيدة، ولكن لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنما يعرضها قضية موضوعية: فيقول لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾؟﴾[2].

ـ ولعل من شواهد هذا: الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب، ذلكم الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول، إنه سؤال من الجبار سبحانه موجه إلى عيسى، وموضوع السؤال هو اتخاذه وأمه إلهين من دون الله ـ وحاشاهما من ذلك ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ؟﴾[3]، وهذا السؤال في هذه الصورة وفي الإجابة عليه يزيد من بشاعة وموقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم.[4]

---

(١) الظلال: ٦/ ٣٦٤٧.
(٢) يوسف: ٣٩.
(٣) المائدة: ١١٦.
(٤) انظر الظلال: ٢/ ١٠٠١.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[1] يقول الزمخشري ما ملخصه:

(إن أحد الفريقين على أحد الأمرين من الهدى والضلال، وقد تقدم ما يدل دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا، ومنه بيت حسان:

اتهجـــوه ولســـت لـــه بكـــفء فشـركمـا لخيـركمـا الفـداء.)[2]

ـ وقد تقدمت الإشارة سابقاً إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا. . .﴾[3] وقول الزمخشري فيها: (أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، ودفع ما انتحلوه، فقيل: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، وروعي في هذا التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه فلم يقل كذبتم، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح.) اهـ[4].

ـ وأما أمثلة السنة فمتعددة أيضاً في استخدام هذا الأسلوب، فالنبي ـ ﷺ ـ كثيراً ما يعرض بذكر آية أو كلمة أو نحوهما، ويقصد بها الإشارة إلى معنى خفي يفهمه السامع ويستفيده دون أن يصرح له به أو يواجهه بخطئه، أو يجرحه بكلمة أو عبارة: فلما نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ:

---

(١) سبأ: ٢٤.
(٢) الكشاف: ٣/ ٢٨٩.
(٣) الحجرات: ١٤.
(٤) الكشاف: ٣/ ٥٧٠.

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ . . ﴾[1] فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ حتى بركوا على الركب فقالوا: يا رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها: قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[2] . . . » الحديث.

فهو هنا يعرض بالصحابة أن يشابهوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فيعاقبوا بمثل عقوبتهم.

ـ ولما دخل على علي وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ ليلاً. فقال: «ألا تصلون؟» فقال علي: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[3][4].

فهنا مع تعجبه من جواب علي، وعدم موافقته له على الاعتذار بذلك[5] إلا أنه لا يعنفه ولا يزجره، وإنما يكتفي بالتعريض بفعله والإشارة إلى جدله بقراءة الآية. . .

ـ ولما كان في مرض موته ـ ﷺ ـ فحضرت الصلاة فأذن، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادت له، فأعاد الثالثة

---

(١) البقرة: ٢٨٤.
(٢) أخرجه مسلم: الإيمان ١/ ١١٥ رقم ١٩٩، أحمد ٢/ ٤١٢.
(٣) الكهف: ٥٤.
(٤) أخرجه البخاري: التهجد: ١١٢٧، ومسلم: المسافرين ١/ ٥٣٨ رقم ٢٠٦، النسائي: قيام الليل ٣/ ٢٠٥ رقم ١٦١١.
(٥) شرح النووي: ٦/ ٦٥.

فقال: «إنكن صواحب يوسف ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس[1]...» الحديث.

والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، ووجه المشابهة أن زليخا ـ امرأة العزيز ـ استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك أن لا يتشاءم الناس به.[2] ففي هذا تعريض بفعلها وإشارة إلى ما قصدته في الباطن وأنه خلاف لما قيل في الظاهر.

واستعمل هذا الأسلوب الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، فبينما عمر يخطب الجمعة إذ دخل عثمان فعرض به عمر فقال: ما بال رجال يتأخرون بعد النداء، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين: ما زدت حين سمعت النداء أن توضأت ثم أقبلت. فقال عمر: والوضوء أيضاً. ألم تسمعوا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل».[3]

فهذا واضح فيه التعريض بالطرف الآخر، وإنما فعل عمر ذلك اتباعاً لمنهج النبي ﷺ في مثل هذه الحالات.

ـ وفي مسألة المتعة في النكاح، قام عبد الله بن الزبير بمكة فقال: إن ناساً أعمى الله قلوبهم، كما أعمى أبصارهم، يفتون بالمتعة. يعرض برجل[4]، فناداه فقال: إنك لجلف جاف. فلعمري لقد كانت المتعة تفعل

---

(١) أخرجه البخاري: الأذان ٦٦٤، مسلم: الصلاة ١/٣١٣ رقم ٩٤، النسائي: الإمامة ٢/ ٩٩ رقم ٨٣٣، أحمد ٦/ ١٥٩.

(٢) الفتح: ٢/ ١٥٣ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري: الجمعة ٨٧٨، مسلم: الجمعة ٢/ ٥٨٠ رقم ٤، أحمد ١/ ٢٩.

(٤) قال النووي: يعني يعرض بابن عباس (شرح مسلم: ٩/ ١٨٨).

على عهد إمام المتقين ـ ﷺ ـ فقال له ابن الزبير: فجرب بنفسك. فوالله لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارك[1].

وهذا فيه تعريض كالذي قبله، حيث استخدم ابن الزبير هذا اللفظ (إن ناساً) ولم يذكر اسم المردود عليه.

ـ وفي قصة الحديبية لما زعم عروة بن مسعود أن الصحابة سيفرون ويدعون النبي ﷺ إن هزم، فعندها قال أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟... الحديث[2]

ـ ونقل في الفتح عن ابن المنير أن في هذا القول من أبي بكر تعريضاً بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بأنها لو كانت بنتاً لكان لها ما يكون للإناث.[3]

والمقصود أن التلميح من بعيد والتعريض بالخصم أو بالخطأ، بدلاً عن التصريح والتجريح، يجعل من الهين على الشخص الآخر أن يصحح خطأه، ويحتفظ له بكبريائه، ويشيع فيه إحساساً بأهميته، ويسلس قياده، ويدفعه إلى التعاون بدلاً من أن يحفزه إلى الثورة والعناد، وهو أفضل من نقد صريح وإصدار أوامر بوجوب الاعتراف بالأخطاء والرجوع إلى الحق.

---

(١) أخرجه مسلم: النكاح ٢/١٠٢٦ رقم ٢٧.
(٢) تقدم تخريجه ص ٦٢، ٣٠٦.
(٣) الفتح: ٥/ ٣٤٠.

المبحث الرابع

أدب السؤال

إن الحوار لا بد أن تطرح فيه أسئلة، وتعرض في أثنائه استفهامات، تزيد الأمر إيضاحاً، أو تذكر بدليل أو تنبه إلى قضية، فلا غنى للمتحاورين عن السؤال، ولذلك يلزم المحاور أن يتعلم شيئاً من أدب السؤال، حتى ينضبط حواره ويتسم بحسن الأدب وطيب المقال وكما قيل: (أدب السائل أنفع من الوسائل)[1] وقال ابن حجر: (العلم سؤال وجواب، ومن ثم قيل: حسن السؤال نصف العلم)[2].

وللسؤال أغراض متعددة، فأحياناً يكون للتعرف على المحاور وأحواله ومنزلته وعلمه، كما في سؤال النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «من القوم»[3] ونحوه.

وأحياناً يكون القصد منه الوصول إلى معلومة مهمة أو أمر ينفع في ترتيب المعلومات في أثناء الحوار، والتدرج منها إلى غيرها، كما وقع ذلك من ضمام بن ثعلبة، حين سأل: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟... ثم استحلف بخالق هؤلاء على ما يريد التثبت منه[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٩/٣٩٨.

(٢) الفتح: ١/١٤٢.

(٣) تقدم ذكره في المبحث «تهيئة الجو المناسب» وتقدمت أمثلة غيره. ص ١٢١.

(٤) تقدم تخريجه في مبحث «تهيئة الجو المناسب» أيضاً ص ٧٧.

وأحياناً يكون الغرض منه مراجعة الطرف الآخر في معلومة ونحوها، حتى يتبين جوانب الموضوع وملابساته كما ستأتي أمثلته.

وأحياناً يكون الاستفهام تقريرياً، بأن يكون عن مقدمات بينة برهانية وحقائق مؤكدة لا يمكن لأحد أن يجحدها، وتدل على المطلوب إثباته، وتقرر الخصم بالحق والاعتراف بإنكار الباطل[1]، كما في قوله تعالى مثلاً: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[2].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[3] وأحياناً يكون الغرض منه الإنكار على الخصم وزجره، وستأتي أمثلته.

ومن أهم الآداب التي ينبغي للسائل أن يتأدب بها مع محاوره ما يلي:

١ ـ التقدمة بين يدي السؤال، والاعتذار قبل طرحه، لا سيما إن كان السؤال محرجاً أو دقيقاً أو ستتلوه أسئلة أخرى مهمة ـ قد يتضايق منها المسؤول ـ فلا بأس أن يذكر السائل عبارة تدل على حسن أدبه واحترامه وتقديره، وقد تقدمت الإشارة إلى حسن أدب ضمام بن ثعلبة، ومن ذلك أنه قدم بين يدي سؤاله بمقدمه لطيفة حيث قال النبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل ما بدا لك.[4]

ومن ذلك تقدمة أم سليم ـ رضي الله عنها ـ حين أرادت أن تسأل عن

---

(١) انظر مناهج الجدل ص ٧٦.
(٢) يس: ٨١.
(٣) البلد: ٨ـ ١٠.
(٤) تقدمت الإشارة إليه آنفاً.

احتلام المرأة فبدأت بقولها: (يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق)[1]... إلخ.

٢ ـ اختيار الصيغة المناسبة، ـ وإيضاح السؤال وعدم إبهامه ـ، فلا ينبغي أن تكون عبارة السؤال قبيحة أو ركيكة أو غير مفهومة، أو لا تؤدي المعنى الذي يريده السائل، أو تحتمل عدة معان، أو غير ذلك مما يؤثر في موضوع السؤال أو في نفسية المسؤول، ومن الأسئلة الحسنة التي أعجبت سامعها في موضوعها وصيغتها وحسن عبارتها، سؤال ذلك الأعرابي الذي عرض للنبي ﷺ وهو في سفر ثم قال: يا رسول الله! أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه. ثم قال: «لقد وفق أو لقد هدى» قال «كيف قلت؟» فأعاد. فقال النبي ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم». [2]

ومثله سؤال ذي اليدين حين سها النبي ﷺ في الصلاة فقال له: «يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟». [3]

٣ ـ أن يكون الغرض من السؤال غرضاً شرعياً صحيحاً لا يقصد منه التعنت وإضاعة الوقت أو تشتيت الموضوع أو نحوه، وأن يتبين به جوانب الموضوع وملابساته كما كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، فلما سمعت النبي ﷺ يقول: «من حوسب عذب. قالت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

---

(١) أخرجه البخاري: الغسل ٢٨٢، مسلم: الحيض ١/ ٢٥١ رقم ٣٢، النسائي: الطهارة ١/ ١١٢ رقم ١٩٦، وأخرجه ابن ماجه: الطهارة ١/ ١٩٧ رقم ٦٠٠، أحمد ٦/ ٩٢.

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان ١/ ٤٣ رقم ١٢.

(٣) تقدم ذكره في مبحث «التثبت» ص ٣٤٧.

يَسِيرًا ﴿٨﴾[1] فقال: «إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك»[2]

قال ابن حجر: (وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم معاني الحديث، وأن النبي ﷺ لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم. وفيه جواز المناظرة ومقابلة السنة بالكتاب...)[3]

إذاً فلا بد من السؤال والاستيضاح قبل الحكم أو الاعتراض، ولا بأس بتعدد الأسئلة وتنوعها حسب الحاجة إليها، حتى يتضح الأمر جلياً كما في حديث النعمان بن بشير، حين أراد أبوه أن يهبه شيئاً من ماله، فأتى النبي ﷺ فأخبره بما عزم عليه فقال له النبي ﷺ: «يا بشير ألك ولد سوى هذا؟» قال: نعم. فقال: «أكلهم وهبت له مثل هذا؟» قال: لا! وفي رواية: قال: «أليس تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا؟» قال: بلى، قال: «فإني لا أشهد على جور».[4]

٤ ـ اختصار السؤال وعدم ذكر تفصيلات وجزئيات لا داعي لها ولا تؤثر في المعنى، حتى لا يضيع الوقت، ولا ينسى أصل موضوع السؤال، وكذلك الاقتصار في الأسئلة على ما يتعلق بالموضوع، وعدم الإكثار منها أو تعددها بما لا حاجة فيها أو تكرارها عدة مرات فكل ذلك ينافي أدب السؤال ويذهب روح الحوار.

٥ ـ إذا واجه المحاور خصماً سيء الأدب، ولا يحسن يسأل، فلا بأس من أن يلقنه آداب السؤال في أثناء الرد عليه، ومن هذا الباب ما

---

(١) الانشقاق: ٨.

(٢) أخرجه البخاري: العلم ١٠٣، مسلم: الجنة ٤/٢٢٠٤ رقم ٧٩، أبو داود: الجنائز ٣٠٩٣، الترمذي: القيامة ٤/٦١٧ رقم ٢٤٢٦، أحمد ٦/٤٧.

(٣) الفتح: ١/١٩٧.

(٤) أخرجه مسلم: الهبات ٣/١٢٤٢ رقم ٩، النسائي: النحل ٦/٢٥٩ رقم ٣٦٧٦، أحمد ٤/٢٦٨.

فعله موسى عليه السلام مع قومه عندما أمرهم بذبح البقرة، فسألوه قائلين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ؟﴾[1].

فسؤالهم هذا فيه سوء أدب من جوانب عدة حيث يشعر بإنكارهم واستهزائهم، وعدم التسليم لربهم وتصديق رسولهم، كما أنهم لم يحسنوا اختيار العبارة، حيث قالوا: «ادع لنا ربك» فكأنما هو ربه وحده، وكأن المسألة لا تعنيهم إنما تعني موسى وربه، ثم يسألون عن ماهية البقرة، وهذا لا فائدة منه ولا طائل تحته، فما كان منه إلا أن سلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال، فهو لم يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جدل شكلي، وإنما أجابهم عن صفة البقرة، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي[2]: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[3].

٦ ـ وهناك مواضع يكره فيها السؤال، ذكر الشاطبي عشرة منها[4]، وملخص أهمها:

ـ السؤال عما لا ينفع.

ـ أن يسأل عن زيادة لا فائدة منها، بعدما بلغ من العلم في المسألة حاجته.

ـ السؤال من غير احتياج إليه عند وقت السؤال.

ـ أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق الزائد عن حده.

ـ أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي.

ـ سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام.

---

(١) البقرة: ٦٨.

(٢) انظر الظلال: ١/٧٨.

(٣) البقرة: ٦٨.

(٤) انظر الموافقات للشاطبي: ٤/١٨٨.

ـ ويتعلق بموضوع السؤال استخدام الاستفهام الاستنكاري مع الخصم، وهو أن ينكر عليه قول أو فعل عن طريق السؤال فلا يملك جواباً، لما تحويه تلك الأفعال والأقوال من فساد يعرف بداهة، أو تناقض وخلط.

ولقد استخدم هذا الأسلوب في القرآن كثيراً مع أصناف المعاندين من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين وغيرهم: فمن استعماله مع أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾[1] وقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥﴾[2] وقوله أيضاً: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾[3] إلى غير ذلك من الأمثلة.

ومن استعماله مع المشركين قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾[5] ففي هذه الأسئلة استنكار واستخفاف بأولئك المغرضين المعاندين[6].

---

(١) آل عمران: ٧٠ـ ٧١.
(٢) آل عمران: ٦٥.
(٣) المائدة: ٥٩.
(٤) البقرة: ٢٨.
(٥) سبأ: ٢٧.
(٦) انظر الظلال: ٥/٢٩٠٦.

ومن استعماله مع المنافقين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

ولقد استعمل الرسل مع أقوامهم أسئلة كثيرة لمثل هذا الغرض، ـ أي إنكاراً على القوم وتبكيتاً لهم وإلزاماً لهم بالحجة، وقطعاً لباطلهم ودحضاً لشبهاتهم ـ.

كما قال إبراهيم لقومه في سؤاله لهم عن الأصنام التي كانوا يعبدون: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[2] وكما قال لوط لقومه منكراً عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[3] وأمثلة هذا كثيرة جداً وإنما المقصود أن المحاور قد يحتاج إلى استخدام الاستفهام الاستنكاري إذا دعته الحاجة. وأحوج الخصم نفسه لمثل هذا الأسلوب.

---

(١) التوبة: ٦٥.
(٢) الشعراء: ٧٢ـ ٧٣.
(٣) الشعراء: ١٦٥ـ ١٦٦.

المبحث الخامس

ذكر المبررات عند الاعتراض

قد ينكر المحاور قولاً أو فعلاً ويعترض على دليل أو شبهة، فلا بد من بيان أسباب الاعتراض، وتوضيح مبررات ذلك الإنكار، ولا يكفي أن يُخطِّأ الرأي الآخر أو يسفه أو يحقر بمجرد الهوى أو بالألفاظ الغليظة ورفع الصوت ونحوه، فإن كل ذلك لا يغني من الحق شيئاً، والمحاور العاقل لا بد أن يحترم الآراء ويقدر الأفهام ويراعي الحقائق، فإذا أنكر بأدب، وإذا اعترض فبسبب، وإذا استدرك على خصمه فبلباقة وحسن أداء، فإن ذلك مما يساعد النفوس على التنازل عن آرائها القديمة، والتجرد في النظر إلى اعتراضات الطرف الآخر ومبرراته وأسبابه.

ـ فهذا إبراهيم عليه السلام لما أراد دعوة قومه إلى توحيد رب العالمين، وأنكر عليهم عبادة الأصنام والتماثيل، ومن ثم أعلن عداوته لها، برر لهم ذلك فقال عن آلهتهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[1]. فهذه مبررات ترك هذه الآلهة وعداوتها، وأما مبررات وأسباب توحيده وعبادته لربه فبينها بعد ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

(١) الشعراء: ٧٢ـ٧٣.

يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[1].

ـ وفي الحوار بين النبي ﷺ وعبد الله بن عمرو بن العاص، حيث كان يصوم الدهر ويقرأ القرآن كل ليلة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك ثم قال له: «فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام» فقال: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزَوْرِك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، فصم صوم داود نبي الله فإنه كان أعبد الناس...» الحديث[2].

فهنا ذكر عبد الله مبرراته في تلك الأفعال فقد كان يكرر قوله: (إني أطيق أفضل من ذلك)، وذكر النبي ﷺ مبررات أيضاً: عند نصح عبد الله وتوجيهه فقد بين أن هناك حقوقاً ربما تفوت بفعل عبد الله، كحقوق الزوجة والضيف والجسد.

ـ ولما أراد سعد بن أبي وقاص أن يوصي بثلثي ماله ثم بنصفه، فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك ووجهه للتصدق بالثلث، مع بيان أنه كثير أيضاً ثم برز نهيه عن ذلك بقوله: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[3] ... الحديث.

ـ ولما وقع الخلاف بين الصحابة في أمر تعيين الخليفة بعد وفاة النبي ﷺ، وقال الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير، ثم قام أبو بكر

---

(١) الشعراء: ٧٧ـ ٨٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٤٦ (والزَوْر: هم الزائرون. انظر الصحاح: ٢/ ٦٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: الجنائز ١٢٩٥، مسلم: الوصية ٣/ ١٢٥٠ رقم ٥، النسائي: الوصايا ٦/ ٢٤٣ رقم ٣٦٣٠، ابن ماجه: الوصايا: ٢/ ٩٠٣ رقم ٢٧٠٨، أحمد ١/ ١٦٨.

فتكلم وقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن منذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة[1]...

ـ ولما بين النبي ﷺ حرمة مكة في عام الفتح، وأنها لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد، فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الأذخر يا رسول الله فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا فقال النبي ﷺ «إلاّ الأذخر»[2].

فهذا الاستدراك من العباس ذكره مع ذكر مبرراته وأسبابه، وهي حاجتهم للأذخر في بيوتهم وقبورهم، فقبل منه النبي ﷺ واستجاب لطلبه.

وقد يكون المبرر الذي يذكر عند الاعتراض دليلاً شرعياً، وقد تقدم مبحث مستقل يتعلق بالدليل، مما لا يحتاج إلى ذكر أمثلة لأدلة ذكرت عند الاعتراض.

وأنما المقصود أن المحاور إذا استدرك واعترض فيجدر به أن يبين أسباب ذلك ومبرراته، ليقبل الاعتراض منه، وليتراجع الطرف الآخر عن موقفه ورأيه.

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري: العلم: ١١٢، مسلم: الحج ٢/٩٨٦ رقم ٤٤٥، أبو داود: المناسك ٢٠١٧، النسائي: الحج ٥/٢٠٣ رقم ٢٨٧٤، ابن ماجه: المناسك ٢/١٠٣٧ رقم ٣١٠٨، أحمد ١/٢٥٣.

المبحث السادس

طلب الإنظـار وعدم الاستعجال

قد تقدم مبحث خاص في بيان ضرورة حسن الاستماع إلى الطرف الآخر والإنصات إلى حججه وأدلته، بتجرد وصدق في صبر وإخلاص، وقد ذكر العلماء في آداب المناظرة: (ألا يتعرض أحدهما لكلام الآخر حتى يفهم مراده من كلامه)[1]، وكذا ألا يكون متسرعاً يقصد إسكات خصمه في زمن يسير، لأن ذلك يفسد عليه رويته الفكرية، ويبعده عن منهج المنطق السديد، والتفكير في الوصول إلى الحق.[2]

ولكن قد يبتلى المحاور بخصم عجول لا يحسن الاستماع ولا يجيد الإنصات، يقاطع أثناء الكلام، ويرد قبل أن يفهم، ويجيب قبل أن ينتهي السؤال، فعند ذلك ينبغي للمحاور أن يطلب من خصمه الانتظار والاستماع بهدوء وعدم استعجال، وبترك المقاطعات والتدخلات.

وأحياناً قد لا يكون الطرف الآخر كذلك، ولكن يريد المحاور أن يؤكد أمر الانتظار والتمهل، ويخشى من استعجال محاوره فلا بأس بأن يذكره بطلب الإنظـار ويؤكد عليه بعدم الاستعجال.

ـ ومن أمثلة هذا قصة حاطب بن أبي بلتعة ورسالته إلى بعض

---

(١) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: ٢/٧٦.
(٢) ضوابط المعرفة للميداني: ص ٣٨٣.

المشركين التي يخبرهم فيها بمقدم رسول الله ﷺ فلما أتي النبي ﷺ بالكتاب فقال: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله... الحديث.[1]

فهنا خشي حاطب أن يتعجل النبي ﷺ في الحكم عليه أو الظن به، فطلب الإنظار حتى يبين عذره ويوضح ملابساته.

ـ ومنه حديث مسروق عندما كان عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، فقال لها: وما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ـ ﷺ ـ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست. فقلت: يا أم المؤمنين: أنظريني ولا تعجليني. ألم يقل الله عزّ وجلّ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[2] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[3]... الحديث[4].

ـ ولما اختصم علي والعباس إلى عمر ـ رضوان الله عليهم ـ فجاءا ليحكم بينهما في مسألة الميراث، فقال عمر: «اتئدا» أي: (اصبرا وانتظرا) أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض. أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث، ما تركنا صدقة»... الحديث.[5]

فهذا أيضاً فيه طلب الإنظار من عمر للعباس وعلي، ثم استحلف الحاضرين على ما يريد إثباته من دليل عن رسول الله ﷺ، ثم استحلف العباس وعلي، حتى اقتنعا بعد أن استمعا وأنصتا.

ـ عن أنس بن سيرين قال: سألت ابن عمر. قلت: أرأيت الركعتين

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث العدل والإنصاف ص ١٤٨.
(٢) التكوير: ٢٣.
(٣) النجم: ١٣.
(٤) تقدم ذكره في «الرد على الشبه بما يناسبها» ص ٣٥٩.
(٥) تقدم ذكره أيضاً ص ١٥٣ ـ ٢٥١.

قبل صلاة الغداة أأطيل فيهما القراءة؟ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى مثنى ويوتر بركعة. قال السائل: إني لست عن هذا أسألك. فقال ابن عمر: إنك لضخم. ألا تدعني أستقرىء لك الحديث؟ كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى مثنى ويوتر بركعة ويصلي ركعتين قبل الغداة. كأن الأذان بأذنيه[1].

فهنا يعجل السائل فيقاطع ابن عمر قبل إتمامه للحديث، ولذلك أغلظ عليه ابن عمر وقال: «إنك لضخم» لأنه قطع عليه الكلام وعاجله قبل تمام حديثه[2].

إلى غير ذلك من النماذج التي تشير إلى أنه لا بأس للمحاور أن يذكر خصمه ويهدىء، ويطلب منه الانتظار وعدم الاستعجال، فإن ذلك من مصلحة استمرار الحوار ونجاحه.

---

(١) أخرجه مسلم: المسافرين ١/ ٥١٩ رقم ١٥٧.

(٢) شرح النووي: ٦/ ٣٣ بتصرف.

المبحث السابع

ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق

إن الكلام عن النفس ومدحها والثناء عليها، مذموم غالباً، ولا يحب الناس أن يسمعوا ممن يملأ آذانهم بمناقبه وسيرته وأحواله وتقلباته، بل إن من يفعل ذلك ويفرح به ويكثر منه، يعد ناقصاً في عقله، أو ربما فاسداً في نيته وقصده.

وكما قال الإمام مالك: (إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه)[1].

وقد نهى الله عزّ وجلّ عن تزكية النفس والتمدح بطهارتها فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾[2]، وعاب أناساً فعلوا ذلك فقال فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾[3].

ـ وفي المقابل فإن مدح الآخرين وإطراءهم والثناء عليهم بما ليس فيهم، وتجاوز الحد في ذلك، كل هذا مذموم ممقوت أيضاً، فقد ذكر رجل عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: ويحك، قطعت عنق صاحبك ـ يقوله مراراً ـ إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/١٠٩.

(٢) النجم: ٣٢.

(٣) النساء: ٤٩.

كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحداً[1]» ويتأكد النهي عن ذلك إذا كان في وجه الممدوح وهو يسمع المدح والإطراء، وكذا إذا خيف على الممدوح العجب والغرور والفتور عن العمل اتكالاً على ما وصف به، بل قد كان السلف يعتبرون تزكية الجليس لجليسه إيذاء له[2]. كما كانوا يحترزون من مثل هذا، فعن أنس قال: بعثني أبو موسى الأشعري إلى عمر، فقال لي: كيف تركت الأشعري؟ قلت: تركته يعلم الناس القرآن. فقال عمر: أما إنه كيِّس! ولا تسمعها إياه[3].

ولكن قد تكون هناك حالات يحتاج فيها المحاور إلى أن يثني على نفسه بالحق، لتحقيق غرض معين، كأن يشعر خصمه بمقدار علمه في موضوع الحوار أو في مسألة من مسائله، أو لينفي عن نفسه تهمة أو طعناً في صدقه وأمانته أو نحو ذلك، فهنا قد يسوغ ذكر شيء من محاسن النفس بقدر وبحق، مع التأكد من سلامة النفس من أمراض القلوب من كبر وزهو وإعجاب ونحوها.

وكذا قد يحتاج المحاور إلى أن يثني على الطرف الآخر ـ بالحق ـ لتحقيق غرض معين، كأنه يكون القصد إشعاره بالتقدير والاحترام، والاعتراف بأهميته أو فضله أو علمه، حتى يكون ذلك طريقاً إلى إقناعه وتصحيح أخطائه، ولكن يحترز في مثل هذا من الإفراط في المدح بما ليس فيه، والتأكد من عدم تسلل الغرور والكبر إلى نفسه، فإن سلم المدح من مثل هذه الأمور لم يكن به بأس، وربما كان مستحباً[4].

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب ٦٠٦١، مسلم: الزهد ٤/٢٢٩٦ رقم ٢٦٥، أبو داود: الأدب ٤٨٠٥، أحمد ٥/ ٤١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٧٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩٠.

(٤) انظر الفتح: ١٠/ ٤٧٨.

ولعل من أمثلة هذا ما تقدم من تصريح المحاور لخصمه بأنه على علم، ومنها:

قول نوح ويعقوب عليهما السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1].

وقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾[2].

وقول الخضر لموسى: «يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه»[3].

وقول سهل بن سعد: (ما بقي في الناس أعلم مني)[4].

وفي جوانب الثناء على النفس ببعض ما فيها من خلق أو دين هذه بعض الشواهد:

ـ وصف كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام نفسه بالأمانة، فقد قال كل واحد منهم لقومه في بداية دعوته: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[5] ووصف يوسف عليه السلام نفسه بالحفظ والأمانة والعلم فقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[6].

ومن السنة: يصلح شاهداً لهذا حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل

---

(١) الأعراف: ٦٢، يوسف: ٨٦.

(٢) مريم: ٤٣.

(٣) تقدم تخريجه في مبحث «العلم» ص ٢٨٥.

(٤) تقدم ذكره في مبحث «العلم» ص ٢٨٥.

(٥) الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٦) يوسف: ٥٥.

أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

ـ وفي حادثة مماثلة قالت عائشة: (صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[2].

ـ وتقدم قريباً حديث اختلاف علي والعباس في أمر الميراث ومما قاله عمر لهما: «ثم توفي أبو بكر. وأنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر. فرأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله إني لصادق بار راشد تابع للحق. فوليتها... إلخ»[3] ـ وفي قصة غنائم حنين أثنى النبي ﷺ على نفسه بفضله على الأنصار فقال لهم: يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي...».

كما أنه أثنى عليهم بفضلهم وحسن صنيعهم، إذ قال لهم: أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقْتُم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك...»[4].

وقد ذكر الحافظ من فوائد الحديث: (جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة كخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك، ولا يكون ذلك من الفخر المذموم...)[5].

---

(١) أخرجه البخاري: النكاح ٥٠٦٣، مسلم: الفضائل ٤/ ١٨٢٩ رقم ١٢٧.
(٢) أخرجه البخاري الأدب: ٦١٠١، أحمد ٦/ ٤٥.
(٣) تقدم بعضه في مباحث متعددة منها المبحث السابق ص ٤٦٣.
(٤) الحديث أخرجه البخاري: ٤٣٣٠، مسلم: ١٠٦١ وتقدم ذكره.
(٥) الفتح: ٦/ ٢٥٤.

وقال في ثناء النبي ﷺ على الأنصار: (وإنما قال ﷺ ذلك تواضعاً منه وإنصافاً)[1].

إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة، والمراد أن من الآداب اللطيفة التي يمكن استخدامها في الحوار: الثناء على المحاور بما فيه لتحقيق مصلحة والثناء على النفس أحياناً عند الحاجة، إذا كان في ذلك كله فائدة تعود على الحوار وتحقق غايته.

---

(١) نفس المصدر: ٨/ ٥١.

المبحث الثامن

مباغتة الخصم وقطع الطريق عليه

قد يواجه المحاور خصماً عنيداً ذكياً، يثير الشبه ويجابه الحق بها، ويحسن التخلص من محاوره، ويتهرب من الأدلة والبينات، وإذا كان الحوار على ملأ من الناس فمن الصعب إقفال المناقشة وترك الحوار، إذ قد يظهر في ذلك نوع من الضعف أو الإفحام، وقد يخرج الخصم المعاند للحق، بصورة المنتصر أو صاحب الحجة والحق. عندها ينبغي للمحاور أن يفاجيء خصمه بحجج مسكتة، وحقائق مذهلة، تقطع عليه الطريق وتوقفه عند حده، وتخلط عليه أموره، فيتحير في الرد، ويتلعثم في الجواب وأقل ما يستفاد من ذلك أن يتوقف الحوار عند حد لا تظهر فيه الغلبة لأحد الطرفين.

وقد يكون الذي يفاجأ به الخصم دليلاً شرعياً ونصاً واضحاً، لا يمكن رده ولا تأويله[1].

وقد يكون حقيقة كونية أو معلومة بديهية، يصعب معارضتها، ويستحيل إنكارها.

وقد يكون إلزاماً للخصم بناء على دعواه، ورداً لدعواه من فحوى كلامه، أو إثبات لتناقضه.

---

(١) تقدم الكلام عن المبادرة بالدليل في مبحث «الدليل».

وقد يكون غير ذلك مما يمكن أن يباغت به الطرف الآخر، ويقطع عليه طريق المراء والجدل.

ولعل أبرز شاهد لهذا ذلكم الحوار الذي كان بين موسى عليه السلام ـ وفرعون: فلما كابر فرعون وعاند فادعى الألوهية من جهة، وأنكر وجود إله غيره من جهة أخرى، فكان هذا الحوار[1]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا سؤال المتنكر للقول، والمستغرب للمسألة كلها، وكأنه يراها غير ممكنة التصور، وغير قابلة لأن تكون موضوع حديث! فيجيبه موسى جواباً يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه، ويحمل استصغار ما يدعيه فرعون ـ من ألوهية ـ مع بطلانه، وتوجيه نظره إلى الكون الهائل والتفكير في ربه، ولذلك كان جواب موسى:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾. وهنا خاف الطاغية من تسرب كلمات الحق الصريحة إلى قلوب سامعيه، فيلتفت إليهم مظهراً التعجب: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فهنا لم يلبث موسى أن هجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾، وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه، فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه ورب أتباعه، فليس فرعون رباً ولا إلهاً. ولذلك لم يملك فرعون عليها جواباً إلا أن يتهم قائلها بالجنون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾. ولكن هذا التهكم لا يفت في عضد موسى، ولا يمنعه من أن يمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين، ويباغت فرعون وسط قومه ويقطع حجته: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

---

(١) انظر تفسير الآيات في الظلال: ٥/ ٢٥٩٢.

(٢) الشعراء: ٢٣ـ ٢٨.

ـ (والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافلة. ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب. فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ، بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين، فيلجأ إلى التهديد بالسجن، وهي علامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، ومع هذا يستمر موسى في ثقة ورباطة جأش، فيفتح الصفحة التي أراد فرعون إغلاقها بالتهديد، يفتحها موسى بحجة أقوى وبرهان جديد: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ أن يرفض الأدلة والبراهين، ولو فعل ذلك لدل على خوفه من حجة موسى، فاضطر إلى مسايرة موسى وطلب الدليل: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهنا يفاجئه موسى بأمر أكبر وبرهان أعظم: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾. وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها، وهو يحس ضعف موقفه ويكاد يتملق القوم من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه، ومن ثم يطلب أمرهم ومشورتهم:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ؟﴾[1] ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون، ولكنها شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون

---

(١) الآيات من سورة الشعراء: ٣٠ـ ٣٥.

بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون.)[1].

فهذا الموقف الضعيف من فرعون ما كان ولم يكن لولا براعة موسى ـ بتأييد الله له ـ في مباغتة فرعون بدليل تلو دليل، وقطع حججه واحدة بعد الأخرى، وإحراجه بما لم يكن يتوقعه، واستدراجه إلى معركة لم يحسب لها حساب.

وكذلك بعد هذا الموقف مباشرة كان التحدي باللقاء مع السحرة في اليوم المعلوم، الذي ثبت فيه موسى، وجاء بالمفاجأة المذهلة، حيث جاء السحرة من كل مكان بكل ما يملكون، وجاء موسى بعصاه، فإذا العصا تلقف وتأكل حبالهم وعصيهم في سرعة، حتى لا تبقى لها أثراً، عندها فاز موسى بالجولة الثانية إذ آمن السحرة كلهم أجمعون، فأسقط في يد فرعون وملئه وذعروا، ووقع عليهم هذا الحدث وقع الصاعقة، ولا سيما وكل ذلك يعرض على مشهد ومسمع من الجماهير المحتشدة.

وهكذا تبين أثر هذا الأسلوب وقيمته، مع أكبر المعاندين، فقوة الحق لا تغلبها قوة، والحجج والبراهين تقطع دابر المكذبين.

وقد تقدم في مناظرة الإمام الباقلاني لرهبان النصارى وكيف أنه فاجأهم ببعض الحجج، فقطع الطريق عليهم قبل أن تبدأ المناظرة، كما في قصته مع البطرك حيث سلم عليه أحفل سلام، وسأله أحفل سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد؟ فعظم قوله هذا عليه وعلى جميعهم، وتغيروا له وصلبوا وجوههم، وأنكروا قول الباقلاني عليه.

فقال القاضي: وما أنكرتم من كلامي. فقال الملك: إننا ننزه هؤلاء

---

(١) انظر الظلال: ٥/ ٢٥٩٣ـ ٢٥٩٤ بتصرف.

عن الصاحبة والولد. فقال القاضي: يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتربأون به عن ذلك، ولا تستعظمون لربكم ـ عزّ وجهه ـ فتضيفون ذلك إليه، سوأة لهذا الرأي، ما أبين غلطه.

فسقط في أيديهم وبهتوا وانكسروا، ولم يحيروا جواباً[1].

والمقصود هو بيان أهمية هذا الأسلوب، والحاجة إليه مع أنواع من الخصوم، وهو يحتاج إلى معرفة بالطرف المقابل، كما يحتاج إلى جرأة وقوة، وبداهة وسرعة، حتى يتمكن المحاور من قطع الطريق على المعاند وإسكاته.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى القصة في مبحث: «التحدي والإفحام» وانظر ترتيب المدارك ٤/ ٥٩٤ـ ٦٠٠ .

المبحث التاسع

محاذير لفظية

إن للسان سقطات، وللكلام زلات، والمسلم مأمور بحفظ لسانه، كما أنه مأمور بطيب الكلام، وأن يقول خيراً فيغنم، أو يسكت فيسلم، ويسلم الآخرون منه، والآيات والأحاديث في حفظ اللسان كثيرة معلومة، كما تقدم في ثنايا البحث فضيلة الكلمة الطيبة وحسن العبارة واللين في القول، وفي هذا المبحث أذكر أموراً قد يقع فيها اللسان فتورد صاحبها الموارد، وقد تهوي بالحوار وتعطل سيره أو تحوله إلى جدل عقيم، أو تبادل سباب وشتائم، ولذلك ينبغي للمحاور أن يحذرها ويضبط ألفاظه وكلماته عن الوقوع في مثلها، ومع أن بعضها قد سبقت الإشارة إليه، ولكن يحتاج إلى ذكره هنا تنبيهاً على خطره وتحذيراً من عاقبته، فمن هذه المحاذير:

١ ـ اختيار الألفاظ والمعاني التي تقود إلى الجدل، أو تستثير الفتن والمشكلات، رغبة في الخصومة واللجاج، وإضاعة للوقت وهروباً من الحوار الجاد.

٢ ـ إظهار التفاصح والتشدق في الكلام، تيهاً على الغير، واستعلاء، ووسيلة إلى تصغير الطرف الآخر أو قصد تعجيزه بالتكلف في القول، أو إظهاراً للباطل في صورة الحق أو عكسه[1].

---

(١) انظر آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ١٠٩.

٣ ـ الغيبة: فإن المناظر لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله، وهو الغيبة[١].

٤ ـ الكذب: ربما لا يقدر المناظر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه، حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة[٢].

٥ ـ تزكية النفس والثناء عليها بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران، كقوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور ونحو ذلك مما يتمدح به على سبيل الصلف أو للحاجة إلى ترويج كلامه، والصلف والتمدح مذمومان شرعاً وعقلاً[٣].

٦ ـ الاستئثار بالكلام دون الطرف الآخر، والإطالة الزائدة عن حدها وعدم مراعاة الوقت في أثناء الكلام، والرغبة في مواصلته وكراهية الانقطاع، مما يجعل الحوار من طرف واحد وكأنه خطبة أو موعظة.

٧ ـ استعمال ضمير المتكلم ونسبة الأشياء إلى نفسه، كقوله: رأيي كذا وقولنا كذا، وتبين لنا كذا... فإن هذا قد يؤدي إلى تزكية النفس وفساد النية، كما أنه يترك انطباعاً سيئاً لدى السامع يجعله ينفر من قائله ويزهد فيه، والإنسان بطبعه يكره من يتعالم عليه، وينزله منزلة الجاهل الذي ينبغي أن يتعلم منه[٤].

---

(١) (٢) (٣) من كلام الغزالي في الإحياء: ١/ ٥٩ بتصرف يسير، [ومعنى الصلف: مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً (الصحاح: ٤/ ١٣٨٨) وقال ابن الجوزي: هو الغلو في الظرف والزيادة على مقداره (غريب الحديث: ١/ ٦٠٠).

(٤) انظر أصول الحوار ص ٥٥.

٨ ـ اللوم المباشر عند وضوح خطأ الطرف الآخر، كقوله: «أخطأت»، «سأثبت لك أنك مخطىء»، أو نحو ذلك مما لا تحتمله النفس، ومما قد يجرح عند بعض الناس كبرياءه وشخصيته[١].

٩ ـ رفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع ففي ذلك رعونة وإيذاء، وربما دل على ضعف الحجة والعجز عن مواجهة الحقائق، فيغطي ذلك النقص بالصراخ ـ وقد قال أبو عثمان بن الشافعي: (ما سمعت أبي يناظر أحداً قط فرفع صوته)[٢].

١٠ ـ إصدار أوامر للطرف الآخر توحي بالعلو والأستاذية، ومثل هذا الأسلوب لا يحبه الناس ولا يستجيبون لفاعله، بل يحفزهم إلى العناد والاستكبار.

١١ ـ الهزء والسخرية وكل ما يشعر باحتقار الطرف الآخر، أو ازدراء فكرته، أو وصفه بقلة الفهم أو نحوه.

١٢ ـ استعمال الألفاظ الغريبة والأساليب الغامضة والعبارات المحتملة، تلبيساً على الطرف الآخر وتمويهاً بغير الحقيقة، ومراوغة عن الجادة، وهروباً من الإجابة.

إلى غير ذلك مما قد سبق بيانه، وإنما المراد تلخيص هذه المحاذير ليكون المحاور فيها على بصيرة، وليحافظ على سلامة الحوار من مثل هذه الآفات التي قد تؤدي به إلى الفشل.

---

(١) انظر رسالة «قل إنما أعظكم بواحدة» ص ٤٨.

(٢) انظر مناقب الشافعي للبيهقي: ١/٢١٧.

البابُ الخامِسُ

«آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار»

الباب الخامس
آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار

في هذا الباب الأخير أذكر مباحث عامة لها تعلق بالحوار، سواء من الجانب الذهني العقلي، أو من الجانب العملي أو غير ذلك، مما قد يكون له أثر على الحوار سلباً أو إيجاباً.

وستكون هذه المباحث قصيرة مختصرة، إذ هي كالإشارات السريعة إلى جوانب مكملة للموضوع، ومنها ما يتعلق بأساليب نافعة في الحوار، ومنها ما يبرز فيه الواقع العملي لتطبيق آداب الحوار وغير ذلك:

والمباحث مرتبة على النحو الآتي:

١ ـ الوقت المناسب.

٢ ـ التزام المحاور بما يدعو إليه.

٣ ـ الفراسة وحسن التصرف.

٤ ـ مراعاة الأفهام والعقول.

٥ ـ الحذر والمداراة.

٦ ـ توقع المخالفة برغم الاقتناع.

٧ ـ أساليب وطرق في الاستدلال.

٨ ـ محاذير عامة.

٩ ـ مناظرات وحوارات: «نماذج تطبيقية».

وبذلك تنتهي مباحث الرسالة ويتلو ذلك الخاتمة وأهم النتائج ومن ثم المراجع ثم الفهارس، والله المستعان.

المبحث الأول

الوقت المناسب

إن اختيار الوقت المناسب للحوار، وحسن استغلال الفرص التي تسنح للمحاور، له أهمية كبرى في ضمان سير الحوار على أصوله وبالضوابط اللازمة.

فقد يمكن للمحاور أن يحدد هو والطرف المقابل موعداً للتحاور فيه حول قضية ما، ففي مثل هذه الحالة عليهما أن يحسنا اختيار الوقت، مع مراعاة الظروف النفسية والعقلية والجسدية لكل منهما، وإتاحة الزمن الكافي لمناقشة الموضوع، فلا ينبغي اختيار وقت إجهاد وإرهاق أو زمن نوم أو طعام أو نحو ذلك، أو قت ضيق لا يسع فيه الحوار ولا تتم فيه المناقشة، فيؤدي ذلك إلى قطع الحوار قبل انتهائه، وبتره قبل تمامه.

وفي حالات أخر قد لا يملك المحاور أن يتحكم في تحديد موعد معين، كأن يفاجأ في جمع من الناس من يلبس عليهم في أمر دينهم ـ مثلا ـ أو يثير شبهاً ويشكك في أصول وقواعد ومسلمات يبنىٰ عليها دين المسلم، عندها قد لا يسع المحاور إلا أن يتحين أقرب فرصة ويفرض نفسه لتصحيح الأخطاء التي ربما علقت بأذهان المستمعين، ورد الشبهات ومن ثم إسكات المتكلم.

وقد يرغب شخص في محاورة عالم أو داعية أو نحوهما، في قضية أو مسألة محدودة، ليستفيد علماً بها أو خبرة فيها، وقد يكون من سوء

الأدب أن يدعي صاحب منزلة ومهابة إلى المحاورة من قبل أحد تلامذته، فعليه إذن أن يتحين فرصة مناسبة وطريقة لبقة للدخول معه في الحوار.

وقد يحرص المحاور على تبليغ علم ما، أو تنبيه مهم أو غيره، ولا يريد أن يظهر للطرف الآخر بمظهر المعلم الموجه، فربما لا يقبل أسلوباً كهذا، ولذلك فهو ينتظر وقتاً يناسبه ليدير فيه مناقشة لطيفة، وحواراً هادئاً.

فالمحاور إذن بين أن يختار وقتاً مناسباً للحوار، يتحكم فيه بدءاً وانتهاء، ويراعي فيه الظروف المحيطة من جميع الجوانب، وبين أن يستغل فرصة سانحة لا يجوز له أن يتأخر عنها، ولا ينبغي أن تفوته، فقد لا تسنح له مرة أخرى.

* فمن شواهد الحالة الأولى:

ـ الموعد الذي حدده موسى ـ عليه السلام ـ للتحدي والمناظرة مع السحرة، فقد تحكم في اختيار الوقت المناسب: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾[1]، فاختار أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعاً في يوم العيد. لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد تعوقهم حرارة الجو، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤيا[2].

ـ ومنها: (حديث الرجل الذي قال ـ في آخر حجة حجها عمر ـ: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا

---

(١) طه: ٥٩.

(٢) انظر الظلال: ٤/ ٢٣٤٠.

أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، وتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله ـ إن شاء الله ـ لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة... إلخ)[1].

فهنا من حرص عبد الرحمن بن عوف ونصحه، اختار لعمر الوقت المناسب لتصحيح ذلك الخطأ والرد عليه.

* ومن شواهد الحالة الثانية وهي حسن استغلال الفرص المتاحة:

ـ ما فعله يوسف عليه السلام[2] ـ حين أدخل السجن ومعه فتيان، فسألانه عن تأويل الرؤيا التي رأياها، فانتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقدية الفاسدة والأوضاع الفاسدة، فقد كان سؤال الفتيين هو: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾.

فيطمئنهما يوسف إلى مقدرته على تأويل رؤياهما، بما آتاه ربه من العلم، جزاء توحيده وتجرده لعبادة الله وحده، وهجر الشركاء والأنداد هو وآباؤه من قبله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري وغيره وتقدم تخريجه ص ١٥٣ ـ ٢٥١ (وهو حديث الخليفة بعد وفاة النبي ﷺ).

(٢) انظر الظلال: ٤/١٩٨٨ـ ١٩٨٩.

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ومن ثم ينتقل بهم يوسف بلطف ولين فيفصح عن عقيدته ودعوته، ويكشف عن فساد اعتقادهما وقومهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ. . .﴾[1] الآيات.

ـ ومنها فعل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث قال: أردت أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، فمكثت سنة فلم أجد له موضعاً، حتى خرجت معه حاجاً، فلما كنا بظهران ذهب عمر لحاجته (وفي رواية: فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه)[2] فقال: أدركني بالوضوء، فأدركته بالإداوة، فجعلت أسكب عليه، ورأيت موضعاً فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال ابن عباس: فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة[3] فهذا يظهر منه تحين ابن عباس للفرصة التي يسأل فيها عمر، وانتظاره لها سنة حتى سنحت له.

ـ ومن استغلال الفرصة قبل فواتها وإفادة العلم وقت الحاجة إليه في مناسباته، إذ يكون أبلغ في التأثير[4]، ومن صور توقيت مناسبة المجادلة: ما حدث من أبي شريح العدوي[5] حيث قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة «أئذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ للغد من يوم الفتح، فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم

---

(١) الآيات: يوسف: ٣٦ـ ٤٠.
(٢) الرواية للبخاري: ٤٩١٣ في كتاب التفسير.
(٣) أخرجه البخاري: التفسير ٤٩١٥.
(٤) انظر تيسير العلام للبسام: ١/ ٥٣١، والفتح: ٤/ ٤٥.
(٥) قال الحافظ ما ملخصه: المشهور في اسمه أنه خويلد بن عمرو أسلم قبل الفتح وحمل بعض ألوية قومه، وسكن المدينة ومات بها سنة ثمان وستين. (الفتح: ٤/ ٤٢).

به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة... الحديث». [1]

إلى غير ذلك من أمثلة الحالتين، وإنما المقصود أن المحاور عليه اختيار الأوقات المناسبة وتقدير الظروف المحيطة، كما عليه استغلال الفرص التي تسنح لتصحيح المفاهيم وتوضيح الحقائق.

---

(١) تقدم في مبحث «تأكيد القضية» من الباب الثالث. ص ٣٨٦.

المبحث الثاني

التزام المحاور بما يدعو إليه

قد يكون الحوار حول قضية عملية، أو في استحباب فعل ما أو كراهيته أو نحو ذلك، وعندها ينبغي أن يكون المحاور قدوة حسنة في تطبيق الرأي الراجح الذي يحاور لأجل إثباته وإقناع الطرف الآخر به، فيكون داعية ومحاوراً بفعله قبل قوله، فإن التزام المحاور بما يدعو إليه والحرص على العمل به هو أكبر دليل على اقتناعه به ويقينه، وعلى قدرته على إقناع الآخرين به، والعكس فمن فرط في العمل وقصر في التنفيذ، دل ذلك منه على اضطراب وعدم يقين، وكان أضعف في حجته وأعجز عن إقناع غيره.

ويكفي المحاور حثاً له على الالتزام بما يدعو إليه ويحاور فيه، وتحذيراً له من مخالفة القول للعمل، إنكار الله على بني إسرائيل والذي يتضمن الإشارة إلى أن من تمام العقل موافقة القول للعمل حيث قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] وقوله عزّ وجلّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[2]. وفي بيان عدم تأثر الناس بقول من لا يعمل بعلمه يقول

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) الصف: ٣.

مالك بن دينار: (إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا)، وأنشدوا:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً ... فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

ولذلك كان نبي الله شعيب قدوة صالحة، ومثلاً حياً لقومه، فقال لهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[2] أي لا أنهاكم عن شيء وأفعله أنا، بل إن ما أنهاكم عنه فأنا أول من يتركه[3]، وهكذا يكون مثل هذا الفعل داعياً إلى استجابة الآخرين، وتمهيداً لإذعانهم، وطريقاً لإقناعهم.

وإن مما يبين أهمية القدوة العملية ومدى تأثر الآخرين بها، وأن مجرد الأقوال والبراهين قد لا تقنع ولا تؤثر، وأن العمل يعلّم ما لا يعلّمه القول، بل إنه يقلب الأفكار النظرية إلى حقائق عملية ملموسة، يتأثر بها من يراها قبل أن يسمع من يتكلم عنها، من ذلك ما فطنت له أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ففي الحديبية أمر النبي ﷺ أصحابه ـ بعد كتابة الصلح ـ أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من

---

(١) انظر الإحياء: ١/ ٧٨. [وهذا البيت لأبي الأسْوَد الدُؤَليّ. انظر شرح ابن عقيل: ٤/ ١٥ رقم البيت ٣٢٨. ط الخامسة عشر ١٣٨٦ هـ. المكتبة التجارية الكبرىٰ بمصر].

(٢) هود: ٨٨.

(٣) انظر تفسير السعدي: ٢/ ٣٨٤.

الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً... إلخ[1].

وقد ذكر الحافظ من الفوائد في الحديث: (أن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرد... إلى أن قال: ونظير هذا ما وقع لهم في غزوة الفتح من أمره لهم بالفطر في رمضان، فلما استمروا على الامتناع تناول القدح فشرب، فلما رأوه شرب شربوا).[2]

ومن هذا الباب أيضاً: إخباره ﷺ عن فعله في حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادته، فقال: «لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

ومنه حديث ابن مسعود في لعن الواشمات والمتنمصات والواصلات، واعتراض المرأة عليه، ثم قولها له إني أرى بعض هذا على امرأتك، قال: فادخلي فانظري، فدخلت، ثم خرجت، فقال: ما رأيت؟ قالت: ما رأيت، فقال: لو كان ذلك ما كانت معنا[4].

وفي هذا إشارة من ابن مسعود إلى أنه لو كانت امرأته تفعل هذه الأمور المنهي عنها، لما اجتمع معها وأبقاها[5]، وهو إشارة إلى أن المتكلم والناصح ينبغي أن يكون هو أول من يلتزم ويطبق ما يدعو إليه.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٢، ٣٠٦.
(٢) الفتح: ٥/٣٤٧.
(٣) تقدمت الإشارة إليه في «ثناء المحاور على نفسه» ص ٤٦٨.
(٤) تقدم تخريجه وهذه رواية أبي داود: ٤١٦٩، وانظر ص ٣١٨.
(٥) انظر بذل المجهود: ١٧/٥٦.

والمقصود أن المحاور الناجح الذي يعطي المثل الصالح، والقدوة الحسنة، يمكنه أن يقنع الآخرين بآرائه، ويطلب منهم تصحيح أخطائهم، لأنه يكسب احترامهم ومحبتهم عن جدارة واستحقاق بموافقة قوله لعمله، والتزامه بما يدعو إليه ويحاور لأجله.

المبحث الثالث

الفراسة[1] وحسن التصرف

ينبغي للمحاور أن يكون كيساً فطناً، ذا بديهة سريعة وتصرف حسن، يجيد التخلص من المآزق، متفرساً في خصمه يتنبأ بما يكنه من شبهات أو أباطيل، ويتوسم مبلغ عقله وعلمه، وقدره ومنزلته، فبذلك يمكنه أن يواجه المعاندين من الخصوم ومن يجيد المراوغة منهم، كما أنه يستطيع أن يقتل الفكرة الباطلة في مهدها، ويقضي على الشبه قبل ذكرها، وهذا يحتاج أيضاً إلى قوة وحزم وعزيمة بلا تردد، متى غلب على ظنه ما سيقوله الخصم أو ما يمكن أن يقوله من الباطل ولعل مما يمكن أن يستدل به في نجاح مثل هذا الأسلوب، ومواجهة الخصم بما سيقول من شبهات، وبالتالي دحضها والرد عليها قبل أن تشيع أو تنتشر: ما جاء في الرد على اليهود والمنافقين وإبطال دعواهم، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[2]، فبهذا قطع الطريق على أقاويلهم وتساؤلاتهم التي يقصد بها الطعن والتشكيك، وتوحي لهم مثل هذه الصيغة بأن ما قالوه كان مقدراً أمره، ومعروفة خطته، ومعدة إجابته، وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً[3].

---

(١) الفراسة: هي القدرة على التنبؤ والنظر في البواطن، بقوة الذكاء والفطرة. (غريب الحديث: ٢/ ١٨٤، فراسة المؤمن: ص ٩).

(٢) البقرة: ١٤٢.

(٣) انظر الظلال: ١/ ١٣٠، السعدي: ١/ ١٠٤ـ ١٠٥، الطبري: ٢/ ١.

ولعل قريباً من هذا ما جاء في آيات غزوة الحديبية حيث قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ . . . ﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[2] .

أما الفراسة بالنسبة للمحاور المسلم، فإنه وإن كان للذكاء والفطرة منها نصيب، إلا أن للتقوى والتجارب نصيبها الأوفر في تنميتها وتصحيح مسارها.

وأحياناً قد يتعلق نجاح المحاور أو فشله بصدق حدسه، وحسن تنبؤاته وسعة أفقه وعمق نظرته، خاصة إذا واجه خصماً يحسن هذه الأمور ويجيد التلاعب والمراوغة.

وإذا لم يحسن المحاور هذا الجانب ولم يتوقع المشكلات التي ستواجهه في أثناء الحوار، وبالتالي عدم إعداد حل مناسب لها، فسيحد من نشاطه التخوف والتردد، وربما تصعب مهمته وتختلط عليه أموره عند أدنى مشكلة أو شبهة.

ولعل من النماذج اللطيفة والتي تدل على بداهة المحاور وحسن تصرفه، وذكائه وفطنته ما احتاط به النبي ﷺ وصاحبه - أبو بكر - في الهجرة في الكلام مع الناس الذين كانوا يقابلونهم في الطريق، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله قال: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير»[3].

---

(١) الفتح: ١١.

(٢) الفتح: ١٥.

(٣) أخرجه البخاري: مناقب الأنصار: ٣٩١١، أحمد ٣/ ١٢٢ (وانظر السيرة الصحيحة: د. أكرم العمري: ١/ ٢١٧).

ومن النماذج في هذا الأسلوب أيضاً:

ـ ما يروى أن يهودياً قال لعلي ـ رضي الله عنه ـ: ما نفضتم أيديكم من تراب نبيكم حتى قلتم: منا أمير ومنكم أمير، فقال علي رضي الله عنه: وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر الذي جمده الله لموسى حتى قلتم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[1] فبهت اليهودي وسكت[2].

ـ ومثله ما تقدم في مناظرة الباقلاني للنصارى وسؤال أحدهم: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ فقال مجيباً على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة، فبرأهما الله عزّ وجلّ، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج[3].

ـ ومثله ما ذكر أن المقوقس قال لحاطب ـ رضي الله عنه ـ كيف الحرب بين محمد وبين المشركين؟ قال: سجال يدال عليهم ويدالون عليه، قال: أنبي الله يغلب؟ فقال له حاطب: وابن الله يصلب؟ فسكت وألقم حجراً[4].

ـ ولعل من البداهة وسرعة استحضار الجواب ما جاء عن الخطيب البغدادي، حيث أظهر بعض اليهود كتاباً في عصره، ادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية، عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة، وذكروا أن خط علي ـ رضي الله عنه ـ فيه، فلما عرضوه على الخطيب، تأمله وقال: هذا مزور، قيل: من أين قلت؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو

---

(١) الأعراف: ١٣٨.

(٢) انظر فراسة المؤمن ـ إبراهيم الحازمي ص ٣٩ بتصرف.

(٣) تقدمت الإشارة إلى القصة في «مبحث التحدي» وغيره.

(٤) ذكرها ابن كثير بلفظ مقارب لهذا: (البداية والنهاية: ٤/ ٢٧١).

أسلم عام الفتح، وفتحت خيبر سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات يوم بني قريظة، قبل خيبر بسنتين، فبهتوا[1].

وأختم هذه الأمثلة بفراسة المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ حين استعمله عمر على البحرين، فكرهه أهلها فعزله عمر عنهم، فخافوا أن يرده عليهم. فقال دهقانهم: إن فعلتم ما آمركم به لم يرده علينا. قالوا: مرنا بأمرك. قال: تجمعون مائة ألف درهم، حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، ودفعه إلي. فجمعوا ذلك. فأتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إلي. فدعا عمر المغيرة، فقال: ما يقول هذا؟ قال: كذب أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف. فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للدهقان: ما تقول؟ قال: لا والله لأصدقنك، والله ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيراً، ولكن كرهناه وخشينا أن ترده علينا. فقال عمر للمغيرة: ما حملك على هذا؟ قال: إن الخبيث كذب علي فأحببت أن أخزيه[2].

إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة والتي تبين الحاجة إلى مثل هذا الأسلوب أحياناً، وتوضح أهمية يقظة المحاور وتنبهه وحسن تصرفه[3].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٧٠.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٦.

(٣) ستأتي مزيد من النماذج في مبحث مستقل ـ إن شاء الله.

المبحث الرابع

مراعاة الأفهام والعقول

لا ينجح الحوار ـ غالباً ـ (ولا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين، أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة)[1].

إذاً فالأصل هو التقارب والتساوي في العقل والفهم، وكما ذكر بعض العلماء أن من أدب المناظر: (أن يتجنب المناظرة مع من هو من أهل المهابة العظيمة والاحترام العظيم، كيلا تدهشه وتذهله جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي)[2].

ـ كما ينبغي للمحاور أن يتأكد من أن القضية التي يدور عليها النقاش مما يمكن له ولغيره بحثها ومناقشتها فلا يتكلف علم ما لم يبلغه عقله[3]، ولا يتكلف الحوار في علم لا يبلغه عقل محاوره، كما أنه عليه أن يختار لكل محاور الأدلة التي تناسبه وتقنعه، والطريقة التي تقربه من الحق، وهذا لا يمكن إلا إذا عرف المحاور مستوى الطرف الآخر وحجم

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٨٦، جامع بيان العلم: ٢/ ١٣٢.

(٢) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: ٢/ ٧٦.

(٣) تقدم قول الإمام الشافعي للمزني: (ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك).

علمه ومقدار فهمه، فمخاطبة عالم تختلف عن مخاطبة طالب، ومحاورة الكبير غير محاورة الصغير[1].

ـ ولذلك حذر السلف من تحديث الناس أو مناظرتهم فيما لا تدركه عقولهم:

قال عبد الله بن مسعود: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة)[2].

وقال عروة بن الزبير: (ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لا يبلغه عقله، إلا كان ضلالة عليه)[3].

فليس الناس طرازاً واحداً، والعقول تتفاوت، والأفهام تتباين، قال شيخ الإسلام: (ليس كل ما عرفه الإنسان، أمكنه تعريف غيره به، فلهذا كان النظر أوسع من المناظرة، فكل ما يمكن المناظرة به، يمكن النظر فيه، وليس كل ما يمكن النظر فيه، يمكن مناظرة كل أحد به)[4].

وقال في موضع آخر: (وأما أن يكون الكتاب أو السنة نهى عن معرفة المسائل التي يدخل فيما يستحق أن يكون من أصول دين الله فهذا لا يكون، اللهم إلا أن ننهى عن بعض ذلك في بعض الأحوال مثل مخاطبة شخص بما يعجز عنه فهمه فيضل. كقول عبد الله بن مسعود: «ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم»[5]، وكقول علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون أتحبون أن

---

(١) انظر أصول الحوار ص ٢٤.
(٢) مقدمة صحيح مسلم: ١/ ١١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٣٧.
(٤) الفتاوى: ٣/ ٣١٢٥.
(٥) تقدم نص الكلام ابن مسعود من صحيح مسلم: ١/ ١١.

يكذب الله ورسوله»[1]. .)[2].

وقد راعى النبي ﷺ أحوال وأفهام أناس، فترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه[3].

فقد قال ﷺ لعائشة: «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم ـ قال ابن الزبير: بكفر ـ لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون»[4].

ـ وكما قال النبي ﷺ لمعاذ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة» قال: ألا أبشر الناس؟ قال: «لا: إني أخاف أن يتكلوا»[5].

ـ قال كثير بن مروة: (إن عليك في علمك حقاً، كما عليك في مالك حقاً، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك)[6].

ـ وقد أشار الغزالي إلى هذا الأدب عند ذكره لآداب المعلم فذكر منها ما ملخصه:

(أن يتقصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله،

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً حيث قال: (باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. وقال علي: حدثوا الناس بما تعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ (الفتح: ١/ ٢٢٥).

(٢) الفتاوى: ٣/ ٣١١.

(٣) انظر فتح الباري: ١/ ٢٢٤.

(٤) أخرجه البخاري: العلم ١٢٦، مسلم الحج ٢/ ٩٧٢ رقم ٤٠٤، والنسائي: المناسك ٥/ ٢١٤ رقم ٢٩٠٠، أحمد ٦/ ٥٧.

(٥) أخرجه البخاري: العلم ١٢٩ وغيره وتقدم.

(٦) انظر ـ ربانية التعليم « ص ٣٢».

أو يخبط عليه عقله... ولذلك قيل: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ قال: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»[1]. ؟ فقال: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾[2] تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير مستحق بأقل من الظلم في منع المستحق:

أأنثر دراً بين سارحة النعم ... فأصبح مخزوناً براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم)[3]

ومما يساعد في هذا الجانب ويحقق مصلحة الحوار ويسهل الطريق أمام المحاور في إقناع محاوره والدخول إلى قلبه بالفكرة التي يراد إقناعه بها: أن يضع المحاور نفسه مكان محاوره، وأن يرى الأشياء من وجهة نظر الشخص الآخر، ويحاول أن يفكر في القضية بمثل عقلية خصمه، وينظر في الأمر من نفس الزاوية التي ينظر منها مخالفه.

ومن المفيد جداً في معرفة الطرف الآخر أن يسأله محاوره أسئلة

---

(١) الحديث تقدم في مبحث العلم.

(٢) النساء: ٥.

(٣) الإحياء: ١/ ٧١ـ ٧٢ بتصرف. (والأبيات للإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ. انظر ديوان الشافعي ص ٩٦ .ط الثالثة دار الكتب العلمية ـ بيروت، وانظر مجمع الحكم والأمثال لأحمد قبش ص ٣٥٧ـ ٣٥٨. ط دار العروبة ـ دمشق ١٩٧٩ م).

محايدة بطريقة توحي بتساوي درجة القناعة في طرفيها المتناقضين عنده، وبذلك يستطيع أن يسبر غور الطرف الآخر دون أن يستنفره.

وعلى كل حال فالحوار فن لا يقوم على مجرد العلم بموضوعه، بل له مقومات وأسباب تؤدي إلى نجاحه، ومنها معرفة نفسية وعقلية وفهم الطرف المقابل، ومراعاة ذلك كله بدقة وحكمة قبل وفي أثناء الحوار وبعده. وهناك حكمتان بليغتان لا ينبغي أن تغيب عن بال المحاور وهما: أن ما كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقالاً[1].

(١) أصول الحوار: ص ٢٤، ٤٠.

المبحث الخامس

الحذر والمداراة

على المحاور أن يكون حذراً في معاملته مع خصمه، حذراً في أقواله وتصرفاته وحركاته وأعماله، فلا ينبغي أن يلزم نفسه بما ليس بلازم أو بما لا يعتقده أو يقول به، ولا ينبغي أن يستدرج حتى يفقد السيطرة على نفسه، فيخرج عن الضوابط الشرعية في الكلام والحقائق، فربما واجه المحاور خصماً متدرباً على المناظرات عارفاً بمداخل النفوس وما يثيرها، فهو يتعمد إثارة الطرف المقابل واستفزازه، ليسهل إفحامه أو ليكون محل سخرية واستهزاء من الآخرين.

ولذلك فعلى المحاور أن يضبط عباراته ويختار ألفاظه بدقة وعناية، حتى لا يترك للخصم مجالاً يدخل منه للإيقاع به، وعليه أيضاً أن يضبط أعصابه ويسيطر على نفسه، ويقنع نفسه بخطر الانفعالات على الحوار، بل على الفكرة التي يدافع عنها، وليكن هادىء النفس منبسط السريرة.

وحتى يستمر المحاور على هذا الحذر والهدوء والدقة يمكن أن يجعل لنفسه وقفات ومحطات لمراجعة النفس ومساءلتها، والتأكد من حسن أدائها للحوار على أكمل وجه، ومراعاة الأدب اللازم، مما يجعل الشخص دائم التذكر والمراقبة.

ـ ومن صور الحذر والاحتياط في الألفاظ مثلاً: ما ذكره الله في قول

الخليل إبراهيم عليه السلام ـ لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1] فقد استثنى رب العالمين من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون، فقد يكون من آبائهم من عبد الله، قبل فساد عقيدة القوم، أو عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى، فهو الاحتياط إذن في القول، والدقة الواعية في التعبير[2].

ـ وكذا ما تقدم من تحين يوسف ـ عليه السلام ـ الفرصة للدعوة إلى عقيدته، ولكن بمدخل لطيف، خطوة خطوة في حذر ولين[3]، فيكتفي بالاشارة إلى فضل الله ووجوب شكره: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[4].

ـ وفي الحديث: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».[5] وقد أخذ منه بعضهم: التحذير من التغفيل، والإشارة إلى استعمال الفطنة، والإشارة إلى المؤمن الكامل الذي قد أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذر مما سيقع[6].

ويتعلق بموضوع الحذر، أمر مداراة الناس (وهي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه)[7]، أو خشي من شره، وهي من أخلاق المؤمنين، فتجوز مداراة

---

(١) الشعراء: ٧٥ـ ٧٧.
(٢) انظر الظلال: ٥/ ٢٦٠٣.
(٣) نفس المصدر: ٤/ ١٩٨٩.
(٤) يوسف: ٣٨.
(٥) أخرجه البخاري: ٦١٣٣ الأدب، مسلم: الزهد ٤/ ١٢٩٥ رقم ٦٣، أبو داود: الأدب ٤٨٦٢، ابن ماجه: الفتن ٢/ ١٣١٨ رقم ٣٩٨٢، أحمد ٢/ ١١٥.
(٦) الفتح: ١٠/ ٥٣٠.
(٧) الفتح: ١٠/ ٥٢٨.

الناس اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى، والفرق بينهما: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً، والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ تطلق في وجه الرجل الذي دخل عليه، وانبسط إليه، مع أنه قد قال عنه: «بئس أخو العشيرة» ثم قال: «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شَرِّهِ»[1].

فهذا بذل له النبي ﷺ من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، وهذا الحديث أصل في المداراة[2].

ويذكر عن أبي الدرداء: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم.[3]

ـ وفي الحديث أن النبي ﷺ أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل واحداً لمخرمة، فلما جاء قال: خبأت هذا لك. وكان في خلقه شيء[4].

(وإنما قيل في مخرمة ما قيل لما كان في خلقه من الشدة فكان لذلك في لسانه بذاءة)[5] ومع ذلك قد أعطاه النبي ﷺ ثوباً واختصه بأن خبأه له.

وقد قال الإمام الشافعي[6]: رضى الناس غاية لا تدرك، وليس إلى

---

(١) تقدم ذكره في مبحث «العبارة المناسبة» ص ٤٣١.

(٢) انظر الفتح: ١٠/ ٤٥٤.

(٣) ذكره البخاري معلقاً بهذه الصيغة في باب المداراة مع الناس (الفتح: ١٠/ ٥٢٧ كتاب الأدب).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: ٦١٣٢ الأدب، مسلم: الزكاة ٢/ ٧٣٢ رقم ١٣٠.

(٥) الفتح: ١٠/ ٥٢٩.

(٦) انظر سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٨٩.

السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه. وقال أيضاً: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر ـ بمعروف ـ من لا يجد من معاشرته بدا، حتى يجعل الله من أمره فرجاً[1].

وقال ابن الجوزي: (فالعاقل يصور في نفسه كل ممكن ويستر ما في قلبه من البغض والود، ويداري مع الغيظ والحقد.)[2] فالمحاور الذكي الناجح هو الذي يحسن مداراة خصمه والحذر منه، فيحتاط في ذلك ويتحرز عن كل ما يسيء إليه أو يعطل سير الحوار أو يعكر صفو الجو بين الطرفين.

---

(١) نفس المصدر: ٤/١١٧.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٥٢.

المبحث السادس

توقع المخالفة برغم الاقتناع

ينبغي للمحاور أن يوطن نفسه لأن يخالفه الآخرون ـ ولو كان مصيباً على الحق ـ ولو أقام الحجج والبراهين، وحشد الأدلة والشواهد، ولو لم يبق لخصمه متمسكاً من شبهة أو دليل، فربما يقتنع الطرف الآخر داخلياً، وتستيقن نفسه أن محاوره على الحق، لكنه يجحد ويعاند، ويصر ويكابر، بتأثير عوامل نفسية، من كبر أو زهو أو رغبة في الانتصار وخوف من الهزيمة أمام الآخرين، أو سيطرة الهوى على العقل والقلب، وعند ذلك فقد لا يجدي معه منطق ولا دليل.

وهذه الحوارات والمناظرات والمجادلات على مر تاريخ الأنبياء وأتباعهم، يظهر الحق معهم واضحاً جلياً، ويأتون عليه ـ بإذن ربهم ـ بالأدلة والمعجزات، حتى يسكتوا خصومهم، ويسقطوا معارضيهم، ويفحموا مخالفيهم، ولكن يبقى الصراع قائماً، والخلاف دائماً، حتى يأتي وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك الظالمين.

وكثيراً ما تنعكس الآية: فعندما يبهت الخصوم وتدحض الشبهات ويتبين الحق، ويصل المخالفون إلى حد القناعة الذاتية، عندها ينقلب الحوار مكراً بمن ظهر له الحق، وكيداً وعذاباً على المنتصر، فمتى أعوزتهم قوة الحجة، لجؤوا إلى حجة القوة، وهو مشهد يتكرر على مر العصور:

ـ فهذا الخليل إبراهيم يحاور قومه محاورة طويلة، مبنية على أصول شرعية وقواعد عقلية منطقية، لا ينكرها إلا مكابر، حتى يرجع القوم إلى أنفسهم ويعرفوا أخطاءهم، ولكن يأبى الظالمون إلا كفوراً، ويزيدون على ذلك أن يصبوا جام غضبهم على إبراهيم الخليل، فيعزموا على حرقه بالنار، نصرة لآلهة الضلال، ومما جاء في تلك المحاورة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ . . .﴾[1] الآيات.

ـ ومثل ذلك حال نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ فبعد أن ظهرت أدلة براءته وبينات صدقه وسلامته، واعتراف خصومه بمكائدهم، بعد ذلك كله قرروا حبسه وسجنه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[2].

ـ وأكثر من هذا ما جرى للكليم موسى ـ عليه السلام ـ الذي طال حواره مع فرعون وقومه، وتعددت على يديه المعجزات، وكثرت الآيات والبينات، حتى استيقنوا صدقه، ولكن الكنود طبيعة الظالمين، والجحود عادة الفاسقين، يقول تعالى فيهم: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

---

(١) الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٨.

(٢) يوسف: ٣٥.

(٣) النمل: ١٢ـ ١٤.

وهذا الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ الذي لا ينطق عن الهوى، يأتيه حبر من أحبار اليهود، فيقول: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك» فيقول: أسمع بأذني، فيقول له: «سل»، فيسأل عن شيء من أمور الآخرة، ثم يقول مرة أخرى: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. فيقول له: «ينفعك إن حدثتك» فيقول: أسمع بأذني... الحديث[1].

فهذا اليهودي لم يأت مسترشداً وإنما جاء مختبراً للنبي ﷺ، كما أنه لا يرى أنه ينتفع بحديث النبي ـ ﷺ ـ وإنما يسمع سماعاً بأذنيه، ولا يضر ذلك النبي ﷺ شيئاً.

أفبعد ذلك هل يريد كل محاور جزم أنه على الحق، وعرف أن خصمه على الباطل، أو غلب على ظنه ذلك، هل يريد أن يذعن له الآخرون ويتبنون رأيه ويتنازلون عن آرائهم في لحظة واحدة وبكل تلك السهولة؟ إن ذلك قد لا يكون ـ إلا قليلاً ـ ومع نوعيات معينة من الخصوم، وليس المحاور بأكرم على الله من أنبيائه ورسله، وقد تقدم شيء من مواقف المخالفين لهم، فليسعه ما وسع الذين أنعم الله عليهم، من الصبر على مثل هذا، والرضا بالمخالفة مع الاقتناع.

---

(١) تقدم ذكره في مبحث «التواضع». وسيأتي بطوله ص ٥٢٠.

المبحث السابع

أساليب وطرق في الاستدلال

تقدم في ثنايا البحث الكلام عن عدد من طرق الاستدلال، وأساليب نافعة في الحوار، فقد تقدمت الإشارة إلى أسلوب السبر والتقسيم والاستفهام الاستنكاري وضرب الأمثلة والتسليم والانتقال في الدليل والتحدي والإفحام ونحو هذا مما دخل في ضمن الآداب العلمية أو اللفظية أو النفسية على نحو ما سبق، وهناك قواعد مهمة ربما لم يسبق الإشارة إليها، وأساليب لا يستغني عنها المحاور، أفردت لها هذا المبحث لتذكر بإيجاز تنبيهاً عليها وإتماماً للفائدة.

فمن القواعد المهمة في هذا الجانب ما يلي[1]:

١ ـ تخلي كل من الطرفين المتحاورين عن وجهة نظره المسبقة، وإعلانهما الاستعداد لتقبل الحقيقة بعد ظهورها. وفي القرآن إشارة إلى هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[2].

٢ ـ افتراض صحة الطرف الآخر، حتى تتبين الحقيقة، أو على الأقل مجاراته حتى يصل إلى الحق، أو وصولاً إلى تبكيته وإلزامه.

---

(١) انظر أدب الحوار لجريشة ص ٦٧ـ ٦٨، ومناهج الجدل ص ٤٤٦ـ ٤٥٠.

(٢) سبأ: ٢٤.

٣ ـ التزام الطرق الإقناعية الصحيحة لدى الحوار ومن ذلك: تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للدعوى، مع إثبات صحة النقل في المرويات والنقول، وهذا معنى القاعدة المعروفة: «إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل» ومن ذلك التزام الأدلة الأصولية أو العقلية، وتقديمها مؤيدة بالقرآن أو الحديث.

٤ ـ ألا يكون في الدليل الذي يقدمه المحاور تعارض، فيكون بعض كلامه ينقض بعضه الآخر، فيسقط استدلاله بداهة.

٥ ـ ألا يكون الدليل ترديداً لأصل الدعوى، وإلا لم يكن دليلاً بل هو إعادة للدعوى وتكرار لا يغني من الحق شيئاً.

٦ ـ عدم الطعن في الأدلة المخالفة، إلا ضمن أسس المنطق السليم والقواعد المسلم بها.

٧ ـ التسليم بالمسلمات وقبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة، وعدم إنكار شيء من ذلك أو الإصرار على مخالفتها فهو مماراة مرفوضة في أصول المحاورات، وليست من صفات طالب الحق.

وبعد هذه القواعد المختصرة أذكر شيئاً مما يتعلق بمنهجية الحوار، وطرق الاستدلال، وأساليب الرد والإقناع ـ بإيجاز واختصار أيضاً ـ فمنها:

١ ـ الاستدلال بالقصص القرآني: فمن أعظم وسائل الإقناع، وأسرع طرق التأثير، قصص القرآن، فقد يساق الدليل في قصة ويأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها، فتصغي إليه الآذان، وتميل إليه النفوس، وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر.

ومثال هذا ذكر الله عز وجل لبعض قصص الأنبياء كإبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ وقد كان العرب يعظمون إبراهيم وكان اليهود يعظمون

موسى، فعندما يأتي الدليل في سياق القصة على لسان رسول ـ يقدره السامعون وربما ينتسبون إليه، فإن ذلك يعطي الدليل قوة فوق قوته[1].

٢ ـ المطالبة بتصحيح الدعوى[2]. فمتى كانت الدعوى عارية من الدليل، خالية من السلطان والبرهان، سقطت[3]. ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[4] حيث قال[5]: (فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذ منتف قطعاً، فتعين أن يكون خبراً كاذباً، قائله كاذب على الله تعالى)[6].

٣ ـ القول بالموجب: وهو رد دعوى الخصم من فحوى كلامه، كأن يثبت الخصم صفة لشيء، فيثبتها المحاور لشيء آخر غير الذي يقصده الخصم، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[7]. فكأنه قال: صحيح ما قلتموه: ليخرجن الأعز منها الأذل، ولكن الأعز

---

(١) مناهج الجدل: ص ٧٩ بتصرف يسير.
(٢) تقدم ما يشبه هذا النوع في مبحث «الدليل».
(٣) انظر الرد على المخالف: ص ٦٢.
(٤) البقرة: ٨٠.
(٥) بدائع الفوائد: ٤/١٤٣.
(٦) تقدمت الإشارة إلى هذه الآية في مبحث «الاحتمالات».
(٧) المنافقون: ٨.

هو الله ورسوله والمؤمنون وأنتم الأذل[1].

٤ ـ إظهار التشهي والتحكم: وهو أن يبين للخصم أنه لا حجة له فيما يدعيه سوى التشهي والتحكم بالباطل، حيث إنه إذا جاءه ما يوافق رأيه وهواه قبله، وإن جاءه ما لا يشتهيه رده[2]، ومثاله الرد على أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

٥ ـ إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها: وهذا كقوله تعالى في شأن اليهود: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ..﴾ الآية[4]. فهنا أثبت تناقضهم حيث يفتخرون على العرب بأنهم ـ أي اليهود ـ أصحاب علم وكتاب ـ ثم يزعمون أنه ما أنزل الله من شيء[5].

٦ ـ الاستدلال بلازم كلام الخصم: وذلك أن كثيراً من ادعاءات الخصوم يلزم منها أمور لا يقرونها[6]، فيمكن إفحام الخصم ببيان أن دعواه تلزمه القول بما لم يقله ولم يعترف به هو، ومثال هذا الاستدلال على من نسب لله الولد، بأن هذا يلزم منه وجود الصاحبة، وهذا ما لم يقل به أحد من هؤلاء الخصوم؟ فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ

---

(١) انظر الإتقان: ٤/ ٦٥ـ ٦٦، مناهج الجدل: ص ٨١.
(٢) انظر الرد على المخالف: ص ٦٥.
(٣) البقرة: ٨٧.
(٤) الأنعام: ٩١.
(٥) انظر مناهج الجدل ص ٨٥.
(٦) الحوار مع أهل الكتاب ص ٢٢٨ بتصرف.

لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[1].

٧ ــ الإسجال: وهو أن تثبت وتضبط على لسان الخصم ألفاظاً في سياق آخر تسجل به عليه ما كان عنده محل شبهة وإنكار[2]، ومثاله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[3]. فقولهم: «نعم» هنا يعتبر إسجالاً إذ إن ما اعترفوا به هنا كان محل شبهة وإنكار منهم.

٨ ـ المناقضة[4]: وهي تعليق الأمر على مستحيل للدلالة على استحالة وقوعه أبداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ..﴾[5]. إلى غير ذلك من الطرق والأساليب التي يمكن للمحاور أن يستفيد منها في الاستدلال على خصمه ويحكم الرد عليه.

---

(١) الأنعام: ١٠٠ـ ١٠١.
(٢) الإتقان: ٤/ ٦٥ـ ٦٦.
(٣) الأعراف: ٤٤ـ ٤٥.
(٤) الإتقان: ٤/ ٦٥ـ ٦٦، وانظر آداب البحث للشنقيطي ص ٥٥ـ ٥٦.
(٥) الأعراف: ٤٠.

المبحث الثامن

محاذير عامة

هذا المبحث خاص بتنبيهات عامة، وملاحظات مهمة، أذكر فيه أموراً يحسن بالمحاور أن يحذرها، تختلف مراتبها، فمنها ما يتعلق بنية المحاور وقصده ـ مثلاً ـ، والتلبس به قد يفسد العمل ـ والعياذ بالله ـ، ومنها ما يتعلق بأسلوب الحوار وطريقة الاستدلال، وتعمده قد يطعن في أمانة فاعله أو يقدح في صحة منهجه، ومنها أمور عامة لا ينبغي أن يغفل عنها المحاور إذ لها تأثير كبير على نجاح الحوار، ولذلك فيمكن تقسيم هذه المحاذير إلى أصناف ثلاثة:

أ ـ محاذير تتعلق بنفسية المحاور وقصده: (وهي ملخصة ـ تقريباً من كلام الغزالي في الإحياء)[1] فمنها:

١ ـ أن يكون الغرض من مناظراته ومحاوراته لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة، واستحالة وجوه الناس، وهذه إذا غلبت على النفس دعتها إلى إضمار الخبائث كلها في النفس، وهيجت فيها جميع الأخلاق المذمومة، (فإن آنس المحاور من نفسه الحيد عن الغرض الصحيح فليكفها بجهده، فإن ملكها وإلا فليترك المناظرة)[2].

---

(١) الإحياء: ١/٥٨ـ ٦٠ بتصرف.

(٢) شرح الكوكب المنير: ٤/٣٦١ بتصرف.

٢ ـ الحسد: وذلك عندما يذكر محاور ما بقوة حجته وسعة علمه، أو عندما يرى أن محاوره أحسن منه كلاماً، وأقوى نظراً، فيلجأ إلى حسده وتمني زوال تلك النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه.

٣ ـ التكبر على الأقران والأمثال، والترفع إلى فوق قدره، بحجة صيانة عز العلم أو ترك الذل.

٤ ـ الحقد على الخصم الذي ظهر منه الحق، أو على من قبل كلام خصمه وتوقف في كلامه هو، فيعمد إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه، وكذا لو صدر من خصمه قلة مبالاة بكلامه فربما انغرس في صدره حقد دفين، وكل هذا مما ينبغي أن يتخلص منه المحاور المخلص.

٥ ـ التجسس وتتبع عورات خصمه وطلب عثراته، حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله، عندما تعييه الحجة ويحس بالغلبة.

٦ ـ الفرح لمساءة مخالفيه والغم لمسارهم، ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فيتحول العلم بينه وبينهم إلى عداوة قاطعة، وتباغض دائم.

٧ ـ النفاق بأن يلقى الخصوم ومحبيهم وأشياعهم بالتودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم، وبالثناء عليهم ومدحهم ـ بالباطل ـ في وجوههم، مع ما يكنه لهم من بغض وعداوة في القلب.

٨ ـ الاستكبار عن الحق وكراهته والمماراة فيه، والتعصب للباطل، وأن يكون أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر الحق على لسان خصمه، فيندفع إلى جحده وإنكاره بأقصى جهد، ويبذل غاية إمكانه في المكر والحيلة حتى لا يعترف بخطئه.

٩ ـ الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم، وصرف

وجوههم، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه، والأحرى بالمحاور أن يرسل النفس على سجيتها ويرغب بها عن لبسة الرياء والتصنع كما هي عادة السلف[1].

ب ـ محاذير تتعلق بالجانب العلمي وأسلوب الحوار فمنها:

١ ـ بتر النقول والنصوص لتوافق الرأي والهوى، والدس في السنة أو في كلام العلماء، وتحريف الكلم عن مواضعه بالتأويل وفاسد القياس، ومعارضة النص بالرأي والنقل بالعقل، وتحكيم ظواهر النصوص من غير التفات إلى مقاصدها، والتحريف في دلالة النص.

٢ ـ الاحتجاج بالكثرة والسواد الأعظم[3]، وبمقامات الشيوخ والتغالي فيهم وتعظيم خطر مخالفتهم بما يخرج عن حدود الشرع، والتهويل بدعوى الإجماع.

٣ ـ الاحتجاج بالضعاف والواهيات في المرويات، ودعوى تناقض السنة مع السنة أو مع القرآن، وضرب الأقوال بعضها ببعض.[2]

٤ ـ النقلة: وهي (ذكر الشبهة نقداً وردها نسيئة، بمعنى أن يسوق المناظر الشبهة ويشخصها، ثم يحيل على الجوانب عنها، أو لا يحكم ردها.)[4].

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة: ص ٤٦.

(٢) انظر لهذه الثلاث: الرد على المخالف ص ٥٨ـ ٥٩، والاعتصام للشاطبي: ١/ ٢٣١، ٢٤٩، ٢٥٨.

(٣) المقصود بهم هنا عوام الناس ودهماؤهم، والاحتجاج بهم على الباطل لمجرد كثرتهم.

(٤) الرد على المخالف: ص ٦٣.

٥ ـ الأخذ ببعض الكتاب وترك البعض، فلا تقبل التجزئة ولا التفرقة في نصوص الشرع، بل إن ذلك تحكم ليس له ما يبرره.[١]

٦ ـ المصادرة: وهي جعل المطلوب إحدى مقدمتي الدليل، بعد تغير طفيف في لفظها، ليتوهم المغايرة بين النتيجة والمقدمة.

والمعاندة: وهي المنازعة بين شخصين لا يفهم أحدهما كلام الآخر وهو يعلم فساد كلامه الذي تكلم به.

والجواب الجدلي: وهو ما يذكره المجيب وهو يعتقد بطلانه.[٢]

والغصب: وهو محاولة إبطال دعوى الخصم قبل أن يقدم الدليل عليها[٣].

ج ـ محاذير أخرى تتعلق بالحوار:

١ ـ الخوض فيما لا ينبني عليه عمل، سواء من أعمال القلوب أو الجوارح، فلا ينبغي أن يكون الحوار إلا في علم نافع، أو وسيلة إلى عمل صالح، وإلا كان إهداراً للوقت والجهد.

٢ ـ الاختصار المخل بالفهم، والتطويل الممل للسامع، فيشغله عن المطلوب، والخروج عن موضوع المناظرة مما يفوت القصد منها.

٣ ـ الخروج من الحوار دون الوصول إلى نتيجة سواء كانت إقناعاً بحق أو دحضاً لباطل، فإذا لم تتحقق الثمرة كان الحوار مضيعة للوقت، وتبديداً للجهد ومباعدة بين القلوب[٤].

---

(١) أدب الحوار لجريشة: ص ٩٩ بتصرف.
(٢) انظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي ص ٧٤ـ ٧٥.
(٣) أدب الحوار لجريشة ص ٧١.
(٤) انظر أصول الحوار ص ٥٠.

٤ ـ لقد طعن الدين بسكين الحوار، في دعوات هدامة، ومؤامرات هزيلة، ومشروعات سقيمة تتبنى شعارات مختلفة، تدعو فيها إلى: «زمالة الأديان»، «الحوار بين الأديان»، «التقريب بين الأديان»، وأحياناً باسم «جمعيات الصداقة بين الأديان»، وأخيراً: «مشروعات السلام»، ونحواً من هذه المسميات، وإنما جوهر هذه الدعوات هو أن يكسب أعداء الدين من اليهود والنصارى ـ خاصة ـ اعترافاً من المسلمين بصحة دينهم[1]، وإثباتاً لعدم وجود فوارق بين الإسلام وغيره من الأديان، ويتم ذلك من خلال حوارات وجولات ومناقشات، ويترتب على هذه الحوارات والمؤتمرات، تغيير لهوية الأمة الإسلامية من أصلها، بتغيير اعتقادها بهيمنة هذا الدين وأنه لا يقبل عند الله دين غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2]، وبتغيير مفهوم الولاء والبراء، وبتغيير طريقة تفكيرها ومناهج تعليمها، وكل ما فيه مساس بتلك الأديان المحرفة الباطلة، وتلك «شنشنة نعرفها من أخزم»[3] وينبغي أن يحذرها المتحاورون، ويتنبه لخطورتها العلماء المخلصون، حتى لا يقعوا فريسة في أيدي أعدائهم باسم الحوار والتقارب والسلام.

---

(١) انظر: أهمية الجهاد ـ د. علي العلياني (ص ٤٤٩).

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) انظر كتاب «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري: ١/ ٥٤١ رقم المثل ٩٩٥. ط المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة ١٣٨٤ هـ.

المبحث التاسع

مناظرات وحوارات
نماذج تطبيقية

بعد الانتهاء من الآداب وما يتعلق بها من ضوابط ومحاذير، رأيت أن أختم البحث بذكر نماذج مثالية وأمثلة رائعة، حققت الحوار على أصوله، وراعت الآداب بدقة، فكان من جاء بعدها عالة عليها في تعلم الحوار وآدابه، والمناظرة وأهدافها، والجدال بالتي هي أحسن.

وإنما أردت جمع بعض النماذج هنا ـ في مبحث مستقل ـ لما رأيت الآداب قد تكاثرت، والضوابط قد تعددت، فقد يتسلل إلى بعض النفوس، أن تطبيق ذلك كله في واقع الحوار، هو ضرب من الخيال، وأقرب إلى المحال، أو يظن أننا نطلب صورة للمحاور لا مثيل لها في الواقع، أو أننا نكلفه بما ليس في وسعه، ونلزمه بما ليس في طاقته.

فكانت هذه الأمثلة الحية، والشواهد القوية، لحوارات ومناظرات واقعية، لتعيد لنا الأمل في إمكانية عودة حواراتنا ومناقشاتنا إلى الجادة المثلى والطريق الأقوم، وما ذلك على الله بعزيز.

ونظراً لكثرة النماذج وتعددها، ولما تقدم ذكره منها في ثنايا البحث ـ خاصة ما جاء منها في الكتاب والسنة ـ، فسأختار من بين الكم الهائل من

الأمثلة، ما كان أقصر وأخصر، وأدل على المطلوب وأيسر، وأكتفي بالبعض للدلالة على البعض الآخر، مراعياً في ذلك تنوع الأهداف واختلاف المواقف، وأعرض عما تقدم ذكره في مباحث الرسالة اكتفاء بذلك، إلا ما لزم إعادته لغرض أبينه ـ، وحيث إن ما تقدم من نماذج أكثرها من حوارات الكتاب والسنة، فستكون أكثر الأمثلة هنا من سير الصحابة أو التابعين، ومن قصص العلماء والدعاة وحواراتهم اللطيفة.

النوع الأول: من حوارات القرآن:

١ ـ واخترت أن يكون في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، في دعوتهم إلى التوحيد، ومع أن ذلك تقدم ولكنّ ربما كان ذكره عارضاً، أو متفرقاً في عدة مواضع، فلا بأس من إعادته مع التعليق بما يناسب الحال، فإلى وقائع هذا الحوار:

ـ لقد ذكره الله تعالى بمقدمة تبين مدى قوة إبراهيم ورشده وما آتاه الله من الحجة[1]:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾، وهذا الرشد يقتضي منه دعوة إلى الحق وإنكاراً للباطل، ومن ثم يبدأ الحوار: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

فيردون رداً ساقطاً ضعيفاً: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

فيهاجمهم في صراحة وقوة وجرأة: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فيجيبون في سفاهة منهم: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

---

(١) انظر التعليق على الآيات في أدب الحوار لجريشة: ص ١٤٠.

فيردهم إلى الفطرة لعلهم يعقلون: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم يثبت لهم حسياً بطلان تلك الآلهة المزعومة وعجزها: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. فتنازعوا واختلفوا فيمن تجرأ بهذا العمل فـ ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

وهنا حانت الفرصة ليكبتهم ويهزمهم ليستفيقوا: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾..﴾. ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وهنا يتدخل إبراهيم ليقيم عليهم الحجة، وليصل بهم إلى الإفحام: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فيصلون إلى فقدان الحجة وضياع الدليل، فيلجأون إلى القوة: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ولكن تبوء مؤامرتهم بالفشل فيبطلها الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

٢ ـ بين أهل الجنة وأهل النار[2]:

حوار فيه ثلاثة أطراف: أهل الجنة، أهل النار، أصحاب الأعراف:

يبدأ الحوار بأصحاب الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ومن ثم يتوجهون إلى أصحاب النار:

---

(١) الأنبياء: ٥١ـ ٦٩.

(٢) انظر أدب الحوار والمناظرة: ص ١٤٠ـ ١٤١.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

فيتدخل أصحاب الأعراف يخاطبون أهل الجنة: ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

ثم ينتقل الحوار إلى أصحاب النار: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وعندها يندم المفرطون، فيسألون ويطلبون: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ .

فيأتيهم الرد بالتبكيت زيادة في ألمهم، من قبل أهل الجنة: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ . . . ﴾[1] الآيات.

النوع الثاني: من حوارات السنة:

لقد تعددت حوارات السنة وكثرت، حتى عد بعض الباحثين، اثنتين وسبعين قصة، اشتملت على مائة وأربع وستين صورة للحوار، أستخرجها من تسعة مصادر من أمهات كتب السنة[2].

---

(١) الأعراف: ٤٣ـ ٥١. (وذكرت كلام أصحاب الأعراف هنا إتماماً للآيات والقصة، وإلّا فليس لهم حوار في الآيات).

(٢) انظر رسالة: القصص في الحديث النبوي ـ محمد حسن الزير ص ٢٥٠، وتقدم في مقدمة هذه الرسالة ذكر العدد الذي وجدته من النماذج والأمثلة والشواهد للحوار.

وقد تقدم في ثنايا هذا البحث عدد من هذه الحوارات، أشير إلى بعضها باختصار، وأذكر نموذجين منها كما جاءت في الأحاديث[1].

١ ـ فمنها: حواره ﷺ مع ضمام بن ثعلبة.

٢ ـ ومنها: حواره مع السعدين في غزوة الأحزاب.

٣ ـ ومنها: حواره اللطيف مع عتبة بن ربيعة.

٤ ـ ومنها: الحوار بين الرب سبحانه وملائكته الطوافين الذي يتبعون مجالس الذكر.[2]

٥ ـ ومنها: ما ذكره النبي ﷺ من محاجة بين آدم وموسى ـ عليهما السلام.

٦ ـ ومنها: ما ذكره أيضاً من حوار موسى وخضر ـ عليهما السلام.

٧ ـ ومنها: ما جاء من حواره مع وفد عبد القيس حين قدموا عليه.

٨ ـ ومنها: حواره مع اليهودي، والذي تمثلت فيه آداب وصور للحوار فريدة، وأذكر هذا الحوار كاملاً كما في صحيح مسلم[3]: فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر[4] من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له

---

(١) تقدم ذكر هذه الأمثلة ومن أخرجها في عدة مواضع من البحث.

(٢) أخرجه البخاري: الدعوات (٦٤٠٨)، مسلم: الذكر ٢٥، الترمذي: الدعوات (٣٦٠٠).

(٣) انظر صحيح مسلم: ١/٢٥٢ كتاب الحيض: ٣٤، وتقدم شيء منه في مبحث التواضع.

(٤) الحبر: بالكسر والفتح: العالم (المصباح المنير ص ٤٥، شرح النووي: ٥/٢٢٦).

رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. فنكت[1] رسول الله ﷺ بعود معه. فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر[2]» قال: فمن أول الناس إجازة[3]؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم[4] حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»[5] قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله. وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا[6]» قال اليهودي: لقد صدقت. وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب.

فقال رسول الله ﷺ: « لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه. حتى أتاني الله به».

٩ ـ ومنها: إخباره بقصة الغلام المؤمن وما فيها من الحوارات: بين الملك والراهب، وبين الغلام وجليس الملك، وبين الغلام والملك، وغيره، ومما جاء فيه: (فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا

---

(١) نكت: أي جعل يخط بالعود في الأرض ويؤثر به فيها، وهذا يفعله المفكر. (النووي: ٣/ ٢٢٦).

(٢) أي الصراط: (النووي: ٣/ ٢٢٦).

(٣) الإجازة: الجواز والعبور: (النووي: ٣/ ٢٢٧).

(٤) التحفة: ما يهدى إلى الرجل ويخص به ويلاطف (النووي: ٣/ ٢٢٧).

(٥) النون: الحوت (الصحاح: ٦/ ٢٢١٠).

(٦) أذكرا: كان الولد ذكراً، آنثا: كان أنثى: (النووي: ٣/ ٢٢٨).

كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. . . إلخ الحديث)[٦].

النوع الثالث: من حوارات الصحابة:

وهذه أمثلتها كثيرة أيضاً، وقد تقدم بعضها مختصراً في ثنايا البحث ومنها:

١ ـ حوار عمر ـ رضي الله عنه ـ مع اليهود في عداوتهم لجبريل.

٢ ـ حوارات الصحابة المتعددة في مسألة الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ.

٣ ـ حوار علي مع اليهودي الذي أنكر على المسلمين اختلافهم في الخلافة وسعي بعضهم لها، ورد علي عليه بالإنكار عليه لما قالوه لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[١].

٤ ـ حوار حاطب والمقوقس إذ قال المقوقس مكذباً للرسول: (ونبي الله يغلب؟) فأجابه حاطب بقوله: (وابن الله يصلب؟).

٥ ـ حوار ابن عباس للخوارج: وأعيد بعض وقائع هذا اللقاء لأهميته ولحسن آداء ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: فأول ما دخل عليهم ابن عباس قالوا: مرحبا بك ابن عباس! ما جاء بك؟ وما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون علي؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من هذه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد ٤/ ٢٢٩٩ رقم ٧٣، أحمد ٦/ ١٧.
(٢) الأعراف: ١٣٨.

الحلل، ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1] قالوا: فما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ومن عند صهر رسول الله ﷺ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، وليس فيكم منهم أحد.

فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً فإن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2] وقال رجلان أو ثلاثة لو كلمتهم. قال: قلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثاً.

قال: وما هن؟

قالوا: أولهن أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال الله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عزّ وجلّ. قال: قلت وماذا؟

قالوا: وقاتل ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفاراً لقد حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قال: قلت: وماذا؟

قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت أعندكم سوى هذا؟

قالوا: حسبنا هذا.

قال أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيه ما لا تنكرون أترجعون؟

قالوا: نعم.

قال أما قولكم: حكم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . . .﴾ إلى قوله ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الزخرف: ٥٨.

مِنكُمْ﴾[1] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾[2]. أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم، وفي بضع امرأة. وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم لم يصير ذلك إلى الرجال.

قالوا: اللهم في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم.

قال: خرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة، أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها، فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم، وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[3] فأنتم مترددون بين ضلالتين، فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؟ فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: اللهم نعم، قال: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشاً يوم الحديبية أن يكتب بينه وبينهم كتاباً، فكاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان. فقال: اكتب يا علي هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال والله إني لرسول الله حقاً وإن كذبتموني، اكتب يا علي: محمد بن عبد الله، فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي ـ رضي الله عنه. وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه. أخرجت من هذه؟

قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم ألفان، وبقي منهم أربعة ألاف فقتلوا على ضلالة[4]. فرحم الله ابن عباس وحواره البليغ.

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) النساء: ٣٥.

(٣) الأحزاب: ٦.

(٤) تقدم تخريجها في الباب الأول ص ٥٧.

٦ ـ ومن ذلك أيضاً ما دار من حوار طويل: بين عمرو بن العاص وملك عمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي[1].

(قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها، عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك، فيكف صنع أبوك، فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام، قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي. وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: كيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب، قلت: ما كذبت، وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بلى. قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله، لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له يناق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به، وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، ينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن

---

(١) انظر زاد المعاد: ٣/ ٦٩٣ـ ٦٩٦.

الزنى، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه، لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً، قلت: إنه إن أسلم، ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، فردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو: وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر، وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم، وكثرة عددهم يطيعون بهذا، قال: فمكثت ببابه إياماً، وهو يصل إلى أخيه، فيخبره كل خبري. ثم إنه دعاني يوماً، فدخلت عليه. فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه، يوطئك الخيل، ويبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعني يومي هذا، وارجع إلي غداً، فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد. أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي، خلا به

أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني.) اهـ.

فهذان حواران بليغان من ابن عباس وابن العاص، ظهر فيهما حسن الأدب في الحوار، وقيمة الالتزام بأصوله وضوابطه، العلمية والسلوكية، مما ألان لهما الخصوم، ورجعوا إلى صوابهم بإذن الله عزّ وجلّ.

النوع الرابع: من حوارات العلماء:

وهذه فوق الحصر، إذ لا زال العلماء قديماً وحديثاً يتناظرون فيما بينهم من مسائل العلم كما ورد مثل هذا عن كثير منهم كالشافعي وإسحاق وأحمد وغيرهم، كما كانوا يتحاورون مع مخالفيهم من الكفرة أو المبتدعة أو غيرهم، وسأختار بعضاً من الأمثلة مختلفة في أزمانها ومناسباتها وموضوعاتها:

١ ـ مناظرة في خلق القرآن: وهي التي كانت بين أحمد بن أبي دؤاد ـ شيخ المعتزلة ـ وبين شيخ كبير من أهل السنة[1] وملخصها:

أنه أدخل هذا العالم على الخليفة فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلم الله عليك. فقال: يا أمير المؤمنين، بئس ما أدبك مؤدبك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2]. فقال ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم. قال له: كلمه، فقال: يا شيخ ما تقول في القرآن؟

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/٣١٣، الاعتصام ١/٢٤٢.

(٢) النساء: ٨٧.

قال: لم ينصفني، ولي السؤال. قال: سل، قال: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق.

قال الشيخ: هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر وعمر، والخلفاء الراشدون أم شيء لم يعلموه؟ قال: شيء لم يعلموه. فقال: سبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ﷺ، علمته أنت؟ فخجل. فقال: أقلني، قال: المسألة بحالها. قال: نعم علموه، فقال: علموه ولم يدعوا الناس إليه، قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟ ففي هذا إقامة الحجة على الخصم وإفحامه.

٢ ـ وتناظر الشافعي وإسحاق بن راهويه في كراء بيوت مكة وكان الشافعي يرى جواز ذلك، ويرى إسحاق المنع: فقال الشافعي: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾[1]. نسب الديار إلى مالكيها أو إلى غير مالكيها؟ قال إسحاق بل إلى مالكيها. قال: فقول النبي ﷺ يوم فتح مكة: «من أغلق دون بابه فهو آمن، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2]. فنسب الديار إلى أربابها أم إلى غير أربابها؟ قال: واشترى عمر بن الخطاب: دار السجن من مالك أو غير مالك؟ قال: من مالك. قال: قول النبي ﷺ «وهل ترك لنا عقيل من دار؟»[3] نسب الديار إلى مالكها أو غير مالكها؟ قال: إلى مالكها. فقال إسحاق: لكن فلاناً وفلاناً ـ من التابعين ـ يرون غير ذلك. فقال الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون. قال الشافعي: ما أحوجني أن يكون غيرك

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم: الجهاد ٣/ ١٤٠٥ رقم ٨٤، أبو داود الأمارة ٣٠٢١، أحمد ٢/ ٢٩٢.

(٣) أخرجه البخاري: الحج ١٥٨٨، مسلم ٢/ ٩٨٤ رقم ٤٣٩، ابن ماجه: الفرائض: ٢/ ٩١٢ رقم ٢٧٣٠.

موضعك، فكنت آمر بعرك أذنيه. أنا أقول: قال رسول الله ﷺ، وأنت تقول: عطاء وطاووس وإبراهيم والحسن؟ وهل لأحد مع رسول الله ﷺ، حجة[1].

٣ ـ وفي إحدى مناظرات الإمام الباقلاني ـ وقد تقدمت له عدة حوارات:

قال له ملك النصارى: هذا الذي تدعونه في معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ قال: قلت هو صحيح عندنا وانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحاضرون ومن اتفق نظره إليه في ذلك الحال.

فقال الملك: وكيف ولم يره جميع الناس؟

قال: لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره.

فقال: وهذا القمر بينكم وبينه نسبة أو قرابة، لأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس؟ وإنما رأيتموه أنتم خاصة، وقد علمتم أنه في السماء غير مختص بكم!!

قال فقلت: فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم!!

فتحير الملك، وقال في كلامه: سبحان الله.

ثم قال القاضي ـ الباقلاني ـ لقسيس لهم: ألست تزعم أن الأرض كروية؟ قال: نعم.

فقال: أفتنكر أن يرى في هذا الإقليم ما لا يرى في إقليم آخر، كالكسوف يرى في موضع، دون موضع، وكواكب السماء ترى في موضع

---

(١) انظر مناقب الشافعي للبيهقي: ١/٢١٣ـ ٢١٥.

دون غيره، أم تقول إن الكسوف إذا وقع رآه أهل الأرض كلهم؟

قال القسيس: بل لا يراه إلا من كان في محاذاته.

قال قلت: فما أنكرت من انشقاق القمر إذا كان في ناحية لا يراه إلا أهل تلك الناحية، ومن تأهب للنظر له، فأما من أعرض عنه، ومن كان في الأمكنة التي لا يرى القمر منها، فلا يراه.

فقال: هو كما قلت، ما يدفعك عنه دافع، وإنما الكلام في الرواة الذين نقلوه، فأما الطعن في غير هذا الوجه فليس بصحيح.

فقال الملك: وكيف يطعن في النقلة؟

فقال القسيس: شبه هذا من الآيات إذا صح وجب أن ينقله الجم الغفير، حتى يتصل بنا العلم به، ولو كان كذلك لوقع عندنا العلم الضروري به، فلما لم يقع لنا العلم الضروري به، دل على أن الخبر مفتعل باطل. فالتفت الملك، وقال: هات الجواب.

قال القاضي: يلزمه في نزول المائدة ما لزمني في انشقاق القمر، ويقال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني ولا ثنوي[1] إلا وهو يعلم بالضرورة، ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دل على أن الخبر كذب، فبهت النصراني والملك ومن ضمه المجلس[2].

٤ ـ وقد ذكر الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ مناظرة لطيفة بين عالم من علماء المسلمين ونصراني:

حيث قال النصراني للمسلم: ناظرني في الإسلام والمسيحية أيهما أفضل؟

---

(١) الثنوي: نسبة إلى مذهب الثنوية وهو يقول بإلهين اثنين. إله للخير وإله للشر. (انظر الملل والنحل للشرستاني (١/ ٢٤٤).

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٥٩٤ـ ٦٠٠.

فقال المسلم: هلم إلى المناظرة في ذلك.

فقال النصراني: المتفق عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه؟

فقال المسلم: المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه.

فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا، وترك اتباع محمد ـ ﷺ ـ، لأننا نحن وأنتم متفقون على نبوة عيسى، ونخالفكم في نبوة محمد ـ عليهما السلام ـ.

فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه.

قال: وكيف. قال المسلم: لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1] فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ـ ﷺ ـ فظهر أنكم أنتم الذين لم تتبعوا المتفق عليه. فانقطع النصراني.[2]

ـ وهناك العدد الكبير من مثل هذه القصص والحوارات والمناظرات التي يطول المقام بذكرها ـ كالمناظرة التي ذكرها الإمام ابن القيم بينه وبين نصراني[3]، والتي بهت فيها الذي كفر ـ وغير ذلك.

ـ وإنما المقصود أن نستنشق عبق الأدب الحسن والخلق الجميل، من خلال هذه الحوارات ونحوها، وأن تكون أمامنا كنماذج واقعية، وأحداث حية، نسعى جميعاً للاقتداء بآداب أصحابها والسير على نهجهم القويم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الصف: ٦.

(٢) انظر أضواء البيان ٢/١٠٨ بتصرف يسير.

(٣) انظر زاد المعاد: ٣/٦٣٩ـ٦٤٢.

خاتمة البحث

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وبعد:

فقد كان موضوع «آداب الحوار» موضوعاً شيقاً وممتعاً ـ ولله الحمد والمنة ـ فقد دعاني البحث فيه إلى تدبر كثير من آيات القرآن، ومطالعة عدد من كتب السنة، وفي ذلك من الخير والفائدة واللذة ما فيه، ثم الاطلاع على شيء من السير وأحداث التاريخ وقصص السلف، وفي هذا ـ أيضاً ـ متعة عظيمة.

وبعد هذه الجولة في ظل الكتاب والسنة مع «آداب الحوار»، أخلص إلى الآتي:

أولاً: أهم النتائج:

١ ـ كمال هذا الدين وعظمته في جميع جوانبه، إذ لم يترك خيراً إلا ودل عليه، ولا شراً إلا وحذر منه.

٢ ـ وتبعاً لذلك فقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بأدب الحوار وأصوله وضوابطه، وقواعده وشروطه، ضماناً لسلامته من الشوائب، وسعياً لتحقيق الأهداف المنشودة منه.

٣ ـ إن أهداف الحوار وغاياته متعددة كثيرة، إذ به تتحقق مصالح عظيمة للأمة وللأفراد، ويكفي أن الحوار وسيلة ـ لا يمكن الإستغناء عنها ـ من وسائل الدعوة، فعن طريقه يمكن عرض الإسلام وإقناع الآخرين بقضاياه، وكذا رد شبهات المعاندين وكيد الكائدين.

٤ ـ إن الأدب في الحوار، لا يقل أهمية عن الحوار نفسه، إذ فقدان الأدب، وعدم مراعاة الظروف والمواقف، قد يؤدي إلى نتائج سلبية، ويزيد التنافر والاختلاف بين المتحاورين، أو يقضي على الحوار ويهدمه من أساسه.

٥ ـ ينبغي للمسلم ألا يتجاسر على الحوار ويدخل فيه، ما لم يحقق الأهلية في هذا، ويتأكد من انطباق الشروط اللازمة عليه، ومن ذلك القدرة على التزام آداب الحوار، مع التمكن من إدارة الحوار بالعلم والحكمة ونحوهما.

٦ ـ لقد احتوت نصوص الكتاب والسنة على أقوم الطرق، وأهدى السبل، وأفضل المناهج، في الحوار وآدابه، وعلى كل من أراد الحوار أن يسلك سبيلهما ليصل إلى مقصوده بأيسر طريق وأخصره.

٧ ـ لقد قام سلف الأمة من الصحابة والتابعين، من العلماء والدعاة، والقادة والأمراء بإجراء كثير من الحوارات العلمية والعقدية والفقهية، لتحقيق مصالح مختلفة، وسيرهم تفيض بالأدلة على هذا، وظهر من خلال تلك الحوارات: الأدب الرفيع، والخلق النبيل، والمنهج القويم في ضبط الحوار والوصول به إلى نتيجة.

٨ ـ إن آداب الحوار كثيرة وجوانبه متعددة، وعلى المحاور أن يجتهد في تحقيق والتزام ما يمكنه منها وألاّ تصده كثرتها عن الاعتناء بها ومراعاتها، أو تؤدي به إلى اليأس منها وإهمالها، ولكن عليه أن يجتهد في ذلك، و ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

٩ ـ إن الحوار طريق صحيح ومهم إلى إصلاح كثير من الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وشئون الحرب والسلم وغيرها.

---

(١) البقرة: (٢٨٦).

ثانياً: مقترحات:

١ ـ إعداد دعاة مؤهلين للحوار، ملتزمين بآدابه، يملكون قدرة على الإقناع والرد، خاصة في مواجهة المشككين من أعداء الدين، من أهل الكتاب والمستشرقين والمبتدعة والمنافقين وغيرهم، ويمكن تحقيق ذلك من خلال إقامة دورات علمية شرعية، وعملية تطبيقية، تساعد في استكمال الشروط اللازمة لذلك.

٢ ـ جمع وتحقيق ودراسة ما يمكن الحصول عليه من الحوارات القديمة والحديثة، وإبرازها في موسوعة أو مؤلف خاص، ترتب حسب موضوعاتها وأهدافها، مثل: أن تجمع الحوارات مع أهل الكتاب في قسم خاص، والحوارات الفقهية في قسم آخر، وهكذا، ليسهل تناولها، وتكتمل الفائدة منها.

٣ ـ لو أمكن أن تدرس ـ بالجامعات أو غيرها ـ مادة في قسم الدعوة تعنىٰ بموضوع الحوار وآدابه، ووسائل تحقيقه، ففي ذلك نفع عظيم للدعوة.

٤ ـ توجيه مراكز البحوث وأقسام الدراسات العليا للعناية بهذا الموضوع، وإعطائه حقه من الدراسة والبحث، لأهميته والحاجة إليه في وقتنا الحاضر.

٥ ـ عقد محاورات ومناظرات علمية نزيهة، بين الأساتذة في الجامعات أو غيرهم، تراعى فيها الأصول والآداب، ويكون الغرض منها، إعطاء مُثل للحاضرين من الطلبة وغيرهم، وتعويدهم على الحوار وآدابه.

هذا وأسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا إنه سميع مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر مرتبة
حسب ترتيب حروف المعجم

ـ القرآن الكريم:
ـ الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ط. الثالثة ١٣٧١ هـ، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة.
ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء: محمد الخضري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر.
ـ إحكام الإحكام: ابن دقيق العيد، دار الكتاب العربي، بيروت.
ـ أحكام القرآن: ابن العربي، دار المعرفة بيروت، لبنان.
ـ الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الأندلسي، ط. الثالثة، مطبعة الإمام، مصر.
ـ إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ط. الأولى ١٤٠٦ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ أخبار عمر رضي الله عنه: علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي، ط. الثامنة ١٤٠٣ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة.
ـ أدب الاختلاف في الإسلام: د. طه جابر فياض العلواني، ط. الأولى، مطابع الدوحة الحديثة، قطر.
ـ أدب الحوار والمناظرة: د. علي جريشة، ط. الأولى ١٤١٠ هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر.

ـ أدب الخلاف: د. صالح بن حميد البخاري، مطابع جامعة أم القرى ط. ١٤٠٠ هـ، مكتبة الأدب، القاهرة.
ـ إرواء الغليل: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثالثة ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ استخراج الجدال من القرآن: عبد الرحمن الحنبلي، ط. الثانية ١٤٠١ هـ، مطابع الفرزدق.
ـ أصول الحوار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط. الثالثة ١٤٠٨ هـ، المطابع العالمية، الرياض.
ـ الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، ط. ١٨٥٣ هـ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
ـ أضواء البيان: محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
ـ أعلام الموقعين: ابن القيم الجوزية، ط. الأولى ١٤١١ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ الاعتصام: الشاطبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
ـ الإعلام: خير الدين الزركلي، ط. الرابعة ١٩٨٦ م، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ آفات على الطريق: د. السيد محمد نوح، ط. الخامسة ١٤١٠ هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر.
ـ آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة: سعيد بن علي القحطاني، ط. الثالثة ١٤١١ هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
ـ أفراح الروح: سيد قطب، ط. الثالثة ١٤١٠ هـ، دار طيبة ودار ابن القيم.
ـ اقتضاء الصراط المستقيم: شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الحديث بالأزهر.

ـ إكمال إكمال المعلم على صحيح مسلم: لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ الإنصاف في بيان أسباب الخلاف: ولي الله الدهلوي، ط. الثانية ١٤٠٤ هـ، مؤسسة الرسالة ودار النفائس، بيروت.
ـ أهمية الجهاد: علي بن نفيع العلياني، ط. الثانية ١٤٠٥ هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.
ـ بذل المجهود في حل أبي داود: خليل أحمد السهارنفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.
ـ بدر التمام في اختصار الاعتصام: أبي عبد الفتاح محمد السعيد الجزائري، ط. الأولى ١٤١١ هـ، دار الحنان الإسلامية إ.ع. م.
ـ الباقلانية: محمد بن عبد العزيز الخضيري، مؤسسة أسامة للنشر الرياض.
ـ البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير، ط. الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف النحوي، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض.
ـ تاريخ الطبري: لأبي جعفر بن جرير الطبري، ط. الأولى ١٤٠٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ تحريف النصوص في مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. الأولى ١٤١٢ هـ، دار العاصمة، الرياض.
ـ تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي: أبي العلاء محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري، ط. الأولى ١٤١٠ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ط. ١٩٨٤ م، الدار التونسية.
ـ التعالم وأثره على الفكر والكتاب: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
ـ التعريفات: علي بن حمد الشريف الجرجاني، ط. الأولى ١٩٦٩ م، مكتبة لبنان، بيروت.
ـ تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير، ط. دار إحياء الكتب العربية، مصر.
ـ تفسير القرآن المرتب: أحمد أسعد علي ط. الأولى ١٣٩٩ هـ، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق.
ـ تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، ط. الثانية ١٩٨٥ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
ـ تفسير النسفي: أبو البركات. عبد الله بن أحمد بن محمد النسفي، ط. ١٤٠٢ هـ، دار الكتاب العربي، لبنان.
ـ التفسير الحديث: محمد عزة دروزة، ط. ١٣٨١ هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
ـ التفسير القيم: ابن الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك: القاضي عياض بن موسى بن عياض، ت: أحمد بكر محمود، ط. ١٣٨٧ هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت.
ـ تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، ط. الرابعة ١٤١٢ هـ، دار القلم، دمشق.
ـ تلخيص الحبير: ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
ـ تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني.
ـ تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون، ط. العاشرة ١٤٠٥ هـ، دار البحوث العلمية، بيروت.

ـ تهذيب مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، تهذيب: عبد المنعم صالح العلي العربي، المكتبة العلمية.
ـ تيسير التفاسير: إبراهيم القطان، ط. الأولى ١٤٠٢ هـ، عمان.
ـ تيسير العلام في شرح عمد الأحكام: عبد الله بن عبد الرحمن ابن صالح آل بسام، ط. الثالثة ١٣٩٣ هـ.
ـ تيسير الكريم الرحمن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبعة المدني، بجدة.
ـ جامع الأصول: الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري، ط. الثانية ١٤٠٣ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، والتوزيع بيروت، لبنان.
ـ جامع البيان عن تأويل القرآن: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط. الثالثة ١٣٨٨ هـ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
ـ جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد البر القرطبي، دار الفكر.
ـ جامع العلم والحكم: ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ش. الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدني، السعودية.
ـ حوار الرسول مع اليهود: د. محسن بن محمد بن عبد الناظر، ط. الأولى ١٤٠٩ هـ، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الكويت.
ـ الحوار مع أهل الكتاب: خالد عبد الله القاسم، ط. ١٤١١ هـ، جامعة الملك سعود، السعودية.
ـ خصائص القصة الإسلامية: د. مأمون فريز جرار، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة.
ـ خطبة الحاجة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثالثة ١٣٩٧ هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

ـ خلاف الأمة في العبادات: شيخ الإسلام ابن تيمية، علق عليها عثمان جمعة ضميرية، ط. الأولى ١٤١٠ هـ، دار الفاروق الطائف، السعودية.
ـ خلق المسلم: محمد الغزالي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
ـ الخلاف بين العلماء: محمد الصالح العثيمين، ط. الأولى ١٤١١ هـ، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة.
ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، ط. ١٤٠٣ هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.
ـ درء تعارض العقل والنقل: ش. الإسلام ابن تيمية. ت. محمد رشاد سالم، ط. الأولى ١٤٠١ هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود.
ـ دلائل النبوة: البيهقي، ط. الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ ربانية التعليم: د. عبد الله يوسف الحسن، دار المنطق.
ـ الرد على المخالف: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار الهجرة للنشر والتوزيع السعودية.
ـ الرسالة: الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي.
ـ رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة حوار حول الحوار: محمد إبراهيم الفيومي، ط. ١٩٨١ م عالم الكتب، القاهرة.
ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام: تقي الدين أحمد بن تيمية، ط. الثالثة، المكتبة السلفية، القاهرة.
ـ رياض الصالحين: لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط. الرابعة ١٤٠١ هـ، دار المأمون للتراث، دمشق.
ـ زاد المسير: ابن الجوزي، ط. الثالثة ١٤٠٤ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

ـ زاد المعاد: ابن قيم الجوزية، ط. الثانية ١٤٠١ هـ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت.
ـ زبدة التفسير: محمد سليمان عبد الله الأشقر، ط. الثانية ١٤٠٨ هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثانية ١٣٩٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
ـ سنن ابن ماجه: الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر للطباعة والنشر.
ـ سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، السجستاني الأزدي، ط. ١٤٠٨ هـ، دار الجيل، بيروت.
ـ سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ط. الثانية ١٣٩٧ هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، مصر.
ـ سنن النسائي بشرح السيوطي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ط. الثالثة ١٤٠٩ هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
ـ السنن الكبرى البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط. الأولى ١٣٥٤ هـ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، الهند.
ـ سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط. الثامنة ١٤١٢ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
ـ السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة: أبو القاسم، هبة الله بن حسن بن منصور الطبري اللالكائي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

ـ شرح الأربعين النووية: ابن دقيق العيد، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة.
ـ شرح السنة: للإمام المحدث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي، ط. الثانية ١٤٠٣ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي، ط. الثانية ١٤٠٨ هـ، مكتبة المؤيد، الطائف.
ـ شرح الكوكب المنير: محمد بن أحمد بن عبد العزيز الحنبلي المعروف بابن النجار تحقيق د. محمد الزحيلي ود.نزيه حماد، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، مطابع جامعة أم القرى، مكة.
ـ شمائل الرسول ﷺ: الحافظ ابن كثير، ط. الثانية ١٤٠٩، دار القبلة للثقافة الإسلامية، السعودية.
ـ الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، ط. الثالثة ١٤٠٤ هـ، دار العلوم للملايين، بيروت.
ـ صحيح ابن خزيمة: لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ط. الثانية ١٤٠١ هـ، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض.
ـ صحيح ابن حبان.
ـ صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط. الخامسة ١٤٠٦ هـ، عالم الكتب، بيروت.
ـ صحيح البخاري بشرح الكرماني: محمد بن يوسف الكرماني، مؤسسة المطبوعات الإسلامية، مصر.
ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثانية ١٤٠٦ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ صحيح مسلم: أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ صحيح مسلم بشرح النووي: محيي الدين أبو زكريا يحيى ابن شرف بن مري الخزامي النووي.
ـ صحيح سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٧، مكتب الإسلامي، بيروت.
ـ صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ صحيح سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ صحيح سنن النسائي: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ صور من حياة الصحابة: عبد الرحمن رأفت الباشا، ط. السادسة مؤسسة الرسالة ودار النفائس، بيروت.
ـ صيد الخاطر: ابن الجوزي، راجعه وحققه. علي وناجي الطنطاوي، ط. الرابعة ١٤٠٧ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثانية ١٣٩٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ ضوابط المعرفة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط. الثانية ١٤٠١ هـ، دار القلم، بيروت.
ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني، إدارة الطباعة المنيرية، بيروت.
ـ عون الباري لحل أدلة البخاري: لأبي الطيب صديق حسن علي الحسين القنوجي البخاري، دار الرشيد، حلب، سوريا.
ـ العواصم من القواصم: القاضي أبو بكر بن العربي، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت.
ـ عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ الغرباء الأولون: سلمان بن فهد العودة، ط. الأولى ١٤١٠ هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
ـ غريب الحديث: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط. الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ فتاوى ابن تيمية: جمع: عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، دار مكتبة ابن تيمية لطباعة ونشر الكتب السلفية.
ـ فتح الباري. شرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
ـ فتح البيان: صديق حسن خان، ط. ١٣٠١ هـ مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
ـ فتح القدير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط. ١٤٠٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
ـ فقه السيرة: محمد الغزالي. تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط. السابعة ١٩٧٦ م، دار الباز.
ـ فراسة المؤمن: إبراهيم بن عبد الله الحازمي، ط. ١٤١٢ هـ، دار الشريف للنشر والتوزيع.
ـ الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري ضبطه وحققه، حسام الدين القدسي، ط. ١٤٠١ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ فن الخطابة: دايل كارنيجي، ط. الثانية ١٩٨٦ م، دار ومكتبة الهلال بيروت، لبنان.
ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، ط. الحادي عشرة ١٤٠٥ هـ، دار الشروق، القاهرة.
ـ القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
ـ القصص في الحديث النبوي: محمد بن حسن الزير، ط. الثانية ١٤٠٠ هـ، دار اللواء، الرياض.

ـ قل إنما أعظكم بواحدة: عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض.
ـ كتابة البحث العلمي صياغة جديدة: د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، ط. الثالثة ١٤٠٨ هـ، دار المعرفة، بيروت.
ـ الكشاف: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ط. الأخيرة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة.
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: شهاب الدين النجفي المرعشي، مكتبة المثني، بغداد.
ـ كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس: ديل كارنيجي، دار الندوة الجديدة، بيروت.
ـ لسان العرب: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت.
ـ لمحات في فن القيادة: ج. كورتوا، تعريب: المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط. ١٤٠٦ هـ، مؤسسة المعارف، بيروت.
ـ مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ مختصر تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ط. الأولى ١٤٠٤ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ مختصر منهاج القاصدين: ابن قدامة المقدسي، تعليق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط. ١٣٩٨ هـ مؤسسة علوم القرآن للطباعة والنشر، بيروت.
ـ مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب، ط. الرابعة ١٤٠٩ هـ، دار الشروق، القاهرة.

ـ مذكرة أصول الفقه: محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، المكتبة السلفية، المدينة.
ـ المسند: أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، ط. الرابعة دار المعارف، مصر.
ـ المسند: أحمد بن محمد بن حنبل، ط. الرابعة المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ المستدرك: الحافظ ابن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.
ـ مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ط. ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: شهاب الدين البوصيري، تحقيق: محمد المنتقي الكشناوي، ط. الأولى ١٤٠٣ هـ، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت.
ـ المصباح المنير: أحمد بن محمد المقري، ط. ١٩٨٧ م، مكتبة لبنان، بيروت.
ـ المصنف: عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: الأعظمي، ط. الأولى المجلس العلمي، الهند.
ـ معالم الانطلاقة الكبرى: محمد عبد الهادي المصري، ط. الرابعة/ دار طيبة للنشر والتوزيع.
ـ معالم التنزيل: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ط. الثانية ١٣٧٥ هـ، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
ـ معالم في الطريق: سيد قطب، ط. الثالثة ١٤٠٣ هـ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، مصر.

ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: الاتحاد الأممي للمجامع العلمية، ط. ١٩٦٧ م، مطبعة بريل في مدينة ليدز.
ـ مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد الرازي، ط. الأولى ١٣٠٨ هـ، مطبعة الإمام، بمصر.
ـ مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية، ط. الثالثة ١٣٩٩ هـ، مكتبة حميد والإسكندرية.
ـ مقدمة في أصول التفسير: ش. الإسلام أحمد بن تيمية، مكتبة ابن تيمية لطباعة ونشر الكتب السلفية.
ـ مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم: محمد العبده وطارق عبد الحليم، دار الأرقم، الكويت.
ـ الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني .ت محمد سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
ـ مناظرة بين الإسلام والنصرانية: مجموعة من العلماء، ١٤٠٧ هـ، رئاسة إدارات البحوث العلمية.
ـ مناقب الشافعي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت. السيد أحمد صقر، ط. الأولى ١٣٩١ هـ، مكتبة دار التراث، مصر.
ـ مناهج الجدل: د. زاهر عواض الألمعي، ط. الثالثة ١٤٠٤ هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
ـ منع جواز المجاز: محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
ـ موارد الظمآن: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـ الموافقات في أصول الأحكام: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
ـ الموطأ: الإمام مالك بن أنس، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، دار الريان للتراث، مصر.

ـ نزهة الفضلاء: محمد حسن عقيل موسى، ط. الأولى ١٤١١ هـ، دار الأندلس للنشر والتوزيع، جدة.
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات، «ابن الأثير» ت: طاهر زواوي ومحمود الطناحي، دار الباز، مكة المكرمة.
ـ نيل الأطار: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط. ١٩٧٣ م، دار الجيل، بيروت.
ـ وإذا قلتم فاعدلوا: عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض.
ـ ويكون الدين كله لله: د. محمد بن سعيد القحطاني، ١٤١١ هـ.

المقالات في الصحف والمجلات والنشرات

- الاجتهاد ليس مباحاً لكل أحد: د. صالح الفوزان، مجلة اليمامة (١١٣٥)/ ٢، جمادى الآخرة ١٤١١ هـ.
- أدب الحوار: أحمد كمال أبو المجد، مجلة المسلم المعاصر (٣) رجب ١٣٩٥ .
- أدب الحوار: السيد تقي الدين، مجلة المنهل (٤٣٠) محرم وصفر ١٤٠٥ هـ .
- أدب الحوار ـ المقومات ـ السلبيات: ندوة مشتركة، رسالة جامعة الملك سعود (٤٤٨) ذو القعدة ١٤١١ هـ .
- أسس الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى: صلاح الصاوي، مجلة الدراسات الإسلامية (٣) رمضان ١٣٩٥ هـ .
- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: عبد الحليم حفني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية (٣٢) ١٩٨٨ م .
- الحوار «ملحق»: ندوة مشتركة، مجلة الفيصل (١٨٨) .
- الحوار بين الأديان: أنور الجندي، منار الإسلام (٣) ربيع الأول ١٤٠٨ هـ .
- الحوار نافذة من نور: عمر بهاء الدين، المسلم المعاصر (١ـ ٢) ربيع الأول والثاني ١٣٩٥ هـ .
- الحوار والمعادلة المفقودة: محمد الصالح عزيز، مجلة الأمة (٦٢) صفر ١٤٠٦ هـ .

ـ قضية الحوار كمبدأ في الإسلام: ندوة مشتركة، صحيفة الشرق الأوسط (٤٥٤٧ ـ ٤٥٥٣).
ـ قضية القضايا وبقية القضايا: د. غازي القصيبي، صحيفة الشرق الأوسط (٤٣٧١) ١٦ـ ١١ـ ١٩٩٠ م.
ـ القيادة في الإدارة الإسلامية: د. عبد الرحمن إبراهيم الصحايا، مجلة الخدمة المدنية رقم ١١٧ .
ـ المجازفة في القول جرتك إلى تقليد بعض الكتاب الجهال: د. صالح الفوزان، مجلة اليمامة (١١٦٨) ١١ صفر ١٤١٢ هـ .
ـ من آداب الاجتهاد والاختلاف في الإسلام: د. غازي القصيبي، مجلة اليمامة (١١٣٣) ١٨ جمادى الأولى ١٤١١ هـ.
ـ مناقشة ابن عباس للخوارج دروس وعبر: معن عبد القادر، مجلة البيان (١٢) شوال ١٤٠٨ هـ.
ـ لقد حملوا على «عباد الله» وقسموا الناس إلى فريقين: د. عبد الله الحامد، مجلة اليمامة (١١٦٤)١٤ محرم ١٤١٢ هـ.
ـ لم تعهدني فقيهاً ولكن تعال نتحاور: د. عبد الله الحامد، مجلة اليمامة (١١٨١) ١٤ جمادى الأولى ١٤١٢ هـ.

أشرطة ومحاضرات

- آداب السؤال للشيخ سلمان بن فهد العودة.
- أدب الحوار للشيخ سلمان بن فهد العودة.
- أدب الحوار للشيخ أحمد الصويان.
- أعذار العلماء للشيخ سلمان بن فهد العودة.
- الإنصاف في أدب الخلاف، الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
- الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه، الشيخ سلمان العودة.
- الخلاف في الفرع لا يسبب خلاف، الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام.
- فن التعامل مع الناس، الدكتور عبد الله مبارك الخاطر.
- كيف تسأل أهل العلم، الشيخ محمد صالح المنجد.
- ما يجوز وما لا يجوز الاختلاف فيه، الشيخ محمد الحسيني.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
القسم الأول: تمهيد	١٥
الباب الأول: مدخل إلى الحوار	١٧
المبحث الأول: تعريفات: الحوار، الجدال، المناظرة، المحاجة، ودلالاتها اللغوية والشرعية، والفروق بينها	١٩
المبحث الثاني: أهمية الحوار وأهدافه	٣٢
أهمية الحوار	٣٢
أهداف الحوار	٤٢
المبحث الثالث: بين يدي الموضوع وفيه:	٤٨
أ ــ أصول وقواعد في موضوع الحوار	٤٨
(١) أصل الموضوع في القرآن	٤٨
(٢) أصول وقواعد مهمة في موضوع الحوار	٥٦
ب ــ حكم الجدال والحوار	٦٠
ج ــ أركان الحوار	٧١
١ ــ شروط المحاور المسلم	٧٢
٢ ــ شروط المحاور غير المسلم	٧٣
٣ ــ موضوعات الحوار	٧٥
المبحث الرابع: الكلمة الطيبة وعلاقتها بالحوار	٨٦

الموضوع	الصفحة

المبحث الخامس: الكلام عن الخلاف وأنواعه وعلاقته بالحوار وفيه: ٩٥
١ ــ علاقة الخلاف بالحوار ٩٥
٢ ــ أنواع الخلاف ٩٧
٣ ــ أسباب الاختلاف ٩٨
٤ ــ ضرورة وجود الخلاف مع التحذير منه شرعاً، والتوفيق بين ذلك ١٠٧
القسم الثاني: آداب الحوار ١١٣
الباب الثاني: آداب الحوار النفسية ١١٥
المبحث الأول: تهيئة الجو المناسب ١١٧
المبحث الثاني: الإخلاص وصدق النية ١٣١
المبحث الثالث: الإنصاف والعدل، والتفريق بين الفكرة وصاحبها ١٤١
المبحث الرابع: التواضع وحسن الخلق ١٦١
المبحث الخامس: الحلم والصبر ١٨٢
المبحث السادس: الرحمة والشفقة بالخصم، والحرص على إقناعه ٢٠٢
المبحث السابع: العزة والثبات على الحق ٢٢١
المبحث الثامن: حسن الاستماع ٢٣٦
المبحث التاسع: المحبة رغم الخلاف ٢٤٧
المبحث العاشر: الهدوء والثقة بالنفس ٢٥٩
المبحث الحادي عشر: احترام الطرف الآخر ٢٦٥
المبحث الثاني عشر: الجرأة والغضب لنصرة الحق ٢٦٩
الباب الثالث: آداب الحوار العلمية ٢٧٥
المبحث الأول: العلم ٢٧٧

الموضوع	الصفحة

المبحث الثاني: البدء بالنقاط المشتركة وتحديد مواضع الاتفاق / ٢٨٨
المبحث الثالث: التدرج والبدء بالأهم ٢٩٦
المبحث الرابع: الدليل ٣٠٩
المبحث الخامس: الوضوح والبيان ..... / ٣٢٥
المبحث السادس: الصدق والأمانة ٣٣٣
المبحث السابع: التثبت ٣٤٣
المبحث الثامن: الرد على الشبه بما يناسبها ..... / ٣٥١
المبحث التاسع: ضرب الأمثلة ٣٦٤
المبحث العاشر: العدول عن الإجابة باستخدام المعاريض وأسلوب الحكيم ٣٧٤
المبحث الحادي عشر: تأكيد القضية وتقريرها ٣٨٢
المبحث الثاني عشر: الرجوع إلى الحق والتسليم بالخطأ .... / ٣٩٥
المبحث الثالث عشر: الاحتمالات ٤١١
المبحث الرابع عشر: التحدي والإفحام وإقامة الحجة على الخصم ٤١٦
الباب الرابع: آداب الحوار اللفظية ٤٢٥
المبحث الأول: العبارة المناسبة وحسن العتاب ٤٢٩
المبحث الثاني: التذكير والوعظ ٤٣٨
المبحث الثالث: التعريض والتلميح بدل التصريح ..... / ٤٤٥
المبحث الرابع: أدب السؤال ٤٥٢
المبحث الخامس: ذكر المبررات عند الاعتراض ٤٥٩
المبحث السادس: طلب الإنظار وعدم الاستعجال ..... / ٤٦٢
المبحث السابع: ثناء المحاور على نفسه أو على خصمه بالحق ٤٦٥
المبحث الثامن: مباغتة الخصم وقطع الطريق عليه ..... / ٤٧٠
المبحث التاسع: محاذير لفظية ٤٧٥

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس: آداب ومباحث عامة تتعلق بالحوار ٤٧٩
المبحث الأول: الوقت المناسب ٤٨١
المبحث الثاني: التزام المحاور بما يدعو إليه ٤٨٦
المبحث الثالث: الفراسة وحسن التصرف ٤٩٠
المبحث الرابع: مراعاة الأفهام والعقول ٤٩٤
المبحث الخامس: الحذر والمداراة ٤٩٩
المبحث السادس: توقع المخالفة برغم الاقتناع ٥٠٣
المبحث السابع: قواعد وطرق في الاستدلال ٥٠٦
المبحث الثامن: محاذير عامة ٥١١
المبحث التاسع: مناظرات وحوارات (نماذج تطبيقية) ٥١٦
الخاتمة ٥٣٣
١ ــ أهم النتائج ٥٣٥
٢ ــ المقترحات ٥٣٧
قائمة المراجع ٥٣٩
فهرس الموضوعات ٥٥٧